

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والصلبيّة

المصادر العربية
مؤرخو القرن الثامن

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

الجزء الثاني والعشرون

مؤرخو القرن الثامن

١ — أبو الفداء

٢ — نهاية الأرب

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمت الاشارة في توطئة الجزء السالف الى حماء وظهور عدد من المؤرخين البارزين فيها كان من بينهم أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل ابن علي بن محمود بن محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وولد أبو الفداء بدمشق سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م، وكان أهله قد جفلوا إليها قادمين من حماء خوفا من المغول، لكنه نشأ بحماه وفيها نال ثقافته وتدرج بالمناصب السياسية والعسكرية حتى وصل الى منصب سلطنة حماء وملكها سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م.

كانت علاقات أبي الفداء ممتازة بسلاطين المماليك بالقاهرة لاسيما مع الناصر محمد بن قلاوون ، وقد زار القاهرة أكثر من مرة، وشارك في عدد كبير من الحملات العسكرية، ولكن مصدر شهرته ليس هذا بل ما صنفه بالتاريخ والجغرافيا، وحمل مصنفه بالجغرافيا اسم « تقويم البلدان » وهو كتاب تام مكتمل يمتاز بالأصالة بالتوبيب والوضوح، ولاقى هذا الكتاب رواجاً عظيماً ، فترجم وطبع اكثر من مرة في أوروبا.

ويعد كتاب « المختصر في أخبار البشر » أهم ما كتبه ابو الفداء في ميدان التاريخ وكتب أبو الفداء هذا الكتاب كتذكرو لنفسه اختصر فيها بشكل اساسي ما اودعه ابن الأثير في كامله، ثم وصل أخباره حتى

عصره وطبعاً هذا أهم ما في الكتاب، ولاقى هذا الكتاب رواجاً وشهرة واسعة، وطبع أكثر من مرة ولا أعرف له طبعة علمية لائقة، وعرفت من مخطوطاته مخطوطة البودليان فقط، وأتمنى أن تتاح لي الفرصة لتحقيق هذا الكتاب ونشره بشكل علمي لائق.

لقد انتزعت من كتاب المختصر المواد التي تتعلق بالحروب الصليبية، وهي بالنسبة لي الآن أهم ما في الكتاب لاسيما أخبار الحوادث التي وقعت بعد وفاة ابن الأثير، وجل هذه الحوادث أسهم فيها أبو الفداء فهو قد شارك في تحرير عكا من قبل الأشرف خليل فضلاً عن إسهامه في وقائع أخرى.

وكان من مزايا العصر المملوكي الثقافي ظهور عدد كبير من الكتب الموسوعية كان من أشهرها «نهاية الأرب في علم الأدب» للنويري، والنويري هو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، وشهر بالنويري نسبة إلى نوية، وهي قرية من قرى بني سويف في أرض الكنانة، ولد سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٨ م، وحسب بعض الروايات كانت ولادته سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ذلك أنه توفي سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م وهو من أبناء الخمسين.

نال النويري ثقافة جيدة، عمل في الوراق، بحيث كان ينسج بخط يده الكتب ويبيعها، حتى أنه نسخ صحيح البخاري ثمانى مرات، وكان خطه من الجودة والضبط بمكان.

ويأتي النويري على رأس الموسوعيين العرب، وذلك من خلال كتابه العملاق «نهاية الأرب في علم الأدب» وجاء هذا الكتاب في ثلاثين مجلدة، نشر في القاهرة جلها ومن المنتظر استكمال نشره.

وكان قد سلف لي منذ عام ١٩٦٧ الحصول على مصورة عدة أجزاء من كتاب نهاية الأرب منها ما تعلق بأخبار الدولة الفاطمية ، ومنها ما ارتبط بتاريخ السلاجقة والأيوبيين والمماليك، وتقدم لي نشر بعض مواد النويري في كتابي « الجامع في أخبار القرامطة ».

والمواد التي أقدمت الآن على نشرها في موسوعتنا سلف ونشرت في ثنايا مجلدات نهاية الأرب، وأعدت نشرها للفادة من موادها ، ولإزالة ماحوته المنشورات من تصحيفات لاسيما بالأسماء الشامية.

من الله تعالى أرجو التوفيق والعون وله جل وعلا عظيم الشكر

والحمد ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ١٣ جمادى الأولى ١٤١٦ هـ

١٩٩٥/١٠/٧ م

سهيل زكار

obeikandi.com

من كتاب المختصر في أخبار البشر لعماد الدين اسماعيل
أبي الفداء

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر قتل الصالح بن رزيك

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة في رمضان قتل ابو الغارات طلائع ابن رزيك الأرمني ، وزير العاضد العلوي جهزت عليه عمه العاضد من قتله وهو داخل في القصر بالسكاكين ، ولم يمت في تلك الساعة بل حمل الى بيته وأرسل يعتب على العاضد فأرسل العاضد اليه يحلف له أنه لم يرض ولا علم بذلك، وأمسك العاضد عمته وأرسلها الى طلائع فقتلها، وسأل العاضد أن يولي ابنه رزيك الوزارة ، ولقب العادل ومات طلائع واستقر ابنه العادل رزيك في الوزارة

ذكر ولاية شاور ثم الضرغام

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة في صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوي وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزيك فولاه الصعيد، وكانت ولاية الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة، ولما جرح الصالح أوصى ابنه العادل ان لا يغير على شاور شيئا لعلمه بقوة شاور. ولما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب إلى شاور بالعزل، فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل إلى القاهرة، فهرب العادل وطرد وراء شاور وأمسكه وقتله، وهو العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، وانقرضت بقتله دولة بني رزيك، واستقر شاور في الوزارة، وتلقب بأمر الجيوش، وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم، ثم إن الضرغام جمع جمعا، ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان فقوي على شاور، فانهزم شاور إلى

الشام مستنجدا بنور الدين، ولما تمكن الضرغام من الوزارة قتل كثيرا من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد، فضعفت الدولة بهذا السبب، حتى خرجت البلاد من أيديهم

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

وفي هذه السنة سير نور الدين محمود بن زنكي عسكرا مقدمهم أسد الدين شيركوه بن شاذي الى الديار المصرية ومعهم شاور، وكان قد سار من مصر هاربا من الضرغام الوزير فلحق شاور بنور الدين واستنجده، وبذل له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها . إن أعاده إلى الوزارة، فأرسل نور الدين شيركوه إلى مصر، فوصل إليها وهزم عسكر ضرغام عند قبر السيدة نفيسة، وأعاد شاور إلى وزارة العاضد العلوي، ثم غدر شاور بنور الدين ولم يف له بشيء مما شرط، فسار شيركوه واستولى على بلبس والشرقية، فأرسل شاور استنجد الأفرنج على إخراج أسد الدين شيركوه من البلاد، فسار الأفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر، وحاصروا شيركوه ببلبس، ودام الحصار ثلاثة أشهر وبلغ الأفرنج حركة نور الدين، وأخذ حارم، فراسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له فخرج من بلبس بمن معه من العسكر، وسار بهم ووصلوا الى الشام سالمين.

وفي هذه السنة في رمضان فتح نور الدين محمود حارم وأخذها من الأفرنج بعد مصاف جرى بين نور الدين والأفرنج انتصر فيه نور الدين، وقتل وأسر عالما كثيرا، وكان من جملة الأسرى البرنس صاحب انطاكية والقومص صاحب طرابلس، وغنم منهم المسلمون شيئا كثيرا .

وفي هذه السنة أيضا في ذي الحجة سار نور الدين إلى بانياس وفتحها وكانت بيد الأفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلى هذه السنة .

ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة

وفيها فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الأفرنج

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

وفيها عاد أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية، وجهزه نور الدين بعسكر جيد عدتهم ألف فارس، فوصل إلى ديار مصر واستولى على الجيزة، وأرسل شاور إلى الأفرنج واستنجدهم وجمعهم وساروا في إثر شيركوه إلى جهة الصعيد، والتقوا على بلد يقال له البابين، فانهزم الأفرنج والمصريون واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها، ثم سار إلى الاسكندرية وملكها وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعاد شيركوه إلى جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والأفرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة أشهر، فسار شيركوه إليهم واتفقوا على الصلح على مال يحملونه إلى شيركوه ويسلم إليهم الاسكندرية ويعود إلى الشام، فتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال من هذه السنة، وسار شيركوه إلى الشام، فوصل إلى دمشق في ثامن عشر ذي القعدة، واستقر الصلح بين الأفرنج والمصريين على أن يكون للأفرنج بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار .

وفي هذه السنة فتح نور الدين صافيتا والعريمة، وفيها عصى غازي ابن حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج ، فسير إليه عسكرا أخذوا منه منبج ثم أقطع نور الدين منبج قطب الدين ينال بن حسان أخا غازي المذكور، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

وفيها ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي، وكانت بأيديهم من أيام السلطان ملكشاه، ولم يقدر نور الدين على أخذها إلا بعد أن أسر صاحبها وأحضره إلى نور الدين، واجتهد به على تسليمها فلم يفعل، فأرسل عسكرا مقدمهم فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني وأردفه بعسكر آخر مع مجد الدين أبي بكر المعروف بابن الداية، وكان رضيع نور الدين، وحصروا قلعة جعبر، فلم يظفروا منها بشيء، وما زالوا على صاحبها مالك حتى سلمها وأخذ عنها عوضا مدينة سروج بأعمالها والملاحة من بلد حلب، وعشرين ألف دينار معجلة وباب بزاعة

ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور ثم ملك صلاح الدين وهو ابتداء الدولة الأيوبية

وفي هذه السنة أعني سنة أربع وستين وخمسمائة، في ربيع الأول، سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى ديار مصر، ومعه العساكر النورية، وسبب ذلك تمكن الأفرنج من البلاد المصرية وتحكمهم على المسلمين بها، حتى ملكوا بلبيس قهرا في مستهل صفر من هذه السنة ونهبوها، وقتلوا أهلها وأسروهم، ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها، فأحرق شاور مدينة مصر خوفا من أن يملكها الأفرنج وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوما، فأرسل العاضد إلى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الأفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم، فحمل إليهم مائة ألف دينار، وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال وتحصيله، فرحلوا، وجهاز نور الدين العسكر مع شيركوه، وأنفق فيهم المال وأعطى شيركوه مائتي ألف

دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة، وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بيته. وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) (البقرة ٢١٦) ولما قارب شيركوه مصر رحل الأفرنج من ديار مصر على أعقابهم إلى بلادهم، فكان هذا لمصر فتحاً جديداً، ووصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة في رابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالقلعة العاضدية، وأجرى عليه وعلى عسكره النفقة الوافرة وشرع شاور يياطل شيركوه فيما كان بذله لنور الدين من تقرير المال وإيراد ثلث البلاد، ومع ذلك فكان شاور يركب كل يوم إلى أسد الدين شيركوه ويعذه ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) (النساء ١٢٠)، ثم إن شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك، ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك عزموا على الفتك بشاور واتفقوا على ذلك صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما، وعرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه، واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته فلم يجده في المخيم، وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، فلقي صلاح الدين وجرديك شاور وأعلماه برواح شيركوه إلى زيارة الشافعي، وساروا جميعاً إلى شيركوه فوثب صلاح الدين وجرديك على شاور وألقياه إلى الأرض عن فرسه، وأمسكاه في سابع ربيع الآخر من هذه السنة فهرب أصحابه عنه وأرسلوا أعلماً شيركوه بما فعلاه، فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ذلك، وسمع العاضد الخبر فأرسل إلى شيركوه يطلب منه إنفاذ رأس شاور، فقتله وأرسل إلى العاضد، ودخل بعد ذلك القصر عند العاضد فخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلع إلى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر، وكتب له منشوراً، أوله بعد البسملة : «من عبد الله ووليه أبي محمد الإمام

العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة أسد الدين أبي الحارث شيركوه العاضدي عضد الله به الدين، وأمتع الله بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سلام عليك.

إنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلي على محمد وآله الطاهرين، والأئمة المهديين ويسلم تسليماً ثم ذكر تفويض أمور الخلافة إليه، ووصايا أضر بنا عنها للإختصار، وكتب العاضد بخطه على ظهر المنشور: « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الافتخار بأن اعتزت خدمتك إلى النبوة »

ومدحت الشعراء أسد الدين، ووصل إليه من الشام مديح العماد الكاتب قصيدة أولها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحه التعب
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من
نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا ببركضهم
من المدى في العلاما حزت بالخبب
ملكنت من ملك مصر رتبة قصر
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
قد أمكنت اسد الدين العزيمة من
فتح البلاد فبادر نحوها وثب

في شيركوه وقتله شاور يقول عرقلة الدمشقي :
لقد فاز بالملك العظيم خليفة
له شيركوه العاضدي وزير

هو الأسد الضاري الذي جل خطبه
وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطفى حتى لقد قال صحبه
على مثله أكان اللعين يدور
فلأرحم الرحمن ترربة قبره .
ولا زال في منه منكرونيكير

أما الكامل ابن شاور لما قتل أبوه فقد دخل القصر، فكان آخر العهد به .

ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع أتاه أجله (حتى اذا فرحوا بما
أوتوا أخذناهم بغتة) (الأنعام ٤٤) وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من
جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة
أيام ، وكان شيركوه وأيوب ابنا شادي من بلد دوين .

قال ابن الأثير وأصلهما من الأكراد الروادية، فقصدا العراق، وخرجا
بهروز شحنة السلجوقية ببغداد ، وكان أيوب أكبر من شيركوه، فجعله
بهروز مستحفظا قلعة تكريت ولما انكسر عماد الدين زنكي من
عسكر الخليفة ، ومر على تكريت خدمه أيوب وشيركوه، ثم ان شيركوه
قتل انسانا بتكريت، فأخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عماد
الدين زنكي وأحسن إليهما وأعطاهما إقطاعات جميلة ، ولما ملك قلعة
بعلبك جعل أيوب مستحفظا لها ولما حاصر عسكر دمشق بعلبك بعد
موت زنكي سلمها أيوب لهم على إقطاعات كثيرة شرطوها له، وبقي
أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق ، وبقي شيركوه مع نور الدين محمود
بعد موت أبيه زنكي، وأقطعه نور الدين حمص والرحبة لما رأى من
شجاعته وزاده عليها، وجعله مقدم عسكره ، فلما أراد نور الدين ملك
دمشق أمر شيركوه فكاتب أخاه أيوب، فساعد أيوب نور الدين على

ملك دمشق، وبقياً مع نور الدين إلى أن أرسل شيركوه إلى مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها، وتوفي في هذه السنة على ما ذكرنا

ولما توفي شيركوه، وكان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب بن شادي، وكان قد سار معه على كره. قال صلاح الدين أمرني نور الدين بالمسير مع عمي شيركوه بحضرته : يا يوسف تجهز للمسير، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية ما لا أنساه أبداً، فقال لنور الدين: لا بد من مسيره معي، فأمرني نور الدين وأنا أستقيل، فقال نور الدين لا بد من مسيرك مع عمك ، فشكوت الضائقة، فأعطاني ما تجهزت به، فكانها أساق إلى الموت.

ولما مات شيركوه طلب جماعة من من الأمراء النورية التقدم على العسكر، وولاية الوزارة العاضدية، منهم : عين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال المنبجي، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، فأرسل العاضد أحضر صلاح الدين وولاه الوزارة، ولقبه بالملك الناصر، فلم يطعه الأمراء المذكورون، وكان مع صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري، فسعى إلى المشطوب حتى أماله إلى صلاح الدين ، ثم قصد الحارمي، وقال: هذا ابن اختك، وعزه وملكه لك فما ل إليه أيضاً، ثم فعل بالباقيين كذلك، فكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقي فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف، وعاد إلى نور الدين بالشام، وثبتت قدم صلاح الدين على انه نائب نور الدين، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأسفهلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه، وكان لا يفرد بكتاب بل يكتب إلى الأمير صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا .

ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله،

فأرسلهم إليه نور الدين، فأعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله، فأرسلهم إليه نور الدين، فأعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر، وتمكن من البلاد، وضعف أمر العاضد، ولما فوض الأمر إلى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص لباس الجدد، ودام على ذلك إلى أن توفاه الله تعالى.

قال ابن الأثير مؤلف كتاب الكامل : رأيت كثيرا ممن ابتدأ الملك ينتقل إلى غير عقبة ، فإن معاوية تغلب وملك فانتقل الملك إلى بني مروان بعده، ثم ملك السفاح من بني العباس، فانتقل الملك إلى عقب أخيه المنصور، ثم السامانية أول من ابتدى بالملك نصر بن أحمد، فانتقل الملك إلى أخيه إسماعيل وعقبة، ثم عماد الدولة بن بويه ملك فانتقل الملك إلى عقب أخيه ركن الدولة، ثم ملك طغريل السلجوقي فانتقل ملكه إلى عقب أخيه ، ثم شيركوه ملك فانتقل الملك إلى ابن أخيه

ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه بل انتقل إلى أخيه العادل وعقبه، ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب، وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى أولا، وأخذ الملك وعيون أهله وقلوبهم متعلقة به فيحرم عقبة ذلك .

ولما استقر قدم صلاح الدين في الوزارة قتل مؤتمن الخلافة، وكان مقدم السودان، فاجتمعت السودان، فهم حفاظ القصر، في عدد كثير وكان بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين، انهزم فيها السودان وقتل منهم خلق كثير، وتبعهم صلاح الدين فأجلاه قتلًا وتهجيًا، وحكم صلاح الدين على القصر، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي، وكان خصيا أبيض، وبقي لا يجري في القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين .

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

فيها سارت الأفرنج إلى دمياط وحصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وأخرج على ذلك أموالا عظيمة، فحصروها خمسين يوما، وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام، فرحلوا عائدين على أعقابهم ولم يظفروا بشيء منها. قال صلاح الدين: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلي مدة إقامة الأفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية، سوى الثياب وغيرها .

وفيها سار نور الدين وحاصر الكرك مرة ثم رحل عنه. وفيها كانت زلزلة عظيمة خربت الشام ، فقام نور الدين في عمارة الأسوار وحفظ البلاد أتم قيام، وكذلك خربت بلاد الأفرنج، فخافوا من نور الدين، واشتغل كل منهم عن قصد الآخر بعمارة ما خربت من بلادهم

وفيها في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل، وكان مرضه حمى حادة، ولما مات صرف أرباب الدولة الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود إلى أخيه الذي هو أصغر منه، وهو سيف الدين غازي بن مودود، فسار عماد الدين زنكي إلى عمه نور الدين مستنصرا به، وتوفي قطب الدين وعمره أربعون سنة تقريبا، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف، وكان من أحسن الملوك سيرة

وفي سنة ست وستين

سار نور الدين محمود بن زنكي إلى الموصل وهي بيد أخيه غازي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر، فاستولى عليها نور الدين وملكها، ولما ملك نور الدين الموصل قرر أمرها، وأطلق المكوس منها، ثم وهبها لابن أخيه سيف الدين غازي، وأعطى سنجار لعماد الدين وهو

أكبر من أخيه، فقال كمال الدين الشهرزوري: هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكي لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة أخيه سيف الدين، وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين، فيحصل الخلف وتطمع الأعداء.

وفي هذه السنة سار صلاح الدين من مصر فغزا بلاد الأفرنج قرب عسقلان والرملة، وعاد إلى مصر، ثم خرج إلى إيلة وحصرها، وهي للأفرنج على ساحل البحر الشرقي، ونقل إليها المراكب وحصرها برا وبحرا وفتحها في العشر الأول من ربيع الآخر، واستباح أهلها وما فيها، وعاد إلى مصر .

ولما استقر صلاح الدين بمصر كان بمصر دار الشحنة تسمى دار المعونة يجبس فيها فهدمها صلاح الدين وبنها مدرسة للشافعية، وكذلك دار العزل مدرسة للشافعية، وعزل قضاة المصريين، وكانوا شيعة ورتب قضاة شافعية، وذلك في العشرين من جمادى الآخرة، وكذلك اشترى تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين منازل العز، وبنها مدرسة للشافعية

ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

وفيها ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله، وكان سبب الخطبة العباسية بمصر، أنه لما تمكن صلاح الدين بمصر وحكم على القصر، وأقام فيه قراقوش الأسدي وكان خصيا أبيض، وبلغ نور الدين ذلك أرسل إلى صلاح الدين حتما جزما بقطع الخطبة العلوية وإقامة الخطبة العباسية، فراجع صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة، فلم

يلتفت نور الدين إلى ذلك، وأصر عليه وكان العاضد قد مرض فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضيء، ويقطعوا خطبة العاضد فامثلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته، وتوفي العاضد يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع خطبته

ولما توفي العاضد جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه، وكانت كثرته تخرج عن الاحصاء، وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق الثمينة والكتب والتحف، فمن ذلك الجبل الياقوت، وكان وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا

قال ابن الأثير مؤلف الكامل: أنا رأيته ووزنته، ومما خكي أنه كان بالقصر طبل للقولنج إذا ضرب الانسان به شرط فكسر، ولم يعلموا به إلا بعد ذلك، ونقل صلاح الدين أهل العاضد إلى موضع من القصر، ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من عبد وأمة فباع البعض، وأعتق البعض، وذهب البعض، وخلا القصر من سكانه، وكان لم يغن بالأمس.

ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه، فظن ذلك خديعة ولم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه فندم لتخلفه عنه، وجميع من خطب له منهم أربعة عشر خليفة: المهدي، والقائم، والمنصور، والمعز، والعزيز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والأمير، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد، وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدي بسلاجسة في ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد في هذه السنة أعني سنة سبع وستين وخمسمائة مائتان واثنان وسبعون سنة تقريبا، وهذا دأب الدنيا لم تعط إلا واستردت، ولم تحل إلا وتمرت. ولم تصف إلا وتكدرت. بل صفوها لم يخل من الكدر.

ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر إلى بغداد ضربت لها البشائر عدة أيام، وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل، وهو من خواص الخدم إلى نور الدين وصلاح الدين والخطباء، وسيرت الأعلام السود، وكان العاضد المذكور قد رأى في منامه أن عقرباً خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد للعاضد، ولدغته فاستيقظ العاضد مرعوباً واستدعى من يعبر الرؤيا وقص ما رآه عليه، فعبّر له بوصول أذى إليه من شخص بذلك المسجد فتقدم العاضد إلى والي مصر باحضار من بذلك المسجد، فأحضر إليه شخصاً صوفياً يقال له نجم الدين الخبوشاني، فاستخبره العاضد عن مقدمه، وسبب مقامه بالمسجد المذكور، فخبّره بالصحيح في ذلك، ورآه العاضد أضعف من أن يناله بمكرهه، فوصله بهال وقال له: ادع لنا يا شيخ وأمره بالانصراف، فلما أراد السلطان صلاح الدين إزالة الدولة العلوية والقبض عليهم استفتى في ذلك فأفتاه بذلك جماعة من الفقهاء، وكان نجم الدين الخبوشاني المذكور من جملتهم فبالغ في الفتيا وصرح في خطه بتعديد مساوئهم وسلب عنهم الايمان وأطال الكلام في ذلك، فصحت بذلك رؤيا العاضد .

وفي هذه السنة جرى بين نور الدين وصلاح الدين الدين الوحشة في الباطن: كان صلاح الدين سار ونازل الشوبك، وهي للأفرنج ثم رحل عنها خوفاً أن يأخذه فلا يبق ما يعوق نور الدين عن قصد مصر فتركه ولم يفتحه لذلك وبلغ نور الدين فكتمه وتوحش باطنه لصلاح الدين، ولما استقر صلاح الدين بمصر جمع أقاربه وكبراء دولته وقال: بلغني أن نور الدين يقصدنا فما الرأي ؟ فقال تقي الدين عمر ابن أخيه: نقاتله ونصده، وكان ذلك بحضرة أبيهم نجم الدين أيوب، فأنكر على تقي الدين ذلك، وقال: أنا والدكم لو رأيت نور الدين نزلت وقبلت الأرض بين يديه، بل اكتب وقل لنور الدين إنه لو جاءني من عندك انسان واحد، وربط المندبل في عنقي وجرتني إليك سارعت إلى ذلك، وانفضوا

على ذلك ، ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة، وقال له: لوقصدنا نور الدين أنا كنت أول من يمنعه ويقاقله، ولكن إن أظهرنا ذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ولا ندري ما يكون من ذلك، وإذا أظهرنا له الطاعة تمادى الوقت بما يحصل به الكفاية من عند الله فكان كما قال .

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

وفي هذه السنة سارت طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقي عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش إلى إفريقية، ونزل على طرابلس الغرب فحاصرها مدة، ثم فتحها واستولى عليها، وملك كثيرا من بلاد إفريقية.

وفيها سار نور الدين إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، واستولى على مرعش وبهسنا ومرزبان وسيواس فأرسل إليه قليج أرسلان يستعطفه ويطلب الصلح فقال نور الدين لا أرضى إلا بأن ترد ملطية على ذي النون بن الداشمند، وكان قليج أرسلان قد أخذها منه فبذل له سيواس، فاصطلح معه نور الدين فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان واستولى على سيواس وطرد ابن الداشمند

وفيها سار صلاح الدين من مصر إلى الكرك وحصرها وكان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك، وسار نور الدين من دمشق حتى وصل إلى الرقيم، وهو بالقرب من الكرك ، فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين، فرحل عن الكرك عائدا إلى مصر، وأرسل تحفا إلى نور الدين واعتذر بأن أباه أيوب مريض وخشي أن يموت، فتذهب مصر، فقبل نور الدين عذره في الظاهر وعلم المقصود.

ولما وصل صلاح الدين إلى مصر وجد أباه أيوب قد مات، وكان

سبب موت نجم الدين أيوب بن شاذي المذكور، أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه فوق وحمل إلى قصره، وبقي أياما ، ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وكان عاقلا حسن السيرة

ذكر ملك شمس الدين توران شاه بن أيوب اليمن

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

وكان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين، فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه، فإن هزمهم التجأوا إلى تلك المملكة، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه إلى النوبة فلم تعجبهم بلادها، ثم سيره في هذه السنة بعسكر إلى اليمن، وكان صاحب اليمن حينذاك انسانا يسمى عبد النبي، المقدم ذكره في سنة أربع وخمسين وخمسمائة، فتجهز توران شاه ووصل إلى اليمن وجرى بينه وبين عبد النبي قتال فانتصر فيه توران شاه، وهزم عبد النبي، وهجم زبيد وملكها وأسر عبد النبي، ثم قصد عدن وكان صاحبها اسمه ناشر، فخرج لقتال توران شاه ، فهجم عدن وملكها وأسر ناشر أيضا ، واستولى توران شاه على بلاد اليمن، واستقرت في ملك صلاح الدين، واستولى على أموال عظيمة لعبد النبي وكذلك من عدن.

ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمني

في هذه السنة في رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان المصريين فإنهم قصدوا الوثوب عليه وإعادة الدولة العلوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم ، فمنهم عبد الصمد الكاتب . والقاضي العويرس. وداعي الدعاة. وعمارة بن علي اليمني الشاعر الفقيه، وله أشعار حسنة فمنها مما يتعلق بأحوال العلويين وانقراض دولتهم قوله

قصيدة منها:

رمت ياد هركف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الخلي بالعطل
جدعت مارنك الأقنى فانفك لا
ينفك مأبون أهل الشين والخجل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل

وفي هذه السنة توفي الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الشام، وديار الجزيرة، وغير ذلك يوم الأربعاء، حادي عشر شوال بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة، وكان نور الدين شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين، وكان يريد أن يخلي ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود في الشام قبالة الأفرنج، ويسير هو بنفسه إلى مصر، فأثاه أمر الله الذي لامر له، وكان نور الدين أسمر طويل القامة ليس له لحية إلا في حنكه حسن الصورة، وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين واليمن لما ملكها توران شاه بن أيوب وكذلك كان يخطب له بمصر، وكان مولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسة، وطبق ذكره الأرض وحسن سيرته وعدله، وكان من الزهد والعبادة على قدر عظيم، وكان يصلي كثيرا من الليل فكان كما قيل: جمع الشجاعة والخشوع لربه
ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه، وليس عنده فيه تعصب، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام، منها: دمشق، وحمص، وحماة، وحلب، وشيزر، وبلبك، وغيرها لما تهدمت بالزلزال، وبنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية، ولا يحتمل هذا المختصر ذكر فضائله.

ولما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بالملك بعده، وعمره احدى عشرة سنة، وحلف له العسكر بدمشق، وأقام بها، وأطاعه صلاح الدين بمصر، وخطب له بها، وضربت السكة باسمه، وكان المتولي لتدبير الملك الصالح وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد، المعروف بابن المقدم.

ولما مات نور الدين وملك ابنه الملك الصالح، سار من الموصل سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، وملك جميع البلاد الجزرية.

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

ثم دخلت سنة سبعين وخمسة

وفي أول هذه السنة اجتمع على رجل من أهل الصعيد، يقال له الكنز، جمع كثير وأظهروا الخلاف على صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين إليه عسكرا فاقتتلوا وقتل الكنز وجماعة معه، وانهزم الباقون.

ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها

في هذه السنة سلخ ربيع الأول ملك صلاح الدين بن أيوب: دمشق، وحمص، وحماة، وسببه أن شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ليكون مقامه بها، فسار الملك الصالح إلى حلب مع سعد الدين كمشتكين، ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوته، وهو رئيس حلب، واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، فكتبوا صلاح الدين، واستدعوه ليملكوه عليهم فسار جريدة في

سبعمائة فارس، ولم يلبث أن وصل دمشق فخرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه، ونزل بدار أبيه أيوب المعروفة بدار العقيقي، وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريجان فراسله صلاح الدين واستماله، فسلم القلعة إليه فصعد إليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال.

ولما ثبت قدمه، وقرر أمر دمشق استخلف فيها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، وكانت حمص وحماة، وقلعة بارين، وسلمية وتل خالد، والرها من بلاد الجزيرة في اقطاع فخر الدين ابن الزعفراني، فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس، وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فلأن قلاعها فيها ولاية لنور الدين وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم إلا بارين فإن قلعتها كانت له أيضا، ونزل صلاح الدين على حمص في حادي عشر جمادى الأولى وملك المدينة وعصت عليه القلعة، فترك عليها من يضيق عليها ورحل إلى حماة فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية فامتنع في القلعة، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض إلا حفظ الملك الصالح عليه وإنما هو نائبه، وقصده من جرديك المسير إلى حلب في رسالة، فاستحلفه جرديك على ذلك، وسار جرديك إلى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحاصرها وبها الملك الصالح، فجمع أهل حلب وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين، فأرسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصرا لحلب إلى مستهل رجب ورحل عنها بسبب نزول الأفرنج على حمص، ونزل صلاح الدين على حماة ثامن رجب وسار

إلى حمص، فرحل الأفرنج عنها، ووصل صلاح الدين إلى حمص وحصر قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان من هذه السنة، ثم سار إلى بعلبك فملكها

ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، وجعل مقدم الجيش أكبر أمراءه وهو عز الدين محمود ولقبه سلفندار، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ليسير في النجدة أيضا، فامتنع مصانعة لصلاح الدين، فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجار، ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلفندار إلى حلب، وانضم إليهم عسكر حلب، وسار إلى صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين ييدل حمص وحماة وأن يقر بيده دمشق، ويكون فيها نائبا للملك الصالح، فلم يجيبوا إلى ذلك وساروا إلى قتاله واقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب، وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم، وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم في حلب، وقطع حيثئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين، وأزال اسمه عن السكة، واستبد بالسلطنة، فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام، وللملك الصالح ما بقي بيده منهم فصالحهم على ذلك، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال من هذه السنة.

وفي العشر الأخير من شوال ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وكان فخر الدين المذكور من أكابر الأمراء النورية.

ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين

ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة

وفيهما عاشر شوال كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بتل السلطان، فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه، فإنه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين . وغيرهما وتمت على سيف الدين غازي الهزيمة حتى وصل إلى الموصل مرعوباً، وقصد الهروب منها إلى بعض القلاع، فثبته وزيره، وأقام بالموصل واستولى السلطان صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرهم، وغنم ما فيها، وسار إلى بزاعه وحصرها وتسلمها، ثم سار إلى منبج فحصرها في آخر شوال، وكان صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي شديد البغض لصلاح الدين وفتحها عنوة، وأسر ينال وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه، فسار ينال إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى عزاز ونازلها ثالث ذي القعدة وتسلمها حادي عشر ذي الحجة، فوثب الإسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فضره بسكين في رأسه فجرحه، فأمسك صلاح الدين الإسماعيلي، وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الإسماعيلي على تلك الحال، ووثب آخر عليه فقتل وثالث فقتل أيضاً، ونجا السلطان إلى خيمته مذعوراً وعرض جنده وأبعد من أنكره منهم، ولما ملك السلطان عزاز رجل عنها ونازل حلب في منتصف ذي الحجة وحصرها وبها الملك الصالح، وانقضت هذه السنة، وهو محاصر لحلب، فسألوه في الصلح فأجابهم إليه، وأخرجوا إليه بنتاً صغيرة لنور الدين فأكرمها وأعطاهم شيئاً كثيراً وقال لها : ما ترومين؟ فقالت : أريد قلعة عزاز، وكانوا قد علموها ذلك فسلمها السلطان

- ١٠١١٣ -

إليهم، واستقر الصلح، ورحل السلطان من حلب في العشرين من محرم سنة اثنتين وسبعين.

وفي سنة احدى وسبعين في رمضان قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن إلى الشام، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسة

وفيها قصد السلطان بلد الاسماعيلية في قلعة مصياف، فأرسل مقدم الاسماعيلية إلى خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماة يسأله أن يسعى في الصلح فسأله الحارمي الصفح عنهم فأجابته صلاح الدين إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم، وأتم السلطان صلاح الدين مسيره ووصل إلى مصر فإنه كان بعد عهده بها بعد أن استقر له ملك الشام، ولما وصل إلى مصر في هذه السنة أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة على جبل المقطم،

ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع القاسمي ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين.

وفي هذه السنة أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة بمصر، وعمل بالقاهرة مارستان.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسة

وفي جمادى الأولى منها سار السلطان من مصر إلى الساحل لغزو الأفرنج، فوصل إلى عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر فنهب وتفرق عسكره في الإغارات، وبقي السلطان في بعض العسكر فلم يشعر إلا بالأفرنج قد طلعت عليه، فقاتلهم أشد قتال، وكان لتقي الدين بن شاهنشاه ولد اسمه أحمد من أحسن الشباب، أول ما تكاملت لحيته،

فأمره أبوه تقي الدين بالحملة فحمل عليهم وقاتلهم فأثر فيهم أثرا كبيرا، وعاد سالما، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الأفرنج السلطان فمضى منهزما إلى مصر على البرية ومعه من سلم، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشا شديدا، وهلك كثير من الدواب، وأخذت الأفرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون في الاغارات أسرى، وأسر الفقيه عيسى وكان من أكبر أصحاب السلطان، فافتداه السلطان من الأسر بعد سنتين بستين ألف دينار، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة.

قال الشيخ عز الدين علي بن الأثير، مؤلف الكامل: رأيت كتابا بخط يد صلاح الدين إلى أخيه توران شاه نائبه بدمشق، يذكر له الواقعة وفي أوله:

ذكرتك والخطي يخطريننا
وقد نهلت من المثقفة السمر

ويقول فيه: « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما نجانا الله سبحانه إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى »

وفي هذه السنة سار الفرنج وحصروا مدينة حماة في جمادى الأولى، وطمع الأفرنج بسبب بعد السلطان بمصر وهزيمته من الأفرنج، ولم يكن غير توران شاه بدمشق ينوب عن أخيه وليس عنده كثير من العسكر، وكان توران شاه أيضا كثير الانهماك في اللذات، مائلا إلى الراحة، ولما حصروا حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمي خال السلطان وهو مريض، واشتد حصار الأفرنج لحماة، وطال زحفهم عليها حتى أنهم هجموا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهرا، ثم جد المسلمون في القتال وأخرجوا الأفرنج إلى ظاهر السور، وعقب رجليهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمي، وكان له ابن من أحسن الناس شبابا مات قبله بثلاثة أيام.

وفي هذه السنة قبض الملك الصالح ابن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كمشتكين، وكان قد تغلب على الأمر، وكانت حارم لكمشتكين، فأرسل الملك الصالح إليهم فلم يسلموها إليه، فأمر كمشتكين أن يسلمها فأمرهم بذلك فلم يقبلوا منه، فأمر بتعذيب كمشتكين ليسلموا القلعة فعذب وأصحابه يرونه ولا يرحمونه، فمات من العذاب، وأصر أصحابه على الامتناع، ووصل الأفرنج إلى حارم بعد رحيلهم عن حماة وحصروا حارم مدة أربعة أشهر، فأرسل الملك الصالح مالا للأفرنج وصالحهم فرحلوا عن حارم، وقد بلغ أهلها الجهد، وبعد أن رحل الأفرنج عنها أرسل الملك الصالح إليها واستتاب بقلعة حارم مملوكا لأبيه اسمه سرخك .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسة

وفي هذه السنة طلب توران شاه من أخيه السلطان بعلبك، وكان السلطان قد أعطاه شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بالمقدم لما سلم دمشق إلى صلاح الدين ولم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك، فأرسل إلى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصى بها ولم يسلمها، فأرسل السلطان وحصره ببعلبك، وطال حصارها، فأجاب ابن المقدم إلى تسليمها على عوض، فعوض عنها وتسلمها السلطان وأقطعها أخاه

وفيها كان بالبلاد غلاء عام وتبعه وباء شديد، وفيها سير السلطان ابن أخيه تقى الدين عمر إلى حماة، وابن عمه محمد بن شيركوه إلى حمص، وأمرهما بحفظ بلادهما، فاستقر كل منهما ببلده.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسة

وفيها سار السلطان وفتح حصنا كان بناه الأفرنج عند مخاضة الأحزان

بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب، وفيها كان حرب بين عسكر السلطان ومقدمهم تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وبين عسكر قليج أرسلان صاحب الروم، وسببها أن حصن رعبان كان بيد شمس الدين ابن المقدم، فطمع فيه قليج وأرسل إليه عسكرا ليحصره، وكانوا قريب عشرين ألفا وسار إليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم، وكان تقي الدين يفتخر ويقول: هزمت بألف عشرين ألفا

ذكر وفاة المستضيء وخلافة الامام الناصر وهو رابع ثلاثينهم

في هذه السنة ثاني ذي القعدة توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن، وأمه أم ولد أرمنية، وكانت خلافته تسع سنين وسبعة عشر يوما، وكان حسن السيرة، وكان قد حكم في دولته ظهير الدين أبو بكر منصور المعروف بابن العطار، بعد عضد الدين الوزير، فلما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار، وأخذ البيعة لولده الإمام الناصر لدين الله، ولما استقرت البيعة للإمام الناصر حكم استاذ الدار مجد الدين أبو الفضل، وقبض في سابع ذي القعدة على ابن العطار، ونقل إلى التاج، وأخرج ميتا على رأس حمال ليلة الأربعاء ثاني عشر ذي القعدة، فثارت به العامة وألقوه من على رأس الحمال وشدوا في ذكره حبلا وسحبوه في البلد، وكانوا يضعون في يده مغرفة، يعني أنها قلم، وقد غمست تلك المغرفة في العذرة، ويقولون: وقع لنا يا مولانا، هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم، وكفه عن أموالهم، ثم خلص منهم ودفن.

وفي هذه السنة في ذي القعدة نزل توران شاه أخو السلطان عن بعلبك، فطلب عوضها الإسكندرية، فأجابه السلطان إلى ذلك، وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، فسار إليها فرخشاه وسار شمس الدولة توران شاه إلى الإسكندرية وأقام بها إلى أن مات

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسة

وفي هذه السنة ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل والديار الجزرية، وكان مرضه السل وطال، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر، وكان حسن الصورة، مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلا عادلا عفيفا شديد الغيرة، لا يدخل بيته غير الخدم إذا كانوا صغارا، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان عفيفا عن أموال الرعية مع شح كان فيه، وأوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره، وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيمان.

وفي هذه السنة سار السلطان إلى جهة قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ووصل إلى رعبان ثم اصطلحوا فقصده صلاح الدين بلاد ابن ليون الأرمني وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى أطلقها .

وفيها توفي شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالإسكندرية، وكان له معها أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وغيرهما، وكان أجود الناس وأسخاهم كفا، يخرج كل ما يحمل إليه من أموال اليمن ودخل الإسكندرية، ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مئتي ألف دينار مصرية، فوفاهما أخوه صلاح الدين عنه لما وصل مصر في هذه السنة في شعبان، واستخلف بالشام ابن أخيه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسة

وفيهما عزم البرنس صاحب الكرك على المسير إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للإستيلاء على تلك النواحي الشرقية، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان بدمشق فجمع جموعا وقصد بلاد الكرك وأغار عليها، وأقام في مقابلة البرنس، ففرق البرنس جموعه وانقطع عزمه عن الحركة.

وفيهما وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف فخشي السلطان صلاح الدين على اليمن فجهز إليه عسكريا مع جماعة من أمرائه فوصلوا إلى اليمن واستولوا عليه، وكان نواب توران شاه على عدن عز الدين عثمان، وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكناني من بيت صاحب شيزر.

ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب

في هذه السنة في رجب توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب حلب، وعمره نحو تسع عشرة سنة، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الأطباء الخمر فمات ولم يستعمله، وكان حلييا عفيف اليد والفرج واللسان، ملازما لأمرور الدين لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب، وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيباز من الموصل إلى حلب واستقر في ملكها، ولما استقر مسعود في ملك حلب كاتبه أخوه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في أن يعطيه حلب ويأخذ منه سنجار، فأشار قيباز بذلك

فلم يمكن مسعود إلا موافقته فأجاب إلى ذلك؛ فسار عماد الدين إلى حلب وتسلمها، وسلم سنجار إلى أخيه مسعود، وعاد مسعود إلى الموصل.

ذكر مسير السلطان صلاح الدين إلى الشام

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

وفيها خامس محرم سار صلاح الدين من مصر إلى الشام، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة وخرجت أعيان الناس لوداعه أخذ كل منهم يقول شيئاً في الوداع وفراقه، وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأشد: تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشيّة من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه، وتكدر المجلس على الحاضرين، فلم يعد صلاح الدين بعدها إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان وأغار في طريقه على بلاد الأفرنج وغنم، ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر من هذه السنة، ولما سار صلاح الدين إلى الشام اجتمعت الأفرنج قريب الكرك ليكونوا على طريقه فانهز فرخشاة نائب السلطان الفرصة وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتح وأغار على ما يجاوره من بلاد الأفرنج، وأرسل إلى السلطان وبشره بذلك

ذكر إرسال سيف الإسلام إلى اليمن

في هذه السنة سير السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن منها، وكان بها حطان بن منقذ الكناني، وعز

الدين عثمان الزنجيلي قد عادا إلى ولايتها فإن الأمير الذي كان سره
السلطان نائبا إلى اليمن تولى وعزلهما، فعادت بين حطان وعثمان المنة
قائمة، فوصل سيف الإسلام إلى زييد فتحصن حطان في بعض القلاع
فلم يزل سيف الإسلام يتلطف به حتى نزل إليه فأحسن صحبته، ثم إن
حطان طلب دستورا إلى الشام فلم يجبه إلا بعد جهد، فجهز حطان
أثقاله قدامه ودخل حطان ليودع سيف الإسلام فقبض عليه وأرسل
فاسترجع أثقاله، وأخذ جميع أمواله، وكان من جملة ما أخذ سيف
الإسلام سبعون غلاف زردية مملوءة ذهباً عينا، ثم سجن حطان في بعض
قلاع اليمن فكان آخر العهد به، فأما عثمان الزنجيلي فإنه لما جرى
لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام، وسير أمواله في البحر فصادفهم
مركب فيها أصحاب سيف الإسلام فأخذوا كل مالعثان، وصفت بلاد
اليمن لسيف الإسلام.

ذكر غارات السلطان صلاح الدين وما استولى عليه من البلاد

في هذه السنة سار السلطان من دمشق في ربيع الأول ونزل قريب طبرية، وشن الغارات على بلاد الأفرنج مثل بانياس وجنين والغور، فغنم وقتل وعاد إلى دمشق، ثم سار عنها إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها، ثم عاد إلى دمشق، ثم سار من دمشق إلى البلاد الجزرية وعبر الفرات من البيرة فسار معه مظفر الدين بن زين الدين، وكان حينئذ صاحب حران، وكاتب السلطان ملوك تلك الأطراف واستمالهم، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وصار معه، ونازل السلطان الرها وحصرها وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوكبوري صاحب حران، ثم سار السلطان إلى الرقة وأخذ صاحبها قطب الدين ينال بن حسان، فسار ينال إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم سار صلاح الدين إلى الخابور وملك قرقيسياء وماكسين وعربان والخابور واستولى على خابور جميعه، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة ثم ملك القلعة، ثم أقطع نصيبين أميرا كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين، وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيباز للحصار وشحنوها بالرجال والسلاح، فحصر الموصل وأقام عليها منجنيقا فأقاموا عليه من داخل المدينة تسعة مجانيق، وضايق الموصل فنزل السلطان محاذة باب كندة، ونزل صاحب حصن كيفا على باب الجسر، ونزل تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين على باب العمادي وجرى القتال بينهم، وكان ذلك في شهر رجب فلما رأى أن حصارها يطول رحل عن الموصل إلى سنجار وحاصرها وملكها، واستتاب بها سعد الدين بن معين الدين من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى، ثم سار السلطان إلى حران وعزل في طريقه عن نصيبين أبا الهيجاء السمين

ذكر غير من الحوادث

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولا في بحر أيلة، وساروا في البحر فرقتان فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل، وبغتوا المسلمين في تلك النواحي فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر افرنجيا قط، وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائبا عن أخيه السلطان، فعمر أسطولا في بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين لؤلؤ، وهو متولي الأسطول بديار مصر، وكان مظفرا شجاعا، فسار لؤلؤ مجدا في طلبهم، وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرههم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة حرسها الله تعالى، فسار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ رابغ، فأدركهم بساحل الحوراء، وتقاتلوا أشد قتال فظفره الله تعالى بهم وقتل لؤلؤ أكثرهم، وأخذ الباقي أسرى، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها، وعاد بالباقي إلى مصر فقتلوا عن آخرهم

وفي هذه السنة توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق وهو ثقة من بين أهله، وكان فرخشاه شجاعا كريما فاضلا وله شعر جيد، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وهو في البلاد الجزرية، فأرسل إلى دمشق شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها، وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور،

وفيها توفي بدمشق مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الفقيه الشافعي، ولد سنة خمس وخمسة، وهو الملقب قطب الدين، وكان إماما فاضلا في العلوم الدينية، قدم إلى دمشق وصنف عقيدة للسلطان صلاح الدين، وكان السلطان يقرئها أولاده الصغار.

ذكر ما ملكه السلطان صلاح الدين من البلاد

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

وفيها ملك السلطان حصن آمد بعد حصار وقتال في العشر الأول من محرم، وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرأ أرسلان بن داود بن سكران بن أرتق صاحب حصن كيفا، ثم سار إلى الشام وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها، ثم سار إلى عنتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد سلم نور الدين عنتاب إلى اسماعيل المذكور فبقيت معه إلى الآن، فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه فأقره السلطان عليه، وبقي في خدمة السلطان، ومن جملة أمراءه، ثم سار السلطان إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي، وطال الحصار عليه، وكان قد كثرت اقتراحات أمراء حلب عليه، وقد ضجر من ذلك، وكره حلب لذلك، فأجاب السلطان إلى تسليم حلب على أن يعوض عنها سنجار ونصيبين والخابور والرقّة وسروج واتفقوا على ذلك، وسلم حلب إلى السلطان في صفر من هذه السنة، فكان ينادي أهل حلب على عماد الدين المذكور: «يا حمار، بيع حلب بسنجار». واشترط السلطان على عماد الدين المذكور الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره إذا استدعاه، ولا يحتاج بحجة عن ذلك، ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الركي، قاضي دمشق، مدح السلطان بقصيدة منها:

ففتحكم حلب بالسيف في صفر

مبشر بفتح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وكان من جملة من قتل على حلب تاج الملوك بوري بن أيوب أخو

السلطان الأصغر وكان كريما شجاعا طعن في ركبته فانفلقت فمات منها.

ولما استقر الصلح عمل عماد الدين زنكي دعوة للسلطان واحتفل، فبينما هم في سرورهم إذ جاءهم إنسان فأسر إلى السلطان بموت أخيه بوري فوجد عليه في قلبه وجدا عظيما وأمر بتجهيزه، ولم يعلم السلطان في ذلك الوقت أحدا ممن كان في الدعوة بذلك لثلا يتنكد عليهم ما هم فيه، وكان يقول السلطان: ما وقعت علينا حلب رخيصة بموت بوري، وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم.

ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حارم وبها سرخك الذي ولاه الملك الصالح في تسليم حارم، وجرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حال وكاتب سرخك الأفرنج، فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم إلى السلطان، فتسلمها وقرر أمر حلب وبلادها، وأقطع اعزاز أميرا يقال له سليمان بن جندر

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة قبض عز الدين بن مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قياز.

ولما فرغ السلطان من تقرير أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وسار إلى دمشق وتجهز منها للغزو فعبّر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة فأغار على بيسان وحرقها وشن الغارات على تلك النواحي، ثم تجهز السلطان للكرك وأرسل إلى نائبه بمصر وهو أخوه الملك العادل أن يلاقه على الكرك، فسار واجتمعا عليها وحصر الكرك وضيق عليه، ثم رحل عنها في منتصف شعبان، وسار معه أخوه، وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر إلى مصر نائبا عنه موضع الملك

العادل، ووصل السلطان إلى دمشق، وأعطى أخاه أبا بكر العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها، وسيره إليها في شهر رمضان من هذه السنة، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

وفي هذه السنة في أواخرها توفي شاه أرمن سكرمان بن ظهير الدين إبراهيم بن سكرمان القطبي صاحب خلاط، وقد تقدم ذكر ملك شاه أرمن المذكور في سنة إحدى وعشرين وخمسة، وكان عمر سكرمان لما توفي أربعاً وستين سنة، ولما مات سكرمان كان بكتمر مملوك أبيه بميفارقين، فلما سمع بكتمر بموته سار من ميفارقين ووصل إلى خلاط وكان أكثر أهلها وماليك شاه أرمن متفقين معه، وأول وصوله استولى على خلاط وتملكها وجلس على كرسي شاه أرمن واستقر في مملكة خلاط حتى قتل في سنة تسع وخمسة حسبنا نذكر ان شاء الله تعالى.

ذكر غزو السلطان الكرك

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسة

وفيها في ربيع الآخر سار السلطان من دمشق للغزاة، وكتب إلى مصر، فسارعت عساكرها إليه ونازل الكرك وحاصره وضيق على من به وملك ربض الكرك وبقيت القلعة وليس بينها وبين الربض غير خندق عميق وقصد السلطان طمه، فلم يقدر لكثرة المقاتلة، فجمعت الأفرنج فارسها وراجلها وقصدوه ولم يمكن السلطان إلا الرحيل فرحل عن الكرك وسار إليهم فأقاموا في أماكن وعرة وأقام السلطان قبالتهم، وسار من الأفرنج جماعة ودخلوا الكرك، فعلم بامتناعه عليه وسار إلى نابلس ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسبي فأكثر، ثم نزل إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين ثم سار إلى جينين ثم عاد إلى دمشق.

وفي هذه السنة توفي شيخ المشيخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعيد أحمد، وكان قد سار من عند الخليفة إلى السلطان في رسالة ومعه شهاب الدين بشير ليصلح بين صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلم ينتظم حال، واتفق أنهما مرضا بدمشق، وطلبا المسير إلى العراق، وسارا في الحرفات بشير في السخنة، ومات صدر الدين شيخ المشيخ بالرحبة، ودفن بمشهد البوق، وكان أوحد زمانه قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا.

وفيهما في محرم أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل مجاهد الدين قبياز من الحبس، وأحسن إليه.

ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل

ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمائة

وفيهما حصر السلطان الموصل وهو حصاره الثاني، فأرسل إليه عز الدين والدته وابنة عمه نور الدين بن زنكي وغيرهما من النساء وجماعة يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين، لا سيما وفيهن بنت نور الدين، وحاصر الموصل وضايقها، وبلغه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الآخر من هذه السنة، فسار عن الموصل إلى جهة خلاط باستدعاء أهلها ليملكها.

وفي هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وآمد، وملك بعده ولده سكران، ولقب قطب الدين، وكان صغيرا، فقام بتدبيره القوام ابن سماق الأسعدي، وأحضر سكران إلى السلطان وهو نازل على ميفارقين فأقره على ما كان بيد والده، وأقام معه أميرا من أصحاب سكران المذكور.

ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميفارقين

لما رحل السلطان عن الموصل جعل طريقه على ميفارقين، وكانت لصاحب ماردين الذي توفي وفيها من يحفظها من جهة شاه أرمن صاحب خلاط المتوفي، فحاصرها السلطان وملكها في سلخ جمادى الأولى، ثم إن السلطان رجع عن قصد خلاط إلى الموصل فجاءته رسل عز الدين مسعود يسأل الصلح، واتفق حينئذ أن السلطان مرض وسار من كفر زمار عائدا إلى حران، فلحقته رسل صاحب الموصل بالإجابة إلى ما طلب، وهو أن يسلم صاحب الموصل السلطان : شهرزور وأعمالها، وولاية القراملي وجميع ما وراء الزاب، وأن يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل وما بيده، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير، وتسلم السلطان ذلك واستقر الصلح وأمنت البلاد، ووصل السلطان إلى حران وأقام بها مريضا واشتد به المرض حتى أيسوا منه، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق سنة اثنتين وثمانين من محرم. ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركوه بن شاذي صاحب حمص إلى حمص، وكاتب بعض أكابر دمشق في أن يسلموا إليه دمشق إذا مات السلطان.

وفي هذه السنة ليلة عيد الأضحى شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي فأصبح ميتا، قيل إن السلطان هو الذي دس عليه من سقاه سها لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه، ولما مات أقر السلطان حمص وما كان بيده على ولده شيركوه بن محمد وعمره اثنتا عشر سنة، وخلف صاحب حمص شيئا كثيرا من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عوده من حران وأخذ أكثرها، ولم يترك إلا ما لا خير فيه .

ذكر نقل الملك العادل من حلب وإخراج الملك الأفضل ابن السلطان من مصر إلى دمشق

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

وفيها أحضر السلطان ولده الملك الأفضل من مصر، وأقطعه دمشق،
وسببه أن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان كان نائب
عمه بمصر، وكان معه الملك الأفضل، فأرسل تقي الدين يشتكي من
الأفضل إنني لا أتمكن من استخراج الخراج، فإنني إذا أجضرت من
عليه الخراج وأردت عقوبته يطلقه الملك الأفضل، فأرسل السلطان
أخرج ابنه الأفضل من مصر وأقطعه دمشق، وتغير السلطان على تقي
الدين في الباطن فإنه ظن أنه إنما أخرج ولده من مصر ليمتلك مصر إذا
مات السلطان، ثم أحضر أخاه الملك العادل من حلب وجعل معه ولده
العزیز عثمان بن السلطان نائباً عنه بمصر، واستدعى تقي الدين من
مصر فقبل إنه توقف عن الحضور وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش
المستولي على بعض بلاد إفريقية وبرقة من المغرب، وبلغ السلطان ذلك
فساءه، وأرسل يستدعي تقي الدين ويلاطفه فحضر، ولما حضر تقي
الدين إلى السلطان زاده على حماة منبج والمعة وكفر طاب وميافارقين
وجبل جور بجميع أعمالها، واستقر العادل والعزیز عثمان في مصر، ولما
أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرها.

ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل

وفي هذه السنة في أولها توفي البهلوان محمد بن الدكر صاحب بلد
الجبيل، وهمدان، والري، وأصفهان، وأذربيجان، وأرانية وغيرها من البلاد،
وكان عادلاً حسن السيرة وملك البلاد بعده أخوه قزل أرسلان واسمه

عثمان، وكان السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي مع البهلوان، وله خطبة في بلاده، وليس له من الأمر شيء فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قزل وكثر جمعه واستولى على بعض البلاد، وجرت بينه وبين قزل حروب .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة غدر البرنس صاحب الكرك، وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسرهم، فأرسل السلطان يطلب منه إطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت بينهم على ذلك، فلم يفعل، فنذر السلطان أنه إن أظفروه الله به قتله بيده.

. ذكر غزوات السلطان وفتوحاته

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وفيها جمع السلطان العساكر، وسار بفرقة من العسكر، وضايق الكرك خوفا على الحجاج من صاحب الكرك، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل فأغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية، وغنموا شيئا كثيرا.

ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف، وتأخرت القلعة وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس، وكان قد هادن السلطان، ودخل في طاعته، فسألت الأفرنج إلى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه، فصار معهم واجتمع الأفرنج للقاء السلطان.

ذكر وقعة حطين وهي الواقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس

ولما أخذ السلطان مدينة طبرية اجتمعت الأفرنج وملوكهم بفارسهم وراجلهم، وساروا إلى السلطان، فركب السلطان من عند طبرية وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال، ولما رأى القومص شدة الأمر حمل على مقدمة المسلمين وهناك بقي الدين صاحب حماة فأفرج له وعطف عليهم ونجا القومص ووصل طرابلس، وبقي مدة يسيرة ومات غنيا، ونصر الله تعالى المسلمين، وأحدقوا بالأفرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلا وأسرا، وكان من جملة من أسر ملك الأفرنج الكبير والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن الهنفرى، ومقدم الداوية وجماعة من الاستبارية، وما أصيب الأفرنج منذ خرجوا إلى الشام في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمصيبة مثل هذه الواقعة.

ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته، وأحضر ملك الأفرنج، وأجلسه إلى جانبه، وكان الحر والعطش به شديدا فسقاه السلطان ماء مثلوجا، فسقى ملك الأفرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك، فقال له السلطان: هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيكون أمانا له، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وقرعه على غدره وقصده الحرميين الشريفين، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الأفرنج، فسكن جاشه، ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأسان، ثم سار إلى عكا وحاصرها وفتحها بالأمان، ثم أرسل إلى أخيه العادل فنازل مجدل يابا وفتح عنة بالسيف ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلثا والقبولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا بالسيف، وغنموا وقتلوا، وأسروا أهل هذه الأماكن، وأرسل فرقة إلى نابلس فملكوا قلعتها بالأمان، ثم سار الملك العادل بعد فتح

مجدل يابا إلى يافا وفتحها غنوة بالسيف ثم سار السلطان إلى تبين
ففتحها بالأمان ، ثم سار إلى ضيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان
ساعة وصوله لتسع بقين من جمادى الأولى من هذه السنة، ثم سار إلى
بيروت فحاصرها وتسلمها في السابع والعشرين من جمادى الأولى
بالأمان وكان حضرها مدة ثمانية أيام، وكان صاحب جبيل من جملة
الأسرى، فبذل جبيل بأن يسلمها ويطلق سراحه فأجيب إلى ذلك، وكان
صاحب جبيل من أعظم الأفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين، ولم تكن
عاقبة اطلاقه حميدة، وأرسل السلطان وتسلم جبيل وأطلقه.

وفيها حضر المراكيس في سفينة إلى عكا وهي للمسلمين، ولم يعلم
المراكيس بذلك، واتفق هجوع الهواء، فراسل المراكيس الملك الأفضل وهو
بعكا يقترح أمرا بعدأمر، والملك الأفضل يجيب إلى ذلك المراكيس إلى أن
هب الهواء، فأقلع المراكيس إلى صور، وكان وصول المراكيس إلى صور
واطلاق الأفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالأمان وحملهم إلى صور
من أعظم أسباب الضرر الذي حصل حتى زاحت عكا، وقوي الأفرنج
بذلك.

ثم سار السلطان إلى عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوما، وتسلمها
بالأمان سلخ جمادى الآخرة، ثم بث السلطان عسكره ففتحوا الرملة
والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وغير ذلك.

ثم سار السلطان ونازل القدس وبه من النصارى عدد يفوت الحصر،
وضايق السلطان السور بالنقابين، واشتد القتال، ونقبوا السور، وطلب
الأفرنج الأمان فلم يجبههم السلطان إلى ذلك، وقال لاأخذها إلا بالسيف
مثل ما أخذها الأفرنج من المسلمين، فعادوه في الأمان، وعرفوه ما هم
عليه من الكثرة وأنهم إن أيسوا من الأمان قاتلوا خلاف ذلك القتال،
فأجابهم السلطان إلى ذلك وشرط أن يؤدي كل من بها من الرجال

عشرة دنانير، وتؤدي النساء خمسة، ويؤدوا عن كل طفل دينارين، وأن من عجز عن ذلك يكون أسيرا، فأجيب إلى ذلك وسلّمت المدينة يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب، وكان يوما مشهودا، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور، فخان المرتبون في ذلك، ولم يحملوا إلا القليل.

وكان على رأس قبة الصخرة صليب مذهب فتلحق المسلمون واقتلعوه، فسمع لذلك ضجة لم يعهد مثلها من الأفرنج بالتفجع والتوجع، وكان الأفرنج قد عملوا غربي المسجد الأقصى هريا ومستراحا، فأمر السلطان بإزالة ذلك وإعادة الجامع إلى ما كان عليه، وكان نور الدين محمود بن زنكي قد عمل منبرا بحلب تعب عليه مدة، وقال: هذا لأجل القدس، فأرسل السلطان أحضر المنبر من حلب وجعله في المسجد الأقصى، وأقام السلطان بعد فتح القدس بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله، وتقدم بعمل الربط والمدارس الشفعية.

ثم رحل السلطان إلى عكا ورحل منها إلى صور، وصاحبها المركيس قد حصنها بالرجال وحفر خندقها، ونزل السلطان على صور تاسع عشر رمضان وحاصرها وضايقها، وطلب الأسطول، فوصل إليه في عشر شوال، فاتفق أن الأفرنج كبسوهم في الشواني، وأخذوا خمس شوان، ولم يسلم من المسلمين إلا من سبيح ونجا، وأخذ الباقون، وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في آخر شوال، أول كانون الأول، وأقام بعكا وأعطى العساكر الدستور، فسار كل واحد إلى بلده، وبقي السلطان بعكا في حلقة وأرسل إلى هونين وفتحها بالأمان

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة سار شمس الدين محمد بن المقدم بعد فتح القدس حاجا، وكان هو أمير الحاج الشامي ليجمع بين الغزاة وزيارة القدس والخليل عليه السلام والحج في عام واحد، فسار ووقف بعرفات، ولما أفاض أرسل إليه طاشتكين أمير الحاج العراقي يمنعه من الإفاضة قبله، فلم يلتفت إليه فسار العراقيون واقتتلوا مع الشاميين، فقتل بينهم جماعة، وابن المقدم بمنع أصحابه من القتال، فجرح ومات شهيدا، ودفن بمقبرة المعلى.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

فشكى السلطان في هذه السنة بعكا، ثم سار بمن معه وقصد كوكب وحمل على حمصاها أميرا يقال له قايماز النجمي، وسار منها في ربيع الأول ودخل دمشق ففرح الناس بقدومه، وكتب إلى الأطراف باجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام، وسار من دمشق منتصف ربيع الأول، ونزل على بحيرة قدس غربي حمص فأتته العساكر بها، فأولهم عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين، ولما تكاملت عساكره رحل ونزل تحت حصن الأكراد وشن الغارات على بلاد الأفرنج، وسار من حصن الأكراد، فنزل على أنطرسوس فوجد الأفرنج قد أخذوا أنطرسوس فسار إلى مرقية، فوجدهم قد أدخلوها أيضا، فسار تحت المرقب وهو للاستتارية فرجده لا يرام ولا لأحد فيه مطمع، فسار إلى جبلة ووصل إليها ثامن جمادى الأولى وتسلمها حالة وصوله، فجعل فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، ثم سار السلطان إلى اللاذقية فوصل إليها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى، ولها قلعتان فحصر القلعتين، ولما ملك السلطان اللاذقية سلمها إلى الملك المظفر تقي الدين فعمرها وحصن قلعتها، وكان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع

والغرامة عليها، كما فعل بقلعة حماة، ثم رحل السلطان عن اللاذقية في التاسع والعشرين من جمادى الأولى إلى صهيون فحاصرها وضايقها، وطلب أهلها الأمان فلم يجيبهم إلا على أمان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوا إلى ذلك، وتسلم السلطان قلعة صهيون وسلمها إلى أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين، ثم فرق عسكره في تلك الجبال فملكوا حصن بلاطنس وكان الأفرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه، وملكوا حصن العيد، وحصن الجماهريين، ثم سار السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة ووصل إلى قلعة بكاس فأخلاها أهلها وتختسوا بقلعة الشجر فحصرها ووجدها منيعة وضايقها، فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الفزع وطلبوا الأمان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالأمان، فأرسل السلطان الملك الظاهر صاحب حلب فحاصر سرمينية وضايقها وملكها واستنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم وهدم الحصن وعفى أثره، وكان في الحصن وفي الحصون المذكورة من أسرى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقة، ثم سار السلطان من الشجر إلى برزية ورتب عسكره ثلاثة أقسام وداومها بالزحف وملكها بالسيف في السابع والعشرين من جمادى الآخرة وسبى وأسر وقتل أهلها.

قال مؤلف الكامل ابن الأثير: كنت مع السلطان في مسيره وفتحه هذه البلاد طالبا للغزاة فأحكي ذلك عن مشاهدة، ثم سار السلطان فنزل على جسر الحديد، وهو على العاصي بالقرب من أنطاكية، فأقام عليه أياما حتى تلاحق به من تأخر من العسكر، ثم سار إلى دريساك ونزل عليها ثامن رجب وحاصرها وضايقها وتسلمها بالأمان على شرط أن لا يخرج منها أحد إلا بشيابه فقط، وتسلمها تاسع عشر رجب، ثم سار عن دريساك إلى بغراس فحصرها وتسلمها بالأمان على حكم أمان دريساك، وأرسل بيمنند صاحب أنطاكية إلى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح، وبذل اطلاق كل أسير عنده، فأجابه السلطان إلى ذلك

واصطلحوا ثمانية أشهر وكان صاحب أنطاكية حينئذ أعظم ملوك الأفرنج في هذه البلاد، فإن أهل طرابلس سلموا إليه طرابلس.

ولما فرغ السلطان من أمر هذه البلاد والهدنة، سار إلى حلب ثالث شعبان، وسار منها إلى دمشق وأعطى عماد الدين زنكي دستورا، وكذلك أعطى غيره من العساكر الشرقية وجعل طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي، وكان مقبلا هناك، وكان من عباد الله تعالى الصالحين، وله كرامات ظاهرة، وكان مع السلطان أبو فليحة الأمير قاسم بن مهنا الحسني صاحب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وشهد معه مشاهدته وفتوحاته، وكان السلطان يتبرك برؤيته ويتيمن بصحبته ويرجع إلى قوله، ودخل السلطان دمشق في شهر رمضان المعظم، فأشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا، فقال السلطان: إن العمر قصير والأجل غير مأمون، وكان السلطان لما سار إلى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحاصرها، وخلي أخاه العادل في تلك الجهات يباشر ذلك، فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان، فأمر الملك العادل المباشرين لحصارها بتسليمها فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك الجهات من البلاد.

ثم سار السلطان من دمشق في منتصف رمضان إلى صفد فحصرها في ذي القعدة، وسير أهلها إلى صور، وكان اجتماع أهل هذه القلاع في صور من أعظم أسباب الضرر على المسلمين، ظهر ذلك فيما بعد، ثم سار السلطان إلى القدس فعيد فيه عيد الأضحى، ثم سار إلى عكا فأقام فيها حتى انسلخت السنة.

وفي هذه السنة أرسل قزل بن الدكر يستنجد بالخليفة الإمام الناصر على طغريل بن أرسلان بن طغريل السلجوقي، ويحذره عاقبة أمره،

فأرسل الخليفة عسكريا إلى طغريل والتقوا ثامن ربيع الأول قرب همدان، فانهمز عسكري الخليفة، وغنم طغريل أموالهم، وأسر مقدم العسكر جلال ابن عبد الله وزير الخليفة.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

وفيها سار صلاح الدين ونزل بمرج عيون، وحضر إليه صاحب شقيف أرنون وبذل له تسلم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه، فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان وكان اسم صاحب الشقيف أرناط، فقال له السلطان في التسليم فقال: لا يوافقني عليه أهلي، فأمسكه السلطان وبعثه إلى دمشق، فحبس

ذكر حصار الأفرنج عكا

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التي أخذها السلطان بالأمان، فكثروا جمعهم حتى صاروا في عالم لا تحصى كثرتهم، وأرسلوا إلى البحر ليكون ويستنجدون، وصوروا صورة المسيح وصورة عربي يضرب المسيح وقد أدماه، وقالوا: هذا نبي العرب يضرب المسيح، فخرجت النساء من بيوتهن، ووصل من الأفرنج في البحر عالم لا يحصى كثرة، وساروا إلى عكا من صور، ونازلوها في منتصف رجب من هذه السنة، وضايقوا عكا واحاطوا بسورها من البحر إلى البحر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق، فسار إليهم السلطان ونزل قريب الأفرنج وقتلهم في مستهل شعبان، وباتوا على ذلك وأصبحوا فحمل تقي الدين صاحب حماة من ميمنة السلطان على الأفرنج فأزالهم عن موقفهم والتصق بالسور، وانفتح الطريق إلى المدينة يدخل المسلمون ويخرجون، وأدخل السلطان إلى عكا عسكري نجدة، وكان من جملتهم أبو الهيجاء السمين، وبقي المسلمون يغادون القتال ويأوون إلى العشرين من شعبان، ثم كان بين المسلمين وبينهم موقعة عظيمة، فإن الأفرنج اجتمعوا وضربوا مع السلطان

مضاف، وحملوا على القلب فأزالوه، وأخذوا يقتلون في المسلمين الى أن بلغوا خيمة السلطان، وانحاز السلطان الى جانب وانضاف اليه جماعة، وانقطع مدد الفرنج واشتغلوا بقتال الميمنة، فحمل السلطان على الأفرنج الذين خرقوا القلب وعطف عليهم العسكر فأفْنُوهم قتلاً، وكان قتل الأفرنج نحو عشرة آلاف نفس، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم الى طبرية وبعضهم وصل الى دمشق.

وجافت الارض بعد هذه الواقعة، ولحق السلطان مرض وحدث له قولنج، فأشار عليه الامراء بالانتقال من ذلك الموضع فوافقهم ورحل الى عكا رابع عشر شهر رمضان الى الخروبة، فلما رحل تمكن الأفرنج من حصار عكا وانبسطوا في تلك الأرض، وفي تلك الحال وصل اسطول المسلمين من البحر مع حسام الدين لؤلؤ - وكان شهيداً - فظفر ببطسة للأفرنج فأخذها ودخل بها الى عكا، فقويت قلوب المسلمين، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر الى أخيه السلطان فقويت نفوس المسلمين بوصله.

ذكر غير ذلك من الحوادث

فيها توفي بالخروبة الفقيه عيسى، وكان مع السلطان، وهو من أعيان عسكره، وكان جندياً فقيهاً شجاعاً، وكان من أصحاب الشيخ أبي القاسم البرزي.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

وفيها رحل السلطان عن الخروبة وعاد إلى قتال الأفرنج على عكا، وكان الأفرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبراج طول البرج ستون ذراعاً، جاؤوا بخشبها من جزائر البحر، وعملوها طبقات وشحنوها بالسلاح والمقاتلة، وألبسوها جلود البقر والطين بالخل لئلا تعمل فيها

النار، فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الأول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح، ثم أحرقوا الثاني والثالث، وانبسطت نفوس المسلمين بذلك بعد الكأبة، ووصلت إلى السلطان العساكر من البلاد .

وبلغ المسلمين وصول ملك الألمان، وكان قد سار من بلاده وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل، فاهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية، فسلط الله تعالى على الألمان الغلاء والوباء فهلك أكثرهم في الطريق، ولما وصل ملكهم إلى بلاد الأرمن نزل في نهر هناك يغتسل فغرق، وأقاموا ابنه مقامه، فرجع من عسكره طائفة إلى بلادهم، ولم يصل مع ابن ملك الألمان إلى الأفرنج الذين على عكا غير قدر ألف مقاتل، وكفى الله المسلمين شرهم، وبقي السلطان والأفرنج على عكا يتناوشون القتال إلى العشرين من جمادى الآخرة، فخرجت الأفرنج من خنادقهم بالفارس والراجل، وأزالوا الملك العادل عن موضعه، وكان معه عسكر مصر، فعطف عليهم المسلمون وقتلوا من الأفرنج خلقا كثيرا، فعادوا إلى خنادقهم، وحصل للسلطان مغص فانقطع في خيمته، ولولا ذلك لكانت الفيصلة ولكن إذا أراد الله أمرا فلا مرد له

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة لما قوي الشتاء، واشتدت الرياح أرسل الأفرنج المحاصرون عكا مراكبهم إلى صور خوفا عليها أن تنكسر، وانفتح الطريق إلى عكا في البحر وأرسل البدل إليها، وكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف الواصلين إليها، فحصل التفريط بذلك لضعف البدل.

وفيها في ثامن شوال توفي زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل، وكان مع السلطان بعسكره، ولما توفي أقطع السلطان إربل أخاه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك

وأضاف إليه شهر زور وأعمالها، وارتجع ما كان بيد مظفر الدين، وهو حران والرها، وسار مظفر الدين إلى إربل وملكها.

وفيها أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين، وهو: حران والرها، وسمسياط والموزر، الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما في يده، وهو: ميافارقين، ومن الشام حماة، والمعرة، وسلمية ومنبج، وقلعة نجم، وجبله، واللاذقية، وبلاطنس وبكسراثيل.

ذكر استيلاء الأفرنج على عكا

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

واستمر حصار الأفرنج لعكا إلى هذه السنة، وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر، وحفروا عليهم خندقا فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم، وكانوا محاصرين لعكا، وهم كالمحصورين، من خارجهم من السلطان، واشتد حصارهم لعكا وضعف من بها عن حفظ البلد وعجز السلطان عن دفع العدو عنهم، فخرج الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وطلب الأمان من الأفرنج على مال وأسرى يقومون بها للأفرنج، فأجابوهم إلى ذلك وصعدت أعلام الأفرنج على عكا ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من هذه السنة، واستولوا على البلد بما فيه، وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد، وقالوا إنما نجسهم ليقوموا بالمال، والأسرى، وصليب الصليب، وكتبوا إلى السلطان بذلك فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك، وطلب منهم إطلاق المسلمين فلم يجيبوا إلى ذلك، فعلم منهم الغدر واستمر أسر المسلمين، ثم قتل الأفرنج منهم جماعة كثيرة، واستمر الباقون في الأسر.

وبعد استيلاء الأفرنج على عكا وتقرير أمرها رحلوا عنها مستهل شعبان نحو قيسارية، والمسلمون يساورونهم ويتخطفون منهم، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم، ووصلوا إلى سوق المسلمين فقتلوا من السوق خلقا كثيرا، ثم سار الأفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون، فملكوها.

ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة، لئلا يحصل لها ما حصل لعكا، فسار إليها وأخلاها وخربها ورتب الحجارين في تلقيع أسوارها وتخريبها فدخلها إلى الأرض، ولما فرغ السلطان من تخريب عسقلان، رحل

ثاني شهر رمضان إلى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد، ثم سار إلى القدس وقرر أموره، وعاد إلى مخيمه بالنطرون ثامن شهر رمضان، ثم ترأس الأفرنج والسلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العادل بأخت ملك الأنكتار، ويكون للملك العادل القدس، ولأمراته عكا، فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك إلا أن يتنصر الملك العادل، فلم يتفق بينهم حال، ثم رحل الأفرنج من يافا إلى الرملة وبقوا كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات، فلقوا من ذلك شدة شديدة، وأقبل الشتاء وحالت الأحوال بينهم، فلما رأى السلطان ذلك وقد ضجرت العساكر أعطاهم الدستور، وسار إلى القدس لسبع بقين من ذي القعدة، ونزل داخل البلد واستراحوا مما كانوا فيه، وأخذ السلطان في تعمير القدس وتحصينه وأمر العسكر بنقل الحجارة، وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتردي به العسكر، فكان يجتمع عند العمال في اليوم الواحد ما يكفيهم عدة أيام .

ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر

كان الملك المظفر قد سار إلى البلاد المرتجعة من كوكبوري التي زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات، وهي حران وغيرها، فامتدت عين الملك المظفر إلى بلاد مجاوريه، واستولى على السويداء وحاني، والتقى مع بكتمر صاحب خلاط فكسره وحاصره بخلاط وتملك معظم البلاد، ثم رحل عنها ونازل ملازكرد وهي لبكتمر وضايقها، وكان في صحبته ولده الملك المنصور محمد، فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد عليه حتى توفي به يوم الجمعة لإحدى عشر ليلة بقيت من رمضان من هذه السنة، وأخفى الملك المنصور وفاته ورحل عن ملازكرد ووصل إلى حماة ودفنه بظاهرها، وبني إلى جانب التربة مدرسة، مشهورة هناك،

وكان الملك المظفر شجاعا شديد البأس، ركننا عظيمًا من أركان البيت

الأيوبي، وكان عنده فضل وأدب، وله شعر حسن، واتفق في ليلة الجمعة التي توفي فيها الملك المظفر أن توفي حسام الدين محمد بن لاجين، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان فأصيب السلطان في تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته.

ولما مات الملك المظفر راسل ابنه الملك المنصور السلطان واشترط شروطا نسبته السلطان فيها الى العصيان، وكاد أمره يضمحل بالكلية، فراسل الملك المنصور عنه الملك العادل في استعطاف خاطر السلطان، فما برح العادل بأخيه السلطان يراجع ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه السلطان، وقرر للملك المنصور حماة، وسلمية، والمعرة، ومنبج، وقلعة نجم، وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه العادل، بعد أن شرط السلطان أن العادل ينزل عن كل ماله من الأقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء، ونصف خاصه بمصر، وأن يكون عليه في كل سنة ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء إلى القدس، ولما استقر ذلك سار العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها، وعاد إلى خدمة السلطان في آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة، أعني سنة ثمان وثمانين، ولما قدم الملك العادل على السلطان كان الملك المنصور صاحب حماة صحبته، فلما رأى السلطان الملك المنصور نهض واعتنقه وغشيه البكاء وأكرمه وأنزله في مقدمة العسكر.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة في شعبان قتل قزل أرسلان، واسمه عثمان بن الدكر، وهو الذي ملك: أذربيجان، وهمدان، وأصفهان، والري بعد أخيه محمد ابن البهلوان، وكان قد قوي عليه السلطان طغريل السلجوقي وهزم عسكر بغداد كما تقدم ذكره، ثم إن قزل أرسلان تغلب واعتقل السلطان طغريل في بعض البلاد، وسار قزل أرسلان بعد ذلك إلى أصفهان

وتعصب على الشفعوية، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم، وعاد إلى همدان وخطب لنفسه بالسلطنة ودخل لينام على فراشه، وتفرق عنه أصحابه، فدخل إليه من قتله على فراشه ولم يعلم قاتله.

وفيها قدم معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى صلاح الدين، وسببه أن والده فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطية، ثم تغلب بعض أخوته على أبيه وألزمه بأخذ ملطية من أخيه المذكور، فخاف من ذلك وسار إلى السلطان ملتجئاً فأكرمه السلطان، وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة.

قال ابن الأثير: لما ركب صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه، ترجل معز الدين، وترجل السلطان، ولما ركب السلطان عضده قيصر شاه وأركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك، فسوى ثياب السلطان أيضاً، فقال بعض الحاضرين في نفسه : ما بقيت تبالي يا بن أيوب بأي موتة تموت، يركبك ملك سلجوقي ، ويصلح قماشك ابن أتابك زنكي .

وفيها قتل أبو الفتح يحيى الملقب شهاب الدين السهروردي الحكيم الفيلسوف بقلعة حلب محبوساً، أمر بخنقة الملك الظاهر غازي، بأمر والده السلطان، قرأ المذكور الأصولين والحكمة بمراغة على مجد الدين، ثم سافر إلى حلب وكان علمه أكبر من عقله، فنسب إلى انحلال العقيدة، وأنه يعتقد مذهب الفلاسفة، فأفتى الفقهاء بإباحة دمه لما ظهر من سوء مذهبه، واشتهر عنه، وكان أشدهم في ذلك زين الدين ومجد الدين ابنا جهيل.

حكى الشيخ سيف الدين الأمدي قال: اجتمعت بالسهروردي في

حلب فقال لي: لا بد أن أملك الأرض، فقلت: من أين لك هذا؟ قال: رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر، فقلت: لعل ذلك يكون اشتهاً علمك وما يناسب هذا، فرأيت لا يرجع عما وقع في نفسه ووجدته كثير العلم قليل العقل، وكان عمره لما قتل ثمان وثلاثين سنة وله عدة مصنفات في الحكمة منها التلويحات والتنقيحات والمشارع والمطارحات، وكتاب الهياكل، وحكمة الإشراق، وكان يزعم أنه يعرف السيمياء، وله نظم حسن.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسة مائة

وفيهما سار الأفرنج إلى عسقلان وشرعوا في عمارتها في محرم، والسلطان بالقدس، وفيها قتل المركيس صاحب صور لعنه الله تعالى، قتله الباطنية، وكانوا قد دخلوا في زي الرهبان إلى صور.

ذكر عقد الهدنة مع الأفرنج وعود السلطان إلى دمشق

وسبب ذلك أن ملك الأنكتار مرض، وطال عليه البيكار، فكتب إلى الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح، فلم يجب السلطان إلى ذلك، ثم اتفق رأي السلطان على ذلك لطول البيكار، وضجر العسكر وكثرة نفقاتهم فأجاب السلطان إلى ذلك، واستقر أمر الهدنة في يوم السبت ثامن عشر شعبان، وتحالفوا على ذلك في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ولم يحلف ملك الأنكتار، بل أخذوا يده واعتذر بأن الملوك لا يحلفون، وقنع السلطان بذلك، وحلف الكندھري ابن أخته وخليفته في الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الأفرنج، ووصل ابن الهنفرى وباليان إلى خدمة السلطان ومعها جماعة من المقدمين، وأخذوا يد السلطان، واستحلفوا الملك العادل والملكين الأفضل والظاهر، والملك المنصور، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص، والأمجد بهرام شاه بن

فرخشاہ صاحب بعلبک، والأمیر بدر الدین دلدردم الیاریوقی صاحب تل
باشر، والأمیر سابق الدین عثمان بن الدایة صاحب شیزر، والأمیر سیف
الدین علی بن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمین الکبار، وعقدت
الهدنة عامة فی البحر والبر، وجعلت مدتها ثلاث سنین وثلاثة أشهر أولها
أیلول الموافق للحادی والعشرین من شعبان.

وكانت الهدنة علی أن یستقر بید الأفرنج یافا وعملها، وقیساریة
وعملها، وحیفا وعملها، وعکا وعملها، وأن تكون عسقلان خرابا،
واشترط السلطان دخول بلاد الإسماعیلیة فی عقد هدنته، واشترط الأفرنج
دخول صاحب أنطاکیة، وطرابلس فی عقد هدنتهم، وأن تكون لد
والرملة مناصفة بینهم و بین المسلمین، فاستقرت القاعدة علی ذلك.

ثم رحل السلطان إلى القدس فی رابع شهر رمضان وتفقد أحواله
بتسدید أسواره، وزاد فی وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه
المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصندحنة یذكرون أن فیها قبر حنة أم
مریم، ثم صارت فی الإسلام دار علم قبل أن یتملك الأفرنج القدس،
ثم لما ملك الأفرنج القدس أعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام، فلما
فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها إلى
القاضي بهاء الدین بن شداد.

ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة من الحجارین لتخريب
عسقلان، وأمر أن ینخرج من بها من الأفرنج، وعزم علی الحج والإحرام من
القدس، وكتب إلى أخیه سیف الإسلام صاحب الیمن بذلك، ثم ثبطه
الأمرء، وقالوا لا تعتمد علی هدنة الأفرنج خوفا من غدرهم فانتفض
عزمه عن ذلك.

ثم رحل السلطان عن القدس لخمس ماضین من شوال إلى نابلس،

ثم إلى بيسان، ثم إلى كوكب، فبات بقلعتها، ثم رحل إلى طبرية، ولقيه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي وقد خلص من الأسر، وكان قد أسر بعكا لما أخذها الأفرنج مع من أسر، فسار قراقوش مع السلطان إلى دمشق، ثم سار منها إلى مصر.

ثم سار السلطان إلى بيروت ووصل إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية يوم السبت الحادي والعشرين من شوال، فأكرمه السلطان وفارقه في غد ذلك اليوم، وسار السلطان إلى دمشق ودخلها يوم الأربعاء الخامس بقين من شوال، وفرح الناس به لأن غيبتهم عنهم كانت مدة أربع سنين، وأقام العدل والإحسان بدمشق، وأعطى السلطان العساكر الدستور، فودعه ولده الملك الظاهر وداعا لا لقاء بعده وسار إلى حلب، وبقي عند السلطان بدمشق ولده الأفضل والقاضي الفاضل، وكان الملك العادل قد استأذن السلطان وسار من القدس إلى الكرك لينظر في مصالحه، ثم عاد إلى دمشق طالبا البلاد الشرقية التي صارت له بعد تقي الدين، فوصل إلى دمشق في الحادي والعشرين من ذي القعدة وخرج السلطان للقاءه، وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة توفي الأمير سيف الدين المشطوب بنابلس، وكانت إقطاعه فوقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس، وأقطع الباقي للأمير عماد الدين أحمد ابن المشطوب وأميرين معه.

ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وأخبار الذين تولوا بعده

في هذه السنة أعني سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، في منتصف شعبان توفي السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان ييغو بن سلجوق، وكان ملكه في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وكان ذا سياسة وهيبة عظيمة، وعدل وافر

وغزوات كثيرة، وكان له عشرة بنين قد ولى كل واحد منهم قطرامن بلاد الروم، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور، وكان قد أعطاه أبوه سيواس، فسولت له نفسه القبض على أبيه وأخوته والانفراد بالسلطنة، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان، فسار قطب الدين ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية، وقال لوالده وهو في قبضته: أنا بين يديك أنفذ أوامرك، ثم إنه أشهد على والده بأنه جعله ولي عهده، ثم سار إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية، ووالده في القبضة معه وهو يظهر أن ما يفعله إنما هو بأمر والده، فخرج عسكر قيسارية لحربه فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية، فأكرمه وعظمه كما يجب عليه، فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة وبقي أبوه يتردد في بلاده بين أولاده كلما ضجر منهم واحد ينتقل إلى الآخر حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب برغلو، فقتل أباه قليج وأعطاه وجمع له وحشد، وسار معه إلى قونية فملكها وأخذها من ملكشاه، ثم سار إلى اقصر، واتفق أن عز الدين قليج أرسلان مرض ومات في التاريخ المذكور، فأخذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قونية فدفنه بها، واتفق موت ملكشاه بعد موت أبيه بقليل فاستقر كيخسرو في ملك قونية وأثبت أنه ولي عهد أبيه، ثم إن ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية، فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيرا بالملك الظاهر صاحب حلب، ثم مات ركن الدين سليمان سنة ست مائة وملك بعده ولده قليج أرسلان بن سليمان، فرجع كيخسرو إلى بلاد الروم وأزال ملك ابن سليمان وملك بلاد الروم جميعا، واستقرت له السلطنة ببلاد الروم وبقي كذلك إلى أن قتل وملك بعده ابنه عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، ثم توفي كيكاوس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيقياد ابن كيخسرو، وتوفي كيقياد سنة أربع وثلاثين

وستمائة، وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو، وكسره التتر سنة إحدى وأربعين وستمائة، وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم، ثم مات غياث الدين كيخسرو وانقضى بموته سلاطين بلاد الروم في الحقيقة، لأن من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم، وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما ركن الدين، وعز الدين، فملكا معا مدة مديدة، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة، وهرب أخوه عز الدين إلى القسطنطينية، وتغلب على ركن الدين معين الدين البرواناه، والبلاد في الحقيقة للتتر، ثم إن البرواناه قتل ركن الدين وأقام ابنا لركن الدين يخطب له بالسلطنة والحكم للبرواناه، وهو نائب للتتر على ما نذكره إن شاء الله تعالى

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة غزا شهاب الدين الغوري الهند فغنم وقتل ما لا يحصى، وفيها خرج السلطان طغريل من الحبس بعد قتل قزل أرسلان ابن الدكز، وكان قزل قد اعتقله حسبا تقدم ذكره في سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وفيها توفي راشد الدين سنان بن محمد، وكنيته أبو الحسن صاحب دعوة الإسماعيلية بقلاع الشام، وأصله من البصرة.

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف ابن أيوب

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان بدمشق على أكمل ما يكون من المسرة، وخرج إلى شرقي دمشق متصيذا، وغاب خمسة عشر يوما، وصحبته أخوه الملك العادل، ثم عاد إلى دمشق وودعه أخوه العادل وذاعا لا لقاء بعده، فمضى إلى الكرك، وأقام به حتى بلغه وفاة السلطان، وأقام السلطان بدمشق، وركب في يوم الجمعة خامس عشر

صفر وتلقى الحجاج ، وكان عادته أن لا يركب إلا وهو لابس كزاغند، فركب ذلك اليوم وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم، ولم يلبس الكزاغند ، ثم ذكره وهو راكب فطلب الكزاغند فلم يجده قد حملوه معه، ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج، ووصل إليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن، ثم عاد السلطان بين البساتين إلى جهة المنييع، ودخل إلى القلعة على الجسر، وكانت هذه آخر ركباته فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كسل عظيم، وغشيته نصف الليل حتى صفراوية، وأخذ المرض في التزايد وفصده الأطباء في الرابع، فاشتد مرضه وحدث به في التاسع وعشة وغاب ذهنه، وامتنع من تناول المشروب، واشتد الإرجاف في البلد، وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته، وحقن في العاشر حقنتين فحصل له راحة، وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا ، ثم لحقه عرق عظيم حتى نفذ من الفراش، واشتد المرض ليلة الثاني عشر من مرضه وهي ليلة السابع والعشرين من صفر، وحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده في القلعة بحيث إن احتضر في الليل ذكره بالشهادة، وتوفي السلطان في الليلة المذكورة، أعني في الليلة المسفرة عن نهار الأربعاء السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح، وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر وفاته، ووصل القاضي بهاء الدين بن شداد بعد وفاته وانتقاله إلى رحمة الله تعالى وكرامته، وغسله الفقيه الدولعي خطيب دمشق، وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الأربعاء المذكور في تابوت مسجى بثوب، وجميع ما احتاجه من الثياب في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من جهة حل عرفها، وصلى الناس عليه، ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضا فيها، وكان نزوله إلى جدته وقت صلاة العصر من النهار المذكور.

وكان الملك الأفضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عندما اشتد مرضه وجلس للعزاء في القلعة، وأرسل الملك الأفضل الكتب بوفاة

والده إلى أخيه العزيز عثمان بمصر، وإلى أخيه الظاهر غازي بحلب وإلى عمه الملك العادل أبي بكر بالكرك،

ثم إن الملك الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت دارا لرجل صالح، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ومشى الملك الأفضل بين يدي تابوته وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل ووضع قدام المنبر، وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن القاضي زكي الدين، ثم دفن وجلس ابنه الملك الأفضل في الجامع للغزاء ثلاثة أيام، وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة مالا عظيما.

وكان مولده السلطان صلاح الدين بتكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وكان عمره قريبا من سبع وخمسين سنة، وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة، وملكه للشام قريبا من تسع عشرة سنة، وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة، وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين علي بن يوسف، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة، وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو ستين، وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منهما، وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر.

ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزائنه غير سبعة وأربعين درهما، وجرم واحد صوري، وهذا من رجل له الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن دليل قاطع على فرط كرمه، ولم يخلف دارا ولا عقارا.

قال العماد الكاتب: حسبت ما أطلقه السلطان في مدة مقامه بمرج عكا من خيل عراب وأكاديش، فكان اثني عشر ألف رأس، وذلك غير

ما أطلقه من ثمن الخيل المصابة في القتال، فلم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به.

ولم يؤخر صلاة عن وقتها، ولا صلى إلا جماعة، وكان إذا عزم على أمر توكل على الله، ولا يفضل يوماً على يوم، وكان كثير سماع الحديث النبوي، وقرأ مختصراً في الفقه تصنيف سليم الرازي، وكان حسن الخلق صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه، وكان يوماً جالساً فرمى بعض الممليك بعضاً بسموزة فأخطأته، ووصلت إلى السلطان ووقفت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها، وكان طاهر المجلس فلا يذكر أحد بمجلسه إلا بخير، وطاهر اللسان فما ولع بشتم قط.

قال العماد الكاتب: مات بموت السلطان الرجال، وفات بفواته الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، وانقطعت الأرزاق، وادلهمت الآفاق، وفجع الزمان بواحدته وسلطانه، ورزى الإسلام بمشيد أركانه.

ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان

ولما توفي السلطان الملك الناصر صلاح الدين استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وبالديار المصرية الملك العزيز عثمان، وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أيوب، وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر، وببعلبك الملك الأجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي، وببيد

الملك خضر ابن السلطان صلاح الدين بصرى وهو في خدمة أخيه الملك الأفضل، ويبد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون منهم: سابق الدين عثمان ابن الداية بيده شيزر وأبو قبيس، وناصر الدين منكورس ابن خمارتكين بيده صهيون وحصن برزية، وبدر الدين دلدوم بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر، وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون، وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين المقدم بيده بغراس وكفر طاب وفامية.

والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان، والمعهود إليه بالسلطنة، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير، مصنف المثل السائر، وهو أخو عز الدين بن الأثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ففارقوه الى أخويه العزيز والظاهر.

قال العماد الكاتب: وتفرد الوزير في توزره، ومد الجزري بجزره، ولما اجتمعت أكابر الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة، ووقعوا في أخيه الأفضل، فمال الى ذلك، وحصلت الوحشة بين الأخوين: الأفضل والعزيز.

وفي هذه السنة بعد موت السلطان قدم الملك العادل من الكرك الى دمشق، وأقام فيها وظيفة العزاء على أخيه، ثم توجه الى بلاده التي وراء الفرات.

ذكر حركة عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى البلاد الشرقية التي بيد الملك العادل وعوده وموته

في هذه السنة لما مات السلطان صلاح الدين كاتب عز الدين مسعود ابن مودود بن عماد الدين زنكي ابن آق سنقر صاحب الموصل ملوك البلاد المجاورين للموصل يستنجدهم، ولذلك اتفق مع أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجان وسار إلى جهة حران وغيرها، فلحق عز الدين مسعود اسهال قوي، وضعف فترك العسكر مع أخيه عماد الدين وعاد إلى الموصل وصحبته مجاهد الدين قايماز، فحلف العسكر عز الدين لابنه أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر، وقوي بعز الدين مسعود المرض وتوفي في السابع والعشرين من شعبان في هذه السنة، فكانت مدة ما بين وفاته و وفاة السلطان صلاح الدين نصف سنة، وكانت مدة ملك عز الدين مسعود للموصل ثلاث عشرة سنة وستة أشهر، وكان دينا خيرا كثير الإحسان، وكان أسمر مليح الوجه خفيف العارضين يشبه جده عماد الدين زنكي، واستقر في ملك الموصل بعده ولده أرسلان شاه، وكان القيم بأمره مجاهد الدين قايماز

ذكر قتل بكتمر صاحب أخلاط

في هذه السنة في أول جمادى الأولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب أخلاط، وكان بين قتله وبين موت السلطان صلاح الدين شهران، ولما بلغ بكتمر موت السلطان صلاح الدين أسرف في إظهار الشماته بموت السلطان، وضرب البشائر ببلاده، وفرح فرحا كثيرا وعمل تختا يجلس عليه، ولقب نفسه السلطان المعظم صلاح الدين، وكان اسمه بكتمر فسمى نفسه الملك العزيز، فلم يمهل الله تعالى. وكان هذا بكتمر من عماليك ظهير الدين شاه أرمن وكان له خشداس اسمه هزار دیناری، وكان قد قوي وتزوج ابنة بكتمر، وطمع في الملك فوضع على بكتمر من

قتله، ولما قتل ملك بعده هزار ديناري خلط وأعمالها واسم هزار ديناري المذكور آق سنقر، ولقبه بدر الدين، وجلبه تاجر جرجاني اسمه علي إلى خلط فاشتره منه شاه أرمن سكمان بن ابراهيم، وأعجب به شاه أرمن فجعله ساقيا له ولقبه هزار ديناري، وبقي على ذلك برهة من الزمان، فلما تولى بكتمر على مملكة خلط بقي المذكور من أكبر الأمراء، وتزوج بنت بكتمر عينا خاتون، فلما قتل بكتمر خلف ولدا فأخذ هزار ديناري المذكور ولد بكتمر وأمه واعتقلها بقلعة إرزاس بموش، وكان عمر ابن بكتمر إذ ذاك نحو سبع سنين، واستمر بدر الدين آق سنقر هزار ديناري في مملكة خلط حتى توفي في سنة أربع وتسعين وخمسة، حسبما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك

في هذه السنة شتى شهاب الدين الغوري في بر شاوور وجهاز مملوكه أيبك في عساكر كثيرة إلى بلاد الهند ففتح وغنم، وعاد منصورا ومؤيدا.

وفيها: توفي سلطان شاه بن أرسلان بن اطسز بن محمد بن أنوشكين وكان قد ملك مرو وخراسان، ولما مات انفرد أخوه تكش بالمملكة، وقد تقدم ذكرهما في سنة ثمان وستين وخمسة.

وفيها: مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبي هاشم أمير مكة ومازالت إمارة مكة له تارة ولأخيه مكث تارة حتى مات.

ثم دخلت سنة تسعين وخمسة

ذكر قتل طغريل وملك خوارزم شاه الري

كان طغريل بن أرسلان بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن

داود بن ميكائيل السلجوقي قد حبسه قزل أرسلان بن ألدكز، وخرج طغريل من الحبس في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وملك همدان وغيرها، وجرى حرب بينه وبين مظفر الدين ألبك بن البهلوان محمد بن ألدكز، وقيل بل هو قطلغ اينانج أخو ألبك المذكور، فانهزم ابن البهلوان، ثم إن ابن البهلوان بعد هزيمته استنجد بخوارزم شاه علاء الدين تكش، فخاف منه فلم يجتمع بخوارزم شاه، فسار خوارزم شاه تكش وملك الري، وذلك في سنة ثمان وثمانين، وبلغ تكش أن أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم فصالح طغريل السلجوقي، وعاد تكش إلى خوارزم، وبقي الأمر كذلك حتى مات سلطان شاه في سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فتسلم تكش مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه وولى ابنه محمد بن تكش نيسابور وولى ابنه الأكبر ملكشاه بن تكش مرو، ولما دخلت سنة تسعين سار تكش إلى حرب طغريل السلجوقي، فسار طغريل إلى لقائه قبل أن يجمع عساكره، والتقى العسكران بالقرب من الري، وحمل طغريل بنفسه فقتل وكان قتله في الرابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وحمل رأس طغريل إلى تكش، فأرسله إلى بغداد فنصب بها عدة أيام وسار تكش، فملك همدان وتلك البلاد جميعها، وسلم بعضها إلى ابن البهلوان، وأقطع بعضها لماليكه ورجع إلى خوارزم، وهذا طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل بن سلجوق هو آخر السلاطين السلجوقية الذين ملكوا بلاد العجم، وقد تقدم ذكر ابتداء الدولة السلجوقية في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وأول من ملك منهم العراق وأزال دولة بني بوية طغريل بك ابن ميكائيل بن سلجوق ثم ملك بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل ثم ابنه ملكشاه ابن ألب أرسلان، ثم ابنه محمود بن ملكشاه وكان طفلاً فقامت بتدبير المملكة أم محمود ترکان خاتون، ومات محمود وهو ابن سبع سنين، وملك أخوه بركيارق بن ملكشاه، ثم أخوه محمد بن ملكشاه، ثم ابنه محمود بن محمد المذكور، ثم ابنه داود بن محمود بن

محمد المذكور مدة يسيرة، ثم عمه طغريل بن محمد، ثم أخوه مسعود ابن محمد، ثم ان ابن أخيه ملكشاه بن محمود بن محمد أياما يسيرة، ثم أخوه محمد بن محمود، ثم بعد محمد المذكور اختلفت، العساكر وقام من بني سلجوق ثلاثة: أحدهم ملكشاه بن محمود أخو محمد المذكور، والثاني سليمان شاه بن محمد بن السلطان ملكشاه، وهو عم محمد المذكور، والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن السلطان ملكشاه، وهو عم محمد المذكور، والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن السلطان المذكور، وكان ألكز متزوجا بأمر أرسلان شاه المذكور، فقوي عليها سليمان شاه واستقر في همدان في سنة خمس وخمسين وخمسة، ثم قبض سليمان شاه وقتل وكذلك سم ملكشاه بن محمود المذكور ومات بأصفهان في السنة المذكورة، أعني سنة خمس وخمسين وخمسة، وانفرد بالسلطنة أرسلان شاه بن طغريل ربيب ألكز، ثم ملك بعده ابنه طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل المذكور في سنة ثلاث وسبعين وخمسة، وجرى له ما ذكرناه حتى قتله تكش في هذه السنة أعني سنة تسعين وخمسة وانقرضت به الدولة السلجوقية من تلك البلاد.....

وفي هذه السنة — أعني سنة تسعين — استحكمت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل ابني السلطان صلاح الدين، فسار العزيز في عسكر مصر وحصر أخاه الأفضل بدمشق، فأرسل الأفضل إلى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم فساروا إلى دمشق وأصلحوا بين الأخوين، ورجع العزيز إلى مصر ورجع كل ملك إلى بلده، وأقبل الملك الأفضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الأغاني والأوتار ليلا ونهارا، وأشاع ندماؤه أن عمه الملك العادل حسن له ذلك وكان يعلمه بالخفية فأنشده العادل:

لذات مـ دونهـا سـتر

فقبل وصية عمه وتظاهر بذلك وفوض أمر المملكة إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري يدبرها برأيه الفاسد، ثم إن الملك الأفضل أظهر التوبة عن ذلك وأزال المنكرات وواظب على الصلوات، وشرع في نسخ مصحف بيده.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسة

وفيها: عاود الملك العزيز عثمان صاحب مصر قصد الشام ومنازلة أخيه الملك الأفضل فسار ونزل الفوار من أرض السواد من بلاد دمشق، فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه وهم طائفة من الأمراء الأسدية وفارقوه، فبادر العزيز العود إلى مصر بمن بقي معه من العسكر، وكان الملك الأفضل قد استنجد بعمه الملك العادل لما قصده أخوه العزيز، فلما رحل العزيز عائدا إلى مصر رحل الملك الأفضل وعمه العادل ومن انضم إليهما من الأسدية، وساروا في إثر العزيز طالبين مصر فساروا حتى نزلوا على بلبيس وقد ترك فيها العزيز جماعة من الصلاحية، وقصد الملك الأفضل مناجزتهم بالقتال فمنعه العادل عن ذلك فقصد الأفضل المسير إلى مصر والاستيلاء عليها فمنعه عمه العادل أيضا من ذلك، وقال مصر لك متى شئت، وكاتب العادل العزيز في الباطن وأمره بإرسال القاضي الفاضل ليصلح بين الأخوين، وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملابتهم لما رأى من فساد أحوالهم فدخل عليه الملك العزيز وسأله، فتوجه القاضي الفاضل من القاهرة إلى عند الملك العادل واجتمع به واتفقا على أن يصلحا بين الأخوين، فأصلحا بينهما، وأقام الملك العادل بمصر عند العزيز ابن أخيه ليقرر أمور مملكته وعاد الأفضل إلى دمشق.

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسةائة

وفيها: نقل الملك الأفضل أباه السلطان صلاح الدين من قلعة دمشق إلى التربة بالمدينة في صفر فكان مدة لبثه بالقلعة ثلاث سنين، ولزم الملك الأفضل الزهد والقناعة وأموره مفوضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري، وقد اختلفت الأحوال به، وكثر شاكوه وقل شاكره.

ذكر انتزاع دمشق من الملك الأفضل

لما بلغ الملك العادل في مصر والملك العزيز اضطراب الأمور على الملك الأفضل، اتفق العادل مع العزيز على أن يأخذ دمشق، وأن يسلمها العزيز إلى العادل لتكون الخطبة والسكة للعزيز بسائر البلاد كما كانت لأبيه، فخرجوا وسارا من مصر، فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين، وهو أحد أمرائه، وكان فلك الدين أخا الملك العادل لأمه، واجتمع فلك الدين بالملك العادل فأكرمه وأظهر الإجابة إلى ما طلبه، وأتم العادل والعزيز السير حتى نزلا على دمشق، وقد حصنها الملك الأفضل فكتب بعض الأمراء من داخل البلد الملك العادل وصاروا معه، وأنهم يسلمون المدينة إليه، فزحف الملك العادل والملك العزيز ضحى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب من هذه السنة، فدخل الملك العزيز من باب الفرج والملك العادل من باب توما فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة، وانتقل منها بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره ضياء الدين بن الأثير مختفيا في صندوق خوفا عليه من القتل، وكان الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين صاحب بصرى مع أخيه الأفضل ومعاظدا له، فأخذت منه بصرى أيضا فلحق بأخيه الملك الظاهر، فأقام عنده بحلب وأعطى الأفضل صرخد، فسار إليها بأهله واستوطنها، ودخل الملك العزيز إلى دمشق يوم الأربعاء رابع شعبان ثم سلم دمشق إلى عمه الملك العادل على حكم ما كان وقع عليه الإتفاق

بينهما، وتسلمها الملك العادل، ورحل الملك العزيز من دمشق عشية يوم الإثنين تاسع شعبان، وكانت مدة ملك الملك الأفضل لدمشق ثلاث سنين وشهرا، وأبقى الملك العادل السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز، ولما استقر الأفضل بصرخند كتب إلى الخليفة الإمام الناصر يشكو من عمه العادل أبي بكر، وأخيه العزيز عثمان وأول الكتاب: مولاي إن أبا بكر وصاحبه

عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي
من الأواخر ما لاقى من الأول

فكتب الإمام الناصر جوابه:
وافي كتابك يا بن يوسف معلنا
بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبا واعلياً حقه إذ لم يكن
بعد النبي له يشرب ناصر
فاصبر فإن غدا حسابهم
وابشر فنناصرك الإمام الناصر

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة سيف الاسلام

..... في هذه السنة في شوال توفي سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب اليمن، ولما مات سيف الاسلام كان ولده الملك العزيز اسماعيل بالسرين، فبعث إليه جمال الدولة كافور جماعة من الجند فعرفوه بوفاة والده ومضوا به إلى ممالك أبيه فسلموها إليه، وكانت وفاة سيف الاسلام بزييد، وكان شديد السيرة مضيقا على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء، وجمع من الأموال ما لا يحصى حتى أنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة

في هذه السنة في المحرم توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ابن أقر سنقر صاحب سنجار، والخابور، والرقعة، وكان حسن السيرة متواضعا يحب أهل العلم، إلا أنه كان بخيلا شديد البخل، وملك بعده ولده قطب الدين محمد بن زنكي، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرنقش مملوك أبيه.

وفيها: في جمادى الأولى سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى نصيبين فاستولى عليها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي، فأرسل قطب الدين محمد واستنجد بالملك العادل، فسار الملك العادل إلى البلاد الجزرية، ففارق نور الدين أرسلان شاه نصيبين وعاد إلى الموصل، فعاد قطب الدين محمد بن زنكي وتسلم نصيبين.....

وفيها: وصل جمع عظيم من الفرنج إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت، وسار الملك العادل ونزل بتل العجول، وأتته النجدة من مصر، ووصل إليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس، ثم سار الملك العادل إلى يافا وهجمها بالسيف وملكها وقتل الرجال المقاتلة، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها، ونازلت الفرنج تبين، فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز صاحب مصر، فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر واجتمع بعمه الملك العادل على تبين، فرحل الفرنج على أعقابهم إلى صور خائبين، ثم عاد الملك العزيز إلى مصر وترك غالب العسكر مع عمه العادل، وجعل إليه أمر الحرب والصلح، ومات في هذه المدة سنقر الكبير، فجعل الملك العزيز أمر القدس إلى صارم الدين خطلف مملوك عز الدين فرخشاہ بن شاهنشاه بن أيوب.

ثم طاول الملك العادل الفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين، ورجع الملك العادل إلى دمشق، ثم سار الملك العادل من دمشق إلى ماردين وحصرها وصاحبها حينئذ يولق أرسلان بن إيلغازي بن ألبى ابن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق، وليس ليولق أرسلان من الحكم شيء وإنما الحكم إلى مملوك والده البقش.....

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة العزيز صاحب مصر

في هذه السنة في منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم توفي الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يومسف بن أيوب، وكان قد طلع إلى الصيد، فركض خلف ذئب، فتقنطر وحمل سابع المحرم في جهة الفيوم، فعاد إلى الأهرام وقد اشتدت حماه، ثم توجه إلى القاهرة فدخلها يوم عاشوراء وحدث به يرقان وقرحة في المعى، واحتبس طبعه فمات في التاريخ المذكور، وكانت مدة مملكته ست سنين إلا شهرا، وكان عمره سبعا وعشرين سنة وأشهرًا، وكان في غاية السباحة والكرم والعدل، والرفق بالرعية، والإحسان إليهم، ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة، وكان الغالب على دولة العزيز فخر الدين جهار كس، فأقام في الملك ولد الملك العزيز الملك المنصور محمد، واتفقت الأمراء على إحضار واحد من بني أيوب ليقوم بالملك، وعملوا مشورة بحضور القاضي الفاضل، فأشار بالملك الأفضل وهو حينئذ بصرخد، فأرسلوا إليه فسار محثا ووصل إلى مصر على أنه أتاك الملك المنصور بن الملك العزيز، وكان عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين وشهرا، وكان مسير الملك الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر في تسعة عشر نفرا متنكرا خوفا من أصحاب عمه الملك العادل، فإن غالب تلك البلاد كانت له، فوصل بلبيس خامس ربيع الأول، ثم سار

الملك الأفضل إلى القاهرة، فخرج الملك المنصور بن العزيز للقائه فترجل له عمه الملك الأفضل ودخل بين يديه إلى دار الوزارة، وهي كانت مقر السلطنة، ولما وصل الملك الأفضل إلى بليس التقاه العسكر، فتكر منه فخر الدين جهاركس، وفارقه وتبعه عدة من العسكر، وساروا إلى الشام وكتبوا الملك العادل، وهو محاصر ماردين، وأرسل الملك الظاهر إلى أخيه الملك الأفضل يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل وأن يتتهد الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين؛ فبرز الملك الأفضل من مصر وسار إلى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره إلى دمشق، فترك على حصار ماردين ولده الملك الكامل، وسار العادل وسبق الأفضل ودخل دمشق قبل نزول الأفضل عليها بيومين، ونزل الملك الأفضل على دمشق ثالث عشر شعبان من هذه السنة، وزحف من الغد على البلد وجرى بينهم قتال وهجم بعض عسكره المدينة حتى وصل إلى باب البريد، ولم يمدهم العسكر فتكاثروا أصحاب الملك العادل وأخرجوهم من البلد، ثم تحاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوة، ثم وصل إلى الملك الأفضل أخوه الظاهر صاحب حلب فعاد إلى مضايقة دمشق، ودام الحصار عليها، وقلت الأقوات عند الملك العادل وعلى أهل البلد، وأشرف الأفضل والظاهر على ملك دمشق وعزم العادل على تسليم البلد لولا ما حصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلف، وخرجت السنة وهم على ذلك، وكان منهم ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة على بارين

وفي شهر رمضان من هذه السنة قصد الملك المنصور صاحب حماة

بارين وبها نواب عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وحاصرها، وكان عز الدين ابراهيم مع الملك العادل محصورا معه بدمشق، ونصب الملك المنصور عليها المجانيق وانجرح الملك المنصور حال الزحف، ثم فتحها في التاسع والعشرين من ذي القعدة وأقام ببارين مدة حتى أصلح أمورها.....

وفي هذه السنة رحل عسكر الملك العادل مع ابنه الملك الكامل عن حصار ماردين.....

وفي هذه السنة في ربيع الأول توفي مجاهد الدين قايماز بقلعة الموصل وهو الحاكم في دولة نور الدين أرسلان، حتى قبض عليه مسعود، ثم أخرجه بعد مدة وكان قايماز عاقلا أديبا فاضلا في الفقه على مذهب أبي حنيفة، وبنى عدة جوامع وربط ومدارس.....

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسة

والملكان الأفضل والظاهر محاصران لمدينة دمشق، واتفق وقوع الخلف بين الأخوين الأفضل والظاهر، وسببه أنه كان للملك الظاهر مملوك يحبه اسمه أييك، ففقد ووجد عليه الملك الظاهر وجدا عظيما، وتوهم أنه دخل دمشق فأرسل من تكشف خبره، وأطلع الملك العادل وهو محصور على القضية فأرسل إلى الظاهر يقول له ان محمود بن الشكري أفسد مملوكك وحمله إلى الأفضل أخيك فقبض الظاهر على ابن الشكري فظهر المملوك عنده، فتغير الظاهر على أخيه الأفضل وترك قتال العادل، وظهر الفشل في العسكر فتأخر الأفضل والظاهر عن دمشق، وأقاما بمرج الصفر إلى أواخر صفر، ثم سارا إلى رأس الماء ليقبها به إلى أن ينسلخ الشتاء، ثم انثنى عزمهما وسار الأفضل إلى مصر، والظاهر إلى حلب على القريتين، ولما تفرقا خرج الملك العادل من دمشق وسار في إثر الأفضل

إلى مصر، ولما وصل الأفضل إلى مصر تفرقت عساكره في بلادهم لأجل الربيع فأدركه عمه العادل، فخرج الأفضل بمن بقي عنده من العسكر وضرب معه مصافا بالسايح فانكسر الأفضل وانهزم إلى القاهرة، ونازل العادل القاهرة ثمانية أيام فأجاب الأفضل إلى تسليمها على أن يعرض عنها ميفارقين وحاني وسمسياط، فأجابه العادل إلى ذلك ولم يف له به، وكان دخول العادل إلى القاهرة في الحادي والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة.

وقال ابن الأثير: كان دخول العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر فيها، وتوفي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في سابع عشر ربيع الآخر، وقيل إن مولد القاضي الفاضل سنة ست وعشرين وخمسة فكان عمره نحو سبعين سنة، ثم سافر الملك الأفضل إلى صرخد وأقام العادل بمصر على أنه أتاك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة، ثم أزال الملك المنصور محمد المذكور واستقل العادل في السلطنة، ولما استقرت المملكة للملك العادل أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماة يعتذر إليه مما وقع منه بسبب أخذه بعين من ابن المقدم، فقبل الملك العادل عذره، وأمره برد بعين إلى ابن المقدم فاعتذر الملك المنصور عنها بقربها من حماة، ونزل عن منبج وقلعة نجم لابن المقدم عوضا عن بعين، فرضي ابن المقدم بذلك لأنها خير من بعين بكثير، وتسلمهما عز الدين ابراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، وكان له أيضا فامية وكفر طاب وخمس وعشرون ضيعة من المعرة، وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل وصالحه وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه، واشترط الملك العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل كلما خرج إلى البيكار، والتزم صاحب حلب بذلك،

وقصر النيل في هذه السنة تقصيرا عظيما حتى أنه لم يبلغ أربعة عشر ذراعا.....

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسة

لما دخلت هذه السنة كان بالديار المصرية الملك العادل، وعنده ابنه الملك الكامل محمد وهو نائبه بها، وبحلب الملك الظاهر، وهو مجد في تحصين حلب خوفا من عمه الملك العادل، وبدمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل نائب أبيه بها، وبالشرق الملك ابراهيم ابن الملك العادل، وبميفارقين الملك الأوحى نجم الدين أيوب ابن الملك العادل.

وفي هذه السنة: توفي عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، وصارت البلاد بعده وهي منبج، وقلعة نجم، وفامية، وكفر طاب، لأخيه شمس الدين عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، ولما استقر شمس الدين عبد الملك بمنبج سار إليها الملك الظاهر صاحب حلب وحصرها وملك منبج، وعصى عبد الملك بن المقدم بالقلعة فحصره ونزل عبد الملك بالأمان، فاعتقله الملك الظاهر، وملك قلعة منبج، وبعد أن فرغ من منبج سار إلى قلعة نجم، وبها نائب ابن المقدم فحصرها وملكها في آخر رجب من هذه السنة، وأرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور صاحب حماة يبذل له منبج وقلعة نجم على أن يصير معه على الملك العادل، فاعتذر صاحب حماة باليمين التي في عنقه للملك العادل، فلما آيس الملك الظاهر منه سار إلى المعرة، وأقطع بلادها، واستولى على كفر طاب، وكانت لابن المقدم، ثم سار إلى فامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم، وأرسل الملك الظاهر أحضر عبد الملك ابن المقدم من حلب، وكان معتقلا بها، وأحضر معه أصحابه الذين اعتقلهم وضر بهم قدام قراقوش ليسلم فامية، فامتنع قراقوش فأمر الملك

الظاهر بضرب عبد الملك بن المقدم فضرب ضربا شديدا وبقي يستغيث، فأمر قراقوش فضربت النقارات على قلعة فامية لئلا يسمع أهل البلد صراخه ولم يسلم القلعة، فرحل عنها الملك الظاهر، وتوجه إلى حماة، وحاصرها لثلاث بقين من شعبان من هذه السنة، ونزل شمالي البلد، وشعث التربة التقوية وبعض البساتين، وزحف من جهة الباب الغربي، وقاتل قتالا شديدا، ثم زحف وجرح الملك الظاهر بسهم في ساقه، واستمرت الحرب إلى أيام من رمضان، فلما لم يحصل على غرض صالح الملك المنصور وعلى مال يحمله إليه قيل إنه ثلاثون ألف دينار صورية، ثم رحل الملك الظاهر إلى دمشق، وبها الملك المعظم ابن الملك العادل فنازلها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الأفضل، وانضم إليهما فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الأمراء الصلاحية، واستقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل والظاهر أنها متى ملكا دمشق يتسلمها الملك الأفضل، ثم يسيران ويأخذان مصر من الملك العادل، ويتسلمها الملك الأفضل، وتسلم دمشق حيثئذ إلى الملك الظاهر صاحب حلب، بحيث تبقى مصر للملك الأفضل، ويصير الشام جميعه للملك الظاهر، وكان قد تخلف من أكابر الأمراء الصلاحية عنهما: فخر الدين جهاركس، وزين الدين قراجا، فأرسل الملك الأفضل وسلم صرخد إلى زين الدين قراجا، ونقل الملك الأفضل والدته وأهله إلى حمص عند شيركوه، وبلغ الملك العادل حصار الأخوين دمشق، فخرج بعساكر مصر، وأقام بنابلس ولم يجسر على قتالهما، واشتدت مضايقة الأخوين الأفضل والظاهر لدمشق، وتعلق النقابون بسورها فلما شاهد الملك الظاهر صاحب حلب ذلك حسد أخاه الملك الأفضل على دمشق، وقال له: أريد أن تسلم إلي دمشق الآن، فقال له الأفضل: إن حريمي حريمك وهم على الأرض وليس لنا موضع نقيم فيه وهب هذه البلد لك فاجعله إلي إلى حين تملك مصر وتأخذه، فامتنع الظاهر من قبول ذلك، وكان قتال العسكر والأمراء الصلاحية إنما كان لأجل

الأفضل، فقال لهم الأفضل: إن كان قتالكم لأجلي فاتركوا القتال، وصالحوا الملك العادل، وإن كان قتالكم لأجل أخي الملك الظاهر فأنتم وإياه، فقالوا: إنما قتالنا لأجلك وتخلوا عن القتال، وأرسلوا وصالحوا الملك العادل، وخرجت السنة وهم محاصرون دمشق، وقد تفرقت العساكر، فرحل الملك الظاهر عن دمشق في أول المحرم سنة ثمان وتسعين، وسار الأفضل إلى حمص.

وفي هذه السنة: أعني سنة سبع وتسعين توفي عماد الدين الكاتب محمد بن عبد الله بن حامد الأصفهاني، وكان فاضلا في الفقه والأدب، والخلاف، والتاريخ، وله النظم البديع، والنثر الفائق، وكتب لنور الدين، ولصلاح الدين، وله التصانيف الحسنة منها: البرق الشامي، وخريدة القصر، وكان مولده سنة تسع عشرة وخمسة، وكان عمره نيفا وسبعين سنة.....

وفيها: كان بمصر غلاء شديد بسبب نقص النيل، وفيها: كان بالجزيرة والشام والسواحل زلزلة عظيمة فهدمت مدنا كثيرة.

وفيها: في رمضان توفي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحنبلي الواعظ المشهور وتصانيفه مشهورة، وكان كثير الوقعة في العلماء، وكان مولده سنة عشر وخمسة.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسة

في هذه السنة بعد رحيل الملك الأفضل والظاهر عن دمشق كما ذكرنا، قدم إليها الملك العادل، وكان قد سار ميمون القصري مع الملك الظاهر فأقطعه اعزاز، وفيها: خرب الملك الظاهر قلعة منبج خوفا من انتزاعها منه، وأقطع منبج بعد ذلك عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب. وفيها أرسل قراقوش نائب عبد الملك بن محمد

ابن عبد الملك بن المقدم بفامية إلى الملك الظاهر يبذل له تسليم فامية بشرط أن يعطي شمس الدين عبد الملك بن المقدم أقطاعا يرضاه فأقطعه الملك الظاهر الراوندان، وكفر طاب، ومفردة المعرة وهو عشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة، وتسلم فامية، ثم إن عبد الملك بن المقدم عصى بالراوندان، فسار إليه الملك الظاهر واستنزله منها وأبعده، فلحق ابن المقدم بالملك العادل فأحسن إليه.

وفيها: سار الملك العادل من دمشق ووصل إلى حماة ونزل على تل صفرون، وقام الملك المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكلفه، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه العادل إلى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب فاستعد للحصار بحلب، وراسل عمه ولاطفه وأهدى إليه، ووقعت بينهما مراسلات، ووقع الصلح وانتزعت منه مفردة المعرة، واستقرت للملك المنصور صاحب حماة، وأخذت من الملك الظاهر أيضا قلعة نجم وسلمت إلى الملك الأفضل، وكان له سروج وسميساط، وسلم الملك العادل حران ومامعها لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى وسيره إلى الشرق، وكان بميفارقين الملك الأوحده ابن الملك العادل، وبقلة جعبر الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ابن الملك العادل، ولما استقر الصلح بين الملك العادل والظاهر رجع الملك العادل إلى دمشق وأقام بها، وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية، والديار المصرية كلها في سلك ملكه، وخطب له على منابرها وضربت السكة فيها باسمه.

وفي هذه السنة أرسل السلطان الملك العادل إلى ولده الملك الأشرف وأمره بحصار ماردین فحصرها وضايقها، ثم سعى الملك الظاهر إلى الملك العادل في الصلح فأجاب إلى أن يحمل إليه صاحب ماردین مائة ألف وخمسين ألف دينار، ويخطب له ببلاده ويضرب بالسكة باسمه، ويكون بخدمته متى طلبه، فأجيب إلى ذلك، واستقر الصلح عليه.

وفيها أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز من مصر إلى الشام، فسار بوالدته وأخوته، وأقام بحلب عند عمه الملك الظاهر.

وفيها سار الملك المنصور صاحب حماة إلى بعرين مرابطا للفرنج، وأقام بها وكتب الملك العادل إلى صاحب بعلبك وإلى صاحب حمص بانجاده فأنجده، واجتمعت الفرنج من حصن الأكراد وطرابلس وغيرها وقصدوا الملك المنصور ببعرين، واتقعوا معه في ثالث شهر رمضان من هذه السنة واقتتلوا فانهمز الفرنج وقتل وأسر من خيلهم جماعة وكان يوما مشهودا.....

ثم خرج من حصن الأكراد والمرقب الاسبتار، وانضم إليهم جموع من السواحل واتقعوا مع الملك المنصور صاحب حماة وهو نازل ببعرين في الحادي والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة بعد الوقعة الأولى بثمانية عشر يوما، فانتصر ثانيا، وانهمزت الفرنج هزيمة شنيعة، وأسر الملك المنصور وقتل منهم عدة كثيرة.....

وفي هذه السنة ولد الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور محمد صاحب حماة من ملكة خاتون بنت السلطان الملك العادل أبي بكر ابن أيوب وسمي عمر، وإنما سمي محمودا بعد ذلك، وكانت ولادته بقلعة حماة ظهر يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان من هذه السنة.

وفي هذه السنة أرسل الملك العادل وانتزع ماكان بيد الملك الأفضل وهي رأس عين، وسروج، وقلعة نجم، ولم يترك بيده غير سميساط فقط، فأرسل الملك الأفضل والدته فدخلت على الملك المنصور صاحب حماة ليرسل معها من يشفع في الملك الأفضل عند الملك العادل في ابقاء ماكان بيده، وتوجهت أم الملك الأفضل، وتوجه معها من حماة القاضي زين الدين ابن الهندي إلى الملك العادل فلم يجبها الملك العادل ورجعت خائبة.

قال عز الدين بن الأثير مؤلف الكامل: وقد عوقب البيت الصلاحي بمثل ما فعله والدهم السلطان صلاح الدين لما خرجت إليه نساء بيت الأتابك ومن جملتهن بنت نور الدين الشهيد يشفعن في إبقاء الموصل على عز الدين مسعود، فردهن ولم يجب إلى سؤالهن، ثم ندم رحمه الله تعالى على ردهن، فجري للملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين مع عمه مثل ذلك، ولما جرى ذلك أقام الملك الأفضل بسميساط وقطع خطبة عمه الملك العادل، وخطب للسلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود السلجوقي صاحب بلاد الروم.....

وفي هذه السنة استولى الكرج على مدينة دوين من أذربيجان ونهبوها وقتلوا أهلها، وكانت هي وجميع أذربيجان للأمير أبي بكر بن البهلوان، وكان مشغولا ليلا ونهارا بشرب الخمر، ولا يلتفت إلى تدبير مملكته، ووبخه أمراؤه ونوابه على ذلك فلم يلتفت.

وفيها. توفيت زمرد أم الخليفة الإمام الناصر، وكانت كثيرة المعروف.

ثم دخلت سنة ست مائة

والمملك العادل بدمشق وفيها كانت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج.

وفيها نازل ابن لاوون ملك الأرمن أنطاكية فتحرك الملك الظاهر صاحب حلب ووصل إلى حارم، فرحل ابن لاوون عن أنطاكية على عقبه.

وفيها خطب قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار للملك العادل ببلاده وانتمى إليه، فصعب على ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود وقصد نصيبين وهي لقطب الدين واستولى على مدينتها، فاستنجد قطب الدين بالملك الأشرف بن

العادل، فسار إليه واجتمع معه أخوه الملك الأوحى صاحب ميفارقين والتقى الفريقان بقرية يقال لها بوشره، فانهزم نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل هزيمة قبيحة، ودخل إلى الموصل وليس معه غير أربعة أنفس، وكانت هذه الواقعة أول ما عرفت من سعادة الملك الأشرف ابن العادل، فإنه لم يهزم له راية بعد ذلك، واستقرت بلاد قطب الدين محمد بن زنكي عليه، ووقع الصلح بينهم في أول سنة احدى وستائة.

وفيهما اجتمع الفرنج لقصد بيت المقدس، فخرج السلطان الملك العادل من دمشق وجمع العساكر، ونزل على الطور في قبالة الفرنج ودام ذلك إلى آخر السنة.

وفيهما استولت الفرنج على قسطنطينية، وكانت قسطنطينية بيد الروم من قديم الزمان، فلما كانت هذه السنة اجتمعت الفرنج وقصدها في جموع عظيمة وحاصروها فملكوها وأزالوا يد الروم عنها، ولم تزل بأيدي الفرنج إلى سنة ستين وستائة فقصدتها الروم واستعادوها من الفرنج.

وفيهما توفي السلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود ابن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن ييغو أرسلان بن سلجوق، سلطان بلاد الروم في سادس ذي القعدة حسبما قدمنا ذكره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وكان مرضه بالقولنج، وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكورية، وهي أنقرة، وكان ركن الدين المذكور يميل إلى مذهب الفلاسفة ويحسن إلى طائفتهم ويقدمهم، ولما مات ركن الدين ملك ولده قليج أرسلان بن سليمان، وكان صغيراً، فلم يستثبت أمره، وكان ما سذكره إن شاء الله تعالى.....

وفيهما خرج أسطول للفرنج فاستولوا على مدينة فوه من الديار المصرية فنهبوها خمسة أيام، وفيها كانت زلزلة عظيمة عمت مصر والشام

والجزيرة، وبلاد الروم، وصقلية، وقبرس، والعراق، وغيرها وخربت سور
مدينة صور.

ثم دخلت سنة إحدى وستمائة

في هذه السنة كانت الهدنة بين الملك العادل والفرنج، وسلم إلى
الفرنج يافا، ونزل عن مناصفات لد، والرملة، ولما استقرت الهدنة أعطى
العساكر دستورا وسار العادل إلى مصر وأقام بدار الوزارة.

وفيها أغارت الفرنج على حماة، ووصلوا إلى قرب حماة إلى قرية الرقيطا،
وامتلأت أيديهم من المكاسب وأسروا من أهل حماة شهاب الدين بن
البلاعي، وكان فقيها شجاعا تولى بر حماة مرة، وسلمية أخرى، وحمل إلى
طرابلس فهرب وتعلق بجبال بعلبك، ووصل إلى أهله بحماة سالما، ثم
وقعت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج، وفيها بعد
الهدنة توجه الملك المنصور صاحب حماة إلى مصر، وكان عنده استشعار
من السلطان الملك العادل، فلما وصل إليه بالقاهرة أحسن إليه إحسانا
كبيرا، وأقام في خدمته شهورا ثم خلع عليه وعلى أصحابه، وعاد إلى حماة.

وفيها ملك السلطان غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان بلاد
الروم، وكان لما تغلب أخوه ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان على
البلاد قد هرب كيخسرو المذكور إلى الملك الظاهر صاحب حلب، ثم
تركه، وسار إلى قسطنطينية فأحسن إليه صاحبها، وأقام بالقسطنطينية إلى
أن مات أخوه ركن الدين سليمان، وتولى ابنه قليج أرسلان، فسار
كيخسرو من قسطنطينية وأزال أمر ابن أخيه، وملك بلاد الروم، واستقر
أمره.

وفيها؛ كانت الحرب بين الأمير قتادة الحسيني أمير مكة، وبين الأمير
سالم بن قاسم الحسيني، أمير المدينة وكانت الحرب بينهما سجالا.

ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة

والملك العادل بالديار المصرية والممالك بحالها.....

في هذه السنة توفي الأمير مجير الدين طاشتكين أمير الحاج، وكان قد ولاه الخليفة على جميع خورستان، وكان خيرا صالحا، وكان يتشيع وفيها تزوج ابو بكر بن البهلوان بابنة ملك الكرج، وذلك لاشتغاله بالشرب عن تدبير المملكة، فعدل إلى المصاهرة والهدنة، فكف الكرج عنه.

ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة

في هذه السنة سار الملك العادل من مصر إلى الشام، ونازل في طريقه عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى، ثم وصل إلى دمشق، ثم سار منها ونزل بظاهر حمص على بحيرة قدس، واستدعى بالعساكر فأتته من كل جهة، وأقام على البحيرة حتى خرج رمضان، ثم سار ونازل حصن الأكراد، وفتح برج أعزاز وأخذ منه سلاحا ومالا، وخمسائة رجل، ثم سار ونازل طرابلس ونصب عليها المجانيق، وعاث العسكر في بلادها وقطع قناتها، ثم عاد في أواخر ذي الحجة إلى بحيرة قدس بظاهر حمص.....

وفيها في ثالث شعبان ملك غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم أنطالية - باللام - وهي مدينة للروم على ساحل البحر. وفيها قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر، وكان أتابك قتلغ مملوك شاه أرمن فقبض عليه ابن بكتمر، فثارت عليه أبواب الدولة وقبضوه، وملكوا بلبان مملوك شاه أرمن ابن سقمان صاحب خلاط حسبما تقدم ذكره في سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربع وستمائة

والملك العادل نازل على بحيرة قدس، ثم وقع الهدنة بينه وبين صاحب طرابلس، وعاد الملك العادل إلى دمشق وأقام بها.

ذكر استيلاء الملك الأوحـد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل على خلاط

في هذه السنة ملك الملك الأوحـد أيوب ابن الملك العادل خلاط، وكان صاحب خلاط بلبان حسبا قدمنا ذكره في سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فسار الملك الأوحـد من ميفارقين وملك مدينة موش، ثم اقتتل هو وبلبان صاحب خلاط، فانهزم بلبان واستنجد بصاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقي، فسار طغريل شاه واجتمع به بلبان فهزما الملك الأوحـد، ثم غدر طغريل شاه بلبان فقتله غدرا ليملك بلاده، وقصد خلاط فلم يسلموها إليه، وقصد منازل كرد فلم تسلم إليه، فرجع طغريل شاه إلى بلاده فكاتب أهل خلاط الملك الأوحـد، فسار إليهم وتسلم خلاط وبلادها بعد إياسه منها واستقر ملكه بها.

وفي هذه السنة لما استقر الملك العادل بدمشق وصل إليه الشريف من الخليفة الإمام الناصر صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردي، فبالغ الملك العادل في إكرام الشيخ، والتقاء إلى القصير، ووصل من صاحبي حلب وحماة ذهب لينثر على الملك العادل إذا لبس الخلعة، فلبسها الملك العادل، ونثر ذلك الذهب، وكان يوما مشهودا، والخلعة جبة أطلس أسود بطراز مذهب، وعمامة سوداء بطراز مذهب وطوق ذهب مجوهر وتطوق به الملك العادل، وسيف جميع قرايه ملبس ذهبا تقلد به، وحصان أشهب بمركب ذهب ونشر على رأسه علم أسود

مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة، ثم خلع رسول الخليفة على كل واحد من الملك الأشرف، والملك المعظم ابني الملك العادل عمامة سوداء وثوبا أسود واسع الكم، وكذلك على الوزير صفى الدين بن شكر، وركب الملك العادل وولده ووزيره بالخلع، ودخل القلعة، وكذلك وصل إلى الملك العادل مع الخلعة تقليد بالبلاد التي تحت حكمه، وخطب الملك العادل فيه شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين، ثم توجه الشيخ شهاب الدين إلى مصر فخلع على الملك الكامل بها، وجرى فيها نظير ماجرى في دمشق من الاحتفال، ثم عاد السهروردي إلى بغداد مكرما معظما.

وفي هذه السنة اهتم الملك العادل بعمارة قلعة دمشق، وألزم كل واحد من ملوك أهل بيته بعمارة برج من أبراجها.....

ثم دخلت سنة خمس وستائة.

والملك العادل بدمشق وعنده ولداه الملك الأشرف والمعظم

ذكر قدوم الأشرف إلى حلب متوجها إلى بلاده الشرقية

وفي هذه السنة توجه الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل من دمشق راجعا إلى بلاده الشرقية، ولما وصل إلى حلب تلقاه صاحبها الملك الظاهر، وأنزله بالقلعة وبالغ في إكرامه، وقام للأشرف ولجميع عسكره بجميع ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب والحلوى والعلوفات، وكان يحمل إليه في كل يوم خلعة كاملة، وهي غلالة وقباء وسراويل وكمة وفروة، وسيف وحصان ومنطقة ومنديل وسكين ودلكش، وخمس خلع لأصحابه، وأقام على ذلك خمسة وعشرين يوما، وقدم له تقدمه وهي مائة ألف درهم، ومائة بقجة مع مائة مملوك فمناها عشر بقج في

كل واحدة منها ثلاثة أثواب أطلس، وثوبان خطاي، وعلى كل بقجة جلد قندس كبير، ومنها عشر في كل واحدة منها عشرة أثواب عتابي خوارزمي، وعلى كل بقجة جلد قندس كبير، ومنها عشر في كل واحدة خمسة أثواب عتابي بغدادي وموصلي، وعليها عشرة جلود قندس صغار، ومنها عشرون في كل واحدة خمس قطع مرسوسي ودبيقي، ومنها أربعون في كل واحدة منها خمسة أقبية وخمس كمام، وحمل إليه خمس حصن عربية بعدتها، وعشرين اكديشا، وأربعة قطر بغال، وخمس بغلات فائقات بالسروج واللجم المكفتة، وقطارين من الجمال، وخلع على أصحابه مائة وخمسين خلعة، وقاد إلى أكثرهم بغلات وأكاديش، ثم سار الملك الأشرف إلى بلاده.

وفي هذه السنة أمر الملك الظاهر صاحب حلب بإجراء القناة من حيلان إلى حلب، وغرم على ذلك أموالا كثيرة وبقي البلد يجري الماء فيه، وفي هذه السنة، وصل غياث الدين كيسخرو بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم إلى مرعش، لقصد بلاد ابن لاوون الأرمني، وأرسل إليه الملك الظاهر نجدة، فدخل كيسخرو إلى بلاد ابن لاوون، وعاث فيها ونهب وفتح حصنا يعرف بفرقوس.

ذكر مقتل صاحب الجزيرة

في هذه السنة قتل معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن عماد الدين بن زنكي بن آق سنقر صاحب جزيرة ابن عمر، وقد تقدم ذكر ولايته في سنة ست وسبعين وخمسمائة قتله ابنه غازي، وكان سنجر شاه ظالما قبيح. السيرة جدا لا يتمنع عن قبيح يفعله من القتل، وقطع الألسنة والأنوف والآذان وحلق اللحى، وتعدى ظلمه إلى أولاده وحريمه، فبعث ابنه محمودا ومودودا إلى قلعة فحبسهما فيها، وحبس ابنه المذكور غازي في دار في المدينة، وضيق عليه، وكان بتلك

الدار هوام كثيرة فاصطاد غازي المذكور منها حية وأرسلها إلى أبيه في منديل لعله يرق عليه فلم يزد ذلك إلا قسوة، فأعمل غازي الحيلة حتى هرب، وكان له واحد يخدمه فقرر معه أن يسافر ويظهر أنه غازي بن معز الدين سنجر شاه ليأمنه أبوه فمضى ذلك الإنسان إلى الموصل فأعطي شيئاً وسافر منها، واتصل ذلك بسنجر شاه فاطمأن، وتوصل ابنه غازي حتى دخل إلى دار أبيه واختفى عند بعض سراري أبيه، وعلم به جماعة منهم، وكنتموا ذلك عن سنجر شاه لبغضهم فيه، واتفق أن سنجر شاه شرب يوماً بظاهر البلد وشرع يقترح على المغنين الأشعار الفراقية، وهو يبيكي، ودخل داره سكران إلى عند الحظية التي ابنه مخبأ عندها، ثم قام معز الدين سنجر شاه ودخل الخلاء فهجم عليه ابنه غازي فضربه أربعة عشرة ضربة بالسكين، ثم ذبحه وتركه ملقى، ودخل غازي الحمام وقعد يلعب مع الجواري، فلو أحضر الجند واستحلفهم في ذلك الوقت لتم له الأمر، وملك البلاد، ولكنه تنكر واطمأن، فخرج بعض الخدم وأعلم أستاذ الدار فجمع الناس وهجم على غازي وقتله، وحلف العسكر لأخيه محمود بن سنجر شاه، ولقب معز الدين بلقب أبيه، ووصل معز الدين محمود بن سنجر شاه بن زنكي، واستقر ملكه بالجزيرة، وقبض على جواري أبيه فغرقهن في دجلة، ثم قبض محمود بعد ذلك أخاه مودوداً.

ثم دخلت سنة ست وستمائة

في هذه السنة سار الملك العادل من دمشق، وقطع الفرات، وجمع العساكر والملوك من أولاده، ونزل حران ووصل إليه بها الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان الأرتقي، صاحب آمد وحصن كيفا، وسار الملك العادل من حران، ونازل سنجار، وبها صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي فحاصرها، وطال الأمر في ذلك، ثم خامرت العساكر التي صحبة الملك العادل،

ونقض الملك الظاهر صاحب حلب الصلح معه، فرحل عن سنجار، وعاد إلى حران، واستولى الملك العادل على نصيبين، وكانت لقطب الدين محمد المذكور، وكذلك استولى على الخابور.

وفي هذه السنة توفي الملك المؤيد نجم الدين مسعود ابن السلطان صلاح الدين.....

ثم دخلت سنة سبع وستمائة

وفيها عاد السلطان الملك العادل من البلاد الشرقية إلى دمشق، وفيها قصدت الكرج خلط وحصروا الملك الأوحـد ابن الملك العادل بها، واتفق أن ملك الكرج شرب وسكر فحسن له السكر أنه تقدم إلى خلط في عشرين فارساً، فخرج إليه المسلمون فتقنطر وأخذ أسيراً، وحمل إلى الملك الأوحـد، فرد على الملك الأوحـد عدة قلاع، وبذل إطلاق خمسة آلاف أسير ومائة ألف دينار، وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة، وشرط أن يزوج ابنته بالملك الأوحـد، فتسلم ذلك منه، وأقام وتحالفا وأطلق.

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

في هذه السنة توفي نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل في آخر رجب، وكان مرضه قد طال، وملك الموصل سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً، ولما اشتد مرضه انحدر إلى العين القيـارة ليستحم بها، وعاد إلى الموصل في سيارة فتوفي في الطريق ليلاً، وكان أسمر حسن الوجه قد أسرع إليه الشيب، وكان شديد الهيبة على أصحابه، وكان عنده قلة صبر في أموره، واستقر في ملكه بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود بن

أرسلان شاه بن مسعود، وكان عمر القاهر عشر سنين، وقام بتدبير مملكته بدر الدين لولو، وكان لولو مملوك والده أرسلان شاه وأستاذ داره، وهذا لولو هو الذي ملك الموصل على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وكان لأرسلان شاه ولد آخر أصغر من القاهر اسمه عماد الدين زنكي ملكه أبوه قلعتي العقر وشوش، وهما بالقرب من الموصل.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة، ويلبسوا له سراويلها، وأن ينتسبوا إليه في رمي البندق، ويجعلوه قدوتهم.

وفيها سار الملك العادل بعد وصوله إلى دمشق، ومقامه إلى الديار المصرية، وأقام بدار الوزارة.

وفيها توفي فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية وكبيرهم.

ذكر وفاة الملك الأوحده صاحب خلاط

في هذه السنة توفي الملك الأوحده أيوب بن الملك العادل، فسار أخوه الملك الأشرف وملك خلاط، واستقل بملكها مضافا إلى ما بيده من البلاد الشرقية، فعظم شأنه ولقب شاه أرمن.

وفي هذه السنة قتل غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم، وقتله ملك الأشكري، وملك بعده ابنه كيكاوس بن كيخسرو بن قليج أرسلان، حسبما تقدم ذكره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة

في هذه السنة قبض الملك المعظم عيسى بن الملك العادل على عز الدين سامة صاحب قلعتي كوكب وعجلون، بأمر أبيه الملك العادل، وحبسه في الكرك إلى أن مات بها، وحاصر القلعتين المذكورتين، وتسلمها من غلمان سامة وأمر الملك العادل بتخريب كوكب وتعفية أثرها فخربت وبقيت خراباً، وأبقى عجلون وانقرضت الصلاحية بهذا سامة، وملك الملك المعظم بلاد جهاركس وهي بانياس ومامعها لأخيه شقيقه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل، وأعطى صرخد مملوكه عز الدين أيبك المعظمي.

وفي هذه السنة عاد الملك العادل إلى الشام وأعطى ولده الملك المظفر غازي الرها مع ميافارقين.

وفيها أرسل الملك الظاهر القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الملك العادل، فاستعطف خاطره، وخطب ابنته ضيفة خاتون ابنة الملك العادل، فزوجها من الملك الظاهر، وزال ماكان بينهما من الاحن.....

ثم دخلت سنة تسع وستمائة

في هذه السنة في المحرم عقد الملك الظاهر على ضيفة خاتون بنت الملك العادل، وكان المهر خمسين ألف دينار، وتوجهت من دمشق في المحرم إلى حلب فاحتفل الملك الظاهر لملتقاها، وقدم لها أشياء كثيرة نفيسة.

وفيها عمر الملك العادل قلعة الطور، وجمع لها الصناعات من البلاد والعسكر حتى تمت.

وفي هذه السنة سار طغريل شاه بن قليج أرسلان صاحب أرزن الروم وحاصر ابن أخيه سلطان الروم كيكافوس بسيواس، فاستنجد كيكافوس بالأشرف بن العادل، فخاف عمه طغريل ورحل عنه، وكان لكيكافوس أخ اسمه كيقباز، فلما جرى مذكرناه سار كيقباز واستولى على أنكورية من بلاد أخيه كيكافوس، فسار كيكافوس وحصره وفتح أنكورية وقبض أمرائه وحلق لحاهم ورؤوسهم، وأركب كل واحد منهم فرسا وأركب قدامه وخلفه قحبتين ويبد كل منهما معلاق تصفعه به، وبين يدي كل واحد منهم مناد ينادي هذا جزاء من خان سلطانهم.

ثم دخلت سنة عشر وستائة

في هذه السنة ظفر عز الدين كيكافوس بن كيخسرو صاحب بلاد الروم بعمه طغريل شاه، فأخذ بلاده وقتله وذبح أكثر أمرائه، وقصد قتل أخيه علاء الدين كيقباز، فشفع فيه بعض أصحابه فعفا عنه.

وفيهما في رمضان توفي بحلب فارس الدين ميمون القصري، وهو آخر من بقي من كبراء الأمراء الصلاحية، وهو منسوب إلى قصر الخلفاء بمصر، كان قد أخذه السلطان صلاح الدين من هناك وفيها ولد للملك الظاهر من ضيفة خاتون بنت الملك العادل ولده الملك العزيز غياث الدين محمد.....

ثم دخلت سنة إحدى عشر وستائة

في هذه السنة توفي دلدرم بن ياروق، صاحب تل باشر، وولي تل باشر بعده ابنه فتح الدين.....

وفيهما أسرت التركمان ملك الأشكري، وهو قاتل غياث الدين كيخسرو فحمل إلى ابنه كيكافوس بن كيخسرو، فأراد قتله فبذل له في

نفسه أموالا عظيمة، وسلم إلى كيكائوس قلاعاً وبلاداً لم يملكها المسلمون قط.

وفيهما عاد الملك العادل من الشام إلى مصر.....

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

ذكر وفاة الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب.

ولما كانت صبيحة يوم السبت وهو الخامس والعشرون من جمادى الأولى من هذه السنة. ابتدأ بالملك الظاهر المذكور حمى حادة، ولما اشتد مرضه أحضر القضاة والأكابر وكتب نسخة يمين أن يكون الملك بعده لولده الصغير الملك العزيز، ثم بعده لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن غازي، وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين، وحلف الأمراء والأكابر على ذلك، وجعل الحكم في الأموال والقلاع إلى شهاب الدين طغريل الخادم، وأعذق به جميع أمور الدولة، وفي الثالث عشر من جمادى الآخرة أقطع الملك الظاهر خضر المعروف بالمشمر كفر سوداء، وأخرج من حلب في ليلته بالتوكيل، وأخرج علم الدين قيصر الملك الظاهر ومنع الناس الدخول إليه، وتوفي في ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة، وكان مولده بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة فكان عمره أربعاً وأربعين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه لحلب من حين وهبها له أبوه إحدى وثلاثين سنة، وكان فيه بطش وإقدام على سفك الدماء ثم أقصر عنه، وهو الذي جمع شمل البيت الناصري الصلاحي، وكان ذكياً فطناً، وترتب الملك العزيز في المملكة ورجع الأمور كلها إلى شهاب الدين طغريل الخادم، فدبر الأمور وأحسن السياسة، وكان عمر الملك

العزیز لما قرر فی المملكة سنتین وأشهرًا، وعمر أخیه الملك الصالح نحو اثنتی عشرة سنة.

وفی هذه السنة توفي تاج الدین زید بن الحسن بن زید الکندی، وكان إمامًا فی النحو واللغة، وله الإسناد العالی فی الحدیث، وكان ذا فنون كثيرة فی أنواع العلم، وهو بغدادی المولد والمنشأ، وانتقل وأقام بدمشق.

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة

والسلطان الملك العادل بالدیار المصریة، وقد اجتمعت الفرنج من داخل البحر ووصلوا إلى عكا فی جمع عظیم، ولما بلغ الملك العادل ذلك خرج بعساكر مصر، وسار حتی نزل على نابلس، فسارت الفرنج إلیه، ولم یكن معه من العساكر ما یقدر به على مقاتلتهم فاندفع قدامهم إلى عقبه أفیق، فأغاروا على بلاد المسلمین، ووصلت غارتهم إلى نوى من بلد السواد، ونهبوا ما بین بیسان ونابلس، وبثوا سراياهم فقتلوا وغنموا من المسلمین ما یفوت الحصر، وعادوا إلى مرج عكا وكانت قوة هذا النهب ما بین منتصف رمضان وعید الفطر من هذه السنة، وأقام الملك العادل بمرج الصفرة، وسارت الفرنج وحصروا حصن الطور، وهو الذی بناه الملك العادل على ماتقدم ذكره، ثم رحلوا عنه وانقضت السنة والفرنج بجموعهم فی عكا.....

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة

والملك العادل بمرج الصفرة، وجموع الفرنج بمرج عكا، ثم ساروا منها إلى الدیار المصریة، ونزلوا على دمیاط، وسار الملك الكامل ابن الملك العادل من مصر، ونزل قبالتهم، واستمر الحال كذلك أربعة أشهر، وأرسل الملك العادل العساكر التی عنده إلى عند ابنه الملك الكامل،

فوصلت إليه أولا فأولاً، ولما اجتمعت العساكر عند الملك الكامل، أخذ في قتال الفرنج ودفعهم عن دمياط.

ذكر وفاة الملك القاهر صاحب الموصل

في هذه السنة توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، صاحب الموصل، وكانت وفاته ثلاث بقين من ربيع الأول، وكانت مدة ملكه سبع سنين وتسعة أشهر، وانقرض بموته ملك البيت الأتابكي، وخلف ولدين أكبرهما اسمه أرسلان شاه، وكان عمره حينئذ نحو عشر سنين، فأوصى بالملك له، وأن يقوم بتدبير مملكته بدرالدين لؤلؤ فنصبه بدر الدين لؤلؤ في المملكة، وجعل الخطبة والسكة باسمه، وقام لؤلؤ بتدبير المملكة أحسن قيام.

ذكر وفاة كيكافوس بن كيخسرو صاحب بلاد الروم

ولما مات الملك الظاهر صاحب حلب، وأجلس ابنه العزيز في المملكة، وكان طفلاً طمع صاحب بلاد الروم كيكافوس في الاستيلاء على حلب، فاستدعى الملك الأفضل صاحب سميساط، واتفق معه كيكافوس أن يفتح حلب وبلادها، ويسلمها إلى الملك الأفضل، ثم يفتح البلاد الشرقية التي بيد الملك الأشرف ابن الملك العادل ويتسلمها كيكافوس، وتحالفا على ذلك وسار كيكافوس إلى جهة حلب، ومعه الملك الأفضل، ووصلا إلى رعبان واستولى عليها كيكافوس وسلمها إلى الملك الأفضل، فمالت إليه قلوب أهل البلاد لذلك، ثم سار إلى تل باشر وبها ابن دلدرد ففتحها، ولم يسلمها إلى الملك الأفضل، وأخذها كيكافوس لنفسه، فنفر خاطر الملك الأفضل وخواطر أهل البلاد بسبب ذلك، ووصل الملك

الأشرف ابن الملك العادل إلى حلب لدفع كيكافوس عن البلاد، ووصل إليه بها الأمير مانع بن حديثه أمير العرب في جمع عظيم، وكان قد سار كيكافوس إلى منبج وتسلمها لنفسه أيضاً، وسار الملك الأشرف بالجموع التي معه، ونزل وادي بزاعا وأتقن بعض عسكره مع مقدمة عسكر كيكافوس، فانهزمت مقدمة عسكر كيكافوس، وأخذ من عسكر كيكافوس عدة أسرى، فأرسلوا إلى حلب ودقت البشائر لها، ولما بلغ ذلك كيكافوس، وهو بمنبج ولى منهزماً مرعوباً، وتبعه الملك الأشرف يتخطف أطراف عسكره، ثم حاصر الأشرف تل باشر واسترجعها، وكذلك استرجع رعبان وغيرها، وتوجه الملك الأفضل إلى سميساط، ولم يتحرك بعدها في طلب ملك إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وستمائة، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى، وعاد الملك الأشرف إلى حلب، وقد بلغه وفاة أبيه.

ذكر وفاة السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب

كان الملك العادل نازلاً بمرج الصفر، وقد أرسل العساكر إلى ولده الملك الكامل بالديار المصرية، ثم رحل الملك العادل من مرج الصفر إلى عالقين وهي عند عقبة أفيق، فنزل بها ومرض، واشتد مرضه ثم توفي هناك إلى رحمة الله تعالى سابع جمادى الآخرة من هذه السنة أعني سنة خمس عشرة وستمائة، وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة، وكان عمره خمساً وسبعين سنة، وكانت مدة ملكه لدمشق ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت مدة ملكه لمصر نحو تسع عشرة سنة، وكان الملك العادل رحمه الله تعالى حازماً متيقظاً، غزير العقل، شديد الآراء، ذا مكر وخديعة، صبوراً حليماً يسمع ما يكره ويغضي عنه، وأتته السعادة واتسع ملكه، وكثرت أولاده، ورأى فيهم ما يحب، ولم ير أحد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم في أولاده من الملك والظفر مارآه الملك العادل في أولاده، ولقد أجاد شرف الدين بن عنين في قصيدته التي مدح بها الملك العادل التي

مطلعها:

ماذا على طيف الأحبة لوسرى
وعليهم لو ساعحوني بالكرى

ومنها:

العادل الملك الذي أسماؤه
في كل ناحية تشرف منبرا
ما في أبي بكر لمعتقه الهدى
شك يريب بأنه خير الورى
بين الملوك الغابرين وبينه
في الفضل ما بين الثريا والثرى
نسجت خلأقه الحميدة ما أتى
في الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا

ومنها في وصف أولاده:

لا تسمع من حديث ملك غيره
يروى فكل الصيد في جوف الفرا
وله الملوك بكل أرض منهم
ملك يجر إلى الأعادي عسكرا
من كل وضاح الجبين تخالسه
بدرا فإن شهد الوغى فغضنفرا

وخلف الملك العادل ستة عشر ولدا ذكرا غير البنات، ولما توفي الملك العادل لم يكن عنده أحد من أولاده حاضرا، فحضر إليه ابنه الملك المعظم عيسى، وكان بنابلس بعد وفاته، وكنتم موته وأخذه ميتا في محفة، وعاد به إلى دمشق واحتوى الملك المعظم على جميع ما كان مع أبيه من الجواهر والسلاح والخيول، وغير ذلك، ولما وصل دمشق حلف جميع الناس له، وأظهر موت أبيه، وجلس للعزاء، وكتب إلى الملوك من أخوته وغيرهم يخبرهم بموته، وكان في خزانة الملك العادل لما توفي سبعائة

ألف دينار عينا، ولما بلغ الملك الكامل موت أبيه وهو في قتال الفرنج عظم عليه ذلك جدا، واختلفت العساكر عليه فتأخر عن منزلته، وطمعت الفرنج، ونهبت بعض أثقال المسلمين، وكان في العسكر عماد الدين أحمد ابن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وكان مقدما عظيما في الأكراد الهكارية، فعزم على خلع الملك الكامل من السلطنة، وحصل في العسكر اختلاف كثير حتى عزم الملك الكامل على مفارقة البلاد والالحاق باليمن، وبلغ الملك المعظم عيسى بن العادل ذلك فرحل من الشام ووصل إلى أخيه الملك الكامل، وأخرج عماد الدين ابن المشطوب ونفاه من العسكر إلى الشام، فانتظم أمر السلطان الملك الكامل، وقوي مضايقة الفرنج لدمياط وضعف أهلها بسبب ماذكرناه من الفتنة التي حصلت في عسكر الملك الكامل من ابن المشطوب.

ذكر استيلاء عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر على بعض القلاع المضافة إلى مملكة الموصل

قد تقدم في سنة سبع وستمائة أن أرسلان شاه عند وفاته جعل مملكة الموصل لولده القاهر مسعود، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي المذكور قلعتي العقر وشوش، فلما مات أخوه القاهر وأجلس ولده أرسلان شاه ابن القاهر في المملكة، وكان به قروح وأمراض، تحرك عمه عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه وقصد العمادية، واستولى عليها، ثم استولى على قلاع الهكارية والزوزان، فاستنجد بدر الدين لؤلؤ المستولي على ملك الموصل وتدبير أرسلان شاه بالملك الأشرف ابن الملك العادل، ودخل في طاعته، فأنجده الملك الأشرف بعسكر، وساروا إلى زنكي بن أرسلان شاه فهزموه، وكان زنكي المذكور مزوجا ببنت مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، وأم البنت ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان الملك العادل زوجة مظفر الدين، فكان مظفر الدين لا يترك

ممكنا في نجدة صهره زنكي المذكور ويبالغ في عداوة بدر الدين لؤلؤ
لأجل صهره.....

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة

والملك الأشرف مقيم بظاهر حلب يدبر أمر جندها وأقطاعاتها،
والملك الكامل بمصر في مقابلة الفرنج، وهم محدقون محاصرون لشقر
دمياط، وكتب الملك الكامل متواصلة إلى اخوته في طلب النجدة.

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

وفي هذه السنة توفي نور الدين أرسلان ابن الملك القاهر مسعود بن
أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر،
وكان لايزال مريضاً فأقام بدر الدين لؤلؤ في الملك بعده أخاه ناصر
الدين محمود بن الملك القاهر، وكان عمره يومئذ نحو ثلاث سنين، وهو
آخر من خطب له من بيت أتابك بالسلطنة، وكان أبوه القاهر آخر من
كان له استقلال بالملك منهم، ثم إن هذا الصبي مات بعد مدة واستقل
بدر الدين لؤلؤ بالملك وأتته السعادة، وطالت مدة ملكه إلى أن توفي
بالموصل، بعد أخذ التتر ببغداد، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة صاحب سنجار

وقد تقدم ذكر ولايته في سنة أربع وتسعين وخمسمائة

وفي هذه السنة: توفي قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن
مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب سنجار فملك سنجار
بعده ولده عماد الدين شاهنشاه بن محمد، وكان قطب الدين حسن
السيرة في رعيته وبقي عماد الدين شاهنشاه في الملك شهوراً، ثم وثب

عليه أخوه محمود بن محمد فذبحه وملك سنجار، وهذا محمود هو آخر من ملك سنجار من البيت الأتابكي

ذكر تخريب القدس

وفي هذه السنة: أرسل الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق الحجارين والنقابين إلى القدس، فخرّب أسواره، وكانت قد حصنت إلى الغاية، فانتقل منه عالم عظيم، وكان سبب ذلك أن الملك المعظم لما رأى قوة الفرنج وتغلبهم على دميّاط خشي أن يقصدوا القدس، فلا يقدر على منعهم فخربه لذلك.

ذكر استيلاء الفرنج على دميّاط

ولم تزل الفرنج يضايقون دميّاط حتى هجموها في هذه السنة عاشر رمضان، وقتلوا وأسروا من بها، وجعلوا الجامع كنيسة، واشتد طمع الفرنج في الديار المصرية، وحين أخذت دميّاط ابنتي الملك الكامل مدينة وسماها المنصورة عند مفترق البحرين الآخذ أحدهما إلى دميّاط والآخر إلى أشمون طنّاح، ونزل فيها بعساكره.....

ذكر توجه الملك المظفر محمود ابن صاحب حماة إلى مصر وموت والدته

في هذه السنة حلف الملك المنصور صاحب حماة الناس لولده الملك المظفر محمود، وجعله ولي عهده، وجرد عسكرا والطواشي مرشد المنصوري نجدة إلى الملك الكامل بديار مصر فسار إليه، ولما وصل إلى الملك الكامل أكرمه وأنزله في ميمنة عسكره، وهي منزلة أبيه وجدة في الأيام الناصرية الصلاحية، وبعد توجه الملك المظفر ماتت والدته ملكة خاتون بنت الملك العادل.

قال القاضي جمال الدين مؤلف مفرج الكروب: وحضرت العزاء وعمري اثنتا عشرة سنة، ورأيت الملك المنصور وهو لابس الحداد على زوجته المذكورة، وهو ثوب أزرق وعمامة زرقاء، وأنشدته الشعراء المراثي فمن ذلك قصيدة قالها حسام الدين خشتين، وهو جندي كردي مطلعها:

الطرف في لجة والقلب في سعر
له دخان زفير طار بالشعر

ومنها في لبس الملك المنصور الحداد مطلعها :
ماكنت أعلم أن الشمس قد غربت
حتى رأيت الدجى ملقى على القمر
لو كان من مات يفدى قبلها الفدى
أم المظفر آلاف من البشر

ذكر وفاة كيكافوس وملك أخيه كيقباز

في هذه السنة توفي الملك الغالب عز الدين كيكافوس بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، صاحب بلاد الروم، وقد تقدم ذكر ولايته في سنة سبع وستائة، وكان قد تعلق به مرض السل واشتد مرضه، ومات فملك بعده أخوه كيقباز بن كيخسرو، وكان كيقباز محبوسا قد حبسه أخوه كيكافوس، فأخرجه الجند وملكوه.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة توفي أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري الضرير النحوي الحاسب اللغوي وكان حنبليا صحب ابن الخشاب النحوي وغيره، وفيها توفي أبو الحسن علي بن القاسم بن علي ابن الحسن الدمشقي الحافظ ابن الحافظ المعروف بابن

عساكر، وكان قد قصد خراسان وسمع بها الحديث فأكثر وعاد إلى بغداد، وكان قد وقع على القفل الذي هو فيه في الطريق حرامية، وجرحوا ابن عساكر المذكور، ووصل على تلك الحال إلى بغداد وبقي بها حتى توفي في هذه السنة في جمادى الأولى رحمه الله.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

والفرنج متملكون على دمياط والسلطان الملك الكامل مستقر في المنصورة مرابط للجهاد والملك الأشرف في حران، وكان الملك الأشرف قد أقطع عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب رأس عين، فخرج على الملك الأشرف وجمع ابن المشطوب المذكور جمعا وحسن لصاحب سنجار محمود بن قطب الدين الخروج عن طاعة الأشرف أيضا، فخرج بدر الدين لؤلؤ من الموصل، وحصر ابن المشطوب بتل أعفر، وأخذه بالأمان، ثم قبض عليه، وأعلم الملك الأشرف بذلك فسر به غاية السرور، واستمر عماد الدين أحمد بن سيف الدين بن المشطوب في الحبس، ثم سار الملك الأشرف من حران واستولى على دنيسر، وقصد سنجار، فأتته رسل صاحبها محمود بن قطب الدين يسأل أن يعطى الرقة عوض سنجار ليسلم سنجار إلى الملك الأشرف فأجاب الملك الأشرف إلى ذلك وتسلم سنجار في مستهل جمادى الأولى، وسلم إليه الرقة، وهذا كان من سعادة الملك الأشرف فإن أباه الملك العادل نازل سنجار في جموع عظيمة، وطال عليها مقامه، فلم يملكها، وملكها ابنه الملك الأشرف بأهون سعي، وبعد أن فرغ الملك الأشرف من سنجار، سار إلى الموصل، ووصل إليها في تاسع عشر جمادى الأولى، وكان يوم وصوله إليها يوما مشهودا، وكتب إلى مظفر الدين صاحب إربل يأمره أن يعيد صهره عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي على بدر الدين لؤلؤ القلاع التي استولى عليها، فأعادها جميعها، وترك في يده منها العمادية، واستقر الصلح بين الملك الأشرف

وبين مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل وعماد الدين زنكي بن أرسلان شاه صاحب العقرة، وشوش، والعمادية، وكذلك استقر الصلح بينهم وبين صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، ولما استقر ذلك رحل الملك الأشرف عن الموصل ثاني شهر رمضان من هذه السنة، وعاد إلى سنجار، وسلم بدر الدين لؤلؤ قلعة تلعفر إلى الملك الأشرف، ونقل الملك الأشرف ابن المشطوب من حبس الموصل وحطه مقيدا في جب بمدينة حران حتى مات سنة تسع عشرة وستمئة، ولقي بغيه وخروجه مرة بعد أخرى.

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماة بقلعة حماة في ذي القعدة، وكان مدة مرضه إحدى وعشرين يوما بحمى حادة وورم دماغه، وكان شجاعا عالما يحب العلماء، ورد إليه منهم جماعة كثيرة مثل الشيخ سيف الدين علي الأمدى، وكان في خدمة الملك المنصور قريب مائتي متعمم من: النحاة، والفقهاء، والمشتغلين بغير ذلك، وصنف الملك المنصور عدة مصنفات مثل المصهار في التاريخ، وطبقات الشعراء، وكان معنيا بعمارة بلده، والنظر في مصالحه وهو الذي بني الجسر الذي هو بظاهر حماة خارج باب حمص، واستقر له بعد وفاة والده من البلاد: حماة، والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، ولما فتح بارين وكانت بيد إبراهيم ابن المقدم ألزمه عمه السلطان الملك العادل أن يردها عليه، فأجاب إلى تسليم منبج وقلعة نجم عوضا عنها، وهما خير من بارين بكثير، اختار ذلك لقرب بارين من بلده، وجرت له حروب مع الفرنج، وانتصر فيها وكان ينظم الشعر.

ذكر استيلاء الملك الناصر ابن الملك المنصور على حماة

ولما توفي الملك المنصور كان ولده الملك المظفر المعهود إليه بالسلطنة عند خاله الملك الكامل بديار مصر في مقابلة الفرنج، وكان ولده الآخر الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان عند خاله الآخر الملك المعظم صاحب دمشق وهو في الساحل في الجهاد، وقد فتح قيسارية وهدمها وسار إلى عثليث ونازلها، وكان الوزير بحماة زين الدين بن فريج، فاتفق هو والكبراء على استدعاء الملك الناصر لعلمهم بلين عريكته وشدة بأس الملك المظفر، فأرسلوا إلى الملك الناصر وهو مع الملك المعظم كما ذكرنا، فمنعه الملك المعظم من التوجه إلا بتقرير مال عليه يحمله إلى الملك المعظم في كل سنة قيل إن مبلغه أربعمئة ألف درهم، فلما أجاب الملك الناصر إلى ذلك وحلف عليه أطلقه الملك المعظم فقدم الملك الناصر إلى حماة، واجتمع بالوزير زين الدين بن فريج والجماعة الذين كاتبوه، فاستحلفوه على ما أرادوا، وأصعدوه إلى القلعة، ثم ركب من القلعة بالسناجق السلطانية، وكان عمره إذ ذاك سبع عشرة سنة، لأن مولده سنة ستمائة، ولما استقر الملك الناصر في ملك حماة، وبلغ أخاه الملك المظفر ذلك، استأذن الملك الكامل في المضي إلى حماة ظنا منه أنه إذا وصل إليها يسلمونها إليه بحكم الأيمان التي كانت له في أعناقهم، فأعطاه الملك الكامل الدستور، وسار الملك المظفر حتى وصل إلى الغور، فوجد خاله الملك المعظم صاحب دمشق هناك فأخبره أن أخاه الملك الناصر قد ملك حماة ويخشى عليه أنه إن وصل إليه يعتقله، فسار الملك المظفر إلى دمشق، وأقام بداره المعروفة بالزنجيلي وكتب الملك المعظم والملك المظفر إلى أكابر حماة في تسليمها إلى الملك المظفر، فلم يحصل منهم إجابة فعاد الملك المظفر إلى مصر، وأقام في خدمة الملك الكامل، وأقطعه أقطاعا بمصر، إلى أن كان ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل على خلاط وميفارقين

كان قد استقر بيد الملك المظفر المذكور: الرها، وسروج، وكانت ميفارقين، وخلاط بيد الملك الأشرف، ولم يكن للملك الأشرف ولد، فجعل أخاه الملك المظفر غازي ولي عهده، وأعطاه ميفارقين وخلاط وبلادها، وهي إقليم عظيم يضاهي ديار مصر، وأخذ الملك الأشرف منه الرها وسروج.

وفي هذه السنة توفي بالموصل الشيخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه شيخ الشيوخ بمصر والشام وكان فقيها فاضلا من بيت كبير بخراسان، وخلف أربعة بنين عرفوا بأولاد الشيخ، تقدموا عند السلطان الملك الكامل، وسنذكر بعض أخبارهم في موضعها إن شاء الله تعالى، وكان الشيخ صدر الدين المذكور قد توجه رسولا إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فمات هناك.....

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة

ذكر عود دمياط إلى المسلمين

وفي هذه السنة قوي طمع الفرنج الممتلكين دمياط في ملك الديار المصرية، وتقدموا عن دمياط إلى جهة مصر، ووصلوا إلى المنصورة، واشتد القتال بين الفريقين برا وبحرا، وكتب السلطان الملك الكامل متواترة إلى أخوته، وأهل بيته يستحثهم على إنجاده، فسار الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق إلى أخيه الملك الأشرف، وهو ببلاطه الشرقية واستنجد به وطلب منه المسير إلى أخيهما الملك الكامل، فجمع الملك الأشرف عساكره واستصحب عسكر حلب، وكذلك استصحب

معه الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور صاحب حماة، وكان الملك الناصر خائفاً من السلطان الملك الكامل أن ينتزع حماة منه، ويسلمها إلى أخيه الملك المظفر، فحلف الملك الأشرف للملك الناصر صاحب حماة أنه ما يمكن أخاه السلطان الملك الكامل من التعرض إليه، فسار معه بعسكر حماة، وكذلك سار صحبة الملك الأشرف كل من صاحب بعلبك الملك الأجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وصاحب حمص الملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي، وسار الملك المعظم عيسى بعسكر دمشق، ووصلوا إلى الملك الكامل وهو في قتال الفرنج على المنصورة، فركب والتقى أخويه ومن في صحبتها من الملوك، وأكرمهم وقويت نفوس المسلمين وضعفت نفس الفرنج بما شاهدوه من كثرة عساكر الاسلام وتجملهم، واشتد القتال بين الفريقين ورسل الملك الكامل وأخويه مترددة إلى الفرنج في الصلح، وبذل المسلمون لهم تسليم: القدس، وعسقلان، وطبرية، واللاذقية، وجبله، وجميع ما فتحه السلطان صلاح الدين من الساحل ماعدا الكرك والشوبك، على أن يجيئوا إلى الصلح ويسلموا دمياط إلى المسلمين، فلم يرض الفرنج بذلك، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب أسوار القدس، فإن الملك المعظم عيسى خربها كما تقدم ذكره، وقالوا لا بد من تسليم الكرك والشوبك، وبيننا الأمر متردد في الصلح والفرنج ممتنعون من الصلح إذ عبر جماعة من عسكر المسلمين في بحر المحلة إلى الأرض التي عليها الفرنج من بر دمياط. ففجروا فجرة عظيمة من النيل، وكان ذلك في قوة زيادته، والفرنج لاخبرة لهم بأمر النيل، فركب الماء تلك الأرض، وصار حائلاً بين الفرنج وبين دمياط، وانقطع عنهم الميرة والمدد، فهلكوا جوعاً، وبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون لهم ويسلموا دمياط، ويعقدوا مدة للصلح، وكان فيهم عدة ملوك كبار نحو عشرين ملكاً، فاختلقت الآراء بين يدي السلطان الملك الكامل في أمرهم، فبعضهم قال لا نعطيهم أماناً ونأخذهم ونسلم بهم مابقي

بأيديهم من الساحل مثل عكا وغيرها، ثم اتفقت آراؤهم على إجابتهم إلى الأمان لطول مدة البيكار، وتضجر العساكر لأنهم كان لهم ثلاث سنين وشهور في القتال معهم، فأجابهم الملك الكامل إلى ذلك وطلب الفرنج رهينة من الملك الكامل، فبعث ابنه الملك الصالح أيوب وعمره يومئذ خمس عشرة سنة إلى الفرنج رهينة، وحضر من الفرنج رهينة على ذلك ملك عكا ونائب البابا صاحب رومية الكبرى وكندريس، وغيرهم من الملوك، وكان ذلك سابع رجب من هذه السنة، واستحضر الملك الكامل ملوك الفرنج المذكورين وجلس لهم مجلسا عظيما، ووقف بين يديه الملوك من أخوته وأهل بيته جميعهم، وسلمت دمياط إلى المسلمين تاسع عشر رجب من هذه السنة، وقد حصنها الفرنج إلى غاية ما يكون، وولاهها السلطان الملك الكامل الأمير شجاع الدين جلدك التقوي، وهو من بماليك الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وهنأت الشعراء الملك الكامل بهذا الفتح العظيم، ثم سار السلطان الملك الكامل، ودخل دمياط ومعه أخوته وأهل بيته، وكان يوما مشهودا، ثم توجه إلى القاهرة، وأذن للملوك في الرجوع إلى بلادهم، فتوجه الملك الأشرف إلى الشرق، وانتزع الرقة من محمود، وقيل اسمه عمر بن قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، ولقي بغيه على أخيه، فإننا ذكرنا كيف وثب على أخيه وقتله، وأخذ سنجار، ثم أقام الملك الأشرف بالرقة، وورد إليه الملك الناصر صاحب حماة فأقام عنده مدة ثم عاد إلى بلاده.

ذكر وفاة صاحب آمد

وفي هذه السنة توفي الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب آمد وحصن كيفا بالقولنج، وقام في الملك بعده ولده الملك المسعود، وهو الذي انتزع منه

الملك الكامل آمد، وكان الملك الصالح المذكور قبيح السيرة، وقد أورد ابن الأثير وفاته في سنة تسع عشرة.....

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة

في هذه السنة استقل بدر الدين لؤلؤ بملك الموصل، وتوفي الطفل الذي كان قد نصبه في المملكة وهو ناصر الدين محمود بن الملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر، وسمى لؤلؤ نفسه الملك الرحيم، وكان قد اعتضد بالملك الأشرف ابن الملك العادل، فدافع عنه ونصره وقلع لؤلؤ البيت الأتابكي بالكلية واستمر مالكا للموصل نيفا وأربعين سنة، سوى ماتقدم له من الاستيلاء والتحكم في أيام أستاذه نور الدين أرسلان شاه وابنه الملك القاهر مسعود.

وفي هذه السنة سار الملك الأشرف إلى خدمة أخيه الملك الكامل، وأقام عنده بمصر متنزها إلى أن خرجت هذه السنة.

وفي هذه السنة فوض الأتابك طغريل الخادم مدبر مملكة حلب إلى الملك الصالح أحمد بن الظاهر أمر الشجر وبكاس، فسار الملك الصالح من حلب، واستولى عليهما، وأضاف إليه الروج ومعة مصرين.

وفي هذه السنة قصد الملك المعظم عيسى صاحب دمشق حماة، لأن الملك الناصر صاحب حماة كان قد التزم له ببال يحمله إليه إذا ملك حماة، فلم يف له، فقصد الملك المعظم حماة ونزل بجبرين، وغلقت أبواب حماة، فقصدها الملك المعظم، وجرى بينهم قتال قليل، ثم ارتحل الملك المعظم إلى سلمية فاستولى على حواصلها وولى عليها، ثم توجه إلى المعرة فاستولى عليها وأقام فيها واليا من جهته، وقرر أمورها ثم عاد إلى سلمية، فأقام بها حتى خرجت هذه السنة في قصد منازل حماة.

وفي هذه السنة: حج من اليمن الملك المسعود بن يوسف الملقب أطسز، وهو اسم تركي، والعامّة تسميه أقسيس، وكان قد استولى على اليمن سنة اثنتي عشرة وستائة، وقبض على سليمان شاه بن شاهنشاه ابن عمر بن شاهشاه بن أيوب، وحج في هذه السنة، فلما وقف الملك المسعود في هذه السنة بعرفة وتقدمت أعلام الخليفة الإمام الناصر لترفع على الجبل تقدم الملك المسعود بعساكره ومنع من ذلك، وأمر بتقديم أعلام أبيه السلطان الملك الكامل على أعلام الخليفة، فلم يقدر أصحاب الخليفة على منعه من ذلك ثم عاد الملك المسعود إلى اليمن، وبلغ ذلك الخليفة فعظم عليه، وأرسل يشكو إلى الملك الكامل فاعتذر عن ذلك فقبل عذره، وأقام الملك المسعود في اليمن مدة يسيرة، ثم عاد إلى مكة ليستولي عليها، فقابلته الحسن بن قتادة فانتصر الملك المسعود وانهزم الحسن بن قتادة، واستقرت مكة في ملك الملك المسعود وولى عليها وذلك في ربيع الأول من سنة عشرين وستائة ثم عاد إلى اليمن.

ثم دخلت سنة عشرين وستائة

والأشرف بديار مصر عند أخيه الملك الكامل وأخوهما الملك المعظم بسلامية مستول عليها وعلى المعرة، عازم على حصار حماة، وبلغ الملك الأشرف ما فعله أخوه المعظم بصاحب حماة، فعظم عليه ذلك واتفق مع أخيه الكامل على الإنكار على الملك المعظم وهو بسلامية وقال له: السلطان يأمرك بالرحيل، فقال: السمع والطاعة وكانت أطماعه قد قويت في الاستيلاء على حماة، فرحل مغضباً على أخويه الكامل والأشرف، ورجعت المعرة وسلامية للناصر، وكان الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب مقيماً عند الملك الكامل بالديار المصرية كما تقدم ذكره، وكان الملك الكامل يؤثر تمليك حماة، لكن الملك الأشرف غير مجيب إلى ذلك لانتفاء الملك الناصر صاحب حماة إليه، وجرى بين الكامل والأشرف في ذلك

مراجعات كثيرة آخرها أنها اتفقا على نزع سلمية من يد الناصر قليج أرسلان وتسليمها إلى أخيه الملك المظفر، فتسلمها الملك المظفر، وأرسل إليها وهو بمصر نائبا من جهته حسام الدين أبا علي ابن محمد بن علي الهذباني، واستقر بيد الملك الناصر حماة والمعرة، وبعرين، ثم سار الأشرف من مصر، واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من أخيه الملك الكامل للملك العزيز صاحب حلب، وعمره يومئذ عشر سنين، ووصل الأشرف بذلك إلى حلب، وأركب الملك العزيز في دست السلطنة، وفي هذه السنة لما وصل الملك الأشرف بالخلعة المذكورة إلى حلب، اتفق مع الملك الأشرف كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية، فأرسلوا عسكرا وهدمها إلى الأرض.....

ذكر حادثة غريبة

كان أهل مملكة الكرج قد مات ملكهم ولم يبق من بيت الملك غير امرأة فملكوها، وطلبوا لها رجلا يتزوجها ويقوم بالملك ويكون من أهل بيت المملكة فلم يجدوا فيهم أحدا يصلح لذلك، وكان صاحب أرزن الروم مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقي من بيت كبير مشهور، فأرسل يخطب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من إجابته إلا أن يتنصر فأمر ولده فتنصر، وسار إلى الكرج وتزوج ملكتهم، وكانت هذه الملكة تهوى مملوكا لها ويعلم ابن طغريل شاه بذلك وتكامن فدخل يوما إلى البيت فوجد المملوك نائما معها في الفراش، فلم يصبر المذكور على ذلك فأنكر عليها فأخذته زوجته واعتقلته في بعض القلاع، ثم أحضرت رجلين كانا قد وصفا لها بحسن الصورة فتزوجت أحدهما ثم فارقت، وأحضرت انسا نا من كنجة مسلما وهويته وسألته ان يتنصر لتزوج به فلم يجب إلى ذلك، وتردد الرسل بينهما في ذلك مدة فلم يجبهما إلى التنصر.....

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة

ذكر عصيان المظفر غازي بن العادل على أخيه الملك
الأشرف

كان الملك الأشرف قد أنعم على أخيه الملك المظفر غازي بخلاط، وهي مملكة عظيمة، وهي إقليم أرمينية وكان قد حصل بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين أخويه الكامل والأشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة، كما قدمنا ذكره، فأرسل المعظم وحسن لأخيه المظفر غازي صاحب خلاط العصيان على أخيه الملك الأشرف، فأجاب الملك المظفر إلى ذلك، وخالف أخاه الملك الأشرف، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازي صاحب إربل مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كجك، وكان بدر الدين لؤلؤ منتميا إلى الملك الأشرف، فسار مظفر الدين صاحب إربل وحصر الموصل عشرة أيام، وكان نزوله على الموصل ثالث عشر جمادى الآخرة من هذه السنة، ليشغل الملك الأشرف عن قصد أخيه بخلاط، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها، فلم يلتفت الملك الأشرف إلى محاصرة الموصل، وسار إلى خلاط وحصر أخاه شهاب الدين غازي، فسلمت إليه مدينة خلاط، وانحصر أخوه غازي بقلعتها إلى الليل، فنزل من القلعة إلى أخيه الملك الأشرف واعتذر إليه، فقبل عذره وعفا عنه وأقره على ميفارقين وارتجع باقي البلاد منه، وكان استيلاء الملك الأشرف على خلاط، وأخذها من أخيه في جمادى الآخرة من هذه السنة.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة

ذكر وفاة الملك الأفضل نور الدين علي ابن السلطان
صلاح الدين يوسف

في هذه السنة توفي الملك الأفضل المذكور، وليس بيده غير سميح
فقط، وكان موته فجأة وعمره سبع وخمسون سنة، وكان الملك الأفضل
فاضلا حسن السيرة، وتجمعت فيه الفضائل والأخلاق الحسنة، وكان مع
ذلك قليل الحظ، وله الأشعار الحسنة فمنها يعرض إلى سوء حظه قوله:

يا من يسود شعره بخضابه
لعساة من أهل الشيبة يحصل
هافا خضب بسواد حظي مرة
ولك الأمان بأنه لا ينصل

ولما أخذت منه دمشق كتب إلى بعض أصحابه كتابا منه: أما
أصحابنا بدمشق فلا علم لي بأحد منهم وسبب ذلك:
أي صديق سألت عنه ففي الد
ل وتحت الخمول في الوطن
وأي ضد سألت حالته
سمعت مالا تحبه أذني

ذكر وفاة الإمام الناصر

وفي أول شوال من هذه السنة توفي الخليفة الناصر لدين الله، وكانت
مدة خلافته نحو سبع وأربعين سنة وعمي في آخر عمره، وكان موته
بالدوسنطاريا، وهو الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن

المستضىء حسن ابن المستنجد يوسف ابن المقتفي محمد ابن المستظهر أحمد ابن المقتدي عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن القائم عبد الله ابن القادر أحمد ابن الأمير اسحق ابن المقتدر جعفر ابن المقتفي علي ابن المعتضد أحمد ابن الأمير الموفق— قيل اسمه طلحة وقيل محمد— ابن المتوكل جعفر ابن المعتصم محمد ابن الرشيد هرون ابن المهدي محمد ابن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب بن هاشم وكان عمر الإمام الناصر نحو سبعين سنة، وكان قبيح السيرة في رعيته ظالماً لهم خرب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد وكان يتشيع وكان منصرف الهمة إلى رمي البندق والطيور المناسيب ويلبس سراويلات الفتوة ومنع رمي البندق إلا من ينسب إليه، فأجابه الناس إلى ذلك إلا انساناً واحداً يقال له ابن السفت وهرب من بغداد إلى الشام، وقد نسب الإمام الناصر أنه هو الذي كاتب التتر وأطمعهم في البلاد، بسبب ماكان بينه وبين خوارزم شاه محمد بن تكش من العداوة، ليشغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق.

ذكر خلافة ابنه الظاهر

وهو خامس ثلاثينهم ولما توفي الإمام الناصر ببيع ولده الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد، فأظهر العدل، وأزال المكوس، وأخرج المحبوسين وظهر للناس، وكان الناصر ومن قبله لا يظهرون إلا نادراً، ولم تطل مدته في الخلافة غير تسعة أشهر.....

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

فيها سار الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق، ونازل حمص، وكان قد اتفق مع جلال الدين ابن خوارزم شاه ومع مظفر

الدين صاحب إربل على أن يكونوا يدا واحدة، وكان الملك الأشرف ببلاده الشرقية، ثم رحل المعظم عن حمص إلى دمشق بسبب كثرة مامات من خيله وخيل عسكره، وورد عليه أخوه الملك الأشرف طلبا للصلح وقطعا للفتن فبقي مكرما ظاهرا، وهو في الباطن كالأسير معه، وأقام الملك الأشرف عند أخيه المعظم إلى أن انقضت هذه السنة، وأما الملك الكامل فإنه كان بمصر وقد تخيل من بعض عسكره فما أمكنه الخروج عنها.

وفي هذه السنة فتح السلطان جلال الدين تفليس من الكرج وهي من المدن العظام، وفي هذه السنة سار جلال الدين ونازل خلط وهي منازلته الأولى، فطال القتال بينهم وكان نائب الأشرف بخلط الحاجب حسام الدين علي الموصل، وكان نزوله عليها ثالث عشر ذي القعدة ورحل عنها لسبع بقين من ذي الحجة من هذه السنة بسبب كثرة الثلوج.

ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

وفي رابع عشر رجب من هذه السنة توفي الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله، وكان متواضعا محسنا إلى الرعية جدا، وأبطل عدة مظالم، منها أنه كان بخزانة الخليفة صنجة زائدة يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التي يتعامل بها الناس، وكان زيادة الصنجة في كل دينار حبة، فخرج توقيع الظاهر بإبطال ذلك وأوله: (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) (المطففون ١-٣) وعمل صنجه المخزن مثل صنجة المسلمين، وكان مضادا لأبيه الناصر في كثير من أحواله منها أن مدة خلافة أبيه كانت طويلة، ومدة خلافته كانت قصيرة، وكان أبوه متشيعا، وكان الظاهر سنيا، وكان أبوه ظالما جماعا للمال، وكان الظاهر في غاية العدل وبذل الأموال للمحبوسين على الديون وللعلماء.

ذكر خلافة المستنصر

وهو سادس ثلاثينهم، ولما توفي الظاهر ولي الخلافة بعده ولده الأكبر المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، وكان للظاهر ولد آخر يقال له الخفاجي في غاية الشجاعة، وبقي حيا حتى أخذت التتر بغداد، وقتل مع من قتل، ولما تولى المستنصر الخلافة سلك في العدل والإحسان مسلك أبيه الظاهر.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة سار علاء الدين كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى بلاد الملك المسعود الأرتقي صاحب آمد، فنزل كيقباز بملطية وهي من بلاد كيقباز، وأرسل عسكريا ففتحوا حصن منصور وحصن الكختا، وكانا لصاحب آمد المذكور.

وفيها في خامس عشر الحجة نازل جلال الدين مدينة خلط وهي للملك الأشرف وبها نائبه حسام الدين علي الحاجب، وهي منازلته الثانية، وجرى بينهم قتال شديد، وأدركه البرد، فرحل عنها في السنة المذكورة.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة

والمملك الكامل بديار مصر، وجلال الدين خوارزم شاه مالك أذربيجان وأران، وبعض بلاد الكرج، وعراق العجم وغيرها، وهو موافق الملك المعظم على حرب أخويه الكامل والأشرف، والرسول لاتنقطع بين المعظم وجلال الدين، والمملك الأشرف مقيم كالأسير عند أخيه الملك المعظم، ولما رأى الملك الأشرف حاله مع أخيه المعظم، وأنه لاخلاص له منه إلا بإجابته إلى ما يريد، أجابه كالمكره إلى ماطلبه منه، وحلف له أن

يعاضده، ويكون معه على أخيهما الملك الكامل، وأن يكون معه على صاحبي حماة ومحض، فلما حلف له على ذلك أطلقه الملك المعظم، فرحل الملك الأشرف في جمادى الآخرة من هذه السنة، فكانت مدة مقامه مع المعظم نحو عشرة أشهر، ولما استقر الملك الأشرف ببلاده رجع عن جميع ماتقرر بينه وبين أخيه الملك المعظم، وتأول في أيمانه التي حلفها أنه مكره، ولما تحقق الملك الكامل اعتضاد أخيه الملك المعظم بجلال الدين خاف من ذلك، وكاتب الانبرطور ملك الفرنج في أن يقدم إلى عكا ليشغل سر أخيه المعظم عما هو فيه، ووعد الانبرطور بأن يعطيه القدس، فسار الانبرطور إلى عكا، فبلغ المعظم ذلك فكاتب أخاه الأشرف واستعطفه، وفي هذه السنة انتزع الاتابك طغريل الشغر وبكاس من الملك الصالح أحمد ابن الملك الظاهر، وعوضه عنها بعيثتاب والراوندان.

وفيها سار الحاجب حسام الدين علي، نائب الملك الأشرف بخلاط بعساكر الملك الأشرف إلى بلاد جلال الدين واستولى على: خوي، وسلماس، ونقجوان.

ذكر وفاة الملك المعظم صاحب دمشق

في هذه السنة في ذي القعدة توفي الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بقلعة دمشق بالدوسنطاريا، وعمره تسع وأربعون سنة، وكانت مدة ملكه دمشق تسع سنين وشهوراً، وكان شجاعاً، وكان عسكره في غاية التجميل، وكان يحامل أخاه الملك الكامل، ويخطب له ببلاده، ولا يذكر اسمه معه، وكان الملك المعظم قليل التكلف جداً في غالب الأوقات لا يركب بالسناجق السلطانية، وكان يركب وعلى رأسه كلوته صفراء بلا شاش، ويتخرق الأسواق من غير أن يطرق بين يديه، كما جرت عادة الملوك، ولما كثر مثل هذا منه صار الإنسان إذا فعل أمراً لا يتكلف له يقال قد فعله بالمعظمي، وكان عالماً فاضلاً في الفقه والنحو، وكان شيخه في النحو تاج الدين زيد بن الحسن الكندي، وفي الفقه جمال الدين الحصري، وكان حنفياً متعصباً لمذهبه، وخالف جميع أهل بيته فإنهم كانوا شافعية، ولما توفي الملك المعظم ترتب في مملكته وأعمالها بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، وقام بتدبير مملكته مملوك والده وأستاذ داره الأمير عز الدين أيبك المعظمي، وكان لأيبك المذكور صرخد.....

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

في هذه السنة أرسل الملك الكامل، صاحب مصر، يطلب من ابن أخيه الملك الناصر داود ابن الملك المعظم صاحب دمشق حصن الشوبك، فلم يعطه الملك الناصر ذلك، ولا أجابه إليه، فسار الملك الكامل من مصر في هذه السنة في رمضان إلى الشام، ونزل على تل العجول بظاهر غزة، وولى على نابلس والقدس وغيرهما من بلاد ابن أخيه الملك الناصر داود المذكور صاحب دمشق حيثنذ، وكان صحبة الملك الكامل الملك المظفر محمود بن السلطان الملك المنصور صاحب حماة،

وهو موعود من الملك الكامل انه ينتزع حماة من أخيه الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور ويسلمها إليه.

ولما قصد الملك الكامل انتزاع بلاد الملك الناصر ابن المعظم صاحب دمشق استنجد الناصر داود بعمه الملك الأشرف، وأرسل إليه وهو ببلاده الشرقية، فقدم الملك الأشرف إلى دمشق، ودخل هو والناصر داود إلى قلعة دمشق راكبين.

قال القاضي جمال الدين ابن واصل: كنت إذ ذاك حاضرا بدمشق ورأيت الملك الأشرف راكبا مع ابن أخيه، وعلى رأس الملك الأشرف شاش علم كبير، ووسطه مشدود بمنديل، وكان وصول الأشرف إلى دمشق في العشر الأخير من رمضان من هذه السنة، ووصل إلى خدمته بدمشق الملك المجاهد شيركوه، فإنه كان من المنتمين إلى الملك الأشرف، ثم وقع الاتفاق أن يسير الناصر داود وشيركوه مع الملك الأشرف إلى نابلس، فيقيم الناصر داود بنابلس، ويتوجه الملك الأشرف إلى أخيه الكامل إلى غزة شافعا في ابن أخيهما الناصر داود، ففعلوا ذلك ولما وصل الملك الأشرف إلى أخيه الكامل وقع اتفاقهما في الباطن على أخذ دمشق من ابن أخيهما الناصر داود وتعويضه عنها، بحران والرها، والرقعة، من بلاد الملك الأشرف، وأن تستقر دمشق للملك الأشرف، ويكون له إلى عقبة أفيق، وماعدا ذلك من بلاد دمشق يكون للملك الكامل، وأن تنتزع حماة من الملك الناصر قليج أرسلان وتعطى للملك المظفر محمود ابن الملك المنصور وأن تنتزع سلمية من المظفر محمود، وكانت إقطاعه لما كان مقيما بمصر عند الملك الكامل، وتعطى لشيركوه صاحب حمص، وخرجت السنة والأشرف عند أخيه الكامل بظاهر غزة، وقد اتفقا على ذلك.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة عاود التتر إلى قصد البلاد التي بيد جلال الدين بن خوارزم شاه، وجرت بينه وبينهم حروب كثيرة كان في أكثرها الظفر للتتر.

وفيها قدم الانمبرطور إلى عكا بجموعه، وكان الملك الكامل قد أرسل إليه فخر الدين ابن الشيخ يستدعيه إلى قصد الشام بسبب أخيه المعظم، فوصل الانمبرطور وقد مات المعظم، فنشب به الملك الكامل، ولما وصل الانمبرطور استولى على صيدا وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج، وسورها خراب، فعمر الفرنج سورها، واستولوا عليها، والانمبرطور معناه ملك الأمراء بالفرنجية، وإنما اسم الانمبرطور المذكور فرديك، وكان صاحب جزيرة صقلية ومن البر الطويل بلاد انبولىة والانبردية.

قال القاضي جمال الدين بن واصل: لقد رأيت تلك البلاد لما توجهت رسولا من الملك الظاهر بيبرس الصالحي إلى الانمبرطور ملك تلك البلاد، قال: وكان الانمبرطور من بين ملوك الفرنج فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب، مائلا إلى المسلمين لأن منشأة بجزيرة صقلية، وغالب أهلها مسلمون، وترددت الرسل بين الملك الكامل وبين الانمبرطور إلى أن خرجت هذه السنة.

وفي هذه السنة بعد فراغ جلال الدين من التتر قصد جلال الدين المذكور بلاد خلاط ونهب القرى وقتل وخرب البلاد وفعل الأفعال القبيحة.....

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

ولما جرى بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف الاتفاق على نزع دمشق من الناصر داود، وبلغ الناصر داود ذلك، وهو

بنابلس، فرحل إلى دمشق وكان قد لحقه بالغور عمه الملك الأشرف وعرفه ما أمر به عمه الملك الكامل، وأنه لا يمكنه الخروج عن مرسومه، فلم يلتفت الناصر داود إلى ذلك، وسار إلى دمشق، وسار الأشرف في أثره، وحصره بدمشق، والملك الكامل مشغول بمراسلة الانبرطور إلى تسليم القدس إليه على أن تستمر أسواره خراباً، ولا يعمرها الفرنج، ولا يتعرضوا إلى قبة الصخرة، ولا إلى الجامع الأقصى، ويكون الحكم في الرساتيق إلى والي المسلمين، ويكون لهم من القرايا ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط، ووقع الاتفاق على ذلك، وتحالفا عليه وتسلم الانبرطور القدس في هذه السنة في ربيع الآخر على هذه القاعدة التي ذكرناها، وكان ذلك والملك الناصر محصور بدمشق، وعمه الأشرف محاصره بأمر الملك الكامل، فأخذ الناصر داود في التشنيع على عمه بذلك، وكان بدمشق الشيخ شمس الدين يوسف سبط أبي الفرج ابن الجوزي، واعظاً وله قبول عند الناس، فأمره الناصر داود بعمل مجلس وعظ يذكر فيه فضائل بيت المقدس، وما حل بالمسلمين من تسليمه إلى الفرنج، ففعل ذلك وكان مجلساً عظيماً، ومن جملة ما أنشد قصيدة تائية ضمنها بيت دعبل الخزاعي وهو:

مدارس آيات خلّت من تلاوة

ومنزل وحي مقفر العرصات

فارتفع بكاء الناس وضجيجهم.

ذكر انتزاع دمشق

ولما عقد الملك الكامل الهدنة مع الانبرطور وخلا سره من جهة الفرنج سار إلى دمشق، ووصل إليها في جمادى الأولى من هذه السنة، واشتد الحصار على دمشق، ووصل إلى الملك الكامل رسول الملك العزيز صاحب حلب، وخطب بنت الملك الكامل فزوجه بنته فاطمة خاتون

التي هي من الست السوداء أم ولده أبي بكر العادل بن الكامل، ثم استولى الملك الكامل على دمشق، وعوض الناصر داود عنها: بالكرك، والبلقاء، والصلت، والأغوار، والشوبك، وأخذ الملك الكامل لنفسه البلاد الشرقية التي كانت عينت للناصر، وهي: حران، والرها، وغيرهما التي كانت بيد الملك الأشرف، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل في قبولها فقبلها، وتسلم دمشق الملك الأشرف، وتسلم الكامل من الأشرف البلاد الشرقية المذكورة.....

ذكر القبض على الحاجب علي نائب الملك الأشرف بخلاط وقتله

وفي هذه السنة أرسل الملك الأشرف مملوكه عز الدين أيبك الأشرفي، وهو أكبر أمير عنده، إلى خلاط فقبض على الحاجب علي الموصلي وحبسه ثم قتله، وكان حسام الدين علي الحاجب المذكور، من أهل الموصل، وخدم الملك الأشرف فجعله نائبه بخلاط فأحسن إلى الرعية وحفظ البلد، واستولى على عدة بلاد من أذربيجان مثل نقجوان وغيرها على ماتقدم ذكره، فقبض عليه الملك الأشرف وقتله، وهذا الحاجب حسام الدين المذكور كان كثير الخير والمعروف، بنى الخان الذي بين حران ونصيبين، وبنى الخان الذي بين حمص ودمشق، وهو الخان المعروف بخان بريج العطش، وهرب مملوك لحسام الدين الحاجب المذكور لما قتل استأذه ولحق بجلال الدين، فلما ملك جلال الدين خلاط على ماسنذكره قبض على أيبك المذكور وسلمه إلى المذكور، فقتله وأخذ بثأر استأذه.

ذكر استيلاء الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد على حماة

ولما سلم الملك الكامل دمشق إلى أخيه الملك الأشرف، سار من دمشق ونزل على مجمع المروج، ثم نزل سلمية، وأرسل عسكريا نازلوا حماة وبها صاحبها الملك الناصر قليج أرسلان، وكان فيه جبن، ولو عصى بحماة وطلب عنها عوضا كثيرا لأجابه الملك الكامل إليه، ولكنه خاف، وكان في العسكر الذين نازلوه شيركوه صاحب حمص، فأرسل الناصر صاحب حماة يقول لشيركوه: إني أريد أن أخرج إليك بالليل لتحضرني عند السلطان الملك الكامل، وخرج الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب المذكور إلى شيركوه في العشر الأخير من رمضان هذه السنة، وأخذه شيركوه ومضى به إلى الملك الكامل، وهو نازل على سلمية فحين رأى الملك الكامل قليج أرسلان المذكور شتمه وأمر باعتقاله، وأن يتقدم إلى نوابه بحماة بتسليمها إلى الملك الكامل، فأرسل الناصر قليج أرسلان علامته إلى نوابه بحماة أن يسلموها إلى عسكر السلطان الملك الكامل، فامتنع من ذلك الطواشيان بشر ومرشد المنصوريان، وكان بقلعة حماة أخ للملك الناصر يلقب الملك المعز ابن الملك المنصور صاحب حماة فملكوه حماة، وقالوا للملك الكامل لانسلم حماة لغير أحد من أولاد تقي الدين، فأرسل الملك الكامل يقول للملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة اتفق مع غلمان أبيك وتسلم حماة، وكان الملك المظفر نازلا على حماة من جملة العسكر الكامل، فراسل الملك المظفر الحكام بحماة فحلفوا ووعدوا الملك المظفر أن يحضر بجماعته خاصة وقت السحر إلى باب النصر ليفتحوه له، فحضر الملك المظفر سحر الليلة التي عينوها ففتحوا له باب النصر، ودخل الملك المظفر ومضى إلى دار الوزير المعروفة بدار الاكرام داخل باب المغار، وهي الآن مدرسة تعرف بالخاتونية، وقفتها عمة مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر المذكور،

وحضر أهل حماة وهنؤوا الملك المظفر بملك حماة، وكان ذلك في العشر الأخير من رمضان من هذه السنة، وكان مدة ملك الملك الناصر قليج أرسلان حماة تسع سنين إلا نحو شهرين، وأقام الملك المظفر في دار الإكرام يومين، وصعد في اليوم الثالث إلى القلعة وتسلمها، وجاء عيد الفطر من هذه السنة والملك المظفر مالك حماة، وعمره يومئذ نحو سبع وعشرين سنة لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان أخوه الملك الناصر قليج أرسلان أصغر منه بسنة، ولما ملك الملك المظفر حماة فوض تدبير أمورها صغيرها وكبيرها إلى الأمير سيف الدين علي الهذباني، وكان سيف الدين علي ابن أبي علي المذكور، قد خدم الملك المظفر بعد ابن عمه حسام الدين ابن أبي علي الذي كان نائب الملك المظفر بسلمية، لما سلمت إليه وهو بمصر، عند الملك الكامل، ثم حصل بين الملك المظفر وبين حسام الدين ابن أبي علي وحشة، ففارقه حسام الدين المذكور واتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، وحظي عنده وصار استاذ داره، وخدم ابن عمه سيف الدين علي المذكور الملك المظفر، وكان يقول له: انتهى أراك صاحب حماة، وأكون بعين واحدة فأصيب عین سيف الدين علي على حصار حماة لما نازها عسكر الملك الكامل، وبقي بفرد عين، فحظي عند الملك المظفر لذلك، ولكفاية سيف الدين المذكور وحسن تدبيره.

ولما استقر الملك المظفر في ملك حماة انتزع الملك الكامل سلمية منه، وسلمها إلى شريكه صاحب حمص على ما كان وقع عليه الاتفاق من قبل ذلك، ثم إن الملك الكامل رسم للملك المظفر أن يعطي أخاه الملك الناصر قليج أرسلان بارين بكمالها، فامثل ذلك، وسلم قلعة بارين إلى أخيه الملك الناصر، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة والمعرة، وكان بحماة تقدير أربعمئة ألف درهم للملك الناصر، وكان قد رسم الملك الكامل للملك المظفر أن يعطي المال المذكور أخاه الملك الناصر، فهاطل المظفر في ذلك ولم يحصل للملك الناصر من ذلك شيء، ولما استقر

الملك المظفر بحماة مدحه الشيخ شرف الدين عبد العزيز محمد بن عبد
المحسن الأنصاري الدمشقي بقصيدة من جملتها:
تناهى إليك الملك واشتد كاهله
وحل بك الراجي فحطت رواحله
ترحلت عن مصر فأحل ربعها
ولما حللت الشام روض ماحله
وعزت حماة في همى أنت غاببه
بصولته تحمي كليب ووائله
وقد طال ما ظلت بتدبير أهوج
يخيب مرجيه ويحرم سائله

ولما استقر الملك المظفر في ملك حماة، رحل الملك الكامل عن سلمية
إلى البلاد الشرقية التي أخذها من أخيه الملك الأشرف عوضاً عن
دمشق، فنظر في مصالحها، ثم سافر الملك المظفر من حماة ولحق الملك
الكامل وهو بالشرق، وعقد له الملك الكامل العقد هناك على ابنته غازية
خاتون بنت الملك الكامل، وهي شقيقة الملك المسعود صاحب اليمن،
وهي والددة الملك المنصور صاحب حماة، وأخيه الملك الأفضل نور الدين
علي ابنه الملك المظفر محمود، ثم عاد الملك المظفر إلى حماة وقد قضيت
أمانيه بملك حماة ووصلته بخاله الملك الكامل، وكان يتمنى ذلك لما
كان بالديار المصرية، وكان يصحبه وهو بمصر رجل من أهلها يقال له
الزكي القومصي، فاتفق وهما بمصر وقد جرى ذكر ملك الملك المظفر
حماة وزواجه بنت خاله الملك الكامل فأنشده الزكي القومصي:

متى أراك كما أهوى وأنت ومن
تهوى كأنكما روحان في بدن
هناك أنشد والأقدار مصغية
هيت بالملك والأحباب والوطن

فقال له الملك المظفر: إن صار ذلك يازكي أعطيتك ألف دينار

مصرية، فلما ملك الملك المظفر حماة أعطى الزكي ماوعده به، ولما فرغ الملك الكامل من تقرير أمر البلاد الشرقية وهي: حران ومامعها من البلاد مثل: رأس عين، والرها، وغير ذلك عاد إلى الديار المصرية.

وفي هذه السنة أرسل الملك الأشرف أخاه صاحب بصرى الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل بعسكر فنازل بعلبك، وبها صاحبها الملك الأجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب واستمر الحصار عليه.

وفيها سار جلال الدين ملك الخوارزمية وحاصر خلاط وبها أيك نائب الملك الأشرف إلى أن خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

ذكر عمارة شميميس

في هذه السنة شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعة شميميس، وكان لما سلم إليه الملك الكامل سلمية قد استأذنه في عمارة تل شميميس قلعة، فأذن له بذلك، ولما أراد شيركوه عمارته أراد الملك المظفر صاحب حماة منعه من ذلك، ثم لم يمكنه ذلك لكونه بأمر الملك الكامل.

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وفي هذه السنة سلم الملك الأجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب بعلبك إلى الملك الأشرف لطول الحصار عليه، وعوضه الملك الأشرف عنها الزبداني وقصير دمشق الذي هو شاليها ومواضع أخرى،

وتوجه الملك الأمجد وأقام بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة، وهي التي ينزلها النواب.

ذكر مقتل الملك الأمجد

لما أخذ منه بعلبك ونزل بداره المذكورة كان قد حبس بعض مماليكه في مرقد عنده بالدار، وجلس الملك الأمجد قدام باب المرقد يلعب بالنرد، ففتح المملوك المذكور الباب ومعه سيف وضرب به استأذه الملك الأمجد فقتله، ثم طلع المملوك الى سطح الدار وألقى نفسه الى وسطها فمات، ودفن الملك الأمجد بمدرسة والده التي على الشرف، وكانت مدة ملكه بعلبك تسعا وأربعين سنة، لأن عم أبيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين ملكه بعلبك سنة ثمان وسبعين وخمسة مائة لما مات أبوه فرخشاه، وانتزعت منه هذه السنة فذلك خمسون سنة إلا سنة، وكان الملك الأمجد أشعر بني أيوب وشعره مشهور.

ذكر ملك جلال الدين خلط

في هذه السنة لما طال حصار جلال الدين على خلط واشتد مضايقتها هجمها بالسيف، وفعل في أهلها ما يفعلونه التتر من القتل والاسترقاق والنهب ثم قبض على نائب الملك الأشرف بها، وهو مملوكه أيك، وسلمه إلى مملوك حسام الدين الحاجب علي الموصل، فقتله وأخذ بثأر أستاذة.

ذكر كسرة جلال الدين من الملك الأشرف

ولما جرى من جلال الدين ماجرى من أخذ خلط اتفق صاحب الروم كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان والملك الأشرف ابن الملك العادل، فجمع الملك الأشرف عساكر الشام وسار إلى سيواس، واجتمع

فيها بملك بلاد الروم علاء الدين كيقباز المذكور، وسار إلى جهة خلاط والتقى الفريقان في التاسع والعشرين من رمضان من هذه السنة، فولى الخوارزميون وجلال الدين منهزمين، وهلك غالب عسكره قتلا وترديا من رؤوس جبال كانت في طريقهم، وضعف جلال الدين بعدها، وقويت عليه التتر، وارتجع الملك الأشرف خلاط وهي خراب يباب، ثم وقعت المراسلة بين الملك الأشرف وكيقباز وجلال الدين وتصالخوا وتحالفوا على ماأيديهم، وأن لايتعرض أحد منهم إلى مايبعد الآخر.

وفي هذه السنة استولى الملك المظفر غازي ابن الملك العادل على أرزن من ديار بكر، وهي غير أرزن الروم، وكان صاحب أرزن ديار بكر يقال له حسام الدين من بيت قديم في الملك، فأخذها منه الملك المظفر غازي المذكور وعوضه عن أرزن بمدينة حاني، وهذا حسام الدين من بيت كبير يقال لهم بيت الأحذب، وأرزن لم تنزل بأيديهم من أيام السلطان ملك شاه السلجوقي إلى الآن فسبحان من لايزول ملكه.

وفيها جمعت الفرنج من حصن الأكراد وقصدوا حماة، فخرج إليهم الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة والتقاها عند قرية بين حماة وبارين يقال لها لفيون، وكسره كسرة عظيمة، ودخل الملك المظفر محمود حماة مؤيدا منصورا.

وفيها ولد الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

والسلطان الملك الكامل بديار مصر، وأخوه الملك الأشرف بدمشق في ملاذه، وقد تحلى عن البلاد الشرقية، فإن حران ومامعها صارت لأخيه الملك الكامل، وخلاط صارت خرابا يبابا، ولم يكن للملك الأشرف ابن ذكر، فاقتنع بدمشق واشتغل باللهو والملاذ، وفيها سار الملك الأشرف من

دمشق إلى عند أخيه الملك الكامل، وأقام عنده بالديار المصرية متنزها.

ذكر قصد التتر بلاد الاسلام

وفي هذه السنة عاودت التتر قصد بلاد الاسلام، وسفكوا وخرّبوا مثل ماتقدم ذكره، وكان قد ضعف جلال الدين لقبح سيرته، وسوء تدبيره، ولم يترك له صديقا من ملوك الأطراف، وعادى الجميع، وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلف عليه لما حصل لجلال الدين من فساد عقله، وسببه أنه كان له مملوك يحبه محبة شديدة، واتفق موت ذلك المملوك، فحزن عليه حزنا شديدا لم يسمع بمثله، وأمر أهل توريز بالخروج والنواح واللطم عليه، وكان إذا قدم إليه الطعام يرسل منه إلى المملوك الميت ولا يتجاسر احد أن يتفوه أنه ميت، فكانوا يحملون إليه الطعام ويقولون إنه يقبل الأرض وهو يقول: إني الآن أصلح مما كنت، فأنف أمراؤه من ذلك، وخرج بعضهم عن طاعته، فضعف امر جلال الدين لذلك ولكسرت من الملك الأشرف، فتمكن التتر من البلاد، واستولوا على مراغة، وهو استيلاؤهم الثاني.

ذكر قتل جلال الدين

ولما تمكن التتر من بلاد أذربيجان، سار جلال الدين يريد دينار بكر ليسير إلى الخليفة ويلتجئ إليه، ويعتضد بملوك الأطراف على التتر ويخوفهم عاقبة أمرهم، فنزل بالقرب من آمد فلم يشعر إلا والتتر قد كبسوه ليلا وخالطوا مخيمه، فهرب جلال الدين وقتل على ماشرحه إن شاء الله تعالى، ولما قتل تمكن التتر من البلاد، وساقوا حتى وصلوا في هذه السنة إلى الفرات، واضطرب الشام بسبب وصولهم إلى الفرات، ثم شنوا الغارات في ديار بكر والجزيرة، وفعلوا من القتل والتخريب مثل ماتقدم.....

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة

والسلطانان الكامل والأشرف بالديار المصرية، والملك المظفر بحماة مالكةا ومعها المعرة، وأخوه الملك الناصر قليج أرسلان ببارين مالكةا، والعزیز محمد بن الظاهر غازي قد استقل بملك حلب والتتر قد استولوا على بلاد العجم كلهأ، والخليفة المستنصر بالعراق، ثم ارتحل في هذه السنة الملك الكامل وأخوه الملك الأشرف من ديار مصر وسارا إلى البلاد الشرقية، فسار الملك الكامل إلى الشوبك واحتفل له الملك الناصر داود ابن المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب احتفالا عظيما بالضيافات والاقامات والتقدام، وحصل بينهما الاتحاد التام، وكان نزول الملك الكامل باللجون قرب الكرك، وهي منزلة الحجاج، في العشر الأخير من شعبان هذه السنة ووصل إليه باللجون صاحب حماة الملك المظفر محمود ملتقيا، وسافر الناصر داود مع الملك الكامل بعسكره إلى دمشق، واستصحب الملك الكامل معه ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب، وجعل نائبه بمصر ولده وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبا بكر ابن الملك الكامل ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، ثم سار الملك الكامل سيف الدين أبا بكر ابن الملك الكامل ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب، ثم سار الملك الكامل ونزل سلمية واجتمع معه ملوك أهل بيته في جمع عظيم، ثم سار بهم إلى آمد وحصرها، وتسلمها من صاحبها الملك المسعود بن الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود ابن سقمان بن أرتق، ومحمد بن قرا أرسلان المذكور هو الذي ملكه السلطان صلاح الدين آمد بعد انتزاعها من ابن نيسان، وكان سبب انتزاع الملك الكامل آمد من الملك المسعود المذكور لسوء سيرة الملك المسعود وتعرضه لحريم الناس، وكان له عجوز قوادة يقال لها الازاء، تؤلف بينه وبين نساء الناس الأكابر، ونساء الملوك، ولما نزل الملك المسعود إلى خدمة الملك الكامل وسلم آمد وبلادها إليه ومن جملة معاقلها حصن كيفا وهو في غاية الحصانة، أحسن الملك الكامل إلى

الملك المسعود وأعطاه اقطاعات جلييلة بديار مصر، ثم بدت منه أمور اعتقله الملك الكامل بسببها، ولم يزل الملك المسعود معتقلا إلى أن مات الملك الكامل، فخرج من الاعتقال، واتصل بحماة فأحسن إليه الملك المظفر محمود صاحب حماة، ثم سافر الملك المسعود المذكور إلى الشرق واتصل بالتتر فقتلوه، ولما تسلم الملك الكامل آمد وبلادها رتب فيها النواب من جهته، وجعل فيها ولده الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وجعل معه شمس الدين صواب العادلي، وخرجت هذه السنة والملك الكامل بالشرق، ولما خرج الملك الكامل من مصر في هذه السنة خرج صحبته بنتاه فاطمة خاتون زوجة الملك العزيز صاحب حلب، وغازية خاتون زوجة الملك المظفر صاحب حماة بنتا الملك الكامل، وحملت كل منهما إلى بعلها، واحتفل لدخولهما بحماة وحلب.....

ثم دخلت سنة ثلاثين وستمائة

في هذه السنة رجع السلطان الملك الكامل من البلاد الشرقية بعد ترتيب أمورها، وسار إلى ديار مصر، ورجع كل ملك إلى بلده.

ذكر استيلاء الملك العزيز محمد بن الظاهر صاحب حلب على شيزر

وكانت شيزر بيد شهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين عثمان بن الداية، وكان سابق الدين عثمان بن الداية المذكور واخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود بن زنكي، ثم اعتقل الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الشهيد سابق الدين عثمان ابن الداية وشمس الدين أخاه، فأنكر السلطان صلاح الدين عليه ذلك، وجعله حجة لقصد الشام وانتزاعه من الملك الصالح اسماعيل، فاتصل أولاد الداية بخدمة السلطان صلاح الدين، وصاروا من أكبر أمرائه، وكانت شيزر

اقطاع سابق الدين المذكور، فأقره السلطان صلاح الدين عليها وزاده أبا قبيس لما قتل صاحبها خمارتكين، ثم ملك شيزر بعده ولده مسعود بن عثمان حتى مات، وصارت لولده شهاب الدين يوسف المذكور إلى هذه السنة، فسار الملك العزيز صاحب حلب بأمر الملك الكامل وحاصر شيزر، وقدم إليه وهو على حصارها الملك المظفر محمود صاحب حماة مساعد له، فسلم شهاب الدين يوسف شيزر إلى الملك العزيز، ونزل إلى خدمته، فتسلمها في هذه السنة، وهنى الملك العزيز يحيى بن خالد بن القيسراني بقوله:

يامالكاعم أهل الأرض نائله
وخص إحسانه الداني مع القاصي
لما رأته شيزر آيات نصرته في
أرجائها ألقت العاصي إلى العاصي

ثم ولى الملك العزيز على شيزر، وأحسن إلى الملك المظفر محمود صاحب حماة، ورحل كل منهما إلى بلده.

وفي هذه السنة استأذن الملك المظفر محمود صاحب حماة الملك الكامل في انتزاع بارين من أخيه قليج أرسلان لأنه خشي أن يسلمها إلى الفرنج، لضعف قليج أرسلان عن مقاومتهم، فأذن الملك الكامل له في ذلك، فسار الملك المظفر من حماة وحاصر بارين وانتزعها من أخيه قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولما نزل قليج أرسلان إلى أخيه الملك المظفر أحسن إليه وسأله في الإقامة عنده بحماة فامتنع، وسار إلى مصر، فبذل له الملك الكامل اقطاعاً جليلاً وأطلق له أملاك جده بدمشق، ثم بدا منه مالا يليق من الكلام فاعتقله الملك الكامل إلى أن مات قليج أرسلان المذكور في الحبس سنة خمس وثلاثين وستمائة، قبل موت الملك الكامل بأيام.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة توفي مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كجك، وقد تقدم ذكر ملكه إربل بعد موت أخيه نور الدين يوسف بن زين الدين علي في سنة ست وثمانين وخمسمائة، لما كانا في خدمة السلطان صلاح الدين في الجهاد بالساحل، فبقي مالهما من تلك السنة إلى هذه السنة، ولما مات مظفر الدين المذكور لم يكن له ولد فوصى بإربل وبلادها للخليفة المستنصر، فتسلمها الخليفة بعد موت مظفر الدين المذكور، وكان مظفر الدين ملكا شجاعا وفيه عسف في استخراج الأموال من الرعية، وكان يحتفل بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، وينفق فيه الأموال الجلييلة.

وفيهما في شعبان توفي الشيخ عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، ولد بجزيرة ابن عمر في رابع جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ونشأ بها ثم سار إلى الموصل مع والده وأخوته، وسمع بها من أبي الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي، ومن في طبقته، وقدم بغداد مرارا حاجا ورسولا من صاحب الموصل وسمع من الشيخين يعيش بن صدقة، وعبد الوهاب بن علي الصوفي وغيرهما، ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة، ثم عاد إلى الموصل وانقطع في بيته للتوفر على العلم، وكان إماما في علم الحديث، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيرا بأنساب العرب وأخبارهم، صنف في التاريخ كتابا كبيرا سماه الكامل، وهو المنقول منه غالب هذا المختصر ابتداء فيه من أول الزمان إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة، وله كتاب أخبار الصحابة في ست مجلدات، واختصر كتاب الانساب للسمعاني وهو الموجود في أيدي الناس دون كتاب السمعياني، وورد إلى حلب في سنة ست وعشرين وستمائة ونزل عند الطواشي طغريل الأتابك بحلب، فأكرمه إكراما زائدا، ثم سافر إلى

دمشق سنة سبع وعشرين، ثم عاد إلى حلب في سنة ثمان وعشرين، ثم توجه إلى الموصل فتوفي بها في التاريخ المذكور، ونسبة الجزيرة إلى ابن عمر، وهو رجل من أهل برقعيد من أعمال الموصل اسمه عبد العزيز بن عمر بنى هذه المدينة فأضيفت إليه.

ثم دخلت سنة احدى وثلاثين وستمائة

في هذه السنة في المحرم توفي شهاب الدين طغرل الأتابك بحلب.

ذكر مسير السلطان الملك الكامل من مصر

إلى قتال كيقباز ملك بلاد الروم

في هذه السنة وقع من كيقباز بن كيخسرو، ملك بلاد الروم التعرض إلى بلاد خلاط، فرحل الملك الكامل بعساكره من مصر، واجتمعت عليه الملوك من أهل بيته، ونزل شمالي سلمية في شهر رمضان من هذه السنة، ثم سار بجموعه ونزل على النهر الأزرق في حدود بلد الروم، وقد ضرب في عسكره ستة عشر دهليزا، لستة عشر ملكا في خدمته منهم أخوته: الملك الأشرف موسى صاحب دمشق، والملك المظفر غازي صاحب ميافارقين، والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر، والصالح اسماعيل أولاد الملك العادل، والملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين، كان قد أرسله ابن أخيه الملك العزيز صاحب حلب مقدما على عسكر حلب إلى خدمة السلطان الملك الكامل، والملك الزاهر صاحب البيرة داود بن السلطان صلاح الدين، وأخوه الملك الأفضل موسى صاحب سميساط ابن السلطان صلاح الدين، وكان قد ملكها بعد أخيه الملك الأفضل علي، والملك المظفر محمود صاحب حماة

ابن الملك المنصور محمد، والملك الصالح أحمد صاحب عيتاب ابن الملك الظاهر صاحب حلب، والملك الناصر داود صاحب الكرك ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص ابن محمد بن شيركوه، وكان قد حفظ كيقباز ملك بلاد الروم الدربندات بالرجال والمقاتلة، فلم يتمكن السلطان من الدخول إلى بلاد الروم من جهة النهر الأزرق، وأرسل بعض العسكر إلى حصن منصور وهو من بلاد كيقباز فهدموه، ورحل السلطان وقطع الفرات، وسار إلى السويداء، وقدم جاسته تقدير ألفين وخمسمائة فارس مع الملك المظفر صاحب حماة، فسار الملك المظفر بهم إلى خرتبرت، وسار كيقباز ملك الروم إليهم واقتتلوا فانهمز العسكر الكامل، وانحصر الملك المظفر صاحب حماة في خرتبرت مع جملة من العسكر، وجد كيقباز في حصارهم والملك الكامل بالسويداء، وقد أحس من الملوك الذين في خدمته بالمخامرة والتقاعد، فإن شيركوه صاحب حمص سعى إليهم، وقال إن السلطان ذكر أنه متى ملك بلاد الروم فرقها على الملوك من أهل بيته عوض ما بأيدهم من الشام، ويأخذ الشام جميعه لينفرد بملك الشام ومصر، فتقاعدوا عن القتال وفسدت نياتهم وعلم الملك الكامل بذلك، فما أمكنه التحرك إلى قتال كيقباز لذلك ودام الحصار على الملك المظفر صاحب حماة، فطلب الأمان فأمنه كيقباز، ونزل إليه الملك المظفر فأكرمه كيقباز وخلع عليه وناداه وتسلم كيقباز خرتبرت وأخذها من صاحبها، وكان من الأرتقية قرابيب أصحاب ماردین، وكان قد دخل في طاعة الملك الكامل، وصارت خرتبرت من بلاد كيقباز، وكان نزول المظفر صاحب حماة من خرتبرت يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة، وأقام عند كيقباز يومين، ثم أطلقه وسار من عنده لخمس بقين من ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ووصل بمن معه إلى الملك الكامل وهو بالسويداء من بلاد آمد ففرح به، وقوى نفرة السلطان الملك الكامل يومئذ من الناصر داود صاحب الكرك، فألزمه بطلاق بنته فطلقها الناصر داود، وأثبت الملك الكامل طلاقها منه.

وفي هذه السنة استتم بناء قلعة المعرة، وكان قد أشار سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني على الملك المظفر صاحب حماة ببنائها، فبناها وتمت الآن وشحنها بالرجال والسلاح ولم يكن ذلك مصلحة، لأن الحلبيين حاصروها قريبا بعد، وأخذوها وخربت المعرة بسببها.....

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة

والملك الكامل بالبلاد الشرقية وقد انثنى عزمه عن قصد بلاد الروم للتخاذل الذي حصل في عسكره، ثم رحل وعاد إلى مصر، وعاد كل واحد من الملوك إلى بلده.

وفيها: توفي الملك الزاهر داود صاحب البيرة ابن السلطان صلاح الدين، وكان قد مرض في العسكر الكامل، فحمل إلى البيرة مريضاً وتوفي بها، وملك البيرة بعده ابن أخيه الملك العزيز محمد صاحب حلب، وكان الزاهر المذكور شقيق الظاهر صاحب حلب.

وفيها توفي القاضي بهاء الدين بن شداد في صفر، وكان عمره نحو ثلاث وتسعين سنة، وصحب السلطان صلاح الدين وكان قاضي عسكره، ولما توفي صلاح الدين كان عمر القاضي المذكور نحو خمسين سنة، ونال القاضي بهاء الدين المذكور من المنزلة عند أولاد صلاح الدين وعند الأتابك طغريل مالم ينلها أحد، ولم يكن في آبائه من اسمه شداد، بل لعل ذلك في نسب أمه فاشتهر به، وغلب عليه، وأصله من الموصل، وكان فاضلاً ديناً، وكان إقطاعاً على الملك العزيز ما يزيد على مائة ألف درهم في السنة.

وفيها: لما سارت الملوك إلى بلادهم من خدمة الملك الكامل، وصل الملك المظفر صاحب حماة ودخلها لخمس بقين من ربيع الأول من هذه

السنة، واتفق مولد ولده الملك المنصور محمد بعد مقدمه بيومين في الساعة الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، فتضاعف السرور بقدم الوالد والولد، قال الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد قصيدة طويلة في ذلك فمنها:

غدا الملك محروس الذرى والقواعد
باشرف مولود لاشرف والذ
حيناباه يوم الخميس كأنه
خميس بدال للناس في شخص واحد
وسميته باسم النبي محمد
وجديته فاستوفى جميع المحامد

أي باسم جديه الملك الكامل محمد والد والدته، والملك المنصور محمد صاحب حماة والد والده ومنها:
كأنى به في سدة الملك جالسا
وقد ساد في أوصافه كل سائد
ووافاك من أبنائه وبينهم
بأنجم سعد نورها غير خامد
إلا أيها الملك المظفر دعوتي
ستوري بهازندي ويشتد ساعدي
هنيئالك الملك الذي بقدومه
ترحل عنا كل هم فعاود

وفيها: لما تفرقت العساكر الكاملية قصد كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم حران والرها وحاصرهما واستولى عليهما وكانا للسلطان الملك الكامل.

وفيها: توفي بالقاهرة القاسم بن عمر بن علي الحموي، المصري الدار،

المعروف بابن الفارض، وله أشعار جيدة منها قصيدته التي عملها على طريقة الفقراء وهي مقدار ستمائة بيت.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة

في هذه السنة سار الناصر داود من الكرك إلى بغداد ملتجئاً إلى الخليفة المستنصر، لما حصل عنده من الخوف من عمه الملك الكامل، وقدم إلى الخليفة تحفا عظيمة وجواهر نفيسة، فأكرمه الخليفة المستنصر، وخلع عليه وعلى أصحابه، وكان الناصر داود يظن أن الخليفة يستحضره في ملأ من الناس، كما استحضر مظفر الدين صاحب إربل، فلم يحصل له ذلك، وألح في طلب ذلك من الخليفة، فلم يجبه.....

وكان الخليفة متوقفاً على استحضار داود رعاية لخاطر الملك الكامل، فجمع بين المصلحتين واستحضره ليلاً، ثم عاد الملك الناصر إلى الكرك.

وفي هذه السنة: سار السلطان الملك الكامل من مصر إلى البلاد الشرقية، واسترجع حران والرها من يد كيخباد صاحب بلاد الروم، وأمسك أجناد كيخباد ونوابه الذين كانوا بهما وقيدهم وأرسلهم إلى مصر، فلم يستحسن ذلك منه، ثم عاد الملك الكامل إلى دمشق، وأقام عند أخيه الملك الأشرف حتى خرجت هذه السنة.....

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستمائة

فيها عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية.

ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب

وفي هذه السنة كان قد خرج الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر

غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى حارم للصيد ورمى البندق، واغتسل بماء بارد فحم ودخل إلى حلب وقد قويت به الحمى، واشتد مرضه وتوفي في ربيع الأول من هذه السنة، وكان عمره ثلاث وعشرين سنة وشهوراً، وكان حسن السيرة في رعيته، ولما توفي تقرر في الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد، وعمره نحو سبع سنين، وقام بتدبير الدولة شمس الدين لؤلؤ الأرمني، وعز الدين عمر بن مجلي، وجمال الدولة إقبال الخاتوني والمرجع في الأمور إلى والدة الملك العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل.

وفي هذه السنة توفي علاء الدين كيقباز بن كيخسرو صاحب بلاد الروم، وملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو بن كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق.

وفي هذه السنة قويت الوحشة بين الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف، وكان ابتداءها ما فعله شيركوه صاحب حمص لما قصد الملك الكامل بلاد الروم، فاتفق الملك الأشرف مع صاحبة حلب ضيفة خاتون أخت الملك الكامل، ومع باقي الملوك على خلاف الملك الكامل خلا الملك المظفر صاحب حماة، فلما امتنع تهدده الملك الأشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه، فقدم خوفاً من ذلك إلى دمشق، وحلف للملك الأشرف ووافقه على قتال الملك الكامل، وكاتب الملك الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم، واتفق معه على قتال أخيه الملك الكامل إن خرج من مصر، وأرسل الملك الأشرف يقول للناصر داود صاحب الكرك: إنك إن وافقتني جعلتك ولي عهدي وأوصيت لك بدمشق، وزوجتك بابنتي، فلم يوافقه الناصر على ذلك لسوء حظه، ورحل إلى الديار المصرية إلى خدمة الملك الكامل، وصار معه على ملوك الشام، فسر به للملك الكامل وجدد عقده على ابنته عاشور التي طلقها منه، وأركب الناصر داود بسناجق

السلطنة ووعدته انه ينتزع دمشق من الملك الأشرف أخيه ويعطيه إياها، وأمر الملك الكامل أمراء مصر وولده الملك العادل أبا بكر ابن الملك الكامل فحملوا الغاشية بين يدي الملك الناصر داود، وبالغ في إكرامه.

وفي هذه السنة توجه عسكر حلب مع الملك المعظم توران شاه عم الملك العزيز، فحاصروا بغراس، وكان قد عمرها الداوية بعد مافتحها السلطان صلاح الدين وخربها، وأشرف عسكر حلب على أخذها، ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب أنطاكية، ثم إن الفرنج أغاروا على ربض دربساك، وهي حينئذ لصاحب حلب، فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين، وكثر فيهم القتل والأسر، وعاد عسكر حلب بالأسرى ورؤوس الفرنج، وكانت هذه الواقعة من أجل الوقائع.

وفي هذه السنة استخدم الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وهو بالبلاد الشرقية، وهي: آمد، وحصن كيفا، وحران وغيرها نائبا عن أبيه الخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرتي، فلإنهم بعد قتله ساروا إلى كيقباز ملك بلاد الروم وخدموا عنده، وكان فيهم عدة مقدمين مثل بركة خان وكشلوخان وصاروخان، وفرخان، وبردي خان، فلما مات كيقباز وتولى ابنه كيخسرو قبض على بركة خان وهو أكبر مقدميهم، ففارقت الخوارزمية حينئذ خدمته، وساروا عن الروم، ونهبوا ماكان على طريقهم، فاستألفهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، واستأذن أباه في استخدامهم، فأذن له واستخدمهم.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمائة

وقد استحكمت الوحشة بين الأخوين الكامل والأشرف، وقد لحق الملك الأشرف الذرب، وضعف بسببه، وعهد بالملك إلى أخيه الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل صاحب بصرى.

ذكر وفاة الملك الأشرف

وفي هذه السنة توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب، وكان قد مرض بالذرب واشتد به حتى توفي في المحرم من هذه السنة، وتملك دمشق أخوه الصالح اسماعيل بعهد منه، وكان مدة ملك الأشرف دمشق ثمان سنين وشهورا وعمره نحو ستين سنة، وكان مفرط السخاء يطلق الأموال الجلييلة النفيسة، وكان ميمون النقيبة لم تنهزم له راية، وكان سعيدا، ويتفق له أشياء خارقة للعقل، وكان حسن العقيدة وبنى بدمشق قصورا ومنتزهات حسنة، وكان منهمكا في اللذات وسماع الأغاني، فلما مرض ألقع عن ذلك وأقبل على الاستغفار إلى ان توفي ودفن في تربته بجانب الجامع، ولم يخلف من الأولاد إلا بتا واحدة تزوجها الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، وكان سبب الوحشة بينه وبين أخيه الملك الكامل، بعد ما كان بينهما من المصافاة، أن الملك الأشرف لم يبق بيده غير دمشق وبلادها، وكانت لاتفي بما يحتاجه وما يبذله، وقت قدوم أخيه الملك الكامل إلى دمشق، وأيضا لما فتح الملك الكامل آمد وبلادها لم يزد منها شيئا، وأيضا بلغه أن الملك الكامل يريد أن ينفرد بمصر والشام، وينتزع دمشق منه، فتغير بسبب ذلك.

ولما استقر الملك الصالح اسماعيل في ملك دمشق، كتب إلى الملوك من أهله، وإلى كيخسرو صاحب بلاد الروم في اتفاقهم معه على أخيه الملك الكامل، فوافقوه على ذلك إلا الملك المظفر صاحب حماة، وأرسل الملك المظفر رسولا إلى الملك الكامل يعرفه انتماؤه إليه، وأنه إنما وافق الملك الأشرف خوفا منه، فقبل الملك الكامل عذره، وتحقق صدق ولائه، ووعدته بانتزاع سلمية من صاحب حمص وتسليمها إليه.

ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى دمشق واستيلائه عليها وما يتعلق بذلك

لما بلغ الملك الكامل وفاة أخيه الملك الأشرف سار إلى دمشق، ومعه الناصر داود صاحب الكرك، وهو لا يشك أن الملك الكامل يسلم إليه دمشق لما كان قد تقرر بينهما، وأما الملك الصالح اسماعيل فإنه استعد للحصار، ووصل إليه نجدة الحلبيين وصاحب حمص، ونازل الملك الكامل دمشق، وأخرج الملك الصالح اسماعيل النفاطين فأحرق العقبة جميعها وما بها من خانات وأسواق، وفي مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجاله يزيدون على خمسين رجلاً، نجدة للصالح اسماعيل، وظفر بهم الملك الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم، وحال نزول الملك الكامل على دمشق أرسل توقيعا للملك المظفر صاحب حماة بسلمية، فتسلمها الملك المظفر، واستقرت نوابه بها، وكان نزول الملك الكامل على دمشق في جمادى الأولى من هذه السنة في قوة الشتاء، ثم سلم الملك الصالح اسماعيل دمشق إلى أخيه الملك الكامل، وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافاً إلى بصرى، وكان قد ورد من الخليفة المستنصر محيي الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين ابن الجوزي رسولا للتوفيق بين الملوك، فتسلم الملك الكامل دمشق لاحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، وكان الملك الكامل شديد الحنق على شيركوه صاحب حمص فأمر العسكر فبرزوا لقصده حمص، وأرسل إلى صاحب حماة وأمره بالمسير إليها فبرز الملك المظفر من حماة، ونزل على الرستن، واشتد خوف شيركوه صاحب حمص وتخضع للملك الكامل وأرسل إليه نساءه ودخلن على الملك الكامل، فلم يلتفت إلى ذلك، ثم بعد استقرار الملك الكامل في دمشق لم يلبث غير أيام حتى مرض، واشتد مرضه وكان سببه إنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام، فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى معدته وتورمت منها، وحصل له حمى ونهاه الأطباء عن القيء وخوفوه منه فلم يقبل وتقيأ فمات لوقته،

وعمره نحو ستين سنة وكانت وفاته لتسع بقين من رجب من هذه السنة أعني سنة خمس وثلاثين وستمائة، وكان بين موته وموت أخيه الملك الأشرف نحو ستة أشهر وكانت مدة ملكه لمصر من حين مات أبوه عشرين سنة، وكان بها نائبا قبل ذلك. قريبا من عشرين سنة، فحكم في مصر نائبا وملكاً نحو أربعين سنة، وأشبه حاله حال معاوية بن أبي سفيان، فإنه حكم في الشام نائبا نحو عشرين، وملكاً نحو عشرين، وكان الملك الكامل ملكاً جليلاً مهيباً حازماً، حسن التدبير، وأمنت الطرق في أيامه، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه، واستوزر في أول ملكه وزير أبيه صفى الدين بن شكر، فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدا بعده، وكان يخرج الملك الكامل بنفسه فينظر في أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها، فعمرت في أيامه ديار مصر أتم العمارة، وكان محبا للعلماء ومجالستهم، وكانت عنده مسائل غريبة في الفقه والنحو يمتحن بها الفضلاء إذا حضروا في خدمته، وكان كثير السماع للأحاديث النبوية، وتقدم عنده بسببها الشيخ عمر بن دحية، وبنى له دار الحديث بين القصرين في الجانب الغربي، وكانت سوق الآداب والعلوم عنده نافقة رحمه الله تعالى، وكان أولاد الشيخ صدر الدين بن حموية من أكابر دولته، وهم الأمير فخر الدين ابن الشيخ، وأخوته عماد الدين وكمال الدين ومعين الدين أولاد الشيخ المذكور، وكل من أولاد الشيخ المذكور حاز فضيلتي السيف والقلم، فكان يباشر التدريس ويتقدم على الجيش.

ولما مات السلطان الملك الكامل بدمشق كان معه بها الملك الناصر داود صاحب الكرك، فانفقت آراء الأمراء على تحليف العسكر للملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وهو حينئذ نائب أبيه بمصر، فحلف له جميع العسكر، وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائبا عن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وتقدمت الأمراء إلى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق

وهددوه إن أقام، وتأخر مع الجواد يونس بعض العسكر ومقدمهم عماد الدين ابن الشيخ، وبقي يباشر الأمور مع الملك الجواد.

ولما بلغ شيركوه صاحب حمص وفاة الملك الكامل فرح فرحا عظيما، وأتاه فرج ما كان يطمع نفسه به ، وأظهر سرورا عظيما ولعب بالكرة على خلاف العادة وهوفي عشر السبعين، وأما الملك المظفر صاحب حماة فإنه حزن لذلك حزنا عظيما، ورحل من الرستن، وعاد إلى حماة، وأقام فيها للعزاء، وأرسل صاحب حمص ارتجع سلمية من نواب الملك المظفر، وقطع القناة الواصلة من سلمية إلى حماة فبيست بساينها، ثم عزم على قطع النهر العاصي عن حماة فسد مخرجه من بحيرة قدس التي بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة والطواحين، وذهب ماء العاصي في أودية بجوانب البحيرة ثم لما لم يجد له الماء مسلكا عاد فهدم ماعمله صاحب حمص، وجرى كما كان أولا، وكذلك كان قد حصل لصاحب حلب ولعسكرها الخوف من الملك الكامل، فلما بلغهم موته أمنوا من ذلك.

ذكر استيلاء الحلبيين على المعرة وحصارهم حماة

ولما بلغ الحلبيين موت الكامل اتفقت آراؤهم على أخذ المعرة، ثم أخذ حماة من الملك المظفر صاحب حماة لموافقته الملك الكامل على قصدهم، ووصل عسكر حلب إلى المعرة وانتزعوها من يد الملك المظفر صاحب حماة، وحاصروا قلعتها وخرجت المعرة حينئذ عن ملك الملك المظفر صاحب حماة، ثم سار عسكر حلب ومقدمهم المعظم توران شاه ابن صلاح الدين إلى حماة بعد استيلائهم على المعرة، ونازلوا حماة وبها صاحبها الملك المظفر، ونهب العسكر الحلبي بلاد حماة، واستمر الحصار على حماة حتى خرجت هذه السنة.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة عقد لسلطان الروم غياث الدين كيخسرو بن كيقباد بن كيخسرو العقد على غازية خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب، وهي صغيرة حينئذ، وتولى القبول عن ملك بلاد الروم قاضي دوقات، ثم عقد للملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب العقد على أخت كيخسرو وهي ملكة خاتون بنت كيقباد بن كيخسرو بن قليج أرسلان، وأم ملكة خاتون المذكورة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان قد زوجها الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بكيقباد المذكور، وخطب لغياث الدين كيخسرو بحلب.

وفيها خرجت الخوارزمية عن طاعة الملك الصالح أيوب بعد موت أبيه الملك الكامل، ونهبوا البلاد.

وفيها سار لؤلؤ صاحب الموصل، وحاصر الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بسنجار، فأرسل الملك الصالح واسترضى الخوارزمية، وبذل لهم حران والرها فعادوا إلى طاعته، واتقع مع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فانهزم لؤلؤ وعسكره هزيمة قبيحة، وغنم عسكر الملك الصالح منهم شيئا كثيرا.

وفي هذه السنة جرى بين الملك الناصر داود صاحب الكرك، وبين الملك الجواد يونس المتولي على دمشق مصاف بين جينين ونابلس، انتصر فيه الملك الجواد يونس، وانهزم الملك الناصر داود هزيمة قبيحة، وقوي الملك الجواد بسبب هذه الوقعة، وتمكن من دمشق ونهب عسكر الملك الناصر وأثقاله.

وفي أواخر هذه السنة ولد والدي الملك الأفضل نور الدين علي ابن الملك المظفر صاحب حماة.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة

في هذه السنة رحل عسكر حلب المحاصر لحماة بعد مولد الملك الأفضل، وكان قد طالت مدة حصارهم لحماة وضجروا، فتقدمت إليهم ضيفة خاتون صاحبة حلب بنت الملك العادل بالرحيل عنها فرحلوا، وضاق الأمر على الملك المظفر في هذا الحصار، وانفق فيه أموالا كثيرة، واستمرت المعرة في يد الحلبيين، وسلمية في يد صاحب حمص، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة وبعرين، ولما جرى ذلك خاف الملك المظفر أن تخرج بعرين بسبب قلعتها، فتقدم بهدمها فهدمت إلى الأرض في هذه السنة.

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفي هذه السنة في جمادى الآخرة استولى الملك الصالح أيوب ابن السلطان الملك الكامل على دمشق وأعمالها، بتسليم الملك الجواد يونس، وأخذ العوض عنها: سنجار، والرقّة، وعانة، وكان سبب ذلك أن الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب مصر لما علم باستيلاء الملك الجواد على دمشق، أرسل إليه عماد الدين ابن الشيخ ليتنزع دمشق منه، وأن يعوضه عنها إقطاعا بمصر، فمال الجواد يونس إلى تسليمها إلى الملك الصالح حسبما ذكرناه، وجهاز على عماد الدين ابن الشيخ من وقف له بقصة، فلما أخذها عماد الدين منه ضربه ذلك الرجل بسكين فقتله، ولما وصل الملك الصالح أيوب إلى دمشق وصل معه الملك المظفر صاحب حماة معاضدا له، وكان قد لاقاه إلى اثناء الطريق، واستقر الملك الصالح أيوب المذكور في ملك دمشق، وسار الجواد يونس إلى البلاد الشرقية المذكورة فتسلمها.

ولما استقر ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه إلى مصر ليملكها، وسأله الملك المظفر صاحب حماة في منازلة حمص وأخذها من شيركوه، فبرز إلى الثنية وكان قد نازلت الخوارزمية وصاحب حماة حمص، فأرسل شيركوه مالا كثيرا وفرقه في الخوارزمية، فرحلوا عنه إلى البلاد الشرقية، ورحل صاحب حماة إلى حماة، ثم كر الملك الصالح عائداً إلى دمشق طالبا مصر، وسار من دمشق إلى خربة اللصوص وعيد بها عيد رمضان، ووصل إليه بعض عساكر مصر مقفزين.

ولما خرج الملك الصالح من دمشق جعل نائبه فيها ولده الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح، وشرع الملك الصالح يكتتب عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ويستدعيه إليه، وعمه اسماعيل المذكور يتحجج ويعتذر عن الحضور ويظهر له أنه معه، وهو يعمل في الباطن على ملك دمشق، وأخذها من الصالح أيوب، وكان قد سافر الملك الناصر صاحب الكرك إلى مصر واتفق مع الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل على قتال الملك الصالح أيوب، ووصل أيضا في هذه السنة محيي الدين ابن الجوزي رسولا من الخليفة ليصلح بين الأخوين العادل صاحب مصر والصالح أيوب المستولي على دمشق، وهذا محيي الدين هو الذي حضر ليصلح بين الكامل والأشرف، فاتفق أنه مات في حضوره في سنة أربع وثلاثين وخمس وثلاثين أربعة من السلاطين العظماء وهم: الملك الكامل صاحب مصر، وأخوه الأشرف صاحب دمشق، والعزیز صاحب حلب، وکيقباذ صاحب بلاد الروم، فقال في ذلك ابن المسجف أحد شعراء دمشق:

يا إمام الهدى أباجعفر المنـ

صور يامن له الفخار الانيل

ما جرى من رسولك الآن محيي الـ

ـدين في هذه البلاد قليل

جاء والأرض بالسلطين تزهي
وغدا والديار منهم طول
أقفر الروم والشام، ومصر
أفهدا مغسل أم رسول

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستمائة

في هذه السنة في صفر سار الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه صاحب حمص بجموعهما وهجموا دمشق، وحصروا القلعة وتسلمها الصالح اسماعيل، وقبض على المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب، وكان الملك الصالح أيوب بنابلس لقصد الاستيلاء على ديار مصر، وكان قد بلغه سعي عمه اسماعيل في الباطن، وكان للصالح أيوب طبيب يثق به يقال له الحكيم سعد الدين الدمشقي، فأرسله الصالح أيوب إلى بعلبك ومعه قفص من حمام نابلس ليطالعه بأخبار الصالح صاحب بعلبك، وحال وصول الحكيم المذكور علم به صاحب بعلبك فاستحضره وأكرمه وسرق الحمام التي لنابلس، وجعل موضعها حمام بعلبك ولم يشعر الطبيب المذكور بذلك، فصار الطبيب المذكور يكتب ان عمك اسماعيل قد جمع وهو في نية قصد دمشق ويطبق فيقعد الطير ببعلبك فيأخذ الصالح اسماعيل البطاقة ويزور على الحكيم إن عمك اسماعيل قد جمع ليعاضدك، وهو واصل إليك ويسرجه على حمام نابلس فيعتمد الصالح أيوب على بطاقة الحكيم، ويترك ما يرد إليه من غيره من الأخبار، واتفق أيضا ان الملك المظفر صاحب حماة علم بسعي الصالح اسماعيل صاحب بعلبك في أخذ دمشق مع خلوها ممن يحفظها، فجهاز نائبه سيف الدين علي بن أبي علي، ومعه جماعة من عسكر حماة وغيرهم، وجهاز معه من السلاح والمال شيئا كثيرا ليصل إلى دمشق ويحفظها لصاحبها، وأظهر الملك المظفر وابن أبي علي أنها قد اختصما، وأن ابن أبي علي قد غضب، واجتمع معه هذه الجماعة وقد

قصدوا فراق صاحب حماة لأنه يريد أن يسلم حماة للفرنج، كل ذلك خوفاً من صاحب حمص شيركوه لئلا يقصد ابن أبي علي ويمنعه، فلم تخف عن شيركوه هذه الحيلة، ولما وصل ابن أبي علي إلى بحيرة حمص قصده شيركوه وأظهر أنه مصدقه فيما ذكر، وسأله الدخول إلى حمص ليضيفه وأخذ ابن أبي علي معه، وأرسل من استدعى باقي أصحاب ابن أبي علي إلى الضيافة فمنهم من سمع ودخل إلى حمص، ومنهم من هرب فسلم، فلما حصلوا عنده بحمص قبض على ابن أبي علي وعلى جميع من دخل حمص من الحمويين، واستولى على جميع ما كان معهم من السلاح والخزانة وبقي يعذبهم ويطلب منهم أموالهم حتى استصفاهم، ومات ابن أبي علي وغيره في حبسه بحمص، والذي سلم وبقي إلى بعد موت شيركوه خلص، ولما جرى ذلك ضعف الملك المظفر صاحب حماة ضعفاً كثيراً.

وأما الملك الصالح أيوب فلما بلغه قصد عمه اسماعيل دمشق، رحل من نابلس إلى الغور، فبلغه استيلاء عمه على قلعة دمشق، واعتقال ولده المغيث عمر، ففسدت نيات عساكره عليه وشرعت الأمراء ومن معه من الملوك يحركون نقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح أيوب إلى الصالح اسماعيل بدمشق، فلم يبق عند الصالح أيوب بالغور غير مماليكه واستأذ داره حسام الدين ابن أبي علي، وأصبح الملك الصالح أيوب لا يدري ما يفعل ولأله موضع يقصده، فقصد نابلس، ونزل بها بمن بقي معه وسمع الناصر داود بذلك، وكان قد وصل من مصر إلى الكرك فنزل بعسكره وأمسك الملك الصالح أيوب وأرسله إلى الكرك واعتقله بها، وأمر بالقيام في خدمته بكل ما يختاره، ولما اعتقل الصالح أيوب بالكرك تفرق عنه باقي أصحابه ومماليكه، ولم يبق منهم معه غير عدة يسيرة، ولما جرى ذلك أرسل أخو الصالح الملك العادل أبو بكر صاحب مصر يطلبه من الملك الناصر داود، فلم يسلمه الناصر داود، فأرسل الملك العادل وتهدد الملك الناصر بأخذ بلاده فلم يلتفت إلى ذلك.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة بعد اعتقال الملك الصالح بالكرك قصد الناصر داود القدس، وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل، فحاصرها وفتحها وخرّب القلعة وخرّب برج داود أيضا، فإنه لما خربت القدس أولا لم يخرب برج داود فخربه في هذه المرة.

وفي هذه السنة توفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص ابن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي، وكانت مدة ملكه بحمص نحو ست وخمسين سنة، لأن صلاح الدين ملكه حمص سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، بعد موت أبيه محمد بن شيركوه، وكان عمره يومئذ نحو اثنتي عشرة سنة، وكان شيركوه المذكور عسوقا لرعيته، وملك حمص بعده ولده الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه.

وفي هذه السنة استولى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل على سنجار، وأخذها من الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل.

ذكر خروج الملك الصالح أيوب من الاعتقال والقبض على أخيه الملك العادل صاحب مصر وملك الملك الصالح أيوب ديار مصر

وفي هذه السنة في أواخر رمضان أفرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب، واجتمعت عليه مماليكه، وكتبه إليها زهير، وسار الناصر داود وصحبته الصالح أيوب إلى قبة الصخرة، وتحالفا بها على أن تكون ديار مصر للصالح، ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود، ولما تملك الصالح أيوب لم يف للناصر بذلك وكان يتأول في يمينه أنه كان مكرها، ثم سارا إلى غزة، فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وعلى والدته ذلك،

وبرز بعسكر مصر، ونزل على بليس لقصد الناصر داود والصالح أخيه، وأرسل إلى عمه الصالح اسماعيل المستولي على دمشق أن يبرز ويقصدهما من جهة الشام، وأن يستأصلهما فصار الصالح اسماعيل بعساكر دمشق، ونزل الفوار، فبينما الناصر داود والصالح أيوب في هذه الشدة وهما بين عسكرين قد أحاطا بهما، إذ ركبت جماعة من المماليك الأشرفية، ومقدمهم أيك الأسمر، وأحاطوا بدهليز الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة وعليه من يحفظه، وأرسلوا إلى الملك الصالح أيوب يستدعونه، فأتاه فرج لم يسمع بمثله، وسار الملك الصالح أيوب والملك الناصر داود إلى مصر، وبقي في كل يوم يلتقي الملك الصالح فوج بعد فوج من الأمراء والعسكر، وكان القبض على الملك العادل ليلة الجمعة ثامن ذي القعدة من هذه السنة، فكانت مدة ملكه نحو ستين، ودخل الملك الصالح أيوب إلى قلعة الجبل بكرة الأحد لست بقين من الشهر المذكور، وزينت له البلاد وفرح الناس بمقدمه، وحصل للملك المظفر صاحب حماة من السرور والفرح بملك الملك الصالح مصر مالا يمكن شرحه، فإنه مازال على ولائه حتى أنه لما أمسك بالكرك كان يخطب له بحماة وبلادها، ولما استقر الملك الصالح أيوب في ملك مصر وصحبته الناصر داود، حصل عند كل واحد منهما استشعار من صاحبه، وخاف الناصر داود أن يقبض عليه، فطلب دستورا، وتوجه إلى بلاده الكرك وغيرها.

ذكر وفاة صاحب ماردین

في هذه السنة، وقيل في سنة ست وثلاثين، توفي ناصر الدين أرتق أرسلان بن ايلغازي ابن البي بن تمر تاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردین، وكان يلقب الملك المنصور، وملك المذكور ماردین بعد أخيه حسام الدين يولق أرسلان حسبما تقدم ذكره في سنة ثمانين وخمسة، وبقي أرتق أرسلان متغلبا عليه مملوك والده البقش حتى قتله أرتق

أرسلان في سنة إحدى وستمائة، واستقل أرتق أرسلان بملك ماردين حتى توفي في هذه السنة، ولما مات الملك المنصور أرتق أرسلان ملك بعده ابنه الملك السعيد نجم الدين غازي بن أرتق أرسلان المذكور حتى توفي في سنة ثلاث وخمسين وستمائة ظنا، ثم ملك بعده في السنة المذكورة ابنه الملك المظفر قرا أرسلان بن غازي بن أرتق أرسلان، وكانت وفاة المظفر قرا أرسلان المذكور سنة إحدى وتسعين وستمائة ظنا، ثم ملك بعده ولده الأكبر شمس الدين داود بن قرا أرسلان سنة وتسعة أشهر، ثم توفي وملك بعده أخوه الملك المنصور نجم الدين غازي بن قرا أرسلان في سنة ثلاث وتسعين وستمائة ظنا، ونقلت وفيات المذكورين حسبما هو مشروح من تقويم رجل من ماردين ذكر فيه تواريخ بني أرتق، ولم أتحقق صحة ذلك، وسنذكر في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وفاة الملك المنصور غازي المذكور في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة

في هذه السنة قبض الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بعد استقراره في ملك مصر على أيك الأسمر، مقدم المماليك الأشرفية وعلى غيره من الأمراء والمماليك الذين قبضوا على أخيه، وأودعهم الحبوس، وأخذ في إنشاء ممالكه، وشرع الملك الصالح أيوب المذكور من هذه السنة في بناء قلعة الجزيرة واتخذها مسكنا لنفسه.

وفيهما نزل الملك الحافظ أرسلان شاه ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب عن قلعة جعبر، وبالس، وسلمهما إلى أخته ضيفة خاتون صاحبة حلب، وتسلم عوض ذلك أعزاز وبلادها معها تساوي ما نزل عنه، وكان سبب ذلك أن الملك الحافظ المذكور أصابه فالج، وخشي من أولاده،

وتغلبهم عليه، ففعل ذلك لأنه كان ببلاد قريية إلى حلب لايمكنهم التعرض إليه.

وفي هذه السنة كثر عبث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الملك الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب، فخرج إليهم عسكر حلب مع الملك المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين، ووقع بينهم القتال فانهمز الحلييون هزيمة قبيحة، وقتل منهم خلق كثير منهم الملك الصالح ابن الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين، وأسر مقدم الجيش الملك المعظم المذكور، واستولى الخوارزميون على أثقال الحليين وأسروا منهم عدة كثيرة، ثم كانوا يقتلون بعضهم ليشتري غيرهم نفسه منهم بماله، فأخذوا بذلك شيئاً كثيراً، ثم نزل الخوارزمية بعد ذلك على حيلان، وكثر عيثلهم وفسادهم ونهبهم في بلاد حلب، وجفل أهل الحواضر والبلاد ودخلوا مدينة حلب، واستبعد أهلها للحصار، واركب الخوارزمية من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبه التتر، ثم سارت الخوارزمية إلى منبج وهجموها بالسيف يوم الخميس لتسع بقين من ربيع الأول من هذه السنة، وفعلوا من القتل والنهب مثل ما تقدم ذكره، ثم رجعوا إلى بلادهم وهي حران ومامعها، بعد أن أخربوا بلد حلب.

ذكر عود الخوارزمية إلى بلد حلب وغيرها

ثم إن الخوارزمية رحلوا من حران، وقطعوا الفرات من الرقة، ووصلوا إلى الجبول، ثم إلى تل اعزاز، ثم سربين، ثم إلى المعرة وهم ينهبون ما يجدونه، فإن الناس جفلوا من بين أيديهم، وكان قد وصل الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح اسماعيل المستولي على دمشق نجدة للحليين، فاجتمع الحلييون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية، واستمرت الخوارزمية على ما هم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر ونزل عسكر حلب على تل

السلطان، ثم رحلت الخوارزمية إلى جهة حماة ولم يتعرضوا إلى نهب لانتحاء صاحبها الملك المظفر إلى الملك الصالح أيوب، ثم سارت الخوارزمية إلى سلمية، ثم إلى الرصافة طالين الرقة، وسار عسكر حلب من تل السلطان إليهم ولحقهم العرب فأرمت الخوارزمية ما كان معهم من المكاسب وسيبوا الأسرى، ووصلت الخوارزمية إلى الفرات في أواخر شعبان في هذه السنة، ولحقهم عسكر حلب وصاحب حمص إبراهيم قاطع صفين، فعمل لهم الخوارزمية ستائر، ووقع القتال بينهم إلى الليل فقطع الخوارزمية الفرات وساروا إلى حران فسار عسكر حلب إلى البيرة وقطعوا الفرات منها وقصدوا الخوارزمية، واتفقوا قريب الرها لتسع بقين من رمضان هذه السنة، فولى الخوارزمية منهزمين، وركب صاحب حمص وعسكر حلب أقفيتهم يقتلون ويأسرون إلى أن حال الليل بينهم، ثم سار عسكر حلب إلى حران فاستولوا عليها، وهربت الخوارزمية إلى بلد عانة، وبادر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى نصيبين ودارا وكانت للخوارزمية فاستولى عليها وخلص من كان بهما من الأسرى، وكان منهم الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين أسيرا في بلدة دارا من حين أسروه في كسرة الحلبيين، فحمله بدر الدين لؤلؤ إلى الموصل، وقدم له ثيابا وتحفا وبعث به إلى عسكر حلب، واستولى عسكر حلب على الرقة، والرها، وسروج، ورأس عين، ومامع ذلك، واستولى صاحب حمص المنصور إبراهيم على بلد الخابور، ثم سار عسكر حلب ووصل إليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم ابن الملك الصالح أيوب بآمد وتسلموها منه، وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم، ولم يزل ذلك بيده حتى توفي أبوه الملك الصالح أيوب بمصر، وسار إليها المعظم المذكور على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وبقي ولد المعظم، وهو الملك الموحد عبد الله بن المعظم تورانشاه بن الصالح أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مالكا لحصن كيفا إلى أيام التتر وطالت مدته بها.

ذكر ماكان من الملك الجواد يونس

في هذه السنة كان هلاك الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، وصورة ماجرى له أنه كان قد استولى بعد ملك دمشق على سنجار، وعانة، فباع عانة من الخليفة المستنصر ببال تسلمه منه، وسار لؤلؤ صاحب الموصل وحاصر سنجار، ويونس المذكور غائب عنها واستولى عليها، ولم يبق بيد يونس من البلاد شيء، فسار على البرية إلى غزة، وأرسل إلى الملك الصالح أيوب صاحب مصر يسأله في المصير إليه، فلم يجبه إلى ذلك، فسار يونس حيثئذ ودخل إلى عكا وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح اسماعيل صاحب دمشق حيثئذ وبذل مالا للفرنج وتسلم الملك الجواد يونس المذكور من الفرنج واعتقله، ثم خنقه.

وفي هذه السنة ولى الملك الصالح أيوب الشيخ عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام القضاء بمصر والوجه القبلي، وكان عز الدين المذكور بدمشق، فلما قوي خوف الصالح اسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر، سلم الصالح اسماعيل: صفد، والشقيف، إلى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن أخيه الصالح أيوب، فعظم ذلك على المسلمين وأكثر الشيخ عز الدين بن عبد السلام التشنيع على الصالح اسماعيل بسبب ذلك، وكذلك جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب، ثم خافا من الصالح اسماعيل، فسار عز الدين بن عبد السلام إلى مصر وتولى بها القضاء كرها، وسار جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب إلى الكرك، وأقام عند الملك الناصر داود صاحب الكرك ونظم له مقدمته الكافية في النحو، ثم بعد ذلك سافر ابن الحاجب إلى الديار المصرية.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة

والصالح اسماعيل صاحب دمشق، والمنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وصاحبة حلب متفقون على عداوة الملك الصالح أيوب صاحب مصر، ولم يوافقهم صاحب حماة على ذلك، واخلص في الانتفاء إلى صاحب مصر.

وفي هذه السنة اتفقت الخوارزمية مع الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين ابن الملك العادل، وفيها في شعبان أصاب جدي الملك المظفر صاحب حماة الفالج وهو جالس بين أصحابه في قلعة حماة، وبقي أياما لا يتكلم ولا يتحرك، وكان ذلك في أواخر فصل الشتاء، وأرجف الناس بموته، وقام بتدبير المملكة مملوكه وأستاذ داره سيف الدين طغريل، ثم خف مرض الملك المظفر وفتح عينيه وصار يتكلم باللفظة واللفظتين لا يكاد يفهم، وكان العاطب الجانب الأيمن منه، وبعث إليه الصالح صاحب مصر طبيا حاذقا نصرانيا يقال له النفيس ابن طليب، فلم تنجح فيه المداواة واستمر على ذلك إلى أن توفي بعد سنتين وكسر على ماسندكرة إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة في ذي الحجة توفي الملك الحافظ نور الدين أرسلان ابن الملك العادل بن أيوب بأعزاز، وهي التي تعوضها عن قلعة جعبر، ونقل إلى حلب فدفن في الفردوس، وتسلم نواب الملك الناصر يوسف صاحب حلب قلعة أعزاز وأعمالها.....

ثم دخلت سنة أربعين وستمائة

وفي هذه السنة كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين، وبين عسكر حلب، ومعهم المنصور ابراهيم صاحب

حصص مصاف قريب الخابور عند المجدل، في يوم الخميس لثلاث بقين من صفر هذه السنة، فولى المظفر غازي والخورزمية منهزمين أقبح هزيمة، ونهب منهم عسكر حلب شيئاً كثيراً، ونهبت وطاقت الخوارزمية ونساؤهم أيضاً، ونزل الملك المنصور ابراهيم في خيمة الملك المظفر غازي، واحتوى على خزائنه ووطاقه، ووصل عسكر حلب وصاحب حصص إلى حلب في مستهل جمادى الأولى، مؤيدين منصورين.

ذكر وفاة الملكة ضيفة خاتون صاحبة حلب وهي والددة الملك العزيز

وفي هذه السنة في ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى، توفيت ضيفة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان مرضها قرحة في مرق البطن وحى، ودفنت بقلعة حلب، وكان مولدها سنة إحدى أو اثنتين وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب حين كانت حلب لأبيها الملك العادل، قبل أن ينتزعها منه أخوه السلطان صلاح الدين ويعطيها ابنه الظاهر غازي، فاتفق مولدها ووفاتها بقلعة حلب، ولما ولدت كان عند أبيها الملك العادل ضيف فسامها ضيفة، فكانت مدة عمرها نحو تسع وخمسين سنة، وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد تزوج قبل ضيفة خاتون بأختها غازية وتوفيت، فلما توفيت غازية تزوج بأختها ضيفة خاتون المذكورة، وكانت ضيفة خاتون قد ملكت حلب بعد وفاة ابنها الملك العزيز، وتصرفت في الملك تصرف السلاطين وقامت بالملك أحسن قيام، وكانت مدة ملكها نحو ست سنين، ولما توفيت كان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز نحو ثلاث عشرة سنة، فأشهد عليه أنه بلغ، وحكم واستقل بمملكه حلب، وما هو مضاف إليها، والمرجع في الأمور إلى جمال الدين إقبال الأسود الخصي الخاتوني.

ذكر وفاة المستنصر بالله

في هذه السنة توفي المستنصر بالله أبو جعفر المنصور بن الظاهر محمد ابن الإمام الناصر أحمد، بكرة الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة إلا شهرا، وكان حسن السيرة عادلا في الرعية، وهو الذي بنى المدرسة ببغداد المسماة بالمستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي، مما يلي دار الخلافة، وجعل لها أوقافا جليلة على أنواع البر، ولما مات المستنصر اتفقت آراء أرباب الدولة مثل الدوادار والشرابي على تقليد الخلافة ولده عبد الله ولقبوه المستعصم بالله وهو سابع ثلاثينهم، وآخرهم. وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور، وكان عبد الله المستعصم ضعيف الرأي، فاستبد كبراء دولته بالأمر، وحسنوا له قطع الأجناد، وجمع المال، ومدارة التتر، ففعل ذلك وقطع أكثر العساكر.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستائة

في هذه السنة قصدت التتر بلاد غياث الدين كيخسرو بن كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان السلجوقي، صاحب بلاد الروم، فأرسل واستنجد بالحلبين، فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارسي، وجمع العساكر من كل جهة والتقى مع التتر، فانهزمت عساكر الروم هزيمة قبيحة، وقتل التتر وأسروا منهم خلقا كثيرا، وتحكمت التتر، واستولوا أيضا على خلاط وآمد وبلادهما، وهرب غياث الدين كيخسرو إلى بعض المعازل، ثم أرسل إلى التتر وطلب الأمان، ودخل في طاعتهم، ثم توفي غياث الدين كيخسرو المذكور بعد ذلك في سنة أربع وخمسين وستائة، حسبما ذكره إن شاء الله تعالى، وخلف صغيرين وهما ركن الدين، وعز الدين، ثم هرب عز الدين إلى قسطنطينية، وبقي ركن الدين في الملك تحت حكم التتر، والحاكم البرواناه معين الدين سليمان، والبرواناه لقبه

وهو اسم الحاجب بالعجمي، ثم إن البرواناه قتل ركن الدين وأقام في الملك ولدا له صغيرا،

وفيها: كانت المراسلة بين الصالح أيوب صاحب مصر والصالح اسماعيل صاحب دمشق في الصلح، وأن يطلق الصالح اسماعيل المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب وحسام الدين بن أبي علي الهذباني، وكانا معتقلين عند الملك الصالح اسماعيل، فأطلق حسام الدين ابن أبي علي وجهه إلى مصر، واستمر الملك المغيث ابن الصالح أيوب في الاعتقال، واتفق الصالح اسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك، واعتضد بالفرنجة، وسلموا أيضا إلى الفرنج عسقلان وطبرية، فعمر الفرنج قلعتيهما، وسلموا أيضا إليهم القدس بما فيه من المزارات.

قال القاضي جمال الدين بن واصل ومررت إذ ذاك بالقدس، متوجها إلى مصر، ورأيت القسوس وقد جعلوا على الصخرة قناني الخمر للقربان.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستمائة

ذكر المصاف الذي كان بين عسكر مصر ومعهم
الخوارزمية وبين عسكر دمشق ومعهم الفرنج وصاحب
حمص

في هذه السنة وصلت الخوارزمية إلى غزة باستدعاء الملك الصالح أيوب لنصرته على عمه الصالح اسماعيل، وكان مسيرهم على حارم والروج إلى أطراف بلاد دمشق، حتى وصلوا إلى غزة، ووصل إليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية مع ركن الدين بيبرس، مملوك الملك الصالح أيوب وكان من أكبر مماليكه، وهو الذي دخل معه الحبس لما حبس في الكرك، وأرسل الملك الصالح اسماعيل عسكر دمشق مع الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وسار صاحب حمص جريدة ودخل

عكا، فاستدعى الفرنج على ماكان قد وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر، فخرجت الفرنج بالفارس والراجل، واجتمعوا أيضاً بصاحب حمص، وعسكر دمشق والكرك، ولم يحضر الناصر داود ذلك، والتقى الفريقان بظاهر غزة، فولى عسكر دمشق منهم خلقا عظيما، واستولى الملك الصالح أيوب صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس، ووصلت الأسرى والرؤوس إلى مصر ودقت بها البشائر عدة أيام، ثم أرسل الملك الصالح صاحب مصر باقي عسكر مصر مع معين الدين ابن الشيخ، واجتمع إليه من بالشام من عسكر مصر والخوارزمية، وساروا إلى دمشق وحاصروها وبها صاحبها الملك الصالح اسماعيل وابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وخرجت هذه السنة وهم محاصروها.

ذكر وفاة صاحب حماة

في هذه السنة توفي جدي الملك المظفر صاحب حماة تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، يوم السبت ثامن جمادى الأولى من هذه السنة أعني سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وكانت مدة مملكته لحماة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام، وكان منها مريضا بالفالج ستين وتسعة أشهر وأياما، وكانت وفاته وهو مفلوج بحمى حادة عرضت له وكان عمره ثلاثا وأربعين سنة، لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان شهما شجاعا فطنا ذكيا، وكان يحب أهل الفضائل والعلوم، استخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف، وكان مهندسا فاضلا في العلوم الرياضية، فبنى للملك المظفر المذكور أبراجا بحماة وطاحونا على النهر العاصي، وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعملت هذه الكرة بحماة.

قال القاضي جمال الدين بن واصل : وساعدت الشيخ علم الدين

على عملها، وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسألنا عن مواضيع، ولما مات الملك المظفر صاحب حماه ملك بعده الملك المنصور محمد بن ملك المظفر محمود المذكور، وعمره حينئذ عشر سنين وشهر واحد وثلاثة عشر يوما، والقائم بتدبير المملكة سيف الـديـن طغـرل مملـوك الملك المظفر، ومشاركه الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد المعروف بشيخ الشيوخ، والطواشي مرشد، والوزير بهاء الدين بن التاج، ومرجع الجميع إلى والدته الملك المنصور غازية خاتون بنت الملك الكامل.

وفيها: بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب وفاة ابنه الملك المغيث فتح الدين عمر في حبس الصالح اسماعيل صاحب دمشق، فاشتد حزن الصالح أيوب عليه وحنقه على الصالح اسماعيل.

وفي هذه السنة: توفي الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب ميافارقين، واستقر بعده في ملكه ولده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن غازي.

وفيها: سير من حماة الشيخ تاج الدين أحمد بن محمد بن نصر الله المعروف بيته ببني المغيرك رسولا إلى الخليفة ببغداد، وصحبته تقدمه من السلطان الملك المنصور صاحب حماة.

وفيها: توفي القاضي شهاب الدين ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم ابن علي بن محمد الشافعي، عرف بابن أبي الدم قاضي حماة، وكان قد توجه في الرسالة إلى بغداد فمرض في المعرة، وعاد إلى حماة مريضا فتوفي بها، وهو الذي ألف التاريخ الكبير المظفري وغيره.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة

فيها سير الصالح اسماعيل وزيره أمين الدولة الذي كان سامريا، وأسلم إلى العراق مستشفعا بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن أخيه، فلم يجب الخليفة إلى ذلك، وكان أمين الدولة غالبا على الملك الصالح اسماعيل المذكور بحيث لا يخرج عن رأيه.

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفيها تسلم عسكر الملك الصالح أيوب ومقدمهم معين الدين ابن الشيخ دمشق من الصالح اسماعيل ابن الملك العادل، وكان محصورا معه بدمشق ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، فتسلم دمشق على ان يستقر بيد الملك الصالح اسماعيل بعلبك وبصرى، والسواد، ويستقر بيد صاحب حمص حمص وماهو مضاف إليها، فأجابها معين الدين ابن الشيخ إلى ذلك، ووصل إلى دمشق حسام الدين ابن أبي علي بمن كان معه من العسكر المصري، واتفق بعد تسليم دمشق أن معين الدين ابن الشيخ مرض وتوفي بها، وبقي حسام الدين بن أبي علي نائبا بدمشق للملك الصالح أيوب، ثم إن الخوارزمية خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب، فإنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا كسروا الصالح اسماعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من البلاد والاقطاعات مايرضي خاطرهم، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب، وصاروا مع الملك الصالح اسماعيل وانضم إليهم الناصر داود صاحب الكرك، وساروا إلى دمشق وحصروها، وغلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة لم يسمع بمثلها، وقام حسام الدين بن أبي علي الهذباني في حفظ دمشق أتم قيام، وخرجت السنة والأمر على ذلك.

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة قصدت التتر بغداد، وخرجت عساكر بغداد للقائهم، ولم يكن للتتر بهم طاقة، فولى التتر منهزمين على أعقابهم تحت الليل.

وفي هذه السنة توفيت ربيعة خاتون بنت أيوب، أخت السلطان صلاح الدين بدمشق بدار العقيقي، وكانت قد جاوزت ثمانين سنة، وبنت مدرسة للحنابلة بجبل الصالحية.

وفيهما توفي الشيخ تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن صلاح الفقيه المحدث.

وفيهما توفي علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي شرح قصيدة الشاطبي في القراءات، وشرح المفصل للزنجشري، وسمى شرحه المفصل في شرح المفصل، وله مجموع سماه كتاب سفر السعادة وسفير الافادة، ذكر فيه مسائل مشكلة في النحو، وعدة من أبيات المعاني، ولغة غريبة.

وفي هذه السنة لما تسلم دمشق الملك الصالح أيوب، تسلم نواب الملك المنصور صاحب حماة سلمية، وانتزعوها من صاحب حمص، واستقرت سلمية في هذه السنة في ملك الملك المنصور صاحب حماة.

وفيهما توفي الشيخ موفق الدين أبو البقاء يعيش بن محمد بن علي الموصلي الأصل، الحلبي المولد والمنشأ، النحوي ويعرف بابن الصائغ وكان ظريفا حسن المحاضرة شرح المفصل شرحا مستوفى ليس في الشروح مثله وله غير ذلك، وولد في رمضان سنة ثلاث وخمسين وخمسة مائة بحلب وتوفي بها في التاريخ المذكور ودفن بالمقام.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة

ذكر كسرة الخوارزمية على القصب واستيلاء الصالح
أيوب على بعلبك

كنا قد ذكرنا اتفاق الخوارزمية مع الصالح اسماعيل والناصر داود، ومحاصرتهم دمشق، وبها حسام الدين بن أبي علي، ولما وقع ذلك اتفق الحلبيون والملك المنصور ابراهيم صاحب حمص، وصاروا مع الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وقصدوا الخوارزمية، فرحلت الخوارزمية عن دمشق وساروا إلى نحو الحلبين وصاحب حمص، والتقوا على القصب في هذه السنة، فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها، وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان، وحمل رأسه إلى حلب، ومضت طائفة من الخوارزميين مع مقدمهم كشلو خان الخوارزمي، فلاحقوا بالتر، وصاروا معهم، وانقطع منهم جماعة، وتفرقوا في الشام وخدموا به، وكفى الله الناس شرهم، ولما وصل خبر كسرتهم إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فرح فرحا عظيما، ودقت البشائر بمصر، وزال ما كان عنده من الغيظ على ابراهيم صاحب حمص، وحصل بينهما التصافي بسبب ذلك، وأما الصالح اسماعيل فإنه سار إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب، واستجار به، وأرسل الصالح أيوب يطلبه، فلم يسلمه الملك الناصر إليه، ولما جرى ذلك رحل حسام الدين بن أبي علي الهذباني بمن عنده من العسكر بدمشق، ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح اسماعيل وحاصرها وتسلمها بالأمان، وحمل أولاد الصالح اسماعيل إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك، وكذلك بعث بأمين الدولة وزير الملك الصالح اسماعيل وأستاذ ناصر الدين يغمور، فاعتقلا بمصر أيضا، وزينت القاهرة ومصر، ودقت البشائر بهما لفتح بعلبك واتفق في هذه الأيام وفاة صاحب عجلون، وهو سيف الدين بن قليج،

فتسلم الملك الصالح أيوب عجلون أيضا، ولما جرى مذكرناه أرسل الملك الصالح أيوب عسكريا مع الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ، وكان فخر الدين ابن الشيخ قد اعتقله الملك العادل أبو بكر ابن الملك الكامل، ثم لما ملك الملك الصالح أيوب مصر أفرج عنه وأمره بملازمة بيته فلازمه مدة، ثم قدمه في هذه السنة على العسكر وجهزه إلى حرب الملك الناصر داود صاحب الكرك، فسار فخر الدين المذكور واستولى على جميع بلاد الملك الناصر داود وولى عليها، وسار إلى الكرك وحاصرها وخرب ضياعها، وضعف الملك الناصر ضعفا بالغا ولم يبق بيده غير الكرك وحدها.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة حبس الصالح أيوب مملوكه بيبرس، وهو الذي كان معه لما اعتقل في الكرك، وسببه ان بيبرس المذكور مال إلى الخوارزمية وإلى الناصر داود وصار معهم على أستاذه لما جرده إلى غزة كما تقدم ذكره، فأرسل أستاذه الصالح أيوب واستماله فوصل إليه فاعتقله في هذه السنة، وكان آخر العهد به.

وفيها أرسل الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص ابن شيركوه، وطلب دستورا من الملك الصالح أيوب ليصل إلى بابه ويتنظم في سلك خدمته، وكان قد حصل بابراهيم المذكور السل وسار على تلك الحالة من حمص متوجها إلى الديار المصرية ووصل إلى دمشق فقوي به المرض، وتوفي في دمشق فنقل إلى حمص ودفن بها، وملك بعده ولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك المنصور ابراهيم المذكور.

وفي هذه السنة بعد فتوح دمشق وبعليك استدعى الملك الصالح أيوب خدمة حسام الدين بن أبي علي إلى مصر، وأرسل موضعه نائبا

بدمشق الأمير جمال الدين بن مطروح، ولما وصل حسام الدين بن أبي علي إلى مصر استنابه الملك الصالح بها، وسار الملك الصالح أيوب إلى دمشق، ثم سار إلى بعلبك، ثم عاد إلى دمشق، ووصل إلى خدمة الملك الصالح أيوب بدمشق الملك المنصور محمد صاحب حماة، والملك الأشرف موسى صاحب حمص فأكرمهما وقربهما، ثم أعطاهما الدستور فعادا إلى بلادهما، واستمر الملك الصالح بالشام حتى خرجت هذه السنة.

وفي هذه السنة توفي عماد الدين داود بن موشك بالكرك وكان جامعاً لمكارم الأخلاق.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وستمائة

وفيهما عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشام إلى الديار المصرية.

وفيهما فتح فخر الدين ابن الشيخ قلعتي عسقلان وطبرية، والملك الصالح بالشام، بعد محاصرتها مدة، وكنا قد ذكرنا تسليمهما إلى الفرنج في سنة إحدى وأربعين وستمائة، فعمروها واستمرت بأيدي الفرنج حتى فتحتا في هذه السنة.

وفيهما سلم الأشرف صاحب حمص شميميس للملك الصالح أيوب، فعظم ذلك على الحلبيين لثلا يحصل الطمع للملك الصالح في ملك باقي الشام.

وفيهما توفي الملك العادل أبو بكر ابن السلطان الملك الكامل بالحبس، وأمه الست السوداء تعرف ببنت الفقيه نصر، وكان مسجوناً من حين قبض عليه ببليس إلى هذه الغاية، فكانت مدة مقامه بالسجن نحو ثمان

سنين، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وخلف ولداً صغيراً وهو الملك المغيث فتح الدين عمر، وهو الذي ملك الكرك فيها بعد، ثم قتله الملك الظاهر بيبرس على ما سنده إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة توجه الطواشي مرشد المنصوري، ومجاهد الدين أمير جندار من حماة إلى حلب، وأحضرا بنت الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر صاحب حلب، وهي عائشة خاتون زوج الملك المنصور صاحب حماة، وحضرت معها أمها فاطمة خاتون بنت السلطان الملك الكامل ابن العادل، ووصلت إلى حماة في العشر الأوسط من رمضان من هذه السنة، أعني سنة خمس وأربعين وستمائة، ووصلت في تجمل عظيم، واحتفل للقائها بحماة احتفالا عظيماً.

وفي هذه السنة توفي علاء الدين قرا سنقر الساقى العادلي، أحد ممالك الملك العادل بن أيوب، وصارت ممالكه بالولاء للملك الصالح أيوب، ومنهم سيف الدين قلاوون الصالحى، الذي صار له ملك مصر والشام على ما سنده إن شاء الله تعالى.....

ثم دخلت سنة ست وأربعين وستمائة

فيها أرسل الملك الناصر صاحب حلب عسكرياً مع شمس الدين لؤلؤ الأرمني، فحاصروا الملك الأشرف موسى بحمص مدة شهرين، فسلم إليهم حمص وتعوض عنها بتل باشر مضافاً إلى ما بيده من تدمر والرحبة، ولما بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب ذلك شق عليه، وسار إلى الشام لارتجاع حمص من الحلبين، وكان قد حصل له مرض وورم في مآبطه، ثم فتح وحصل منه ناصور، ووصل الملك الصالح إلى دمشق، وأرسل عسكرياً إلى حمص مع حسام الدين ابن أبي علي وفخر الدين ابن الشيخ، فنازلوا حمص وحصروها، ونصبوا عليها منجنيقاً مغربياً يرمى

بحجر زنتها مائة وأربعون رطلا بالشامي، مع عدة منجنيقات أخرى، وكان الشتاء والبرد قويا، واستمر عليها الحصار واتفق حينئذ وصول الخبر إلى الملك الصالح وهو بدمشق بوصول الفرنج إلى جهة دمياط، وكان أيضا قد قوي مرضه، ووصل أيضا نجم الدين الباذرائي رسول الخليفة، وسعى في الصلح بين الملك الصالح والحلبين، وأن تستقر حمص بيد الحلبيين، فأجاب الملك الصالح إلى ذلك وأمر العسكر فرحلوا عن حمص بعد أن أشرفوا على أخذها، ثم رحل الملك الصالح عن دمشق في محفة لقوة مرضه، واستتاب بدمشق جمال الدين بن يغمور، وعزل ابن مطروح، وأرسل حسام الدين ابن أبي علي قدامه ليسبقه إلى مصر وينوب عنه بها.

وفيها في يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من السنة المذكورة، أعني سنة ست وأربعين وستمائة توفي أبو عمرو عثمان بن عمر ابن أبي بكر بن يونس المعروف بابن الحاجب الملقب جمال الدين، وكان والده عمر حاجبا للأمير عز الدين بن موسك الصلاح، وكان كرديا واشتغل ولده أبو عمرو المذكور بالقاهرة في صغره بالقرآن والفقه على مذهب مالك بن أنس وبالعبدية، وبرع في علومه وأتقنها ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعة وأكب الخلق على الاشتغال عليه، ثم عاد إلى القاهرة ثم انتقل إلى الاسكندرية فتوفي بها وكان مولد الشيخ أبي عمرو المذكور في أواخر سنة سبعين وخمسمائة بأسنا بليدة بالصعيد، وكان الشيخ أبو عمرو المذكور متفنا في علوم شتى، وكان الاغلب عليه علم العربية وأصول الفقه، صنف في العربية مقدمته الكافية، واختصر كتاب الأحكام للآمدي في أصول الفقه، فطبق ذكر هذين الكتابين أعني: الكافية، ومختصره في أصول الفقه جميع البلاد خصوصا بلاد العجم، وأكب الناس على الاشتغال بهما إلى زماننا هذا، وله غيرهما عدة مصنفات.

وفيها أعني في سنة ست وأربعين وستمائة توفي عز الدين أيبك المعظمي، في محبسه بالقاهرة، وكان المذكور قد ملك صرخد في سنة ثمان وستمائة حسبما تقدم ذكره في السنة المذكورة، وقال ابن خلكان: إنه ملك صرخد في سنة إحدى عشرة وستمائة، قال: لأن أستاذه الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب حج في السنة المذكورة، وأخذ صرخد من صاحبها ابن قراجا، وأعطاه مملوكه أيبك المذكور، والظاهر أن الأول أصح، واستمرت في يد أيبك إلى سنة أربع وأربعين وستمائة، فأخذها الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل من أيبك المذكور، وأمسك أيبك في السنة المذكورة، وحمله إلى القاهرة وحبسه في دار الطواشي صواب، واستمر معتقلاً بها حتى توفي معتقلاً في هذه السنة في أوائل جمادى الأولى، ودفن خارج باب النصر في تربة شمس الدولة، ثم نقل إلى الشام ودفن في تربة كان قد أنشأها بظاهر دمشق على الشرف الأعلى مطلّة على الميدان الأخضر الكبير رحمه الله تعالى، هكذا نقلت ذلك من وفيات الاعيان.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة

ذكر ملك الفرنج دمياط ونزول الملك الصالح أشمون طناح

وفي هذه السنة سار ريد افرنس، وهو من أعظم ملوك الفرنج، وريد بلغتهم هو الملك أي ملك افرنس، وفرنس أمة عظيمة من أمم الفرنج، وكان جمع ريد افرنس نحو خمسين ألف مقاتل، وشتى في جزيرة قبرس، ثم سار ووصل في هذه السنة إلى دمياط، وكان قد شحنها الملك الصالح بالآلات عظيمة وذخائر وافرة، وجعل فيها بني كنانة، وهم مشهورون

بالشجاعة، وكان قد أرسل الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ بجماعة كثيرة من العسكر ليكونوا قبالة الفرنج بظاهر دمياط، ولما وصلت الفرنج عبر فخر الدين ابن الشيخ من البر الغربي إلى البر الشرقي، ووصل الفرنج إلى البر الغربي لتسع بقين من صفر هذه السنة، ولما جرى ذلك هربت بنو كنانة وأهل دمياط منها، وأخلوا دمياط وتركوا أبوابها مفتحة، فتملكها الفرنج بغير قتال واستولوا على ما بها من الذخائر والسلاحات، وكان هذا من أعظم المصائب، وعظم ذلك على الملك الصالح، وأمر بشنق بني كنانة فشنقوا عن آخرهم، ووصل الملك الصالح إلى المنصورة ونزل بها يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر هذه السنة، وقد اشتد مرضه وهو السل والقرحة التي كانت به وقد ايس منه.

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على الكرك

وفي هذه السنة سار الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب من الكرك إلى حلب، لما ضاقت عليه الأمور مستجيرا بالملك الناصر صاحب حلب، وكان قد بقي عند الناصر داود من الجوهر مقدار كثير، قال: كان يساوي مائة ألف دينار إذا بيع بالهوان، فلما وصل إلى حلب سير الجوهر المذكور إلى بغداد وأودعه عند الخليفة المستعصم، ووصل إليه خط الخليفة بتسليمه، فلم تقع عينه عليه بعد ذلك، ولما سار الناصر داود عن الكرك استتاب عليها ابنه عيسى، ولقبه الملك المعظم، وكان له ولدان آخران أكبر من عيسى المذكور هما: الأجد حسن والظاهر شاذي، فغضب الأخوان المذكوران من تقديم أخيهما عيسى عليهما، وبعد سفر أبيهما قبضا على أخيهما عيسى، وتوجه الأجد حسن إلى الملك الصالح أيوب، وهو مريض على المنصورة، وبذل له تسليم الكرك على اقطاع له ولأخيه بديار مصر، فأحسن إليه الصالح أيوب وأعطاهما اقطاعا أرضاهما، وأرسل إلى الكرك

وتسلمها يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة، وفرح الملك الصالح بالكرك فرحا عظيما مع ما هو فيه من المرض، لما كان في خاطره من صاحبها.

ذكر وفاة الملك الصالح أيوب

وفي هذه السنة توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان هذه السنة، أعني سبع وأربعين وستائة، وكانت مدة مملكته للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما، وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة، وكان مهيبا عالي الهمة عفيفا طاهر اللسان والذليل، شديد الوقار كثير الصمت، وجمع من الممالك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه، ورتب جماعة من الممالك الترك حول دهليزه وسهام البحرية، وكان لا يجسر أن يخاطبه أحد إلا جوابا، ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء وكانت القصص توضع بين يديه مع الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للموقعين، وكان لا يستقل أحد من أهل دولته بأمر من الأمور إلا بعد مشاورته بالقصص، وكان غاويا بالعمارة، بنى قلعة الجزيرة، وبنى الصالحية، وهي بلدة بالسايح، وبنى له بها قصورا للتصيد، وبنى قصرا عظيما بين مصر والقاهرة يسمى بالكبش، وكانت أم الملك الصالح أيوب المذكور جارية سوداء تسمى ورد المنى غشيها السلطان الملك الكامل فحملت بالملك الصالح، وكان للملك الصالح ثلاثة أولاد أحدهم فتح الدين عمر، توفي في حبس الصالح اسماعيل وكان قد توفي ولده الآخر قبله، ولم يكن قد بقى له غير المعظم تورانشاه بحصن كيفا، ومات الملك الصالح ولم يوص بالملك إلى أحد فلما توفي أحضرت شجر

الدر، وهي جارية الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ والطواشي جمال الدين محسنا، وعرفت بها بموت السلطان، فكتموا ذلك خوفاً من الفرنج، وجمعت شجر الدر الأمراء وقالت لهم السلطان يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا، وللأمير فخر الدين ابن الشيخ بأتابكية العسكر، وكتبت إلى حسام الدين بن أبي علي، وهو النائب بمصر بمثل ذلك، فحلفت الأمراء والاجناد والكبراء بالعسكر وبمصر وبالقاهرة على ذلك في العشر الأوسط من شعبان هذه السنة، وكان بعد ذلك تخرج الكتب والمراسم وعليها علامة الملك الصالح، وكان يكتبها خادماً يقال له السهيلي فلا يشك أحد في أنه خط السلطان، فأرسل فخر الدين ابن الشيخ قاصداً لاحتضار الملك المعظم من حصن كيفا، ولما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن

أرباب الدولة لا يجسرون أن يتفوهوا بذلك، وتقدم الفرنج عن دمياط إلى المنصورة، وجرى بينهم وبين المسلمين في مستهل رمضان من هذه السنة وقعة عظيمة استشهد فيها جماعة من كبار المسلمين، ونزلت الفرنج بحر مساح، ثم قربوا من المسلمين، ثم إن الفرنج كبسوا المسلمين على المنصورة بكرة الثلاثاء لخمسة ماضين من ذي القعدة، وكان فخر الدين يوسف ابن الشيخ صدر الدين ابن حمويه في الحمام بالمنصورة فركب مسرعاً وصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه، وكان معه في الدنيا ومات شهيداً، ثم حملت المسلمون والترك البحرية على الفرنج فردوهم على أعقابهم، واستمرت بهم الهزيمة، وأما الملك المعظم تورانشاه فإنه سار من حصن كيفا ووصل إلى دمشق في رمضان من هذه السنة، أعني سنة سبع وأربعين وستمائة، ثم اشتد القتال بين المسلمين والفرنج براً وبحراً، ووقعت مراكز المسلمين على الفرنج وأخذوا منهم اثنين وثلاثين مركباً، منها تسع شواني، فضعفت الفرنج لذلك وأرسلوا يطلبون القدس وبعض الساحل وأن يسلموا دمياط إلى المسلمين، فلم تقع الاجابة إلى ذلك.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة وقع الحرب بين صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، وبين الملك الناصر صاحب حلب، فأرسل اليه الملك الناصر عسكرياً والتقوا مع المواصله بظاهر نصيبين، فانهزمت المواصله هزيمة قبيحة، واستولى الحلييون على أثقال لؤلؤ صاحب الموصل وخيمه، وتسلم الحلييون نصيبين وأخذوها من صاحب الموصل، ثم ساروا إلى دارا فنازلوها وتسلموها وخربوها بعد حصار ثلاثة أشهر، ثم تسلموا قرقيسيا وعادوا إلى حلب.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة

ذكر هزيمة الفرنج وأسر ملكهم

لما أقام الفرنج قبالة المسلمين بالمنصورة فنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط، فإن المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط إليهم، فلم يبق لهم صبر على المقام، فرحلوا الأربعاء لثلاث مضين من المحرم متوجهين إلى دمياط، وركب المسلمون أكتافهم، ولما أسفر صباح الأربعاء خالطهم المسلمون، وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم إلا القليل، وبلغت عدة القتلى من الفرنج ثلاثين ألفاً على ما قيل، وإنحاز ريد افرنس ومن معه من الملوك إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشي محسن الصالحي، ثم احتيط عليهم وأحضروا إلى المنصورة، وقيد ريد افرنس وجعل في الدار التي كان ينزلها كاتب الانشاء فخر الدين ابن لقمان، ووكل به الطواشي صبيح المعظمي، ولما جرى ذلك رحل الملك المعظم بالعساكر من المنصورة ونزل بفارسكور، ونصب بها برج خشب للملك المعظم.

ذكر مقتل الملك المعظم

وفي هذه السنة يوم الاثنين لليلة بقيت من المحرم قتل الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وسبب ذلك ان المذكور أطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد مانفر قلبه منه، واعتمد على بطانته الذين وصلوا معه من حصن كيفا، وكانوا اطرافا أراذل، فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور، وهجموا عليه بالسيوف، وكان أول من ضربه ركن الدين بيبرس، الذي صار سلطانا فيما بعد على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، فهرب الملك المعظم منهم إلى البرج الخشب الذي نصب له بفارسكور على ما تقدم ذكره، فأطلقوا في البرج النار فخرج الملك المعظم من البرج هاربا طالبا البحر ليركب في حراقتة، فحالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه في البحر فأدركوه وأتموا قتله في نهار الاثنين المذكور، وكانت مدة اقامته في المملكة من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياما، ولما جرى ذلك اجتمعت الامراء واتفقوا على أن يقيموا شجر الدر زوجة الملك الصالح في المملكة، وأن يكون عز الدين أيبيك الجاشنكير الصالحي المعروف بالتركماني أتابك العسكر، وحلفوا على ذلك، وخطب لشجر الدر على المنابر، وضربت السكة باسمها، وكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل، وكانت شجر الدر قد ولدت من الملك الصالح ولدا ومات صغيرا، وكان اسمه خليل فسميت والدة خليل، وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع والدة خليل، ولما استقر ذلك وقع الحديث مع ريد افرنس في تسليم دمياط بالافراج عنه، فتقدم ريد افرنس إلى من بها من نوابه في تسليمها فسلموها، وصعد إليها العلم السلطاني يوم الجمعة لثلاث مضي من صفر من هذه السنة، أعني سنة

ثمان وأربعين وستمائة، وأطلق ريد افرنس فركب في البحر بمن سلم معه
نهار السبت غد الجمعة المذكورة، وأقلعوا إلى عكا ووردت البشري بهذا
الفتح العظيم إلى سائر الاقطار، وفي واقعة ريد افرنس يقول جمال الدين
يحيى بن مطروح أبياتا منها:
قل للفرنسيس اذا جئته

مقال صدق عن قؤول نصيح
اتيبت مصر ائتغني ملكها
تحسب ان الزمرياط بل ريح
وكل اصحابك اوردتهم
بحسن تدبيرك بطن الضريح

. خمسون ألفا لا يرى منهم
غير قتيل أو أسير جريح
وقل لهم إن أضمرنا وعدة
لأخذنا ر أوبقصد صحيح
دار ابـن لقمان على حالها
والقيد باقي والطواشي صريح

ثم عادت العساكر، ودخلت القاهرة يوم الخميس تاسع صفر من
السنة المذكورة، وأرسل المصريون رسولا إلى الأمراء الذين بدمشق في
موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا إليه، وكان الملك السعيد ابن الملك
العزیز عثمان ابن الملك العادل صاحب الصبيبة قد سلمها إلى الملك
الصالح أيوب، فلما جرى ذلك قصد قلعة الصبيبة فسلمت إليه، وكان
من الملك السعيد ما سنذكره ان شاء الله تعالى.

ذكر ملك الملك المغيث الكرك

كان الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، قد أرسله الملك المعظم تورانشاه لما وصل الى الديار المصرية إلى الشوبك، واعتقله بها، وكان النائب على الكرك والشوبك بدر الدين الصوابي الصالحي، فلما جرى ما ذكرناه من قتل الملك المعظم، ولما استقر عليه الحال بادر بدر الدين الصوابي المذكور فأفرج عن المغيث، وملكه القلعتين الكرك والشوبك، وقام في خدمته أتم قيام.

ذكر استيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق

ولما جرى ما ذكرناه ولم يجب أمراء دمشق إلى ذلك كاتب الأمراء القيمرية الذين بها الملك الناصر يوسف صاحب حلب ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين، فسار إليهم وملك دمشق ودخلها في يوم السبت لثمان مضي من ربيع الآخر من هذه السنة، ولما استقر الناصر المذكور في ملك دمشق خلع على جمال الدين ابن يغمور، وعلى الأمراء القيمرية بها، وأحسن إليهم واعتقل جماعة من الأمراء مماليك الملك الصالح، وعصت عليه: بعلبك، وعجلون، وشميميس مدة مديدة، ثم سلمت جميعها إليه، ولما ورد الخبر بذلك إلى مصر قبضوا على من عندهم من القيمرية، وعلى كل من اتهم بالميل إلى الحلبيين.

ذكر سلطنة أيك التركماني

ثم إن كبراء الدولة اتفقوا على إقامة عز الدين أيك الجاشنكير الصالحي في السلطنة، لأنه اذا استقر أمر المملكة في امرأة على ما هو عليه

الحال تفسد الأمور، فأقاموا أيبك المذكور وركب بالسناجق السلطانية، وحمّلت الغاشية بين يديه يوم السبت آخر ربيع الآخر من هذه السنة، ولقب بالملك المعز، وأبطلت السكة والخطبة التي كانت باسم شجر الدر.

ذكر عقد السلطنة للملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن المعروف باقسييس

ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

ثم اجتمعت الأمراء واتفقوا على أنه لا بد من إقامة شخص من بني أيوب في السلطنة، واجتمعوا على إقامة موسى المذكور ولقبوه الملك الأشرف، وأن يكون أيبك التركماني أتابكته، وأجلس الأشرف موسى المذكور في دست السلطنة، وحضرت الأمراء في خدمته يوم السبت لخمس مضيّن من جمادى الأولى من هذه السنة، وكان بغزة حيثئذ جماعة من عسكر مصر مقدمهم خاص ترك، فسار إليهم عسكر دمشق فاندفعوا من غزة إلى الصالحية بالسايح، واتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك، وخطبوا له بالصالحية يوم الجمعة لأربع مضيّن من جمادى الآخرة من هذه السنة، ولما جرى ذلك اتفق كبراء الدولة بمصر، ونادوا بالقاهرة ومصر إن البلاد للخليفة المستعصم، ثم جددت الأيمان للملك الأشرف موسى بالسلطنة ولأيبك التركماني بالأتابكية، وفي يوم الأحد لخمس مضيّن من رجب رحل فارس الدين أقطاي الصالحي الجمدار متوجّها إلى جهة غزة ومعه تقدير ألفي فارس، وكان أقطاي المذكور مقدم البحرية، فلما وصل إلى غزة اندفع من كان بها من جهة الملك الناصر بين يديه.

ذكر تخريب دمياط .

وفي هذه السنة اتفقت آراء أكابر الدولة، وهدموا سور دمياط في العشر الأخير من شعبان هذه السنة لما حصل للمسلمين عليها من الشدة مرة بعد أخرى، وبنوا مدينة بالقرب منها في البر وسموها المنشية، وأسوار دمياط التي هدمت من عمارة المتوكل الخليفة العباسي.

ذكر القبض على الناصر داود

وفي هذه السنة مستهل شعبان قبض الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب على الناصر داود الذي كان صاحب الكرك، وبعث به إلى حمص فاعتقل، وذلك لأشياء بلغت الناصر يوسف عن المذكور خاف منها.

ذكر مسير السلطان الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الديار المصرية وكسرتة

وفي هذه السنة سار الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز بعساكره من دمشق، وصحبته من ملوك أهل بيته: الصالح اسماعيل بن العادل بن أيوب، والأشرف موسى صاحب حمص، وهو حيثئذ صاحب تل باشر والرجة وتدمر، والمعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين، وأخو المعظم المذكور نصرة الدين، والأجد حسن، والظاهر شادي ابنا الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى بن العادل بن أيوب، وتقى الدين عباس ابن الملك العادل بن أيوب، ومقدم الجيش شمس الدين لؤلؤ الأرمني، وإليه تدبير المملكة، فرحلوا من دمشق يوم الأحد منتصف رمضان من هذه السنة، ولما بلغ المصريين ذلك اهتموا

لقتاله ودفعه، وبرزوا إلى السايح وتركوا الأشرف المسمى بالسلطان بقلعة الجبل، وأفرج أيك التركماني حيثئذ عن ولدي الصالح اسماعيل، وكانا معتقلين من حين استيلاء الملك الصالح أيوب على بعلبك، وخلع عليهما ليتوهم الناصر يوسف صاحب دمشق من أبيهما الصالح اسماعيل، والتقى العسكران المصري والشامي بالقرب من العباسية في يوم الخميس عاشر ذي القعدة من هذه السنة، فكانت الكسرة أولا على عسكر مصر، فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق، وثبت المعز أيك التركماني في جماعة قليلة من البحرية، فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر إلى أيك التركماني ولما انكسر المصريون وتبعتهم العساكر الشامية، ولم يشكوا في النصر، بقي الملك الناصر تحت السناجق السلطانية مع جماعة يسيرة من المتعممين لا يتحرك من موضعه، فحمل المعز التركماني بمن معه عليه فولى الملك الناصر منهزما طالبا جهة الشام، ثم حمل أيك المذكور على طلب شمس الدين لؤلؤ فهزمهم، وأخذ شمس الدين لؤلؤ أسيرا، فضربت عنقه بين يديه، وكذلك أسر الأمير ضياء الدين القيمري، فضربت عنقه، وأسر يومئذ الملك الصالح اسماعيل، والأشرف صاحب حمص، والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين بن أيوب، وأخوه نصره الدين، ووصل عسكر الملك الناصر في أثر المنهزمين إلى العباسية وضربوا بها دهليز الملك الناصر، وهم لا يشكون ان الهزيمة تمت على المصريين، فلما بلغهم هروب الملك الناصر اختلفت آراؤهم، فمنهم من أشار بالدخول إلى القاهرة وتملكها، ولو فعلوه لما كان بقي مع أيك التركماني من يقاتلهم به، وكان هرب فإن غالب المصريين المنهزمين وصلوا إلى الصعيد، ومنهم من أشار بالرجوع إلى الشام، وكان معهم تاج الملوك بن المعظم، وهو مجروح وكانت الوقعة يوم الخميس، ووصل المنهزمون من مصر إلى القاهرة في غد الوقعة نهار الجمعة فلم يشك أهل مصر في ملك الملك الناصر ديار مصر، وخطب له في الجمعة المذكورة بقلعة الجبل

ومصر، وأما القاهرة فلم يقيم فيها في ذلك النهار خطبة لأحد، ثم وردت إليهم البشرى بانتصار البحرية ودخل أيبك التركماني والبحرية إلى القاهرة يوم السبت ثاني عشر ذي القعدة، ومعه الصالح اسماعيل تحت الاحتياط وغيره من المعتقلين، فحبسوا بقلعة الجبل، وعقب ذلك أخرج أيبك التركماني أمين الدولة وزير الصالح اسماعيل، واستأذ داره يغمور، وكانا معتقلين من حين استيلاء الصالح أيوب على بعلبك فشنقهما على باب قلعة الجبل رابع عشر ذي القعدة، وفي ليلة الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة هجم جماعة على الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الملك العادل بن أيوب وهو يمص قصب سكر، وأخرجوه إلى ظاهر قلعة الجبل من جهة القرافة فقتلوه، ودفن هناك وعمره قريب من خمسين سنة، وكانت أمه رومية من حظايا الملك العادل.

وفي هذه السنة بعد هزيمة الملك الناصر صاحب الشام، سار فارس الدين أقطاي بثلاثة آلاف إلى غزة فاستولى عليها، ثم عاد إلى الديار المصرية.....

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة

فيها توفي صاحب محيي الدين بن مطروح، وكان متقدما عند الملك الصالح أيوب، وكان يتولى له، لما كان الصالح بالشرق، نظر الجيش، ثم استعمله على دمشق، ثم عزله، وولى ابن يغمور، وكان ابن مطروح المذكور فاضلاً في النثر والنظم فمن شعره:
عانتفه فسكرت من طيب الشذا
غصن رطيب بالنسيم قد اغتذا

- ١٠٢٦٩ -

نشوان مـا شرب المدام وانما
أمسى بخمر رضا بـ متنبذا
جاء العذول يلومني من بعدما
أخذ الغرام علي فيه مأخذا
لأرعو ي لا انشبي لا انتهي
عن حبه فليهد فيه من هدى
إن عشت عشت على الغرام وإن أمت
وجدا به وصبا بـ يا حبا

وفيها جهز الملك الناصر يوسف صاحب الشام عسكرياً إلى غزة،
وخرج المصريون إلى السائح، وأقاموا كذلك حتى خرجت هذه
السنة.....

ثم دخلت سنة خمسين وستائة

ولم يقع لنا فيها ما يصلح ان يؤرخ.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستائة

فيها استقر الصلح بين الملك الناصر يوسف صاحب الشام وبين
البحرية بمصر على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن، وللملك الناصر
ما وراء ذلك، وكان نجم الدين الباذرائي رسول الخليفة هو الذي حضر
من جهة الخليفة، وأصلح بينهم على ذلك، ورجع كل إلى مقره.

وفيها قطع أيبك التركماني خبز حسام الدين ابن أبي علي الهذباني، فطلب دستوراً فأعطيه، وسار إلى الشام، فاستخدمه الملك الناصر يوسف بدمشق.

ذكر احوال الملك الناصر صاحب الكرك

وفيها أفرج الملك الناصريوسف عن الملك الناصر داود بن المعظم، الذي كان صاحب الكرك، وكان قد اعتقله بقلعة حمص وذلك بشفاعة الخليفة المستعصم فيه، فأفرج عنه وأمره أن لا يسكن في بلاده، فرحل الناصر داود المذكور إلى جهة بغداد، فلم يمكنه من الوصول إليها وطلب وديعته الجوهر فمنعوه إياها، وكتب الملك الناصر يوسف إلى ملوك الاطراف أنهم لا يأووه ولا يميروه، فبقي الناصر داود في جهات عانة والحديثة، وضاق به الأحوال وبمن معه، وانضم إليه جماعة من غزیه، فبقوا يرحلون وينزلون جميعاً، ثم لما قوي عليهم الحر ولم يبق بالبرية عشب قصدوا أزوار الفرات يقاسون بق الليل وهو اجر النهار، وكان معه أولاده، وكان لولده الظاهر شادي فهد فكان يتصيد في النهار مايزيد على عشرة غزلان، وكان يمضي للملك الناصر داود وأصحابه أياماً لا يطعمون غير لحوم الغزلان، واتفق أن الاشراف صاحب تل باشر وتدمر والرحبة يومئذ أرسل إلى الناصر داود مركبين موسقين دقيقاً وشعيراً، فأرسل صاحب حمص وتهده على ذلك، ثم إن الناصر داود قصد مكاناً للشرابي، واستجار به فرتب له الشرابي شيئاً دون كفايته، وأذن له في النزول بالأنبار وبينها وبين بغداد ثلاثة أيام، والناصر داود مع ذلك يتضرع إلى الخليفة المستعصم فلا يجيب ضراعتة، ويطلب وديعته فلا يرد لهفته، ولا يجيبه إلا بالمطالة والمطاوله، وكانت مدة مقامه متنقلاً في

الصحارى مع غزيه قريب ثلاثة أشهر، ثم بعد ذلك أرسل الخليفة وشفع فيه عند الملك الناصر، فأذن له في العود إلى دمشق ورتب له مائة ألف درهم على بحيرة فامية وغيرها، فلم يتحصل له من ذلك إلا دون ثلاثين ألف درهم.

وفي هذه السنة وصلت الأخبار من مكة بأن ناراً ظهرت من عدن، وبعض جبالها، بحيث كانت تظهر في الليل دخان عظيم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وستمائة.....

ذكر مقتل أقطاي

.... في هذه السنة اغتال الملك المعز أيك التركماني المستولي على مصر خوشداشه أقطاي الجمدار، وأوقف له في بعض دهايز الدور التي بقلعة الجبل ثلاثة مماليك هم: قطز، وبهادر، وسنجر العجمي، فلما مر بهم فارس الدين أقطاي ضربوه بسيفهم فقتلوه، ولما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر إلى الشام، وكان الفارس أقطاي يمنع أيك من الاستقلال بالسلطنة، وكان الاسم للملك الاشرف موسى بن يوسف بن يوسف ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فلما قتل أقطاي استقل المعز التركماني بالسلطنة، وأبطل الاشرف موسى المذكور منها بالكلية، وبعث به إلى عماته القطبيات وموسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في مصر، وكان انقضاء دولتهم من الديار المصرية في هذه السنة على ما شرحناه، ووصلت البحرية إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام وأطمعوه في ملك مصر، فرحل من دمشق بعسكر ونزل عمقا من الغور، وأرسل إلى غزة عسكراً فنزلوا بها، وبرز المعز أيك صاحب مصر إلى العباسية، وخرجت السنة وهم على ذلك.

وفيهما قدمت ملكة خاتون بنت كيقباذ ملك بلاد الروم إلى زوجها
الملك الناصر يوسف صاحب الشام.

وفيهما ولي الملك المنصور صاحب حماة قضاء حماة للقاضي شمس
الدين إبراهيم بن هبة الله بن البارزي، بعد عزل القاضي المحيي حمزة بن
محمد.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة

ففيها عازمت العزيزية، المقيمون مع المعز أيك على القبض عليه، وعلم
بذلك واستعد لهم، فهربوا من مخيمهم على العباسية على حماة، واحتيط
على وطاقتهم جميعها.

وفي هذه السنة مشى نجم الدين الباذرائي في الصلح بين المصريين
والشاميين، واتفق الحال أن يكون للملك الناصر الشام جميعه إلى
العريش، ويكون الحد بير القاضي، وهو بين الورداء والعريش، ويد
المعز أيك الديار المصرية، وانفصل الحال على ذلك ورجع كل إلى بلده.

وفي هذه السنة أو التي قبلها تزوج المعز أيك شجر الدر أم خليل،
التي خطب لها بالسلطنة في ديار مصر.

وفيهما طلب الملك الناصر داود من الملك الناصر يوسف دستورا إلى
العراق بسبب طلب وديعته من الخليفة، وهي الجواهر الذي تقدم ذكره،
وأن يمضي إلى الحج فأذن له الناصر يوسف في ذلك، فسار الناصر داود
إلى كربلاء ثم مضى منها إلى الحج، ولما رأى قبر النبي ﷺ تعلق في
استار الحجرة الشريفة بحضور الناس، وقال: اشهدوا أن هذا مقامي من
رسول الله ﷺ داخلا عليه مستشفعاً به إلى ابن عمه المستعصم في أن يرد
على وديعتي، فأعظم الناس ذلك، وجرت عبراتهم وارتفع بكأؤهم،

وكتب بصورة ماجرى مشروح، ورفع إلى أمير الحاج كيخسرو، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وتوجه الناصر داود مع الحاج العراقي وأقام ببغداد.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة

فيها مات كيخسرو ملك بلاد الروم، وأقيم في السلطنة ولداه الصغيران عز الدين كيكأوس، وركن الدين قليج أرسلان.

وفيها توجه كمال الدين المعروف بابن العديم رسولاً من الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الخليفة المستعصم، وصحبته مقدمة جليلة، وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه، ووصل من جهة المعز أيبك صاحب مصر شمس الدين سنقر الأقرع، وهو من ممالك المظفر غازي صاحب ميافارقين إلى بغداد بتقدمة جليلة، وسعى في تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب دمشق، فبقي الخليفة متحيراً، ثم أحضر سكيناً من اليشم [حجر كريم] كبيرة وقال الخليفة لوزيره أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة مني في أن له خلعة عندي في وقت آخر، وأما في هذا الوقت فلا يمكنني، فأخذ كمال الدين بن العديم السكين، وعاد إلى الناصر يوسف بغير خلعة.

ذكر غير ذلك

فيها جرى للناصر داود مع الخليفة ماصورته انه لما أقام ببغداد بعد وصوله مع الحجاج واستشفاعه بالنبي ﷺ في رده وديعته، أرسل الخليفة المستعصم من حاسب الناصر داود المذكور على ماوصله في ترده إلى بغداد من المضيف مثل اللحم، والخبز، والخطب، والعلف، والتبن، وغير

ذلك وثن عليه ذلك بأعلى الأثمان، وأرسل إليه شيئاً نزرأً وألزمه أن يكتب خطه بقبض وديعته وأنه مابقي يستحق عند الخليفة شيئاً، فكتب خطه بذلك كرها، وسار عن بغداد وأقام مع العرب، ثم أرسل إليه الناصر يوسف بن العزيز بن غازي بن يوسف صاحب الشام، فطيب قلبه وحلف له، فقدم الناصر داود إلى دمشق ونزل بالصالحية.

وفي هذه السنة يوم الأحد ثالث شوال، توفي سيف الدين طغريل، مملوك الملك المظفر محمود صاحب حماة، وكان قد زوجه المظفر المذكور بأخته، وقام بتدبير مملكة حماة بعد وفاة الملك المظفر حتى توفي في التاريخ المذكور.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة ذكر مقتل المعز أيك التركماني

وفي هذه السنة في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول، قتل الملك المعز أيك التركماني الجاشنكير الصالح، قتلته امرأته شجر الدر، التي كانت امرأة أستاذه الملك الصالح أيوب، وهي التي خطب لها بالسلطنة في ديار مصر، وكان سبب ذلك أنه بلغها أن المعز أيك المذكور قد خطب بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ويريد أن يتزوجها، فقتلته في الحمام بعد عوده من لعب الكرة في النهار المذكور، وكان الذي قتله سنجر الجوجري، مملوك الطواشي محسن، والخدام حسبما اتفقت معهم شجر الدر، وأرسلت في تلك الليلة أصبع المعز أيك وخاتمه إلى الأمير عز الدين الحلبي الكبير، وطلبت منه أن يقوم بالأمر، فلم يجسر على ذلك، ولما ظهر الخبر أراد ممالك المعز أيك قتل شجر الدر، فحماها الممالك الصالحية، فاتفقت الكلمة على إقامة نور الدين

علي ابن الملك المعز أيبك، ولقبوه الملك المنصور، وعمره يومئذ خمس عشرة سنة، ونقلت شجر الدر من دار السلطنة إلى البرج الأحمر، وصلبوا الخدام الذين اتفقوا معها على قتل المعز أيبك، وهرب سنجر الجوجري، ثم ظفروا به وصلبوه، واحتيط على صاحب بهاء الدين علي بن جنا لكونه وزير شجر الدر، وأخذ خطه بستين ألف دينار.

وفي يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر من هذه السنة، اتفقت ممالك المعز أيبك مثل سيف الدين قطز، وسنجر الغتمي وبهادر، وقبضوا على علم الدين سنجر الحلبي، وكان صار أتابكاً للملك المنصور نور الدين علي ابن الملك المعز أيبك، ورتبوا في أتابكية المذكور أقطاي المستعرب الصالح.

وفي سادس عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة قُتلت شجر الدر، وألقيت خارج البرج، فحملت إلى تربة كانت قد عملتها فدفنت فيها، وكانت تركية الجنس، وقيل كانت أرمنية، وكانت مع الملك الصالح في الاعتقال بالكرك، وولدت منه ولداً اسمه خليل مات صغيراً، وبعد أيام من ذلك خنق شرف الدين الفائزي.

ذكر مفارقة البحرية الملك الناصر يوسف صاحب الشام ابن الملك العزيز

وفي هذه السنة نقل إلى الناصر يوسف أن البحرية يريدون أن يفتكوا به، فاستوحش خاطره منهم، وتقدم إليهم بالانتزاح عن دمشق، فساروا إلى غزة، وانتموا إلى الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وانزعج أهل مصر لقدم البحرية إلى غزة، فبرزوا إلى العباسية، ووصل من البحرية جماعة مقفزين إلى القاهرة، منهم:

عز الدين الأثرم، فأكرمهم وأفرجوا عن أملاك الأثرم، ولما فارق البحرية الناصر صاحب الشام أرسل عسكرياً في أثرهم، فكبس البحرية ذلك العسكر، ونالوا منه، ثم إن عسكر الناصر بعد الكبسة كسروا البحرية فانهزموا إلى البلقاء وإلى زغر ملتجئين إلى الملك المغيث صاحب الكرك، فأنفق فيهم المغيث أموالاً جلية، وأطمعوه في ملك مصر، فجهزهم بما احتاجوه، وسارت البحرية إلى جهة مصر، وخرجت عساكر مصر لقتالهم، والتقى المصريون مع البحرية، وعسكر المغيث بكرة السبت منتصف ذي القعدة من هذه السنة، فانهزم عسكر المغيث والبحرية، وفيهم بيبرس البندقاري المسمى بعد ذلك الظاهر إلى جهة الكرك.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة وصل من الخليفة المستعصم الخلعة والطوق والتقليد إلى الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز.

وفيها استجار الناصر داود بنجم الدين الباذرائي في أن يتوجه صحبته إلى بغداد، فأخذه صحبته وتوصل الناصر يوسف إلى منعه عن ذلك فلم يتهياً له، وسار الناصر داود مع الباذرائي إلى قرقيسيا، فأخره الباذرائي ليشاور عليه، فأقام الناصر داود في قرقيسيا ينتظر الأذن بالقدوم إلى بغداد، فلم يؤذن له وطال مقامه، فسافر إلى البرية وقصد تيه بني اسرائيل، وأقام مع عرب تلك البلاد.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة

ذكر استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية

في أول هذه السنة قصد هولاكو ملك التتر بغداد، وملكها في العشرين من المحرم، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وسبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمي، كان رافضياً، وكان أهل الكرخ أيضاً روافض، فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جاري عاداتهم، فأمر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ، وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي، وكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد وكان عسكر بغداد يبلغ مائة ألف فارس، فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتر متحصل اقطاعاتهم، وصار عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس، وأرسل ابن العلقمي إلى التتر أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم، خرج عسكر الخليفة لقتالهم ومقدمهم ركن الدين الدوادار، والتقوا على مرحلتين من بغداد، واقتتلوا قتالا شديداً، فانهزم عسكر الخليفة، ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم إلى جهة الشام، ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقي ونزل باجو، وهو مقدم كبير، في الجانب الغربي على قرية قبالة دار الخلافة، وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي إلى هولاكو فتوثق منه لنفسه، وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال: إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر، وحسن له الخروج إلى هولاكو، فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه، فأنزل في خيمة، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محيي الدين بن الجوزي وأولاده، وكذلك بقي يخرج إلى التتر طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم، ثم مدوا الجسر وعدى باجو ومن معه، وبذلوا السيف في بغداد، وهجموا دار الخلافة،

وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف، ولم يسلم إلا من كان صغيراً، فأخذ أسيراً، ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً، ثم نودي بالأمان.

وأما الخليفة فإنهم قتلوه، ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله، فقليل خنق، وقليل وضع في عدل ورفسوه حتى مات، وقليل غرق في دجلة، والله أعلم بحقيقة ذلك، وكان هذا المستعصم وهو عبد الله أبو أحمد بن المستنصر أبي جعفر المنصور ابن محمد الظاهر ابن الامام الناصر أحمد، وقد تقدم ذكر باقي نسبه عند ذكر وفاة الامام الناصر، ضعيف الرأي، قد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره، تولى الخلافة بعد موت أبيه المستنصر في سنة أربعين وستمائة، وكانت مدة خلافته نحو ست عشرة سنة تقريباً، وهو آخر الخلفاء العباسيين، وكان ابتداء دولتهم في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وهي السنة التي بويغ فيها السفاح بالخلافة، وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية، وكانت مدة ملكهم خمسماية سنة وأربعاً وعشرين سنة تقريباً، وعدة خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة.

حكى القاضي جمال الدين بن واصل قال: لقد أخبرني من أثق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ماصورته أن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض خلفاء بني أمية عنه أنه يقول إن الخلافة تصير إلى ولده، فأمر الأموي بعلي بن عبد الله فحمل على جمل وطيف به وضرب، وكان يقال عند ضربه: هذا جزاء من يفتري ويقول إن الخلافة تكون في ولده، فكان علي بن عبد الله المذكور رحمه الله يقول: أي والله لتكونن الخلافة في ولدي، لاتزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم، فوقع مصداق ذلك، وهو ورود هولاكو وإزالته ملك بني العباس.

ذكر الواقعة بين المغيث صاحب الكرك وعسكر مصر

كان قد انضمت البحرية إلى المغيث بن العادل بن الكامل، ونزل من الكرك وخيم بغزة، وجمع الجموع، وسار إلى مصر في دست السلطنة، وخرجت عساكر مصر مع ممالك الملك المعز أييك وأكبرهم سيف الدين قطز الذي صار صاحب مصر، والغتمي، وبهادر، والتقى الفريقان فكانت الكسرة على المغيث ومن معه، فولى منهزما إلى الكرك في أسوأ حال ونهبت أثقاله ودهليزه.

ذكر وفاة الناصر

وفي هذه السنة، أعني سنة ست وخمسين وستائة، في ليلة السبت السادس والعشرين من جمادى الأولى توفي الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، بظاهر دمشق في قرية يقال لها البويضا، ومولده سنة ثلاث وستائة فكان عمره نحو ثلاث وخمسين سنة، وكنا قد ذكرنا أخباره في سنة خمس وخمسين، وأنه توجه إلى تيه بني اسرائيل، وصار مع عرب تلك البلاد، وبلغ المغيث صاحب الكرك وصوله إلى تلك الجهة فخشى منه، وأرسل إليه فقبض عليه وحمله إلى بلد الشوبك، وأمر بحفر مطمورة ليحبسه فيها، وبقي الملك الناصر المذكور ممسوكا والمطمورة تحفر قدامه ليحبس فيها، فبينما هو على تلك الحال إذ ورد رسول الخليفة المستعصم يطلبه من بغداد لما قصده التتر، ليقدمه على بعض العساكر للقتل، فلما ورد رسول الخليفة إلى دمشق جهزوه إلى المغيث صاحب الكرك، ووصل الرسول إلى موضع الملك الناصر قبل أن يتم المطمورة، فأخذه وسار به إلى جهة دمشق، فبلغ الرسول استيلاء التتر على بغداد وقتل الخليفة، فتركه الرسول ومضى لشأنه، فسار الناصر داود إلى البويضا، وهي قرية شرقي دمشق، وأقام بها ولحق الناس في الشام في تلك المدة طاعون مات منه الناصر داود

المذكور في التاريخ المذكور، وخرج الملك الناصر يوسف صاحب دمشق إلى البويضا، وأظهر عليه الحزن والتأسف، ونقله ودفنه بالصالحية في تربة والده المعظم، وكان الناصر داود فاضلاً ناظماً ناثراً، وقرأ العلوم العقلية على الشيخ شمس الدين عبد الحميد الخسرو شاهي، تلميذ الامام فخر الدين الرازي، وللناصر داود المذكور أشعار جيدة قد تقدم بعضها ومن شعره أيضاً:

عيون عن السحر المبين تبين
لها عند تحريك القلوب سكون
تصول بيض وهي سود فرندها
ذبول فتور والجفون جفون
إذا مارأت قلباً خلياً من الهوى
تقول له كن مغرم ما فيكون

وله أيضاً:
طرفي وقلبي قاتل وشهيد
ودمي على خديك منه شهود
أما وجبك لست أضمر سألوة
عن صبوتي ودع الفؤاد يبس
مني بطيفك بعد ما منع الكرى
عن ناظري البعد والتسويد
ومن العجائب أن قلبك لم يكن
لي والحديد ألد له داود

وما كتب به في أثناء مكاتبتة إلى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، وكان قد أغارت الفرنج على نابلس في أيام الملك الصالح أيوب صاحب مصر
أياليت أمي أيام طول عمرها
فلم يقضها ربي لمولى ولا يعمل

ويايتها لما قضاه السيد
لييب أريب طيب الفرع والاصل
قضاهامن اللاقي خلقن عواقرا
فما بشرت يومابأنثى ولا فحل
ويايتها لما غدت بي حاملا
أصبيت بما احتفت عليه من الحمل
ويااليتني لما ولدت وأصبحت
تشد إلى الشد قميات بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم
ولم أرفي الاسلام منافيه من خل

ذكر وفاة الصاحبة غازية خاتون والدة الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة في ذي القعدة توفيت الصاحبة غازية خاتون بنت
السلطان الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بقلعة
حماة رحمها الله تعالى، وكان قدومها إلى حماة في سنة تسع وعشرين
وستائة، وولد لها من الملك المظفر محمود صاحب حماة ثلاث بنين، مات
أحدهم صغيراً، وكان اسمه عمر، وبقي الملك المنصور محمد صاحب
حماة وأخوه والد الملك الأفضل علي، وولد لها منه ثلاث بنات أيضاً،
فتوفيت الكبرى منهن، وكان اسمها ملكة خاتون قبل وفاة والدتها
بقليل، وتوفيت الصغرى وهي دنيا خاتون بعد وفاة أخيها الملك المنصور،
وسنذكر وفاة الباقيين في مواضعها إن شاء الله تعالى، وكانت الصاحبة
غازية المذكورة من أحسن النساء سيرة وزهداً وعبادة، وحفظت الملك
لولدها الملك المنصور حتى كبر، وسلمته إليه قبل وفاتها رحمها الله تعالى.

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة قصدت التتر ميفارقين بعد استيلائهم على بغداد، وكان صاحب ميفارقين حينئذ الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان قد ملكها بعد وفاة أبيه في سنة اثنتين وأربعين وستمائة فحاصره التتر وضايقوا ميفارقين مضايقة شديدة، وصبر أهل ميفارقين مع الكامل محمد المذكور على الجوع الشديد، ودام ذلك حتى كان منه ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها اشتد الوباء بالشام خصوصاً بدمشق حتى لم يوجد مغسل للموتى.

وفيها توفي الصاحب بهاء الدين زهير بن محمد بن علي بن يحيى المهلبى، كاتب إنشاء الملك الصالح أيوب، ومولد بهاء الدين زهير بوادي نخلة من مكة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وفي آخر عمره انكشف حاله وباع موجوده وكتبه، وأقام في بيته في القاهرة حتى أدركته وفاته بسبب الوباء العام، في يوم الأحد رابع ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة ست وخمسين وستمائة، ودفن بالقرافة الصغرى، وكان كريم الطباع غزير المروءة فاضلاً، حسن النظم وشعره مشهور كثير، فمن شعره وهو وزن مخترع ليس بخرجة العروض أبيات منها:

يـامـن لـعبـت بـه شـمـول

مـا أـلـطـف هـذـه الشـمـائل

مـولـاي يـحـقـلـي بـأـني

عـن جـبـك فـي الـهـوى أـقـاتـل

هـا عـبـدك وـاقـفـاً ذـليـلاً

بـالـبـاب يـمـدكـف سـائل

- ١٠٢٨٣ -

من وصلك بالقليل يرضى
والطل من الحبيب وابل

وفي هذه السنة توفي بمصر الشيخ ركن الدين عبد العظيم شيخ دار
الحديث، وكان من أئمة الحديث المشهورين.

وفيها توفي الشيخ شمس الدين يوسف سبط جمال الدين بن الجوزي،
وكان من الوعاظ الفضلاء ألف تاريخاً جامعاً سماه مرآة الزمان، وفيها
توفي سيف الدين علي بن سابق الدين قزل، المعروف بابن المشد، وكان
أميراً مقدماً في دولة الملك الناصر يوسف صاحب الشام، وله شعر
حسن فمنه:

بـا كـر كـؤوس المدام واشرب
واستجل وجه الحبيب واطرب
ولا تحف للهمم —————
فهي دواء لـه مجرب
من يدساق لـه رضاب
كالشهد لكن جناه أعذب

وفيها كان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصريين، وبين عسكر الملك
الناصر يوسف صاحب دمشق ومقدمهم الأمير مجير الدين بن أبي زكري
مصاف بظاهر غزة، انهزم فيه عسكر الناصر يوسف، وأسر مجير الدين
المذكور، وقوي أمر البحرية بعد هذه الكسرة، وأكثروا العيث والفساد.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة

فيها سار عز الدين كيكافوس، وركن الدين قليج أرسلان ابنا
كيخسرو بن كيقباز إلى خدمة هولاكو، وأقاما معه مدة، ثم عادا.

ذكر وفاة بدر الدين صاحب الموصل

في هذه السنة توفي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان يلقب الملك الرحيم، وكان عمره قد جاوز ثمانين سنة، ولما مات ملك بعده الموصل ولده الملك الصالح بن لؤلؤ، وملك سنجار ولده الآخر علاء الدين بن لؤلؤ، وكان بدر الدين قد صانع هولاءكو ودخل في طاعته، وحمل إليه الأموال، ووصل إلى خدمة هولاءكو بعد أخذ بغداد ببلاد أذربيجان، وكان صحبة لؤلؤ الشريف العلوي ابن صلايا، فقبل إن لؤلؤ سعى به إلى هولاءكو فقتل الشريف المذكور، ولما عاد لؤلؤ إلى الموصل لم يطل مقامه بها حتى مات، وطالت أيام بدر الدين لؤلؤ في ملك الموصل، فإنه كان القائم بأمر استاذة أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن أقسنقر، وقام بتدبير ولده الملك القاهر بن أرسلان شاه، ولما توفي الملك القاهر بن أرسلان شاه في سنة خمس عشرة وستائة انفرد لؤلؤ بتدبير المملكة، وأقام ولدي القاهر الصغيرين واحداً بعد واحد، واستبد بملك الموصل وبلادها ثلاثاً وأربعين سنة تقريباً، ولم يزل في ملكه سعيداً لم تطرقه آفة، ولم يختل لملكه نظام.

ذكر منازلة الملك الناصر يوسف صاحب الشام الكرك

في هذه السنة لما جرى من البحرية ماذكرناه من كسر عسكر الناصر يوسف، سار الناصر المذكور من دمشق بنفسه وعساكره، وسار في صحبته الملك المنصور صاحب حماة بعسكره إلى جهة الكرك، وأقام على بركة زيزاء محاصراً للملك المغيث صاحب الكرك بسبب حمايته للبحرية، ووصل إلى الملك الناصر رسل الملك المغيث صاحب الكرك والقبطية بنت الملك المفضل قطب الدين ابن الملك العادل، يتضرعون

إلى الملك الناصر ويطلبون رضاه عن الملك المغيث، فلم يجب إلى ذلك إلا بشرط أن يقبض المغيث على من عنده من البحرية، فأجاب المغيث إلى ذلك، وعلم بالحال ركن الدين بيبرس البندقداري فهرب في جماعة من البحرية، ووصل بهم إلى الملك الناصر يوسف فأحسن إليهم، وقبض المغيث على من بقي عنده من البحرية، ومن جملتهم سنقر الأشقر وتنكز، وبرامق، وأرسلهم على الجمال إلى الملك الناصر، فبعث بهم إلى حلب فاعتقلوا بها، واستقر الصلح بين الملك الناصر وبين الملك المغيث صاحب الكرك، وكانت مدة مقام الملك الناصر بالعساكر على بركة زيزاء ما يزيد على شهرين بقليل، ثم عاد إلى دمشق، وأعطى للملك المنصور صاحب حماة دستوراً فعاد إلى بلده.

ذكر سلطنة قطز

وفي أواخر هذه السنة أعني سنة سبع وخمسين وستائة في أوائل ذي الحجة قبض سيف الدين قطز على ولد استاذ الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك، وخلعه من السلطنة، وكان علم الدين الغتمي، وسيف الدين بهادر، وهما من كبار المعزية غائبين في رمي البندق، فانتهاز الفرصة في غيبتهم، وفعل ذلك، ولما قدم الغتمي وبهادر المذكوران قبض عليهما قطز أيضاً، واستقر قطز في ملك الديار المصرية، وتلقب بالملك المظفر، وكان رسول الملك الناصر يوسف صاحب الشام، وهو كمال الدين المعروف بابن العديم قد قدم إلى مصر في أيام الملك المنصور علي ابن أيبك مستنجداً على التتر، واتفق خلع علي المذكور وولاية قطز بحضرة كمال الدين بن العديم، ولما استقر قطز في السلطنة أعاد جواب الملك الناصر يوسف انه ينجده ولا يقعد عن نصرته، وعاد ابن العديم بذلك.

ذكر مولد الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة أعني سنة سبع وخمسين وستمائة، في الساعة العاشرة من ليلة الأحد خامس عشر المحرم، وثاني عشر كانون الثاني، ولد محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولقبوه الملك المظفر، بلقب جده، وأم الملك المظفر محمود المذكور عائشة خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهنأ الشيخ شرف الدين عبد العزيز المعروف بشيخ

الشيخوخ الملك المنصور صاحب حماة بقصيدة طويلة منها

أبشر على رغم العدى والحسد

بأجل مولود وأكرم مولد

بالنعمة الغراء بل بالدولة الزهـ

راء بل بالمفخر المتجدد

وأفأك بدراكاملا في ليلة

طلعت عليك نجومها بالأسعد

ما بين محمود المظفر أسفرت

عنه وما بين العزيز محمد

ذكر قصد هولاكو الشام

وفي هذه السنة قدم هولاكو إلى البلاد التي شرقي الفرات، ونازل حران وملكها، واستولى على البلاد الجزرية، وأرسل ولده شموط بن هولاكو إلى الشام، فوصل إلى ظاهر حلب في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة سبع وخمسين وستمائة، وكان الحاكم

في حلب الملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح المدين نائبا عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف، فخرج عسكر حلب لقتالهم، وخرج الملك المعظم، ولم يكن من رأيه الخروج إليهم، وأكمن لهم التتر في بابي المعروف بباب الله وتقاتلوا عند بانقوسا، فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد، ثم عادوا عليهم، وهرب المسلمون طالين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد، واختنق في أبواب البلد جماعة من المنهزمين، ثم رحل التتر إلى اعزاز فتسلموها بالأمان.

ذكر ماكان من الملك الناصر عند قصد التتر حلب

ولما بلغ الملك الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتر حلب، برز من دمشق إلى برزه في أواخر السنة الماضية، وجفل الناس من بين يدي التتر، وسار من حماة إلى دمشق الملك المنصور صاحب حماة، ونزل معه ببرزه، وكان هناك مع الناصر يوسف بيبرس البندقداري من حين هرب من الكرك، والتجأ إلى الناصر، فاجتمع عند الملك الناصر عند برزه أمم عظيمة من العساكر والجفال، ولما دخلت هذه السنة والملك الناصر ببرزه، بلغه أن جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله والفتك به، فهرب الملك الناصر من الدهليز إلى قلعة دمشق، وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا على حمية إلى جهة غزة، وكذلك سار بيبرس البندقداري إلى جهة غزة، وأشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الملك الناصر، وإنما كان قصدهم أن يقبضوا عليه ويسلطوا أخاه الملك الظاهر غازي ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين لشهامته، ولما جرى ذلك هرب الملك الظاهر المذكور خوفا من أخيه الملك الناصر، وكان الظاهر المذكور شقيق الناصر، أمهما أم ولد تركية، ووصل الملك الظاهر غازي إلى غزة، واجتمع عليه من بها من العسكر وأقاموه سلطانا، ولما جرى ذلك كاتب بيبرس البندقداري الملك المظفر قطز صاحب مصر، فبذل له الأمان ووعد

الوعود الجميلة، ففارق بيرس البندقداري الشاميين، وسار إلى مصر في جماعة من أصحابه، فأقبل عليه الملك المظفر قطز، وأنزله في دار الوزارة، وأقطعه قليوب وأعمالها.

ذكر استيلاء التتر على حلب وعلى الشام جميعه ومسير الملك الناصر عن دمشق ووصول عساكره إلى مصر وانفراد الملك الناصر عنهم

في هذه السنة أعني سنة ثمان وخمسين وستائة، في يوم الأحد تاسع صفر كان استيلاء التتر على حلب، وسببه أن هولاكو عبر الفرات بجموعه، ونازل حلب وأرسل هولاكو إلى الملك المعظم تورانشاه بن صلاح الدين نائب السلطنة بحلب يقول له: إنكم تضعفون عن لقاء المغل، ونحن قصدنا الملك الناصر، والعساكر فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة، ونتوجه نحن إلى العسكر، فإن كانت الكسرة على عسكر الاسلام كانت البلاد لنا وتكونون قد حققتم دماء المسلمين، وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين إن شئتم طردتموهما، وإن شئتم قتلتموهما، فلم يجب الملك المعظم إلى ذلك، وقال: ليس لكم عندنا إلا السيف، وكان رسول هولاكو إليهم في ذلك صاحب أرزن الروم، فتعجب من هذا الجواب وتألم لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك، وأحاط التتر بحلب ثاني صفر وهجموا النواثر في غد ذلك اليوم، وقتل من المسلمين جماعة كثيرة، ومن قتل أسد الدين ابن الملك الزاهر بن صلاح الدين، واشتدت مضايقة التتر للبلد وهجموه من عند حمام حمدان في ذيل قلعة الشريف في يوم الأحد تاسع صفر، وبذلوا السيف في المسلمين، وصعد إلى القلعة خلق عظيم، ودام القتل والنهب من نهار الأحد المذكور إلى الجمعة رابع عشر صفر المذكور، فأمر هولاكو برفع السيف، ونودي بالأمان، ولم يسلم من أهل حلب إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين ابن عمرون، ودار نجم الدين أخي مردكين،

ودار البازيار، ودار علم الدين قيصر الموصلية، والخانكاه التي فيها زين الدين الصوفي، وكنيسة اليهود، وذلك لفرمانات كانت بأيديهم، وقيل أنه سلم بهذه الاماكن مايزيد على خمسين ألف نفس، ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها الملك المعظم ومن التجأ اليها من العسكر، واستمر الحصار عليها وكان من ذلك ما سنده إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك من أحوال حماة وأحوال الملك الناصر بعد أخذ حلب

كان قد تأخر بحماة الطواشي مرشد، لما سار صاحب حماة إلى دمشق، فلما بلغ أهل حماة فتح حلب توجه الطواشي مرشد من حماة إلى عند الملك المنصور صاحب حماة بدمشق، ووصل كبراء حماة إلى حلب ومعهم مفاتيح حماة وحملوها إلى هولاكو، وطلبوا منه الأمان لأهل حماة وشحنة يكون عندهم، فأمنهم هولاكو، وأرسل إلى حماة شحنة رجلاً أعجمياً كان يدعي أنه من ذرية خالد بن الوليد، يقال له خسرو شاه، فقدم خسرو شاه إلى حماة وتولاها وأمن الرعية، وكان بقلعة حماة مجاهد الدين قيباز أمير جندار، فسلم القلعة إليه ودخل في طاعة التتر، ولما بلغ الملك الناصر بدمشق أخذ حلب رحل من دمشق بمن بقي معه من العسكر إلى جهة الديار المصرية، وفي صحبتته الملك المنصور صاحب حماة، وأقام بنابلس أياماً، ورحل عنها وترك فيها الأمير مجير الدين بن أبي زكري، والأمير علي بن شجاع، ومعهما جماعة من العسكر، ثم سار الملك الناصر إلى غزة فانضم إليه مماليكه الذين كانوا أرادوا قتله، وكذلك اصطلاح معه أخوه الملك الظاهر غازي، وانضم إليه، وبعد مسير الملك الناصر عن نابلس وصل التتر إليها وكبسوا العسكر الذين بها، وقتلوا مجير الدين والأمير علي بن شجاع، وكانا أميرين جليلين فاضلين، وكان

البحرية قد قبضوا عليهما واعتقلوهما بالكرك وأفرج عنهما المغيث لما وقع الصلح بينه وبين الناصر، ولما بلغ الملك الناصر وهو بغزة ماجرى من كبسة التتر لنابلس رحل من غزة إلى العريش، وسير القاضي برهان الدين ابن الخضر رسولا إلى الملك المظفر صاحب مصر يطلب منه المعاوضة، ثم سار الملك الناصر، والملك المنصور صاحب حماة، والعسكر ووصلوا إلى قطية، فجرى بها فتنة بين التركمان والأكراد الشهرزورية، ووقع نهب في الجفال، وخاف الملك الناصر أن يدخل مصر فيقبض عليه، فتأخر في قطية، ورحلت العساكر والملك المنصور صاحب حماة إلى مصر، وتأخر مع الملك الناصر جماعة يسيرة منهم أخوه الظاهر غازي، والملك الصالح بن شيركوه صاحب حمص، وشهاب الدين القيمري، ثم سار الملك بمن معه من قطية إلى جهة تيه بني اسرائيل، ولما وصلت العساكر إلى مصر التقاهم الملك المظفر قطز بالصاحية وطيب قلوبهم، وأرسل إلى الملك المنصور صاحب حماة سنجقاً والتقاء ملتقى حسناً، وطيب قلبه ودخل القاهرة، وأما التتر فانهم استولوا على دمشق، وعلى سائر الشام إلى غزة، واستقرت شحائنهم بهذه البلاد.

ذكر استيلاء التتر على قلعة حلب والمتجددات بالشام

أما قلعة حلب فوثب جماعة من أهلها في مدة الحصار على صفى الدين بن طرزه رئيس حلب، وعلى نجم الدين أحمد بن عبد العزيز بن أحمد ابن القاضي نجم الدين بن أبي عصرون فقتلوهما، لأنهم اتهموهما بمواطأة التتر، واستمر الحصار على القلعة، واشتدت مضايقة التتر لها نحو شهر، ثم سلمت بالأمان في يوم الاثنين الحادي عشر من ربيع الأول من هذه السنة، ولما نزل أهلها بالأمان، وكان فيها جماعة من البحرية الذين حبسهم الملك الناصر فمنهم تنكز، وبرامق، وسنقر

الأشقر، فسلمهم هولأكو هم وباقي الترك إلى رجل من التتر يقال له سلطان حق، وهو رجل من أكابر القبجاق هرب من التتر لما غلبت على القبجاق، وقدم إلى حلب فأحسن إليه الملك الناصر، فلم تطب له تلك البلاد، فعاد إلى التتر، وأما العوام والغرباء فنزلوا إلى أماكن الحمى التي قدمنا ذكرها، وأمر هولأكو أن يمضي كل من سلم إلى داره وملكه وأن لا يعارض، وجعل النائب بحلب عماد الدين القزويني، ووصل إلى هولأكو على حلب الملك الأشرف صاحب حمص موسى بن إبراهيم شيركوه، وكان قد انفرد الأشرف المذكور عن المسلمين لما توجه الملك الناصر إلى جهة مصر، ووصل إلى هولأكو بحلب فأكرمه هولأكو، وأعاد عليه حمص، وكان قد أخذها منه الملك الناصر صاحب حلب في سنة ست وأربعين وستمائة وعوضه عنها تل باشر على ماتقدم ذكره، فعادت إليه في هذه السنة، واستقر ملكه بها، وقدم أيضا إلى هولأكو وهو نازل على حلب محيي الدين بن الزكي من دمشق، فأقبل عليه هولأكو، وخلع عليه وولاه قضاء الشام، ولما عاد ابن الزكي المذكور إلى دمشق لبس خلعة هولأكو، وكانت مذهبة وجمع الفقهاء وغيرهم من أكابر دمشق وقرأ عليهم تقليد هولأكو، واستقر في القضاء، ثم رحل هولأكو إلى حارم وطلب تسليمها فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين وإلى قلعة حلب، فأحضره هولأكو وسلموها إليه فغضب هولأكو من ذلك وأمر بهم فقتل أهل حارم عن آخرهم، وسبى النساء، ثم رحل هولأكو بعد ذلك وعاد إلى الشرق، وأمر عماد الدين القزويني بالرحيل إلى بغداد فसार إليها وجعل مكانه بحلب رجلا أعجميا، وأمر هولأكو بخراب أسوار قلعة حلب، وأسوار المدينة فخربت عن آخرها، وأعطى هولأكو الأشرف موسى صاحب حمص الدستور ففارقه ووصل إلى حماة ونزل في دار البارز، وأخذ في خراب سور قلعة حماة بتقدم هولأكو إليه بذلك، فخربت أسوارها وأحرقت زردخانتها، وبيعت الكتب التي كانت بدار السلطنة بقلعة حماة بأبخس الأثمان، وأما أسوار مدينة حماة فلم تخرب لأنه كان بحماة رجل

يقال له ابراهيم بن الافرنجية ضامن الجهة المفردة بذل لخسروشاه جملة كثيرة من المال وقال الفرنج قريب منا بحصن الأكراد ومتى خربت أسوار المدينة لا يقدر أهلها على المقام فيها، فأخذ منه المال ولم يتعرض لخراب أسوار المدينة، وكان قد أمر هولاءكو الأشرف موسى صاحب حمص بخراب قلعة حمص أيضاً فلم يخرب منها إلا شيئاً قليلاً لأنها مدينته، وأما دمشق فانهم لما ملكوا المدينة بالامان لم يتعرضوا إلى قتل ولا نهب، وعصت قلعة دمشق عليهم فحاصرها التتر، وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة، وضايقوا القلعة وأقاموا عليها المجانيق ثم تسلموها بالامان في منتصف جمادى الأولى من هذه السنة، ونهبوا جميع ما فيها وجدوا في خراب أسوار القلعة وإعدام ما بها من الزردخانات، والآلات، ثم توجهوا إلى بعلبك ونازلوا قلعتها.

ذكر استيلاء التتر على ميفارقين وقتل الملك الكامل صاحبها

وفي هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستائة استولى التتر على ميفارقين، وقد تقدم ذكر نزولهم عليها ومحاصرتها في سنة ست وخمسين، واستمر الحصار عليهم مدة سنتين حتى فنيت أزوادهم، وفني أهلها بالوباء وبالقنط، وصاحبها الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مصابراً ثابتاً، وضعف من عنده عن القتال فاستولى التتر عليها، وقتلوا صاحبها الملك الكامل المذكور، وحملوا رأسه على رمح وطيف به في البلاد، ومروا به على حلب وحماة، ووصلوا به إلى دمشق في سابع عشرين جمادى الأولى من هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستائة، وطافوا به في دمشق بالمغاني والطبول، وعلق رأس المذكور في شبكة بسور باب الفرداديس إلى أن

عادت دمشق إلى المسلمين، فدفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس،
وفيه يقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة أبياتاً منها:
ابن غازي غزا وجاهد قوما

أثخنوا في العراق والمشرقين

طاهراً عاليا ومات شهيدا

بعد صبر عليهم عامين

لم يشنه إذ طيف بالأس منه

ولله أسوة برأس الحسين

ثم واروا في مشهد الرأس ذاك

الرأس واستعجبوا من الحالين

ذكر اتصال الملك الناصر بالتر واستيلائهم على عجلون

وغيرها من قلاع الشام

أما الملك الناصر يوسف فانه لما انفرد عن العسكر من قطية، وسار
إلى تيه بني اسرائيل، بقي متحيراً إلى أين يتوجه، وعزم على التوجه إلى
الحجاز، وكان له طبر دار كردي اسمه حسين، فحسن له المضي إلى التتر،
وقصد هولاء فاعتر بقوله ونزل ببركة زيزاء وسار حسين الكردي إلى
كتبغا نائب هولاء، وعرفه بموضع الملك الناصر، فأرسل كتبغا إليه
وقبض عليه وأحضره إلى عجلون، وكانت بعد عاصية، فأمرهم الملك
الناصر بتسليمها فسلمت إليهم فهدموها، وكنا قد ذكرنا حصار التتر
لبعلبك فتسلموها قبيل تسليم عجلون وخربوا قلعتها أيضاً، وكان
بالصبيبة صاحبها الملك السعيد ابن الملك العزيز ابن الملك العادل فسلم
الصبيبة إليهم، وصار الملك السعيد المذكور معهم، وأعلن بالفسق
والفجور وسفك دماء المسلمين، وأما الملك الناصر يوسف فان كتبغا

بعث به إلى هولوكو، فوصل إلى دمشق ثم إلى حماة وبها الأشرف صاحب حمص، فخرج إلى لقائه هو وخسروشاه النائب بحماة، ثم سار إلى حلب فلما عاينها الملك الناصر وما قد حل بها وبأهلها تضاعف تألمه وأنشد:

يعز علينا أن نرى ربكم يبلى
وكانت به آيات حسنكم تتلى

ثم سار إلى الاردو فأقبل عليه هولوكو، ووعدته برده إلى مملكته، وكان منه ما سذكركه إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك

وفي خامس عشر شعبان من هذه السنة أخرج التتر من الاعتقال نقيب قلعة دمشق وواليتها، وضربوا أعناقها بداريا، واشتھر عند أهل دمشق خروج العساكر من مصر لقتال التتر، فأوقعوا بالنصارى، وكانوا قد استطالوا على المسلمين بدق النواقيس وإدخال الخمر إلى الجامع، فنهبهم المسلمون في سابع عشرين رمضان من هذه السنة، وأخربوا كنيسة مريم، وكانت كنيسة عظيمة، وكانت كنيسة مريم في جانب دمشق الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف فبقيت بيد المسلمين، وكان ملاصق الجامع كنيسة وهي من الجانب الذي فتحه أبو عبيدة بالامان فبقيت بأيدي النصارى، فلما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة خرب الكنيسة الملاصقة للجامع وأضافها إليه، ولم يعوض النصارى عنها، فلما ولي عمر بن عبد العزيز عوضهم بكنيسة مريم عن تلك الكنيسة، فعمروها عمارة عظيمة، وبقيت كذلك حتى خربها المسلمون في التاريخ المذكور.

ذكر هزيمة التتر وقتل كتبغا

وفي هذه السنة أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة كانت هزيمة التتر في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان على عين جالوت، وكان من حديثها أنه لما اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر، عزم الملك المظفر قطز مملوك المعز أيبك على الخروج إلى الشام لقتال التتر، وسار من مصر بالعساكر الإسلامية، وصحبته الملك المنصور محمد صاحب حماة، وأخوه الملك الأفضل علي، وكان مسيره من الديار المصرية في أوائل رمضان من هذه السنة، ولما بلغ كتبغا وهو نائب هولاء على الشام ومقدم التتر، سير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من في الشام من التتر، وسار إلى لقاء المسلمين، وكان الملك السعيد صاحب الصببية ابن الملك العزيز ابن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا، وتقارب الجمعان في الغور والتقوا يوم الجمعة المذكور، فانهزمت التتر هزيمة قبيحة، وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا واستؤسر ابنه، وتعلق من سلم من التتر برؤوس الجبال، وتبعهم المسلمون فأفنؤهم، وهرب من سلم منهم إلى الشرق، وجرد قطز ركن الدين بيبس البندقداري في إثرهم فتبعهم المسلمون إلى أطراف البلاد الشرقية، وكان أيضا في صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص، ففارقهم وطلب الأمان من المظفر قطز فأمنه، ووصل إليه فأكرمه وأقره على ما بيده وهو حمص ومضافاتها، وأما الملك السعيد صاحب الصببية فإنه أمسك أسيراً، وأحضره بين يدي الملك المظفر قطز، فأمر به فضربت عنقه بسبب ما كان المذكور قد اعتمده من السفك والفسق، ولما انقضى أمر المصاف أحسن المظفر قطز إلى الملك المنصور صاحب حماة وأقره على حماة وبارين وأعاد إليه المعرة، وكانت في أيدي الحليين من حين استولوا عليها في سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأخذ سلمية منه وأعطاها أمير العرب، وأتم الملك المظفر السير بالعساكر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة حتى دخل دمشق، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على

هذا النصر العظيم فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام، ولأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكريا إلا هزموه، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم، وبقدوم الملك المظفر قطز إلى الشام، وفي يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتر فشنقوا، وكان من جملتهم حسين الكردي طبردار الملك الناصر يوسف، وهو الذي أوقع الملك الناصر في أيدي التتر وفي هذه النصرة وقدم قطز إلى الشام يقول بعض الشعراء:

هلك الكفر في الشام جميعا
واستجد الاسلام بعدد حوضه
بالمليك المظفر الملك ار
وع سيف الاسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم
فاعتززنا باسمه وببيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا
دائما مثل واجبات فروضه

ثم أعطى الملك المظفر قطز صاحب حماة الملك المنصور الدستور، فقدم الملك المنصور قدامه مملوكه ونائبه مبارز الدين أقوش المنصوري إلى حماة، ثم سار الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل ووصلا إلى حماة، ولما استقر الملك المنصور بحماة قبض على جماعة كانوا مع التتر واعتقلهم.....

وكان خسرو شاه قد سافر من حماة إلى جهة الشرق، لما بلغه كسرة التتر، ثم جهز الملك المظفر قطز عسكرياً إلى حلب لحفظها، ورتب أيضاً شمس الدين أقوش البرلي العزيزي أميراً بالسواحل وغزة، ورتب معه جماعة من العزيزية، وكان البرلي المذكور من مماليك الملك العزيز محمد صاحب حلب، وسار في جملة العزيزية مع ولده المليك الناصر يوسف إلى قتال المصريين، وخامر البرلي وجماعة من العزيزية على ابن أستاذهم

الملك الناصر وصاروا مع أيك التركماني صاحب مصر، ثم إنهم قصدوا اغتيال المعز أيك التركماني المذكور، وعلم بهم فقبض على بعضهم، وهرب بعضهم، وكان البرلي المذكور من جملة من سلم وهرب إلى الشام فلما وصل إلى الملك الناصر اعتقله بقلعة عجلون، فلما توجه الملك الناصر بالعسكر إلى الغور مندفعاً من بين يدي التتر أخرج البرلي من حبس عجلون، وطيب خاطره، فلما هرب الملك الناصر من قطية دخل شمس الدين أقوش البرلي المذكور مع العساكر إلى مصر، فأحسن إليه الملك المظفر قطز وولاه الآن السواحل وغزة، فلما استقر بدمشق على ما ذكرناه، وكان مقر البرلي لما تولى هذه الأعمال بنابلس تارة، وبيت جبرين أخرى، ثم إن الملك المظفر قطز فوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبي، وهو الذي كان أتابكا لعلي بن المعز أيك، وفوض نيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان المذكور قد وصل إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام، ودخل مع العساكر إلى مصر، وصار مع المظفر قطز ففوض إليه نيابة السلطنة بحلب، وكان سببه أن أخاه الملك الصالح بن لؤلؤ قد صار صاحب الموصل بعد أبيه، فولاه حلب ليكاية أخوه بأخبار التتر، ولما استقر السعيد المذكور في نيابة حلب سار سيرة رديئة، وكان دابة التحيل على أخذ مال الرعية.

ذكر عود الملك المظفر قطز إلى جهة الديار المصرية ومقتله

ولما قرر الملك المظفر قطز المعزي المذكور أمر الشام على ما شرحناه، سار من دمشق إلى جهة البلاد المصرية وكان قد اتفق ببيرس البندقداري الصالحي مع أنص مملوك نجم الدين الرومي الصالحي، والهاروني، وعلم الدين صغن أغلي على قتل المظفر قطز، وساروا معه يتوقعون الفرصة، فلما

وصل قطز إلى القصير بطرف الرمل، وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق الدهليز والعسكر إلى الصالحية، فبينا قطز يسير إذ قامت أرنب بين يديه فساق عليها، وساق هؤلاء المذكورين معه فلما بعدوا، تقدم إليه أنص وشفع عند الملك المظفر قطز في إنسان فأجابه إلى ذلك فأهوى لتقبيل يده، وقبض عليها فحمل عليه بيبرس البندقداري الصالحى حينئذ وضربه بالسيف، واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه، ثم قتلوه بالنشاب وذلك في سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة، فكانت مدة ملكه أحد عشر شهراً، وثلاثة عشر يوماً، وساق بيبرس وأولئك المذكورون بعد مقتله حتى وصلوا إلى الدهليز بالصالحية.

ذكر سلطنة بيبرس البندقداري

ولما وصل ركن الدين بيبرس المذكور هو والجماعة الذين قتلوا الملك المظفر قطز إلى الدهليز كما ذكرنا، وكان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين أقطاي المستعرب، وهو الذي صار أتابكا لعل بن المعز أيك بعد الحلبي، فلما تسلطن قطز أقره على نيابة السلطنة، فلما وصل بيبرس البندقداري مع الجماعة الذين قتلوا قطز إلى الدهليز، سألهم أقطاي المستعرب المذكور، وقال: من قتله منكم؟ فقال له بيبرس: أنا، قال له أقطاي: ياخوند اجلس في مرتبة السلطنة، فجلس واستدعيت العساكر للتحليف، فحلفوا له في اليوم الذي قتل فيه قطز، وهو سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستائة، واستقر بيبرس في السلطنة وتلقب بالملك القاهرة ركن الدين بيبرس الصالحى، ثم بعد ذلك غير لقبه عن الملك القاهرة، وتلقب بالملك الظاهر لأنه بلغه أن القاهرة لقب غير مبارك ماتلقب به أحد فطالت مدته، وكان الملك الظاهر المذكور قد سأل من قطز النيابة بحلب فلم يجبه إليها، ليكون ما قدره الله تعالى، ولما حلف الناس للملك الظاهر المذكور بالصالحية، ساق في جماعة من أصحابه وسبق العسكر إلى قلعة

الجليل، ففتحت له، ودخلها واستقرت قدمه في المملكة، وكان قد زينت مصر والقاهرة لمقدم قطز، فاستمرت الزينة لسلطنة بيبرس المذكور، وكان مقتل قطز وسلطنة بيبرس في سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة.

ذكر إعادة عمارة قلعة دمشق

وفي هذه السنة في العشر الأخير من ذي القعدة، شرع الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب السلطنة بدمشق في عمارة قلعة دمشق، وجمع لها الصناع، وكبراء الدولة، والناس وعملوا فيها حتى النساء أيضا، وكان عند الناس بذلك سرور عظيم.

ذكر سلطنة الحلبي بدمشق

كان علم الدين سنجر الحلبي قد استنابه الملك المظفر قطز بدمشق على ماتقدم ذكره، فلما جرى ما ذكرناه من قتل قطز وسلطنة الملك الظاهر، جمع الحلبي الناس وحلفهم لنفسه بالسلطنة، وذلك في العشر الأول من ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة، فأجابه الناس إلى ذلك، وحلفوا له، ولم يتأخر عنه أحد، ولقب نفسه الملك المجاهد، وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه، وكاتب الملك المنصور صاحب حماة في ذلك فلم يجبه، وقال صاحب حماة: أنا مع من يملك الديار المصرية كائنا من كان.

ذكر قبض عسكر حلب على الملك السعيد ابن صاحب الموصل وعودة التتر إلى الشام

وكان الملك السعيد قد قرره قطز بحلب وجرده معه جماعة من
العزيزية والناصرية، وكان رديء السيرة، وقد أبغضه العسكر، وبلغ
الملك السعيد المذكور مسير التتر إلى البيرة، فجرد إلى جهتهم جماعة قليلة
من العسكر وقدم عليهم سابق الدين أمير مجلس الناصري، فأشار عليه
كبراء العزيزية والناصرية بأن هذا ماهو مصلحة وأن هؤلاء قليلون
فيحصل الطمع بسببهم في البلاد، فلم يلتفت إلى ذلك، وأصر على
مسيرهم، فسار سابق الدين أمير مجلس الناصري بمن معه حتى قاربوا
البيرة، فوقع عليهم التتر فهرب منهم ودخل البيرة بعد أن قتل غالب من
كان معه فازداد غيظ الأمراء على الملك السعيد بسبب ذلك، فاجتمعوا
وقبضوا عليه ونهبوا وطاقه، وكان قد برز إلى بابلي المعروف باب الله، ولما
استولوا على خزانته لم يجدوا فيها مالا طائلا فهددوه بالعذاب إن لم يقر
لهم بماله فنبش من تحت أشجار حائط دار بابلي جملة من المال قيل
كانت خمسين ألف دينار مصرية، ففرقت في الأمراء وحمل الملك السعيد
المذكور إلى الشغروبكاس معتقلا، ثم لما اندفع العسكر من بين يدي التتر
على ما سنده أفرجوا عنه، ولما جرى ذلك اتفقت العزيزية والناصرية
وقدموا عليهم الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزي، ثم سارت التتر
إلى حلب، فاندفع حسام الدين الجوكندار والعسكر الذين معه بين
أيديهم إلى جهة حماة، ووصل التتر إلى حلب في أواخر هذه السنة، أعني
سنة ثمان وخمسين وستمائة، وملكوها وأخرجوا أهلها إلى قرينيا واسمها
مقر الأنبياء، فساها العامة قرينيا، ولما اجتمع المسلمون بقرينيا بذل التتر
فيهم السيف فأفنوا غالبهم، وسلم القليل منهم، ووصل حسام الدين
الجوكندار، ومن معه إلى حماة فضيفهم الملك المنصور محمد صاحب
حماة، وهو مستشعر خائف من غدرهم، ثم رحلوا من حماة إلى حمص،
فلما قارب التتر حماة خرج منها الملك المنصور صاحبها وصحبته أخوه

الملك الأفضل علي، والأمير مبارز الدين وباقي العسكر، واجتمعوا بحمص مع باقي العساكر إلى أن خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة

ذكر كسرة التتر بحمص

وفي يوم الجمعة خامس المحرم من هذه السنة كانت كسرة التتر على حمص، وكان من حديثها أن التتر لما قدموا في آخر السنة الماضية إلى الشام اندفعت العزيزية والناصرية من بين أيديهم، وكذلك الملك المنصور صاحب حماة، ووصلوا إلى حمص، واجتمع بهم الملك الأشرف صاحب حمص، ووقع اتفاقهم على ملتقى التتر، وسار التتر إليهم، والتقوا بظاهر حمص في نهار الجمعة المذكور، وكان التتر أكثر من المسلمين بكثير، ففتح الله تعالى على المسلمين بالنصر، وولى التتر منهزمين، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم كيف شاءوا، ووصل الملك المنصور إلى حماة بعد هذه الواقعة، وانضم من سلم من التتر إلى باقي جماعتهم وكانوا نازلين قرب سلمية، واجتمعوا ونزلوا على حماة، وبها صاحبها الملك المنصور، وأخوه الملك الأفضل والعسكر، وأقام التتر على حماة يوماً واحداً، ثم رحلوا عن حماة، وأراد الملك المنصور بعد رحيل التتر المسير إلى دمشق فمنعه العامة حتى استوثقوا منه أنه يعود إليهم عن قريب، فسافر هو وأخوه الملك الأفضل في جماعة قليلة، وبقي الطواشي مرشد صاحب العسكر بحماة، ووصل المنصور بمن معه إلى دمشق، وكذلك توجه الملك الأشرف صاحب حمص إلى دمشق، وأما حسام الدين الجوكندار العزيزي فتوجه أيضاً بمن في صحبته، ولم يدخل دمشق، ونزل بالمرج، ثم سار إلى مصر، وأقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق في

دورهما، والحاكم بها يومئذ سنجر الحلبي الملقب بالسلطان المجاهد، وقد اضطرب أمره ولذلك أقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق ولم يدخلوا في طاعته لضعفه وتلاشي أمره، وأما التتر فساروا عن حماة إلى فامية، وكان قد وصل إلى فامية سيف الدين الدنبلي الأشرفي، ومعه جماعة، فأقام بقلعة فامية، وبقي يغير على التتر، فرحلوا عن فامية وتوجهوا إلى الشرق.

ذكر القبض على سنجر الحلبي الملقب الملك المجاهد

وفي هذه السنة جهز الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر عسكريا مع علاء الدين البندقدار، وهو أستاذ الملك الظاهر لقتال علم الدين سنجر الحلبي المستولي على دمشق، فوصلوا إلى دمشق في ثالث عشر صفر من هذه السنة، ولما وصل عسكري مصر إلى دمشق خرج إليهم الحلبي لقتالهم، وكان صاحب حماة وصاحب حمص مقيمين بدمشق ولم يخرجوا مع الحلبي لقتالهم ولا أطاعاه لاضطراب أمر الحلبي، واقتتل معهم بظاهر دمشق في ثالث عشر صفر من هذه السنة، أعني سنة تسع وخمسين وستمائة، فولى الحلبي وأصحابه منهزمين ودخل إلى قلعة دمشق إلى أن جنه الليل، فهرب من قلعة دمشق إلى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه، وحمل إلى الديار المصرية، فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق في ملك الظاهر بيبرس، وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشام، مثل: حماة، وحلب، وحمص، وغيرها واستقر ايدكين البندقدار الصالح في دمشق لتدبير أمورها، ولما استقر الحال على ذلك، رحل الملك المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص، وعادا إلى بلادهما واستقرا بها.

ذكر خروج البرلي عن طاعة الملك الظاهر بيبرس واستيلائه على حلب

وفي هذه السنة بعد استقرار علاء الدين ايدكين البندقدار في دمشق، ورد عليه مرسوم الملك الظاهر بيبرس بالقبض على بهاء الدين بغدي الأشرفي، وعلى شمس الدين أقوش البرلي وغيرهما من العزيزية والناصرية، وبقي علاء الدين ايدكين متوقفاً ذلك، فتوجه بغدي إلى علاء الدين ايدكين فحال دخوله عليه قبض على بغدي المذكور، فاجتمعت العزيزية والناصرية إلى أقوش البرلي، وخرجوا من دمشق ليلاً على حمية، ونزلوا بالمرج، وكان أقوش البرلي قد ولاه المظفر غزة، والسواحل على ما قدمنا ذكره، فلما جهز الملك الظاهر البندقدار إلى قتال الحلبي، أرسل إلى البرلي وأمره أن ينضم إليه، فسار البرلي مع البندقدار، وأقام بدمشق فلما قبض على بغدي خرج البرلي إلى المرج، وأرسل علاء الدين ايدكين البندقدار إلى البرلي يطيب قلبه، ويخلف له، فلم يلتفت إلى ذلك، وسار إلى حمص، وطلب من صاحبها الأشرف موسى أن يوافقه على العصيان، فلم يجبه إلى ذلك، ثم توجه إلى حماة، وأرسل يقول للملك المنصور صاحب حماة: إنه لم يبق من البيت الأيوبي غيرك، وقم لنصير معك ونملكك البلاد، فلم يلتفت الملك المنصور إلى ذلك ورده رداً قبيحاً، فاغتاظ البرلي ونزل على حماة وأحرق زرع بيدر العشر، وسار إلى شيزر، ثم إلى جهة حلب، وكان علاء الدين ايدكين البندقدار لما استقر بدمشق، قد جهز عسكراً صحبة فخر الدين الحمصي للكشف عن البيرة، فإن التتر كانوا قد نازلوها، فلما قدم البرلي إلى حلب كان بها فخر الدين الحمصي المذكور، فقال له البرلي: نحن في طاعة الملك الظاهر، فتمضي إلى السلطان وتسأله أن يتركني ومن في صحبتي مقيمين بهذا الطرف، ونكون تحت طاعته من غير أن يكلفني وطىء بساطه، فسار الحمصي إلى جهة مصر ليؤدي هذه الرسالة، فلما سار عن حلب تمكن البرلي واحتاط على مافي حلب من الخواصل، واستبد بالأمر، وجمع العرب والتركمان واستعد

لقتال عسكر مصر، ولما توجه فخر الدين الحمصي لذلك التقى في الرمل جمال الدين المحمدي الصالحي متوجهاً بمن معه من عسكر مصر لقتال البرلي وإمساكه، فأرسل الحمصي عرف الملك الظاهر بما طلبه البرلي، فأرسل الملك الظاهر ينكر على فخر الدين الحمصي المذكور ويأمره بالانضمام إلى المحمدي والمسير إلى قتال البرلي، فعاد من وقته، ثم رضي الملك الظاهر عن علم الدين سنجر الحلبي وجهزه وراء المحمدي في جمع من العسكر، ثم أردفه بعز الدين الدمياطي في جمع آخر، وسار الجميع إلى جهة البرلي، وساروا إلى حلب وطردوه عنها، وانقضت السنة والأمر على ذلك.

ذكر مقتل الملك الناصر يوسف

وفي هذه السنة ورد الخبر بمقتل الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعقد عزاءه بجامع دمشق في سابع جمادى الأولى من هذه السنة، أعني سنة تسع وخمسين وستمائة، وصورة الحال في قتله أنه لما وصل إلى هولاكو على ما قدمنا ذكره، وعده برده إلى ملكه، وأقام عند هولاكو مدة، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره بعين جالوت وقتل كتبغا، ثم كسرة عسكره على حمص ثانياً غضب من ذلك، وأحضر الملك الناصر المذكور وأخاه الملك الظاهر غازي وقال له أنت قلت إن عسكر الشام في طاعتك فغدرت بي وقتلت المغل، فقال الملك الناصر: لو كنت بالشام ماضرب أحد في وجه عسكرك بالسيف، ومن يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام فاستوفى هولاكو لعنة الله نامجاه وضربه بها، فقال الملك الناصر: ياخوند الصنيعة، فنهاه أخوه الظاهر، وقال: قد حضرت، ثم رماه بفردة ثانية فقتله، ثم أمر بضرب رقاب

الباقين فقتلوا الظاهر أخا الملك الناصر، والملك الصالح ابن صاحب حمص، والجماعة الذين كانوا معه، واستبقوا الملك العزيز ابن الملك الناصر لأنه كان صغيراً، فبقي عندهم مدة طويلة وأحسنوا إليه، ثم مات، وكان قد تولى الملك الناصر المذكور مملكة حلب بعد موت أبيه العزيز وعمره سبع سنين، وأقامت جدته ضيفة خاتون بنت الملك العادل بتدبير مملكته واستقل بالملك بعد وفاتها في سنة أربعين وستمائة وعمره ثلاث عشرة سنة، وزاد ملكه على ملك أبيه وجده فإنه ملك مثل حران والرها والرقّة ورأس عين وماع ذلك من البلاد، وملك حمص، وبعلبك، والأغوار والسواحل إلى غزة، وعظم شأنه وكسر عساكر مصر، وخطب له بمصر وبقلعة الجبل على الوجه الذي تقدم ذكره، وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته وقتل مدبر دولته شمس الدين لؤلؤ الأرمني ومخامرة ممالك أبيه العزيزية، وكان يذبح في مطبخه كل يوم أربعمئة رأس غنم، وكانت سماطاته وتجمله في الغاية القصوى، وكان حليماً وتجاوز به الحلم إلى حد أضر بالمملكة، فإنه لما أمنت قطاع الطريق في أيام مملكته من القتل والقطع تجاوزوا الحد في الفساد بالمملكة، وانقطعت الطرق في أيامه، وبقي لا يقدر المسافر على السفر من دمشق إلى حماة وغيرها إلا برفقة من العسكر، وكثر طمع العرب والتركمان في أيامه، وكثرت الحرامية، وكانوا يكبسون الدور، ومع ذلك إذا حضر القاتل إلى بين يدي الملك الناصر المذكور يقول الحي خير من الميت ويطلقه، فأدى ذلك إلى انقطاع الطرقات، وانتشار الحرامية والمفسدين، وكان على ذهن الناصر المذكور شيء كثير من الأدب والشعر، ويروى له أشعار كثيرة منها:

فوالله لو قطعت قلبي تأسفا

وجرعتني كاسات دمعي دما صرفا

لما زادني إلا هـوى ومحبوبة

ولا اتخذت روجي سواك لها ألفا

وبنى بدمشق مدرسة قريب الجامع تعرف بالناصرية، ووقف عليها وقفا جليلاً، وبني بالصالحية تربة غرم عليها جملاً مستكثرة، فدفن فيها كرمون وهو بعض أمراء التتر، وكانت منية الملك الناصر ببلاد العجم، وكان مولد الناصر المذكور في سنة سبع وعشرين وستائة، فيكون عمره اثنتين وثلاثين سنة تقريباً.

ذكر مبايعة شخص بالخلافة وإثبات نسبه

وفي هذه السنة في رجب قدم إلى مصر جماعة من العرب، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد، زعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله محمد ابن الامام الناصر، وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر، فعقد الملك الظاهر ببيرس مجلساً حضر فيه جماعة من الأكابر منهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، والقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعز، فشهد أولئك العرب ان هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد ابن الامام الناصر، فيكون عم المستعصم، وأقام القاضي جماعة من الشهود واجتمعوا بأولئك العرب وسمعوا شهاداتهم، ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة، فأثبت القاضي تاج الدين نسب أحمد المذكور، ولقب المستنصر بالله أبا القاسم أحمد بن الظاهر بالله محمد، وبايعه الملك الظاهر والناس بالخلافة، واهتم الملك الظاهر بأمره وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة، واستخدم عسكرياً وغرم على تجهيزه جملاً طائلة، قيل إن قدر ماغرمه عليه ألف ألف دينار، وكانت العامة تلقب الخليفة المذكور بالزراييني، وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود المذكور في رمضان من هذه السنة وتوجهوا إلى دمشق وكان في كل منزلة يمضي الملك الظاهر إلى دهليزه الخاص به، ولما وصلا إلى دمشق نزل الملك الظاهر بالقلعة، ونزل الخليفة في جبل الصالحية، ونزل حول الخليفة أمراؤه وأجناده، ثم جهز الخليفة بعسكره إلى جهة بغداد طمعا في أنه يستولي على بغداد، ويجمع عليه الناس،

فسار الخليفة الأسود بعسكره من دمشق وركب الملك الظاهر وودعه ووصاه بالتأني في الأمور، ثم عاد الملك الظاهر إلى دمشق من توديع الخليفة، ثم سار إلى الديار المصرية، ودخلها في سابع عشر ذي الحجة من هذه السنة، ووصلت إليه كتب الخليفة بالديار المصرية أنه قد استولى على عانة والحديثة، وولى عليهما، وأن كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على الوصول إليهم، ثم قبل أن يصل إلى بغداد وصلت إليه التتر، وقتلوا الخليفة المذكور، وقتلوا أصحابه، ونهبوا ما كان معه، وجاءت الاخبار بذلك.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة لما سار الملك الظاهر إلى الشام أمر القاضي شمس الدين ابن خلكان، فسافر في صحبته من مصر إلى الشام، فعزل عن قضاء دمشق نجم الدين بن صدر الدين ابن سناء الدولة، وكان قطز قد عزل المحيي بن الزكي الذي ولاه هولاء القضاء، وولى ابن سناء الدولة، فعزله الملك الظاهر في هذه السنة، وولى القضاء شمس الدين ابن خلكان.

وفيها قدم أولاد صاحب الموصل وهم: الملك الصالح اسماعيل، ثم أخوه الملك المجاهد اسحق، صاحب جزيرة ابن عمر، ثم أخوهما الملك المظفر علي صاحب سنجار أولاد لؤلؤ فأحسن الملك الظاهر إليهم وأعطاهم الإقطاعات الجلييلة بالديار المصرية، واستمروا في أرغد عيش في طول مدة الملك الظاهر.

وفيها في ربيع الآخر وردت الاخبار من ناحية عكا أن سبع جزائر في

البحر خسف بها وبأهلها، وبقي أهل عكا لابسين السواد وهم يكونون ويستغفرون من الذنوب بزعمهم.

وفيها جهز الملك الظاهر بيبرس بدر الدين الأيدمري، فتسلم الشوبك في سلخ ذي الحجة من هذه السنة أعني سنة تسع وخمسين وستائة، وأخذها من الملك المغيث صاحب الكرك.

ثم دخلت سنة ستين وستائة

في هذه السنة في نصف رجب وردت جماعة من ممالك الخليفة المستعصم البغدادية، وكانوا قد تأخروا في العراق بعد استيلاء التتر على بغداد وقتل الخليفة، وكان مقدمهم يقال له شمس الدين سلا، فأحسن الملك الظاهر بيبرس ملتقاهم وعين لهم الاقطاعات بالديار المصرية.

وفيها في رجب أيضا وصل إلى خدمة الملك الظاهر بيبرس بالديار المصرية عماد الدين بن مظفر الدين صاحب صهيون، رسولا من أخيه سيف الدين صاحب صهيون، وصحبته هدية جلييلة، فقبلها الملك الظاهر وأحسن إليه.

وفيها جهز الملك الظاهر عسكريا إلى حلب، وكان مقدمهم شمس الدين سنقر الرومي، فأمنت بلاد حلب، وعادت إلى الصلاح، ثم تقدم الملك الظاهر بيبرس إلى سنقر الرومي وإلى صاحب حماة الملك المنصور، وإلى صاحب حمص الملك الأشرف موسى أن يسيروا إلى أنطاكية وبلادها للإغارة عليها، فساروا إليها ونهبوا بلادها وضايقوها، ثم عادوا فتوجهت العساكر المصرية صحبة سنقر الرومي إلى مصر، ووصلوا إليها في تاسع عشرين رمضان من هذه السنة ومعهم ماينوف على ثلاثائة أسير، فقبلهم الملك الظاهر بالاحسان والانعام.

وفيهما لماضاقت على أقوش البرلي البلاد، وأخذت منه حلب، ولم يبق بيده غير البيرة دخل في طاعة الملك الظاهر؛ وسار إليه فكتب الملك الظاهر إلى النواب بالاحسان إليه وترتيب الاقامات له في الطرقات حتى وصل إلى الديار المصرية في ثاني ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة ستين، فتلقيه الملك الظاهر وبالع في الاحسان إليه وأكثر له العطاء، فسأل أقوش البرلي من الملك الظاهر أن يقبل منه البيرة فلم يفعل، ومازال يعاوده حتى قبلها، وبقي أقوش البرلي العزيزي المذكور مع الملك الظاهر إلى أن تغير عليه وقبضه في رجب سنة احدى وستين وستمائة، فكان آخر العهد به.

وفيهما في ذي القعدة قبض الملك الظاهر على نائبه بدمشق، وهو علاء الدين طبرس الوزيري، وكان قد تولى دمشق بعد مسير علاء الدين ايدكين البندقداري عنها، وسبب القبض عليه أنه بلغ الملك الظاهر عنه أمور كرهها فأرسل إليه عسكرياً مع عز الدين الدمياطي وغيره من الأمراء، فلما وصلوا إلى دمشق، خرج طبرس لتلقيهم، فقبضوا عليه وقيدوه وأرسلوه إلى مصر، فحبسه الملك الظاهر، واستمر الحاج طبرس في الحبس سنة وشهراً، وكانت مدة ولايته بدمشق سنة وشهر أيضاً، وكان طبرس المذكور ردىء السيرة في أهل دمشق، حتى نزح عنها جماعة كثيرة من ظلمه، وحكم في دمشق بعد قبض طبرس المذكور علاء الدين ايدغدي الحاج الركني، ثم استناب الملك الظاهر على دمشق الامير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى.

وفيهما في يوم الخميس في أواخر ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة ستين وستمائة، جلس الملك الظاهر مجلساً عاماً، وأحضر شخصاً كان قد قدم إلى الديار المصرية في سنة تسع وخمسين وستمائة من نسل بني العباس يسمى أحمد، بعد أن ثبت نسبه وبايعه بالخلافة، ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، وقد اختلف في نسبه فالذي هو

مشهور بمصر عند نسابه مصر انه أحمد بن حسن بن أبي بكر ابن الامير أبي على القبي ابن الامير حسن بن الراشد بن المسترشد بن المستظهر، وقد مر نسب المستظهر مع جملة خلفاء بني العباس، وأما عند الشرفاء العباسيين السلمانيين في درج نسبهم الثابت فقالوا: هو أحمد بن أبي بكر على بن أبي بكر أحمد ابن الامام المسترشد الفضل ابن المستظهر، ولما أثبت الملك الظاهر نسب المذكور نزلته في برج محترزا عليه، وأشرك له الدعاء في الخطبة لاغير ذلك.

وفيها جهز الملك المنصور صاحب حماة شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري رسولا إلى الملك الظاهر، ووصل شيخ الشيوخ المذكور فوجد الملك الظاهر عاتباً على صاحب حماة لاشتغاله عن مصالح المسلمين باللهو، وأنكر الملك الظاهر على الشيخ شرف الدين ذلك، ثم انصلح خاطره وحمله ماطيب به قلب صاحبه الملك المنصور، ثم عاد إلى حماة.

وفيها توفي الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، الامام في مذهب الشافعي، وله مصنفات جليلة في المذهب وكانت وفاته بمصر رحمه الله تعالى. وفيها في ذي الحجة توفي صاحب كمال الدين عمر بن أحمد المعروف بابن العديم، انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة، وكان فاضلاً كبير القدر، ألف تاريخ حلب، وغيره من المصنفات، وكان قد قدم إلى مصر لما جفل الناس من التتر، ثم عاد بعد خراب حلب إليها.

ثم دخلت سنة احدى وستين وستمائة

ذكر مسير الملك الظاهر إلى الشام

في هذه السنة في حادي عشر ربيع الآخر سار الملك الظاهر ببيرس

من الديار المصرية إلى الشام، فلاقتهم والدته الملك المغيث عمر صاحب الكرك بغزة، وتوثقت لابنها الملك المغيث من الملك الظاهر بالأمان، وأحسن إليها، ثم توجهت إلى الكرك وتوجه صاحبها شرف الدين أجاكي المهندار برسم حمل الاقامات إلى الطرقات برسم الملك المغيث، ثم سار الملك الظاهر من غزة ووصل إلى الطور في ثاني عشر جمادى الأولى من هذه السنة، ووصل إليه على الطور الأشرف موسى صاحب حمص في نصف الشهر المذكور، فأحسن إليه الملك الظاهر وأكرمه.

ذكر حضور الملك المغيث صاحب الكرك وقتله

واستيلاء الملك الظاهر بيبرس على الكرك

وفي هذه السنة كان مقتل الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب الكرك، وسببه أنه كان في قلب الملك الظاهر بيبرس منه غيظ عظيم، لأمر كانت بينهما قيل إن المغيث المذكور أكره امرأة الملك الظاهر بيبرس لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق، وهرب الملك الظاهر بيبرس المذكور، وبقيت امرأته في الكرك، والله أعلم بحقيقة ذلك، وكان من حديث مقتله أن الملك الظاهر بيبرس مازال يجتهد على حضور المغيث المذكور وحلف لوالدته على غزة كما تقدم ذكره، وكان عند المغيث شخص يسمى الأجد وكان يبعثه في الرسالة إلى الملك الظاهر، فكان يبالغ في اكرامه وتقريبه، فاغتر الأجد بذلك، ومازال على مخدومه الملك المغيث حتى أحضره إلى الملك الظاهر، حكى لي شرف الدين بن مزهر، وكان ابن مزهر المذكور ناظر

خزانة المغيـث، قال: لما عزم المغيـث على التوجه إلى خدمة الملك الظاهر، لم يكن قد بقي بخزائنه شيء من المال، ولا القماش، وكان لوالدته حواصل بالبلاد فبعناها بأربعة وعشرين ألف درهم واشترينا باثني عشر ألف درهم خلعا من دمشق، وجعلنا في صناديق الخزانة الاثني عشر الالف الأخرى، ونزل المغيـث من الكرك، وأنا والأجد وجماعة من أصحابه معه في خدمته، قال: وشرعت البريدية تصل إلى الملك المغيـث في كل يوم بمكاتبات الملك الظاهر، ويرسل صحتهم مثل غزلان ونحوها، والمغيـث يخلع عليهم حتى نفد ما كان بالخزانة من الخلع، ومن جملة ما كتب إليه بعض المكاتبات: المملوك ينشد في قدوم مولانا:

خليلي ————— ل أبصرتما أو سمعتما

بأكرم من مولى تمشى إلى عبد

قال: وكان الخوف في قلب المغيـث شديداً من الملك الظاهر، قال ابن مزهر المذكور ففاتحنـي في شيء من ذلك بالليل، فقلت له اـحلف إلي انك لاتقول للأبجد ما أقوله لك حتى أنصحك، فحلف لي فقلت له: أخرج الساعة من تحت الخـام واركب حـجرتك النـحيلة ولا يصـبح لك الصـباح إلا وأنت قد وصلت إلى الكرك فتعـصي فيه، ولا تفكر بأحد، قال ابن مزهر: فغافلني وتحدث مع الأبجد في شيء من ذلك، فقال له الأبجد: هذا رأي ابن مزهر، وإياك من ذلك، وسار المغيـث حتى وصل إلى بيسان فركب الملك الظاهر بعساكره والتقاء في يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة فلما شاهد المغيـث الملك الظاهر تـرجل، فمنعه الملك الظاهر، وأركبه وساق إلى جانبـه، وقد تغير وجه الملك الظاهر، فلما قارب الدهليز أفرد الملك المغيـث عنه وأنزله في خيمة وقبض عليه، وأرسله معتقلا إلى مصر، فكان آخر العهد به، قيل إنه حمل إلى امرأة الملك الظاهر بيبرس بقلعة الجبل فأمرت جوارها بفـقتلته بالقباقيب، ثم قبض الملك الظاهر على جميع أصحاب المغيـث، ومن جملتهم ابن مزهر المذكور، ثم بعد ذلك أفرج عنهم، انتهى كلام ابن مزهر، ولما التقى

الملك الظاهر بيبرس الملك المغيث المذكور وقبض عليه، أحضر الفقهاء والقضاة وأوقفهم على مكاتبات من التتر إلى الملك المغيث أجوبة عما كتب إليهم به في اطماعهم في ملك مصر والشام، وكتب بذلك مشروح، وأثبت على الحكام، وكان للملك المغيث المذكور ولد يقال له الملك العزيز، أعطاه الملك الظاهر اقطاعاً بديار مصر، وأحسن إليه، ثم جهز الملك الظاهر بدر الدين البيسري الشمسي، وعز الدين استاذ الدار إلى الكرك، فتسلماها في يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، أعني سنة إحدى وستين وستائة، ثم سار الملك الظاهر ووصل إلى الكرك ورتب أمورها، ثم عاد إلى الديار المصرية، فوصل إليها في سابع عشر رجب من هذه السنة.

ذكر الاغارة على عكا وغيرها

وفي هذه السنة لما كان الملك الظاهر نازلاً على الطور، أرسل عسكرياً هدموا كنيسة الناصرة، وهي من أكبر مواطن عبادات النصاري، لأن منها خرج دين النصرانية، وأغاروا على عكا وبلادها فغنموا وعادوا، ثم ركب الملك الظاهر بنفسه وجماعة اختارهم، وأغار ثانياً على عكا وبلادها، وهدم برجاً كان خارج البلد، وذلك عقيب إغارة عسكريه وهدم كنيسة الناصرة.

ذكر القبض على من يذكر

وفيهما بعد وصول الملك الظاهر بيبرس إلى مصر، واستقراره في ملكه في رجب قبض على الرشيدى، ثم قبض في ثاني يوم على الدمياطي، والبرلي، وقد تقدمت أخبار البرلي المذكور.

ذكروفاة الاشرف صاحب حمص

وفي هذه السنة بعد عود الملك الأشرف صاحب حمص موسى ابن الملك المنصور ابراهيم ابن الملك المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد ابن شيركوه بن شادي من خدمة الملك الظاهر بيبرس إلى حمص، مرض واشتد به المرض، وتوفي إلى رحمة الله تعالى و أرسل الملك الظاهر وتسلم حمص في ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة احدى وستين وستائة، وهذا الملك الأشرف موسى هو آخر من ملك حمص من بيت شيركوه، وقد تقدمت أخبار الأشرف موسى المذكور، وأخذ الملك الناصر يوسف صاحب حلب منه حمص بسبب تسليمه شميميس للملك الصالح أيوب صاحب مصر، وأنه تعوض عن حمص تل باشر، ثم أعاد هولاءكو عليه حمص، فبقيت في يده حتى توفي في أواخر هذه السنة، وانتقلت حمص إلى مملكة الملك الظاهر بيبرس في ذي القعدة حسبا ذكر، وكان جملة من ملك حمص منهم خمسة ملوك أولهم شيركوه بن شادي، ملكه إياها نور الدين الشهيد، ثم ملكها من بعده ابنه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ثم ملكها بعده ابنه شيركوه ابن محمد، وتلقب بالملك المجاهد، ثم ملكها بعده ابنه ابراهيم بن شيركوه، وتلقب بالملك المنصور، ثم ملكها بعده ابنه موسى بن ابراهيم وتلقب بالملك الأشرف حتى توفي في هذه السنة، وانقرض بموته ملك المذكورين.

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وستائة

في هذه السنة قبض الأشكري صاحب قسطنطينية على عز الدين كيكائوس بن كيخسرو بن كيقباز صاحب بلد الروم، وسببه أن عز الدين كيكائوس المذكور كان قد وقع بينه وبين أخيه، فاستظهر أخوه عليه، فهرب كيكائوس وبقي أخوه ركن الدين قليج أرسلان في سلطنة بلاد

الروم، ثم سار كيكائوس المذكور إلى قسطنطينية، فأحسن إليه الأشكري صاحب قسطنطينية وإلى من معه من الأمراء، واستمروا كذلك مدة، فعزمت الأمراء والجماعة الذين كانوا مع عز الدين المذكور على اغتيال الأشكري وقتله، والتغلب على قسطنطينية، وبلغ ذلك الأشكري، فقبض عليهم واعتقل عز الدين كيكائوس بن كيخسرو في بعض القلاع، وكحل الأمراء والجماعة الذين كانوا عزموا على ذلك، فأعمى عيونهم وقد تقدم ذكر كيكائوس المذكور، وأخيه قليج أرسلان في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

وفيها في ثامن رمضان توفي الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد ابن محمد بن عبد المحسن الأنصاري المعروف بشيخ الشيوخ بحماة، وكان مولده في جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وكان ديناً فاضلاً متقدماً عند الملوك، وله النثر البديع، والنظم الفائق، وكان غزير العقل عارفاً بتدبير المملكة، فمن حسن تدبيره أن الملك الأفضل علي ابن الملك المظفر محمود لما ماتت والدته غازية خاتون بنت الملك الكامل رحمهما الله تعالى حصل عند الملك الأفضل المذكور استشعار من أخيه الملك المنصور محمد صاحب حماة، فعزم أن ينتزع من حماة ويفارق أخاه الملك المنصور، وأذن له أخوه الملك المنصور في ذلك، فاجتمع الشيخ شرف الدين المذكور بالملك الأفضل وعرفه مايعتمده من السلوك مع أخيه الملك المنصور، ثم اجتمع بالملك المنصور وقبح عنده مفارقة أخيه، ومابرح بينهما حتى أزال ماكان في خواطرهما، وصار للملك الأفضل في خاطر أخيه الملك المنصور من المحبة والمكانة مايفوق الوصف، وكان ذلك من بركة شرف الدين المذكور وللشيخ شرف الدين المذكور أشعار فائقة قد تقدم ذكر بعضها، وكان مرة مع الملك الناصر يوسف صاحب الشام بعمان فعمل الشيخ شرف الدين أفدى حبيباً من ذواجهته

عن وجهه بدر التم أغناني

في وجهه خالان لولاهما
مأبست مفتوننا بعمان

وأنشدهما للملك الناصر فأعجباه إلى الغاية، وجعل يردد انشادهما،
وقال لكتابه كمال الدين ابن العجمي: هكذا تكون الفضيلة، فقال ابن
العجمي: إن التورية لا تخدم هنا لأن عمان مجرورة في النظم فلا تخدمه في
التورية، فقال الملك الناصر للشيخ شرف الدين ماقاله، فقال شرف
الدين: إن هذا جائز وهو أن يكون المثنى في حالة الجر على صورة الرفع،
واستشهد شرف الدين بقول الشاعر
فأطرق أطراق الشجاع ولو رأى
مساغبا ناباه الشجاع لصمما

واستشهد بغير ذلك فتحقق الملك الناصر فضيلته.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وستمائة

ذكر فتوح قيسارية

في هذه السنة سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية بعساكره
المتوافرة إلى جهاد الفرنج بالساحل، ونازل قيسارية الشام في تاسع
جمادى الأولى، وضايقها وفتحها بعد ستة أيام من نزوله، وذلك في
منتصف الشهر المذكور، وأمر بها فهدمت، ثم سار إلى أرسوف، وفتحها
في جمادى الآخرة من هذه السنة.

ذكر موت هولاكو

في هذه السنة في تاسع ربيع الآخر مات هولاكو ملك التتر لعنه الله، وهو هولاكو بن طلو بن بن جنكيز خان، وكانت وفاته بالقرب من كورة مراغه، وكانت مدة ملكه البلاد التي سنصفها نحو عشرين، وخلف خمسة عشر ولدا ذكرا، ولما مات جلس في الملك بعده ولده ابغا بن هولاكو، واستقرت له البلاد التي كانت بيد والده حال وفاته، وهي: أقليم خراسان وكرسيه نيسابور، وأقليم عراق العجم وهو الذي يعرف ببلاد الجبل وكرسيه أصفهان، وأقليم عراق العرب وكرسيه بغداد، وأقليم أذربيجان وكرسيه تبريز، وأقليم خوزستان وكرسيه تستر التي تسميها العامة تشتر، وأقليم فارس وكرسيه شيراز، وأقليم ديار بكر وكرسيه الموصل، وأقليم الروم وكرسيه قونية، وغير ذلك من البلاد التي ليست في الشهرة مثل هذه الأقاليم العظيمة.

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة أو التي بعدها أمسك الملك الظاهر بيبرس زامل بن علي، أمير العرب بمكاتبة عيسى بن مهنا في حقه.

وفيها في رمضان استولى النائب بالرحبة على قرقيسيا، وهي حصن الزباء التي تقدم خبرها مع جذيمة الأبرش في أوائل الكتاب، وفيه خلاف.

وفيها قبض الملك الظاهر بيبرس على سنقر الرومي. وفيها توفي قاضي القضاة بمصر بدر الدين يوسف بن حسن بن علي السنجاري.

ذكر فتوح صفد وغيرها

في هذه السنة خرج الملك الظاهر بعساكره المتوافرة من الديار المصرية، وسار إلى الشام، وجهاز عسكرا إلى ساحل طرابلس، ففتحوا القليعات وحلبة، وعرقه، ونزل الملك الظاهر على صفد ثامن شعبان، وضايقها بالزحف وآلات الحصار، وقدم إليه وهو على صفد الملك المنصور صاحب حماة، ولاصق الجند القلعة، وكثر القتل والجراح في المسلمين، وفتحها في تاسع عشر شعبان المذكور بالأمان، ثم قتل أهلها عن آخرهم.

ذكر دخول العساكر إلى بلاد الأرمن

وفي هذه السنة بعد فراغ الملك الظاهر من فتوح صفد سار إلى دمشق، فلما دخلها واستقر فيها جرد عسكراً ضخماً، وقدم عليهم الملك المنصور صاحب حماة، وأمرهم بالمسير إلى بلاد الأرمن، فسارت العساكر صحبة الملك المنصور المذكور، ووصلوا إلى بلاد سيس في ذي القعدة من هذه السنة، وكان صاحب سيس إذ ذاك هيثوم بن قسطنطين بن باسيل قد حصن الدربندات بالرجال والمناجيق، وجعل عسكره مع ولديه على الدربندات لقتال العسكر الاسلامي، ومنعه فداستهم العساكر الاسلامية وأنفوهم قتلا وأسراً، وقتل ابن صاحب سيس الواحد، وأسر ابنه الآخر، وهو ليفون بن هيثوم المذكور، وانتشرت العساكر الاسلامية في بلاد سيس، وفتحوا قلعة العامودين وقتلوا أهلها، ثم عادت العساكر وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، ولما وصل خبر هذا الفتح العظيم إلى الملك الظاهر ببيرس رحل من دمشق ووصل إلى حماة، ثم إلى فامية فالتقى عساكره وقد عادت منصوره وأمر بتسليم الاسرى وفيهم ليفون ابن

صاحب سيس، وكان المذكور لما أسر سلمه الملك المنصور إلى أخيه الملك الأفضل فاحترز عليه وحفظه حتى أحضره بين يدي السلطان، ثم عاد إلى الديار المصرية على طريق الكرك فتقنطر بالملك الظاهر المذكور فرسه عند بركة زيزاء وانكسرت فخذه، وحمل في محفة إلى قلعة الجبل.

ذكر قتل أهل قارا ونهبهم

وفي هذه السنة عند توجه الملك الظاهر من دمشق للقتى عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس لما نزل على قارة بين دمشق وحمص أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم فنهبوا وقتل جماعة منهم لأنهم كانوا نصارى، وكانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم بالخفية من الفرنج، وأخذت صبيانهم بماليك فتربوا بين الترك في الديار المصرية، فصار منهم أجناد وأمراء.

ثم دخلت سنة خمس وستين وستمائة

فيها وصل الملك المنصور محمد صاحب حماة إلى خدمة الملك الظاهر ببيرس بالديار المصرية، ثم طلب المنصور من الملك الظاهر مرسوما بالتوجه إلى اسكندرية ليراها ويتفرج فيها فرسم له بذلك وأمر أهل اسكندرية باكرامه واحترامه وفرش الشقق بين يدي فرسه، فتوجه الملك المنصور إلى الاسكندرية، وعاد للديار المصرية مكرما محترما، ثم خلع عليه الملك الظاهر، وأحسن إليه على جاري عادته، ورسم له بالدستور فعاد إلى بلده.

وفيها توجه الملك الظاهر ببيرس إلى الشام فنظر في مصالح صفد ووصل إلى دمشق وأقام بها خمسة أيام، وقوي الارجاف بوصول التتر إلى

الشام، ثم وردت الأخبار بعودتهم على عقبهم، فعاد الملك الظاهر إلى ديار مصر.

ذكر موت ملك التتر بالبلاد الشمالية

وفي هذه السنة مات بركة بن باطوخان بن دوشي خان بن جنكيز خان، أعظم ملوك التتر، وكُرسي مملكته مدينة صراي، وكان قد مال إلى دين الاسلام، ولما مات جلس في الملك بعده ابن عمه منكوتر بن طغان ابن باطو بن دوشي خان بن جنكيز خان.

ثم دخلت سنة ست وستين وستمائة

ذكر مسير الملك الظاهر إلى الشام وفتح أنطاكية وغيرها

في هذه السنة في مستهل جمادى الآخرة، توجه الملك الظاهر بيبرس بعساكره المتوافرة إلى الشام وفتح يافا في العشر الأوسط من الشهر المذكور، وأخذها من الفرنج، ثم سار إلى أنطاكية، ونازلها مستهل رمضان، وزحفت العساكر الاسلامية على أنطاكية فملكوها بالسيف في يوم السبت رابع شهر رمضان من هذه السنة، وقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم وغنموا منهم أموالا جلية، وكانت أنطاكية للبرنس بيمند بن بيمند، وله معها طرابلس، وكان مقبيا بطرابلس لما فتحت أنطاكية وفيها في ثالث عشر رمضان استولى الملك الظاهر على بغراس، وسبب ذلك أنه لما فتح أنطاكية هرب أهل بغراس منها وتركوا الحصن خاليا، فأرسل من استولى عليها في التاريخ المذكور وشحنها بالرجال والعدد، وصار من الحصون الاسلامية، وقد تقدم ذكر فتح صلاح الدين للحصن

المذكور وتخريبه ثم عمارة الفرنج له بعد صلاح الدين، ثم حصار عسكر حلب له ورحليهم عنه بعد أن أشرفوا على أخذه.

وفيها في شوال وقع الصلح بين الملك الظاهر، وبين هيثوم صاحب سيس على أنه إذا أحضر هولاء كما تقدم ذكره، وسلم مع ذلك بهسنا ودربساك، ومرزبان، ورعبان، وشيخ الحديد، يطلق له ابنه ليفون، فدخل صاحب سيس على ابغا ملك التتر وطلب منه سنقر الأشقر، فأعطاه إياه، ووصل سنقر الأشقر إلى خدمة الملك الظاهر، وكذلك سلم دربساك وغيرها من المواضع المذكورة خلا بهسنا، وأطلق الملك الظاهر ابن صاحب سيس ليفون بن هيثوم وتوجه إلى والده، ثم عاد الملك الظاهر إلى الديار المصرية، ووصل إليها في ذي الحجة من هذه السنة.

وفيها اتفق معين الدين سليمان البرواناه مع التتار المقيمين معه ببلاد الروم على قتل ركن الدين قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان ييغو بن سلجوق سلطان الروم، فخنق التتر ركن الدين المذكور بوتر، وأقام البرواناه مقامه ولده غياث الدين بن ركن الدين قليج أرسلان المذكور، وله من العمر أربع سنين.

ثم دخلت سنة سبع وستين وستمائة

وفي هذه السنة خرج الملك الظاهر إلى الشام، وخينم في خربة اللصوص وتوجه إلى مصر بالخفية، ووصل إليها بغتة، وأهل مصر والنائب بها لا يعلمون بذلك إلا بعد أن صار بينهم، ثم عاد إلى الشام.

وفيها تسلم الملك الظاهر بيبرس بلاطنس من عز الدين عثمان صاحب صهيون.

وفيهما توجه الملك الظاهر بيبرس إلى الحجاز الشريف، وكان رحيله من الفوار في الخامس والعشرين من شوال، ووصل إلى الكرك، وأقام به أياماً، وتوجه من الكرك في سادس ذي القعدة الى الشوبك، ورحل من الشوبك في الحادي عشر من الشهر المذكور، ووصل إلى المدينة النبوية في خامس وعشرينه، ووصل إلى مكة في خامس ذي الحجة، ووصل إلى الكرك في سلخ ذي الحجة.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وستمائة

ففيهما توجه الملك الظاهر بيبرس من الكرك مستهل المحرم عند عوده من الحج، فوصل إلى دمشق بغتة، وتوجه في يومه ووصل إلى حماة في خامس المحرم، وتوجه من ساعته إلى حلب ولم يعلم به العسكر إلا وهو في الموكب معهم، وعاد إلى دمشق في ثالث عشر المحرم المذكور ثم توجه إلى القدس، ثم إلى القاهرة فوصل إليها في ثالث صفر من هذه السنة.

وفيهما عاد الملك الظاهر إلى الشام وأغار على عكا، وتوجه إلى دمشق، ثم إلى حماة.

وفيهما جهز الملك الظاهر عسكرياً إلى بلاد الاسماعيلية، فتسلموا مصياف في العشر الأوسط من رجب من هذه السنة، وعاد الملك الظاهر من حماة إلى جهة دمشق فدخلها في الثامن والعشرين من رجب، ثم عاد إلى مقر ملكه بمصر.

وفيهما حصل بين منكوتر ابن طغان ملك التتر بالبلاد الشمالية وبين الأشكري صاحب قسطنطينية وحشة، فجهز منكوتر إلى قسطنطينية جيشاً من التتر، فوصلوا إليها وعاثوا في بلادها، ومروا بالقلعة التي فيها عز الدين كيكافوس بن كيخسرو ملك بلاد الروم محبوساً كما قدمنا ذكره في

سنة اثنتين وستين وستمائة، فحمله التتر بأهله إلى منكوتمر، فأحسن منكوتمر إلى عز الدين المذكور وزوجه، وأقام معه إلى أن توفي عز الدين المذكور في سنة سبع وسبعين وستمائة، فسار ابنه مسعود بن عز الدين المذكور إلى بلاد الروم، وسار سلطان الروم على ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسع وستين وستمائة ذكر فتح حصن الأكراد وحصن عكار والقرين

في هذه السنة توجه الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام، ونازل حصن الأكراد في تاسع شعبان من هذه السنة، وجد في حصاره، واشتد القتال عليه وملكه بالآمان في الرابع والعشرين من شعبان المذكور، ثم رحل إلى حصن عكا ونازله في سابع عشر رمضان من هذه السنة وجد في قتاله وملكه بالآمان سلخ رمضان، المذكور، وعيد الملك الظاهر عليه عيد الفطر فقال محيي الدين بن عبد الظاهر مهتلاً له بفتوح عكار:

يـامـليـكـ الأـرضـ بـشـرا
لـكـفـقـدـنـلـتـالـارادـه
إنـعـكـارـيـقـينـيـا
هـوـعـكـاـوزيـادـه

وفيهما في شوال تسلم الملك الظاهر قلعة العليقة وبلادها من الاسماعيلية. وفيها توجه الملك الظاهر إلى دمشق، وسار منها في العشر الأخير من شوال إلى حصن القرين، ونازله في ثاني ذي القعدة، وزحف عليه وتسلمه بالآمان، وأمر به فهدم، ثم عاد إلى مصر. وفيها جهز الملك الظاهر مايزيد على عشرة شواني لغزو قبرس، فتكسرت في مرسى

ليميسول وأسر الفرنج من كان بتلك الشواني من المسلمين، فاهتم السلطان بعمارة شوان أخرى فعمل في المدة اليسيرة ضعف ماعدم.

وفيهما توفي هيثوم بن قسطنطين صاحب سيس، وملك بعده ابنه ليفون الذي أسره المسلمون حسبما تقدم ذكره.

وفيهما قبض الملك الظاهر على عز الدين بغان المعروف بسم الموت، وعلى المحمدي وغيرهما. وفيها توفي القاضي شمس الدين بن البارزي قاضي القضاة بحماة. وفيها توفي الطواشي شجاع الدين مرشد الخادم المنصوري رحمه الله تعالى، وكان كثير المعروف، وتولى تدبير مملكة حماة مدة، وكان يعتمد عليه الملك الظاهر ويستشير.

ثم دخلت سنة سبعين وستائة

فيها توجه الملك الظاهر إلى الشام وعزل جمال الدين أقوش النجمي عن نيابة السلطنة بدمشق، وولى فيها علاء الدين ايدكين الفخري الاستاذ دار في مستهل ربيع الأول، ثم توجه الملك الظاهر إلى حمص، ثم إلى حصن الاكراد ثم عاد إلى دمشق.

وفيهما والملك الظاهر بدمشق أغارت التتر على عيتاب، وعلى الروج، وقميطون إلى قرب فامية، ثم عادوا، واستدعى الملك الظاهر عسكرياً من مصر فوصلوا إليه صحبة بدر الدين البيسري، فتوجه الملك الظاهر بهم إلى حلب، ثم عاد إلى الديار المصرية، فوصل إليها في الثالث والعشرين من جمادى الأولى. وفيها في شوال، عاد الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية إلى الشام، فوصل إلى دمشق في ثالث صفر. وفيها توفي سيف الدين أحمد بن مظفر الدين عثمان بن منكيس صاحب صهيون، فسلم

ولداه سابقا الدين، وفخر الدين صهيون إلى الملك الظاهر،
وقدما إلى خدمته، وأحسن إليهما، وأعطى سابق الدين إمرة طبلخاناه.

وفيها نازل التتر البيرة، ونصبوا عليها المناجيق، وضايقوها وسار إليهم
الملك الظاهر وأراد عبور الفرات إلى بر البيرة، فقاتله التتر على المخاضة
فاقتحم الفرات وهزم التتر، فرحلوا عن البيرة وتركوا آلات الحصار بحالها،
فصارت للمسلمين، ثم عاد الملك الظاهر فوصل إلى الديار المصرية في
الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة. وفيها أفرج عن
الدمياطي من الاعتقال. وفيها تسلمت نواب الملك الظاهر ما تأخر من
حصون الاسماعيلية، وهي: الكهف والمنيقة، وقدموس، وفيها اعتقل الملك
الظاهر الشيخ خضر، وكان قد بلغ المذكور عند الملك الظاهر أرفع
منزلة، وانبسط يده، وانفذ أمره في الشام ومصر، فاعتقله في قاعة بقلعة
الجلبل مكرما حتى مات.....

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وستمائة

.....وفيها وصل الملك الظاهر بعساكره إلى دمشق.

وفيها عاد عمر بن مخلوف أحد أمراء العربان إلى الحبس بعجلون،
وكان من حديثه أن الملك الظاهر حبسه بعجلون مقيداً، فهرب من
الحبس المذكور إلى بلاد التتر، ثم أرسل يطلب الأمان، فقال الملك
الظاهر ما أومنه إلا أن يعود إلى عجلون ويضع القيد في رجله كما كان،
فعاد عمر إلى عجلون، وجعل القيد في رجله فعفا عنه الملك الظاهر عند
ذلك، وفيها قويت أخبار التتر لقصد الشام فجفل الناس.

وفيها في جمادى الأولى كانت ولادة العبد الفقير مؤلف هذا المختصر

اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بدار
ابن الزنجيلي بدمشق المحروسة، فان أهلنا كانوا قد جفلوا من حماة إلى
دمشق بسبب أخبار التتر.

وفيهما توفي الشيخ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن مالك الطائي
الجبائي النحوي، وله في النحو واللغة مصنفات كثيرة مشهورة، وفيها في
ذي القعدة توفي الأمير مبارز الدين أقوش المنصوري، مملوك الملك
المنصور صاحب حماة، ونائب سلطنته، وكان أميراً جليلاً عاقلاً شجاعاً
وهو قبجاقي في الجنس. وفيها في يوم الاثنين ثامن عشر ذي الحجة توفي
الشيخ العلامة نصير الدين الطوسي، واسمه محمد بن محمد بن الحسين،
الإمام المشهور، وكان يخدم صاحب الموت، ثم خدم هولاءكو وحظي
عنده، وعمل لهولاءكو رصداً بمراغة وزيجاً، وله مصنفات عديدة كلها
نفيسة، منها أقليدس يتضمن الاوضاع، وكذلك المجسطي، وتذكرة في
الهيئة لم يصنف في فنها مثلها، وشرح الاشارات، وأجاب عن غالب
ايرادات فخر الدين الرازي عليها، وكانت ولادته في حادي عشر جمادى
الأولى سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وكانت وفاته ببغداد ودفن في مشهد
موسى الجواد.

سنة ثلاث وسبعين وستمائة

فيها توجه الملك الظاهر بيبرس إلى بلاد سويس، فدخلها بعساكره
المتوافرة، وغنموا، ثم عادوا إلى دمشق حتى خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وستمائة

فيها نازلت التتر البيرة وكان اسم مقدمهم أقطاي وكان الملك الظاهر

بدمشق فتوجه إلى جهة البيرة فرحل عنها، ولاقى الملك الظاهر الخبر برحليهم، وهو بالقطيقة فأتم السير إلى حلب، ثم عاد إلى مصر. وفيها بعد وصول الملك الظاهر إلى مصر جهز جيشا مع اقسنقر الفارقاني ومعه عز الدين أيبك الأفرم إلى النوبة، فساروا إليها ونهبوا وقتلوا وعادوا بالغنائم. وفيها كان زواج الملك السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس بابنة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي، غازية خاتون. وفيها في أواخر السنة المذكورة عاد الملك الظاهر إلى الشام.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وستمائة

فيها في المحرم وصل الملك الظاهر بيبرس إلى دمشق، وكان قد خرج من مصر في أواخر سنة أربع وسبعين، وبلغه وصول الأمراء الروميين الوافدين، وهم بيجار الرومي، وبهادر ولده، وأحمد بن بهادر وغيرهم، فسار الملك الظاهر إلى جهة حلب، والتقاهم وأكرمهم، ثم عاد إلى الديار المصرية.

ذكر دخول الملك الظاهر إلى بلاد الروم

وفي هذه السنة عاد الملك الظاهر بيبرس بعساكره المتوافرة إلى الشام، وكان خروجه من مصر في يوم الخميس العشرين من رمضان من هذه السنة، ووصل إلى حلب، ثم إلى النهر الأزرق، ثم سار إلى ابلستين، فوصل إليها في ذي القعدة، والتقى بها جمعا من التتر مقدمهم تناون، وكانوا نقاوة المغل، فالتقى الفريقان في أرض ابلستين يوم الجمعة عاشر ذي القعدة من هذه السنة، فانهزم التتر وأخذتهم سيوف المسلمين، وقتل

مقدمهم تناون وغالب كبرائهم، وأسر منهم جماعة كثيرة صاروا أمراء، وكان من جملة المأسورين في هذه الوقعة سيف الدين قبجق، وسيف الدين أرسلان، وسنذكر أخبارهما إن شاء الله تعالى، وكان الحاكم بالروم يومئذ معين الدين سليمان البرواناه، وكان يكتائب الملك الظاهر في الباطن، وكان يظن الملك الظاهر أنه إذا وصل إلى قيسارية يصل إليه البرواناه على ما كان قد اتفق معه في الباطن، فلم يحضر البرواناه لما أراده الله من هلاكه على ما سنذكره إن شاء الله تعالى، وأقام الملك الظاهر على قيسارية سبعة أيام في انتظار البرواناه، وحطب له على منابرهما، ثم رحل عن قيسارية في الثاني والعشرين من ذي القعدة وحصل للعسكر شدة عظيمة من نفاد القوت والعلف، وعدمت غالب خيولهم، ووصلوا إلى عمق حارم، وأقاموا به شهراً، ولما بلغ أبغا بن هولاكو ساق في جموع المغل حتى وصل إلى الأبلستين، وشاهد عسكره صرعى، ولم يشاهد أحداً من عسكر الروم مقتولاً، فاستشاط غضباً، وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين، فنهب وقتل منهم جماعة ثم سار أبغا إلى الأردو وصحبته معين الدين البرواناه، فلما استقر بالأردو أمر بقتل البرواناه، فقتل وقتلوا معه نيفاً وثلاثين نفساً من مماليكه وخواضه، واسم البرواناه المذكور سليمان، والبرواناه لقب، وهو الحاجب العجمي، وكان مقتله بالاطاغ وكان البرواناه حازماً بتدبير المملكة ذا مكر ودهاء.

وفي هذه السنة توفي الشهاب محمد بن يوسف بن زائدة التلعفري الشاعر، وفيها مات الشيخ خضر في حبس الملك الظاهر. وفيها عاد الملك الظاهر من عمق حارم، وتوجه إلى دمشق.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وستمائة

فيها في خامس المحرم وصل الملك الظاهر بيبرس إلى دمشق ونزل بالقصر الأبلق، وكان قد رحل من عمق حارم في أواخر سنة خمس وسبعين.

ذكر وفاة الملك الظاهر بيبرس

فيها في يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم توفي السلطان الملك الظاهر بيبرس أبو الفتح بيبرس الصالحي النجمي بدمشق، وقت الزوال رحمه الله تعالى، عقب وصوله من بلاد الروم إلى دمشق على ماتقدم ذكره، وقد اختلف في سبب موته، ف قيل: انه انكسف القمر كسوفاً كلياً وشاع بين الناس أن ذلك سبب موت رجل جليل القدر، فأراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل إلى غيره فاستدعى بشخص من أولاد الملوك الأيوبية يقال له الملك القاهر من ولد الملك الناصر داود بن المعظم عيسى، وأحضر قمزا مسموماً، وأمر الساقى فسقى الملك القاهر المذكور فشرب الملك الظاهر ناسياً بذلك النهاء على أثر شرب الملك القاهر، فمات الملك القاهر، عقيب ذلك، وأما الملك الظاهر فحصلت له حمى محرقة وتوفي في التاريخ المذكور، وكنتم نائبه ومملوكه بدر الدين تنليك المعروف بالخزندار موته وصبره وتركه في قلعة دمشق إلى أن استوت تربته بدمشق قرب الجامع، فدفن فيها وهي مشهورة معروفة، وارتحل بدر الدين تنليك بالعساكر، ومعهم المحفة مظهراً أن الملك الظاهر فيها وأنه مريض، وسار إلى ديار مصر، وكان الملك الظاهر قد حلف العسكر لولده بركة بن بيبرس، ولقبه الملك السعيد، وجعله ولي عهده، فوصل تنليك الخزندار بالخزائن والعسكر إلى الملك السعيد بقلعة الجبل، وعند

ذلك أظهر موت الملك الظاهر، وجلس ابنه الملك السعيد للعزاء واستقر في السلطنة، وكانت مدة مملكة الملك الظاهر نحو سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام، لأنه ملك في سابع محرم من سنة ست وسبعين وستمائة، وكان ملكاً جليلاً شجاعاً عاقلاً مهيباً ملك الديار المصرية والشام، وأرسل جيشاً فاستولوا على النوبة، وفتح الفتوحات الجليلة مثل صفد وحصن الأكراد وانطاكية وغيرها على ماتقدم ذكره، وأصله مملوك قبجاقي في الجنس، وسمعت أنه برجعلي، وكان أسمر أزرق العينين، جمهوري الصوت، حضر هو ومملوك آخر مع تاجر إلى حماة فاستحضرهما الملك المنصور محمد ليشتريهما فلم يعجبه واحد منهما، وكان ايدكين البندقدار الصالح مملوك الملك الصالح أيوب صاحب مصر قد غضب عليه الملك الصالح المذكور، وكان قد توجه ايدكين إلى جهة حماة، فأرسل الملك الصالح وقبض على ايدكين المذكور، واعتقله بقلعة حماة، فتركه الملك المنصور صاحب حماة في جامع قلعة حماة، واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر مع التاجر، فلما قلبه الملك المنصور ولم يشتره، أرسل ايدكين البندقدار وهو معتقل فاشتراه، وبقي عنده، ثم أفرج الملك الصالح عن البندقدار، فسار من حماة وصحبته الملك الظاهر، وبقي مع أستاذه البندقدار المذكور مدة، ثم أخذه الملك الصالح من البندقدار فانتسب إلى الملك الصالح دون أستاذه، وكان يخطب له وينقش على الدراهم والدنانير ببيرس الصالح.

وكان استقرار الملك السعيد بركة ابن الملك الظاهر في مملكة مصر والشام في أوائل ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة ست وسبعين وستمائة، واستقر بدر الدين تنليك الخزندار في نيابة السلطنة على ما كان عليه مع والده، واستمرت الأمور على أحسن نظام فلم تطل أيام تنليك الخزندار ومات بعد ذلك في مدة يسيرة، قيل حتف أنفه، وقيل بل سم، والله أعلم، وتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين الفارقاني، ثم إن الملك السعيد خبط وأراد تقديم الأصاغر، وأبعد الأمراء الأكابر، وقبض

على سنقر الاشقر واليسري، ثم أفرج عنها بعد أيام يسيرة، ففسدت نيات الأمراء الكبار عليه، وبقي الأمر كذلك حتى خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وستائة

ذكر مسير الملك السعيد بركة إلى الشام والاغارة على
سيس

وخلاف عسكره عليه

في أثناء هذه السنة سار الملك السعيد بركة إلى الشام، وصحبته العساكر، ووصل إلى دمشق وجرد منها العسكر صحبة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي، وجرد أيضاً صاحب حماة، فساروا ودخلوا إلى بلاد سيس وشنوا الاغارة عليها، واتفقوا على الخلاف على الملك السعيد المذكور، وخلعه من السلطنة لسوء تدبيره، وعبروا على دمشق ولم يدخلوها، فأرسل اليهم الملك السعيد واستعطفهم ودخل عليهم بوالدته فلم يلتفتوا إلى ذلك، وأتموا السير، فركب الملك السعيد وساق وسبقهم إلى مصر وطلع إلى قلعة الجبل، وسارت العساكر في إثره، وخرجت هذه السنة والأمر كذلك.

وفيها توفي عز الدين كيكافوس بن كيخسرو بن كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بن سلجوق عند منكوتر ملك التتر بمدينة صراي، وكيكافوس المذكور هو الذي كان محبوساً بقسطنطينية، حسبما تقدم ذكر القبض عليه في سنة اثنتين وستين، وذكر خلاصه، واتصاله بملك التتر، في سنة ثمان وستين وخلف عز الدين المذكور ولداً اسمه مسعود، وقصد منكوتر أن يزوجه بزوجة ابنه عز الدين كيكافوس، فهرب مسعود واتصل ببلاد الروم فحمل إلى ابغا فأحسن إليه ابغا، وأعطاه سيواس وأرزن الروم وأرزنكان،

واستقرت هذه البلاد لمسعود المذكور، ثم بعد ذلك جعلت سلطنة الروم باسم مسعود المذكور، وافترق جدا وانكشف حاله وهو آخر من سمي سلطانا من السلجوقية بالروم.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وستمائة

ذكر خلع الملك السعيد بركة ابن الملك الظاهر

في هذه السنة وصلت العساكر الخارجون عن طاعة بركة المذكور إلى الديار المصرية، في ربيع الأول، وحصروا الملك السعيد بركة بقلعة الجبل فخامر على السعيد بركة غالب من كان معه من الأمراء مثل لاجين الزيني، وغيره وبقي يهرب واحد بعد واحد من القلعة ويضم إلى العسكر المحاصر للقلعة، فلما رأى الملك السعيد بركة ذلك أجابهم إلى الانخلاع من السلطنة، وأن يعطى الكرك فأجابوه إلى ذلك، وأنزلوه من القلعة وخلعوه في ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة ثمان وسبعين وستمائة وسفروه من وقته إلى الكرك صحبة بيد عان الركني، وجماعة معه فوصل إليها وتسلمها بما فيها من الأموال، وكان شيئاً كثيراً.

ذكر اقامة سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس في المملكة

وفي هذه السنة لما جرى مذكرناه من خلع الملك السعيد بركة، وإعطائه الكرك اتفق أكابر الأمراء الذين فعلوا ذلك مثل بدر الدين بيسري الشمسي، وإيتمش السعدي، وبكتاش الفخري أمير سلاح وغيرهم على اقامة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس في المملكة، ولقبوه الملك العادل، وعمره إذ ذاك سبع سنين وشهور، وخطب له وضربت السكة باسمه، وذلك في شهر ربيع الأول من هذه السنة،

وصار الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي أتابك العسكر، ولما استقر ذلك جهز أتابك العسكر المذكور الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق، وجعله نائب السلطنة بالشام، وكان العسكر لما خالفوا السعيد بركة قد قبضوا على عز الدين إيدمر نائب السلطنة بدمشق، وتولى تدبير دمشق بعد إيدمر أقوش الشمسي نائب السلطنة بحلب، فسار وتولاها واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة.

ذكر سلطنة الملك المنصور قلاوون الصالحي

وفي هذه السنة، أعني سنة ثمان وسبعين وستمائة، في يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب كان جلوس السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي في السلطنة بعد خلع الصبي سلامش وعزله، ولما تولى السلطان الملك المنصور، أقام منار العدل، وأحسن سياسة الملك وقام بتدبير المملكة أحسن قيام.

ذكر خروج سنقر الأشقر عن الطاعة وسلطنته بالشام

وفي هذه السنة في الرابع والعشرين من ذي القعدة، جلس سنقر الأشقر بدمشق في السلطنة، وحلف له الأمراء والعسكر الذين عنده بدمشق، وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر.

وفي هذه السنة توفي الملك السعيد بركة ابن الملك الظاهر بيبرس في الكرك بعد وصوله إليها في مدة يسيرة، وكان سبب موته أنه لعب بالكرة في ميدان الكرك فتقنطر به فرسه، فحصل له بسبب ذلك حمى شديدة، وبقي كذلك أياما يسيرة، وتوفي وحمل إلى دمشق، ودفن بتربة أبيه، ولما

توفي الملك السعيد، اتفق من بالكرك وأقاموا موضعه أخاه نجم الدين خضر، واستقر في الكرك، ولقبوه الملك المسعود.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وستمائة

ذكر كسرة سنقر الأشقر

في هذه السنة في التاسع عشر من صفر، كانت كسرة سنقر الأشقر المستولي على الشام، الملقب بالملك الكامل، وكان من حديث هذه الكسرة أن السلطان الملك المنصور قلاوون جهز عساكر ديار مصر، مع علم الدين سنجر الحلبي الذي تقدم ذكر سلطنته بدمشق عقيب قتل قطز، وكان أيضاً من مقدمي العسكر المصري المذكور بدر الدين بكتاش، وبدر الدين الأيدمر، وعز الدين الأفرم، فسارت العساكر المذكورة إلى الشام، وبرز سنقر الأشقر بعساكر الشام إلى ظاهر دمشق، والتقى الفريقان في تاسع عشر صفر المذكور، فولى الشاميون، وسنقر الأشقر منهزمين، ونهبت العساكر المصرية أثقالهم، وكان السلطان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار نائباً بقلعة دمشق، فلما هرب سنقر الأشقر أفرج عن حسام الدين لاجين المذكور، وكذلك كان سنقر الأشقر قد اعتقل بيبرس المعروف بالجالحق لأنه لم يحلف له، فأفرج عنه أيضاً، وكتب الحلبي إلى السلطان الملك المنصور بالنصر، واستقر الأمير لاجين المنصوري المذكور نائب السلطنة بالشام، وأما سنقر الأشقر فإنه هرب إلى الرحبة، وكاتب أبغا بن هولاكو ملك التتر، وأطمعه في البلاد، وكان عيسى بن مهنا ملك العرب مع سنقر الأشقر، وقاتل معه، وكتب بذلك إلى أبغا أيضاً موافقة له، ثم سار سنقر الأشقر من الرحبة إلى صهيون في جمادى الأولى من هذه السنة، واستولى عليها، وعلى برزية وبلاطنس والشغر وبكاس وعكار وشيزر وفامية وصارت هذه الأماكن لسنقر الأشقر.

وفيهما توفي أقوش الشمسي، نائب السلطنة بحلب، وولى السلطان الملك المنصور قلاوون على حلب علم الدين سنجر الباشغري.

وفيهما قويت أخبار التتر وأنهم واصلون إلى البلاد الإسلامية بجموعهم.

وفيهما جعل الملك المنصور قلاوون ولده الملك الصالح علاء الدين علي ولي عهده، وسلطنه وركب بشعار السلطنة.

وفيهما سار السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي من الديار المصرية، ووصل إلى غزة، وكان التتر قد وصلوا إلى حلب، فعاثوا ثم عادوا، فعاد السلطان إلى مصر في جمادى الآخرة من هذه السنة.

وفيهما استأذن سيف الدين بلبان الطباخي، أحد مماليك الملك المنصور، وكان نائب السلطنة بحصن الأكراد في الاغارة على بلد المرقب لما اعتمده أهله من الفساد عند وصول التتر إلى حلب، فأذن له السلطان في ذلك فجمع بلبان الطباخي المذكور عساكر الحصون، وسار إلى المرقب فاتفق هروب المسلمين، ونزل الفرنج من المرقب وقتلوا وأسروا من المسلمين جماعة.

وفيهما في مستهل ذي الحجة خرج السلطان الملك المنصور قلاوون من مصر وسار عائدا إلى الشام، وخرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثمانين وستمائة

والسلطان الملك المنصور بالروحاء، وأقام هناك مدة، ثم سار إلى بيسان وقبض على جماعة من الظاهرية، ودخل دمشق وأعدم منهم جماعة مثل: كوندك، وايدغمش الحلبي، وبيبرس الرشيدى، وأرسل عسكريا إلى شيزر، وهي لسنقر الأشقر، وجرى بينهم مناوشة، ثم إنه

ترددت الرسل بين السلطان وبين سنقر الأشقر ، واحتاج السلطان إلى مصالحته لقوة أخبار التتر، ووقع بينهم الصلح على أن يسلم شيزر إلى السلطان ويتسلم سنقر الأشقر الشجر وبكاس، وكانتا قد ارتجعتا منه، فتسلم نواب السلطان شيزر، وتسلم الشجر وبكاس سنقر الأشقر، وحلفا على ذلك، واستقر الصلح بينهما. وفيها أيضا استقر الصلح بين السلطان الملك المنصور قلاوون وبين الملك خضر ابن الملك الظاهر بيبرس، صاحب الكرك.

ذكر الوقعة العظيمة مع التتر على حمص

في هذه السنة أعني سنة ثمانين وستمائة، في شهر رجب، كان المصاف العظيم بين المسلمين وبين التتر بظاهر حمص، فنصر الله تعالى فيه المسلمين بعد ما كانوا قد أيقنوا بالبوار، وكان من حديث هذا المصاف العظيم أن أبغا بن هولكو حشد وجمع وسار بهذه الحشود طالبا الشام، ثم انفرد أبغا المذكور عنهم وغنم وسار إلى الرحبة، وسير جيوشه وجموعه إلى الشام، وقدم عليهم أخاه منكوتمر ابن هولكو، وسار إلى جهة حمص. وسار السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحلي بالجيوش الإسلامية من دمشق إلى جهة حمص أيضا، وأرسل إلى سنقر يستدعيه بمن عنده من الأمراء والعسكر بحكم ما استقر بينهما من الصلح واليمين، فسار سنقر الأشقر من صهيون فلما نزل السلطان بظاهر حمص، وصل إليه الملك المنصور صاحب حماة بعسكره، ثم وصل سنقر الأشقر وصحبته ايتمش السعدي، والحاج أزدمر، وعلم الدين الدويداري، وجماعة من الظاهرية، ورتب السلطان عسكره ميمنة وميسرة، وكان رأس الميمنة الملك المنصور محمد صاحب حماة بعسكره، ثم بدر الدين البيسري دونه ثم علاء الدين طيبرس الوزيري، ثم أيبك الأفرم، ثم جماعة من العسكر المصري، ثم عسكر الشام ومقدمهم حسام الدين لاجين نائب السلطنة بالشام، وكان رأس الميسرة سنقر الأشقر ومن معه، ثم بدر الدين تنليك الإيدمري، ثم

بدر الدين بكتاش أمير سلاح ، وكان بر الميمنة العرب، وبر الميسرة التركمان، وكان شاليش القلب حسام الدين طرنتاي نائب السلطنة، ومن أضيف إليه من الأمراء والعساكر، والتقى الفريقان بظاهر حمص في الساعة الرابعة من يوم الخميس رابع عشر رجب الفرد من هذه السنة، أعني سنة ثمانين وستمائة، وأنزل الله نصرته على القلب والميمنة فهزموا من كان قبالتهم من التتر، وركبوا قفاهم يقتلونهم، وكان منكوتر قبالة القلب فانهمز أيضا، وأما ميسرة المسلمين فانها انكشفت عن مواقعها، وتم ببعضهم الهزيمة إلى دمشق، وساق التتر في إثر المنهزمين حتى وصلوا إلى تحت حمص، ووقعوا في السوقية وغلان العسكر والعوام، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم علموا بنصرة المسلمين وهزيمة جيشهم، فولى المذكورون أيضا منهزمين على أعقابهم، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وكانت عدة التتر ثمانين ألف فارس، منهم خمسون ألفا من المغل، والباقي حشود وجموع من أجناس مختلفة مثل: الكرج، والأرمن، والعجم وغيرهم، ولما وصل خبر هذه الكسرة إلى أبغا وهو على الرحبة يحاصرها زجل عنها على عقبه منهزما، وكتب بهذا الفتح العظيم إلى سائر البلاد الاسلامية فزينت لذلك، ثم إن السلطان الملك المنصور قلاوون أعطى الدستور للعساكر الشامية، فرجع الملك المنصور محمد صاحب حماة إلى بلده، ورجع سنقر الأشقر وجماعته إلى صهيون، وسار عسكر حلب إليها، وعاد السلطان إلى دمشق، والأسرى والرؤوس بين يديه.

وفيه عاد السلطان الملك المنصور قلاوون إلى الديار المصرية مؤيدا منصورا. وفيها عند وصوله إلى مستقر ملكه قدمت إليه هدية صاحب اليمن المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول، وطلب أمانا من السلطان فقبل السلطان هديته، وكانت من طرائف اليمن مثل العود والعنبر والصيني، ورماح القنا، وغير ذلك، وكتب له السلطان أمانا صدره: «هذا أمان الله تعالى، وأمان سيدنا محمد صلى الله وسلم،

وأماننا لأخينا السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر، صاحب اليمن، إننا راعون له ولأولاده، مسالمون من سالمهم، معادون من عاداهم.» ونحو ذلك، وكان ذلك في العشر الأول من رمضان هذه السنة، وأرسل السلطان إليه هدية من أسلاب التتر وخيولهم، وعادت رسله بذلك مكرمين.

وفيها مات منكوتربن هولاكو بن طلو بن جنكيز خان بجزيرة ابن عمر مكموداً، عقب كسرتة على حمص وكان موته من جملة هذا الفتح العظيم.

وفيها توفي علاء الدين عطاء ملك بن محمد الجويني، وكان صاحب الديوان ببغداد، فنقب عليه ابغانسبه الى مواطأة المسلمين، وقبض عليه وأخذ أمواله وكان صدرأ كبيراً فاضلاً له شعر حسن فمنه في تركيا: أبادية الأعراب عني فأنني

بحاضرة الأتراك نيطت علائقي
وأهلك يانجل العيون فأنني
جنت بهذا الناظر المتضايق

وكانت وفاته بعراق العجم، وولي بعده ابن أخيه هارون بن محمد الجويني.

ثم دخلت سنة احدى وثمانين وستمائة

فيها ولي السلطان مملوكه شمس الدين قرا سنقر نيابة السلطنة بحلب، فسار إليها واستقر.

ذكر موت ابغا

وفيها في المحرم مات ابغا بن هولاكو بن جنكز خان ملك التتر ، قيل إنه مات مسموماً ، وكان موته ببلاد همذان ، وكانت مدة ملكه نحو سبع عشرة سنة وكسورا ، وخلف من الولد أرغون ، وكيختو ابنا ابغا ، ولما مات ابغا ملك بعده أخوه أحمد بن هولاكو ، واسم أحمد المذكور بيكدار ، فلما جلس في الملك أظهر دين الاسلام ، وتسمى بأحمد سلطان .

وفيها وصلت رسل أحمد بن هولاكو ملك التتر المذكور إلى السلطان الملك المنصور قلاوون ، وكان كبير الرسل المذكورين الشيخ المتقن قطب الدين محمود الشيرازي ، وكان إذ ذاك قاضي سيواس ، فاحترز عليهم السلطان ولم يمكن أحداً من الاجتماع بهم ، وكان مضمون رسالتهم اعلام السلطان بإسلام أحمد المذكور ، وطلب الصلح بين المسلمين والتتر ، فلم ينتظم ذلك ، ثم عادت رسله إليه بالجواب .

وفيها توفي منكوتر بن طغان بن باطو بن دوشي خان ابن جنكز خان ملك التتر بالبلاد الشمالية ، وملك بعده أخوه تدان منكو بن طغان بن باطو بن دوشي خان بن جنكز خان ، وجلس على كرسي التتر بصراي ، وقيل إن ذلك كان سنة ثمانين .

وفيها عقد للملك الصالح علاء الدين علي ابن السلطان الملك المنصور قلاوون على بنت سيف الدين بكيه ، ثم تزوج أخوه الملك الأشرف باختها الأخرى ، وكان بكيه معتقلاً بالاسكندرية ، فلما عزم السلطان على ذلك أخرجه من الحبس وأحسن إليه ، وزوج ابنيه واحداً بعد الآخر ببنتي بكيه المذكور .

وفيها توفي القاضي الفاضل ، المحقق شمس الدين أحمد بن محمد بن

أبي بكر بن خلكان البرمكي، وكان فاضلاً عالماً، تولى القضاء بمصر والشام، وله مصنفات جليلة، مثل وفيات الاعيان في التاريخ وغيره، وكان مولده يوم الخميس بعد صلاة العصر حادي عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستمئة بمدينة إربل، بمدرسة سلطانها مظفر الدين صاحب إربل، نقلت ذلك من تاريخه في ترجمة زينب في آخر حرف الزاي.

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وستمئة

في أوائل هذه السنة قدم الملك المنصور محمد صاحب حماة، وصحبته الملك الأفضل علي إلى خدمة السلطان الملك المنصور قلاوون بالديار المصرية، فبالغ السلطان في إكرام صاحب حماة والاحسان إليه، وأنزله بالكبش، وأركبه بالسناجق السلطانية والجفت والغاشية، وسأله عن حوائجه فقال الملك المنصور: حاجتي أن أعفى من هذا اللقب فإنه ما بقي يصلح لي أن ألقب بالملك المنصور وقد صار هذا لقب مولانا السلطان الأعظم، فأجابه السلطان بأني ما تلقبت بهذا الاسم إلا لمحبتني فيك، ولو كان لقبك غير ذلك كنت تلقبت به فشيء فعلته محبة لاسمك كيف أمكن من تغييره، وطلع السلطان بالعسكر المصري لحفر الخليج الذي بجهة البحيرة، وسار صاحب حماة في خدمته إلى الحفير، ثم أعطى بعد ذلك الدستور لصاحب حماة، فعاد مكرماً مغموراً بالصدقات السلطانية، وفيها رمى السلطان الملك الصالح علاء الدين علي بن السلطان بجعاً بجهة العباسية بالبندق، وأرسله للملك المنصور محمد صاحب حماة، فقبله وبالع في إظهار السرور والفرح بذلك، وأرسل إليه مقدمة جليلة.

وفيها خرج أرغون بن أبغا بخراسان على عمه بيكدار المسمى بأحمد سلطان، وسار إليه واقتتلا، فانهزم أرغون وأخذه أحمد أسيراً وسأل الخواتين في اطلاق ارغون واققراره على خراسان، فلم يجب إلى ذلك،

وكانت خواطر المغل قد تغيرت على أحمد بسبب اسلامه والزامه لهم بالاسلام، فاتفقوا على قتله وقصدوا أرغون بالموضع الذي هو معتقل فيه، وأطلقوه وكبسوا الناق نائب أحمد فقتلوه، ثم قصدوا الأردن فأحس بهم السلطان أحمد فركب وهرب، فتبعوه وقتلوه، وملكوا أرغون بن أبغا بن هولكو بن طلو بن جنكز خان وذلك في جهادى الأولى من هذه السنة.

وفيها قتل أرغون الصبي سلطان الروم الذي أقامه البر وانه بعد قتله أباه، حسبما تقدم ذكره في سنة ست وستين وستمائة، وكان اسم الصبي المذكور غياث الدين كيخسرو بن ركن الدين قليج أرسلان بن كيخسرو ابن قليج أرسلان، وفوض اسم سلطنة الروم إلى مسعود بن عز الدين كيكافوس، وهذا مسعود هو الذي هرب من منكوتر ملك التتر بصراي، وأبوه عز الدين كيكافوس هو الذي جرى له مع الاشكري صاحب قسطنطينية على ما قدمنا ذكره في سنة اثنتين وستين وستمائة، واستمرت سلطنة الروم باسم مسعود المذكور إلى سنة ثمان وسبعمائة، وهو مسعود ابن كيكافوس بن كيخسرو بن كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن قطلومش من السلجوقية ببلاد الروم، وافتقر مسعود المذكور، وانكشف حاله جداً حتى قيل إنه تناول سمات من كثرة المطالبة من أرباب الدين والتتر.

وفيها ولى أرغون سعد الدولة اليهودي وعظمه ومكنه وكان سعد الدولة المذكور في مبدأ أمره دلالاً بسوق الصاغة بالموصل، فحكم في سائر البلاد التي بأيدي التتر.

وفيها قرر أرغون ولديه: قازان، وخربنده بخراسان، وجعل أتابكهما أميراً كبيراً من أصحابه اسمه نورود.

وفيه مات الأشكري صاحب قسطنطينية ، واسمه ميخائيل ، وملك بعده ابنه مائندس وتلقب بالدوقس .

وفيه : كاتب الحكام بقلعة الكختا قرا سنقر نائب السلطنة بحلب وسلموا الكختا إلى السلطان ، فجهز قرا سنقر عسكريا فتسلموها ، وقرر السلطان فيها نوابه وحصنها وصارت من أعظم الثغور الإسلامية نفعا .

وفيه في رجب قدم السلطان إلى دمشق ، وكان قد سار من مصر في جمادى الآخرة .

وفيه كان السيل العظيم بدمشق في العشر الأول من شعبان ، والسلطان الملك المنصور قلاوون بدمشق ، وأخذ ما مر به من العمارات وغيرها ، واقتلع الأشجار ، وأهلك خلقا كثيرا ، وذهب للعسكر النازلين على جوانب بردى من الخيل والجمال والخيم ما لا يحصى ، وتوجه السلطان عقيبها إلى الديار المصرية ، ووصل إلى قلعة الجبل في ثامن عشر رمضان من هذه السنة .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وستمائة

ففيها سار السلطان الملك المنصور قلاوون إلى دمشق ، وحضر الملك المنصور صاحب حماة إلى خدمته إلى دمشق ، ثم عاد كل منهما إلى مقر ملكه .

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماة

في هذه السنة في شوال توفي السلطان الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي أحمد بن الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك

المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة، رحمه الله تعالى، ابتداءً فيه المرض في أوائل شعبان بعد عودته من خدمة السلطان من دمشق، وكان مرضه حمى صفراوية داخل العروق، ثم صلح مزاجه بعض الصلاح فأشار الأطباء بدخوله الحمام فعاوده المرض، وأحضر له الأطباء من دمشق مع من كان في خدمته منهم، واشتد به ذات الجنب، وعالجوه بما يصلح لذلك فلم يفد شيئاً، وفي مدة مرضه أعتق مماليكه، وتاب توبة نصوحاً، وكتب إلى السلطان الملك المنصور قلاوون يسأله في اقرار ابنه الملك المظفر محمود في مملكته على قاعدته، واشتد به مرضه حتى توفي بكرة حادي عشر شوال من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وكانت ولادته في الساعة الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، فيكون عمره إحدى وخمسين سنة وستة أشهر وأربعة عشر يوماً، وملك حماة يوم السبت ثامن جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وستمائة وهو اليوم الذي توفي فيه والده الملك المظفر محمود، فيكون مدة ملكه إحدى وأربعين سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام، وكان أكبر أمانيه أن يعيش إلى أن يسمع جوابه من السلطان فيما سأله من اقرار حماة على ولده الملك المظفر محمود، فاتفق وفاته قبل وصول الجواب، وكان قد أرسل في ذلك على البريد مملوكه سنقر أمير آخور، فوصل بالجواب بعد موت الملك المنصور بستة أيام، ونسخة الجواب من السلطان بعد البسملة: « المملوك قلاوون أعز الله أنصار المقام العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري الناصري، ولا عده الاسلام، ولا فقدته السيوف والأقلام، وحماه من أذى داء وعود عواد والمأم آلام. المملوك يجدد الخدمة التي كان يود تجديدها شفاهاً، ويصف ما عنده من الألم لما ألم بمزاجه الكريم، حتى أنه لم يكذب يفتح بالحديث فاهاً، ولما وقفنا على الكتاب المولوي المتضمن بمرض الجسد المحروس، وانتهى إليه الحال كادت القلوب تنشق والنفوس تذوب حزناً، والرجاء من الله أن يتداركه بلطفه، وأن يمن بعافيته التي رفع في مسألتها يديه،

وبسط كفيه، وهو يرجو من كرم الله معالجة الشفاء، ومداركة العافية
الموردة بعد الكدر مورد الصفاء، وإن الله يفسح في أجل المولى ويهبه
العمر الطويل، وأما الإشارة الكريمة إلى ما ذكره من حقوق يوجبها
الإقرار، وعهود أمنت بدورها من السرار، ونحن نحمد الله ، فعندنا تلك
العهود ملحوظة، وتلك المودات محفوظة، فالمولى يعيش قرير العين فما ثم
إلا ما يسره من إقامة ولده مقامه لايحول ولايزول، ولا يرى على ذلك ذلة
ولاذهول، ويكون المولى طيب النفس مستديم الأنس بصدق العهد،
القديم، وبكل ما يؤثر من خير مقيم.» ولما وصل الكتاب اجتمع لقراءته
الملك الأفضل والملك المظفر، وعلم الدين سنجر المعروف بأبي خرص
وقرئ عليهم، وتضاعف سرورهم بذلك، وكان الملك المنصور محمد
صاحب حماة المذكور ملكا ذكيا فطنا محبوب الصورة ، وكان له قبول
عظيم عند ملوك الترك، وكان حليما إلى الغاية ، يتجاوز عما يكره
ويكتمه ولا يفضح قائله، من ذلك أن الملك الظاهر بيبرس قدم إلى حماة
ونزل بالدار المعروفة الآن بدار المبارز، فرفع إليه أهل حماة عدة قصص
يشكون فيها من الملك المنصور، فأمر الملك الظاهر دواداره سيف الدين
بلبان أن يجمع القصص ولا يقرأها، ويضعها في منديل، ويحملها إلى
الملك المنصور صاحب حماة، فحملها الدوادار المذكور وأحضرها إلى
الملك المنصور، وقال إنه والله لم يطلع السلطان - يعني الملك الظاهر -
على قصة منها، وقد حملها إليك، فتضاعف دعاء الملك المنصور لصدقة
الملك الظاهر، وخلع على الدوادار، وأخذ القصص، وقال بعض الجماعة:
سوف نرى من تكلم بشيء لا ينبغي وتكلموا بمثل ذلك، فأمر الملك
المنصور باحضار نار، وحرق تلك القصص ولم يقف على شيء منها لثلا
يتغير خاطره على رافعها ، وله مثل ذلك كثير رحمه الله تعالى.

ذكر ملك الملك المظفر حماة

ولما بلغ السلطان الأعظم الملك المنصور وفاة الملك المنصور صاحب

حماة قرر ابنه الملك المظفر محموداً ابن الملك المنصور محمد في ملك حماة على قاعدة والده، وأرسل إليه وإلى عمه الملك الأفضل وإلى أولاده التشاريف، ومكاتبة إلى الملك المظفر بذلك، ووصلت التشاريف ولبسناها في العشر الأخير من شوال من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وثمانين وستمائة، ونسخة الكتاب الواصل من السلطان بعد البسملة: «المملوك قلاوون، أعز الله نصره المقام العالي المولوي السلطاني الملكي المظفري التقوي، ونزع عنه لباس البأس، وألبسه خلل السعد المجلوة على أعين الناس، وهو يخدم خدمة بولاء قد تبجست عيونه، وتأسست مبانیه وتياست ظنونه، وحلت رهونه، وخلت ديونه، وأثمرت غصونه، وزهت أفنانه وفنونه» ومنها: «وقد سيرنا المجلس السامي جمال الدين أقوش الموصلی الحاجب، وأصبحناه من الملبوس الشريف ما يغير به لباس الحزن، وينجلي في مطلع ضياء وجه الحسن، وينجلي بذلك غيوم تلك الغموم، وأرسلنا أيضاً صحبته ما يلبسه هو وذووه، كما يبدو البدر بين النجوم» وآخر الكتاب: «وكتب في عشرين شوال سنة ثلاث وثمانين وستمائة» وكان قد وقع الاتفاق عند موت الملك المنصور على إرسال علم الدين سنجر أبي خرص الحموي لأجل هذا المهم، فلاقى سنجر المذكور جمال الدين الموصلی بالخلع في اثناء الطريق، فأتم سنجر أبو خرص السير ووصل إلى الأبواب الشريفة السلطانية، فتلقاء السلطان بالقبول، وأعاده بكل ما يحب ويختار وقال: نحن واصلون إلى الشام، ونفعل مع الملك المظفر، فوق ما في نفسه، فعاد علم الدين سنجر أبو خرص إلى حماة، ومعه الجواب بنحو ذلك.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وستمائة

ذكر ركوب الملك المظفر صاحب حماة بشعار السلطنة

في هذه السنة في صفر، كان ركوب السلطان الملك المظفر محمود

صاحب حماة بشعار السلطنة بدمشق المحروسة، وصورة ما جرى في ذلك أن السلطان الملك المنصور قلاوون وصل في هذه السنة في أواخر المحرم بعساكره المتوافرة إلى دمشق المحروسة، وسار الملك المظفر صاحب حماة، وعمه الملك الأفضل ووصلا إليه إلى دمشق، فأكرمهما السلطان إكراماً كثيراً، وأرسل إلى الملك المظفر في اليوم الثالث بعد وصوله التقليد بسلطنة حماة، والمعرة، وبارين، والتشريف وهو أطلس أحمر فوقاني بطراز زركش وسنجاب ودايره قندس، وقباء أطلس أصفر تحتاني، وشاش تساعي وكلوته زركش، وحياسة ذهب، وسيف محلي بالذهب، وتلكش وعبرينا، وثوب بطرز مذهبة، ولباس، وأرسل شعار السلطنة وهو سنجق بعصائب سلطانية وفرس بسرج ذهب ورقبة وكبوش، وأرسل الغاشية السلطانية، فلبس الملك المظفر ذلك، وركب بشعار السلطنة، وحضرت أمراء السلطان، ومقدمو العسكر، وساروا معه من الموضع الذي كان فيه، وهو داره المعروفة بالحافظية داخل باب الفراديس بدمشق المحروسة إلى أن وصل إلى قلعة دمشق، ومشت الأمراء في خدمته، ودخل الملك المظفر إلى عند السلطان فأكرمه وأجلسه إلى جانبه على الطراحة، وطيب خاطره، وقال له: أنت ولدي، وأعز من الملك الصالح عندي، فتوجه إلى بلادك، وتأهب لهذه الغزاة المباركة، فأنتم من بيت مبارك ما حضرتم في مكان إلا وكان النصر معكم، فعاد الملك المظفر، وعمه الملك الأفضل إلى حماة، وعملا أشغالهما، وكذلك باقي العسكر الحموي، وتأهبوا للمسير إلى خدمة السلطان ثانياً.

ذكر فتوح المرقب

في هذه السنة سار السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون بعد وصوله إلى دمشق بالعساكر المصرية والشامية، ونازل حصن المرقب في أوائل ربيع الأول من هذه السنة، وهو حصن للاستتار في غاية العلو والحصانة، لم يطمع أحد من الملوك الماضين في فتحه، فلما زحف العسكر

عليه أخذ الحجارون فيه النقوب، ونصبت عليه عدة مجانيق كباراً وصغاراً، يقول العبد الفقير مؤلف هذا المختصر: إنني حضرت حصار الحصن المذكور، وعمري إذ ذاك نحو اثنتي عشرة سنة، وهو أول قتال رأيته، وكنت مع والدي، ولما تمكنت النقوب من أسوار القلعة طلب أهله الأمان، فأجابهم السلطان رغبة في إبقاء عمارته، فإنه لو أخذه بالسيف وهدمه كان حصل التعب في إعادة عمارته، فأعطى أهله الأمان على أن يتوجهوا بما يقدرون على حمله غير السلاح، وصعدت السناجق السلطانية على حصن المرقب المذكور، وتسلمه في الساعة الثامنة من نهار الجمعة تاسع عشر ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة أربع وثمانين وستمائة، وكان يوماً مشهوداً أخذ فيه الثار من بيت الاستبار، ومحيت آية الليل بآية النهار، فأمر السلطان فحمل أهل المرقب إلى مأمئهم، ولما ملكه قرر أمره، ورحل عنه إلى الوطاة بالساحل، وأقام بمروج بالقرب من موضع يقال له برج القرفيص، ثم سار السلطان ونزل تحت حصن الأكراد، ثم سار ونزل على بحيرة حمص، وهي بحيرة قدس.

ذكر مولد مولانا السلطان الأعظم الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي

في هذه السنة ولد مولانا السلطان الأعظم المذكور من زوجة السلطان وهي بنت سكتاي بن قراجين بن جنعان، وسكتاي المذكور ورد إلى الديار المصرية هو وأخوه قرمشي سنة خمس وسبعين وستمائة صحبه بيجار الرومي في الدولة الظاهرية، فتزوج السلطان الملك المنصور قلاوون ابنة سكتاي المذكور في سنة ثمانين وستمائة بعد موت أبيها المذكور، بولاية عمها قرمشي، ووردت البشائر بمولده إلى السلطان، وهو نازل على بحيرة حمص عند عوده من فتح المرقب، فتضاعف سروره، وضربت

البشائر فرحاً بمولده السعيد. وفيها عاد السلطان إلى الديار المصرية ، وأعطى الملك المظفر عند رحيله عن حمص الدستور، فعاد إلى حماة.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وستمائة

فيها أرسل السلطان عسكرياً كثيفاً مع نائب سلطته حسام الدين طرنطاي المنصوري، وأمره بمنازلة الكرك، فسار إليها وحاصرها ، وتسلمها بالأمان، وأقام بها نواب السلطان، وعاد وصحبته أصحاب الكرك جمال الدين خضر، وبدر الدين سلامش ولدا الملك الظاهر بيبرس، فأحسن السلطان إليهما، ووفى لهما بأمانه وبقيا على ذلك مدة طويلة ، ثم بلغه عنهما ما كرهه فاعتقلهما فبقيا في الحبس حتى توفي، فنقل خضر وسلامش ولدا الملك الظاهر بيبرس إلى القسطنطينية.

وفيها خرج السلطان من الديار المصرية إلى غزة، ثم سار إلى الكرك فوصل إليها في شعبان، وقرر أمورها، ثم عاد إلى جهة غابة أرسوف، وأقام مدة، ثم عاد إلى الديار المصرية.

وفيها : توفي ركن الدين أباجي الحاجب.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

ذكر فتوح صهيون

كان السلطان قد جهز عسكرياً كثيفاً مع نائب سلطته حسام الدين طرنطاي بمن معه من العساكر المصرية والشامية في هذه السنة إلى قلعة صهيون، ونصب عليها المجانيق وضايقها بالحصار، فأجابه صاحبها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى تسليمها بالأمان، وحلف له حسام الدين طرنطاي، فنزل سنقر الأشقر إليه وسلم صهيون في ربيع الأول من

هذه السنة ، فتسلمها طرنطاي وأكرم الأشقر المذكور غاية الإكرام ، ثم سار حسام الدين طرنطاي إلى اللاذقية، وكان بها برج للفرنجة يحيط به البحر من جميع جهاته، فركب طريقاً إليه في البحر بالحجارة، وحاصر البرج المذكور وتسلمه بالأمان وهدمه، ثم بعد ذلك توجه إلى الديار المصرية وصحبته سنقر الأشقر، فلما وصلا إلى قرب قلعة الجبل ركب السلطان الملك المنصور قلاوون والتقى مملوكه حسام الدين طرنطاي وسنقر الأشقر وأكرمه، ووفى له بالأمان، وبقي سنقر الأشقر مكرماً محترماً مع السلطان إلى أن توفي السلطان، وملك بعده الملك الأشرف، فكان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيهما نزل تدان منكوب بن طغان بن باطو بن دوش خان بن جنكز خان عن مملكة التتر بالبلاد الشمالية، وأظهر التزهد والانقطاع إلى الصلحاء، وأشار إلى أن يملكوا ابن أخيه تلابغا بن منكوبم بن طغان المذكور، فملك بعده تلابغا ابن المذكور.

وفيهما أرسل السلطان الملك المنصور عسكرياً مع علم الدين سنجر المسروري المعروف بالحباط متولى القاهرة إلى النوبة، فساروا إليها وغزوا وغنموا وعادوا.

وفيهما توفي بدر الدين تنليك الأيدمرى.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وستمائة

ففيهما توفي الملك الصالح علاء الدين علي ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون، وهو الذي جعله ولي عهده وسلطنه في حياته، فوجد عليه السلطان والده وجداً عظيماً، وكان مرضه بالدوسنطريا، وخلف الملك الصالح المذكور ولداً اسمه موسى بن على.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وستمائة

ذكر فتوح طرابلس

في هذه السنة من أول ربيع الآخر فتحت طرابلس الشام، وصورة ما جرى أن السلطان الملك المنصور خرج بالعساكر المصرية في المحرم من هذه السنة، وسار إلى الشام، ثم سار بالعساكر المصرية والشامية، ونازل مدينة طرابلس الشام يوم الجمعة مستهل ربيع الأول من هذه السنة، ويحيط البحر بغالب هذه المدينة، وليس عليها قتال في البر إلا من جهة الشرق، وهو مقدار قليل ولما نازلها السلطان نصب عليها عدة كثيرة من المجانيق الكبار والصغار، ولازمها بالحصار، واشتد عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر من هذه السنة بالسيف، ودخلها العسكر عنوة، فهرب أهلها إلى الميناء، فنجا أقلهم في المراكب، وقتل غالب رجالها، وسييت ذراريهم، وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة.

وحصار طرابلس هو أيضا مما شاهدته وكنت حاضراً فيه مع والدي الملك الأفضل، وابن عمي الملك المظفر صاحب حماة، ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ونهبهم، أمر السلطان فهدمت ودكت إلى الأرض، وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطماس، وبينها وبين طرابلس الميناء، فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة وإلى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء، فاقتحم العسكر الاسلامي البحر، وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة، فقتلوا جميع من فيها من الرجال، وغنموا ما بها من النساء، والصغار، وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب عبرت إليها في مركب فوجدتها ملاءى من القتلى بحيث لا يستطيع الانسان الوقوف فيها من نتن القتلى.

ولما فرغ السلطان من فتح طرابلس وهدمها ، عاد إلى الديار المصرية، وأعطى صاحب حماة الدستور، فعاد إلى بلده، وكان الفرنج قد استولوا على طرابلس في سنة ثلاث وخمسة في حادي عشر ذي الحجة، فبقيت بأيديهم إلى أوائل هذه السنة، أعني سنة ثمان وثمانين وخمسة، فيكون مدة لبثها مع الفرنج نحو مائة سنة وخمس وثمانين سنة وشهور.

وفيها مات قبلاي خان بن طلو بن جنكز خان ملك التتر بالصين، وهو أعظم الخانات والحاكم على كرسي مملكة جنكز خان، وكان قد طالت مدته ولما مات قبلاي خان جلس بعده ولده شهن.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وستائة

ذكر وفاة السلطان سيف الدنيا والدين قلاوون الصالح

في هذه السنة في سادس ذي القعدة توفي الملك المنصور المذكور، وصورة وفاته أنه خرج من الديار المصرية بالعساكر المتوافرة على عزم غزو عكا وفتحها، وبرز إلى مسجد التبرز، فابتدأ مرضه في العشر الأخير من شوال بعد نزوله بالدهليز في المكان المذكور، وأخذ مرضه يتزايد حتى توفي يوم السبت سادس ذي القعدة بالدهليز، وكان جلوسه في الملك يوم الأحد الثاني والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين وستائة، فتكون مدة ملكه نحو إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وأياما، وخلف ولدين هما الملك الأشرف صلاح الدين خليل، والسلطان الأعظم الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد، وكان السلطان الملك المنصور المشار إليه ملكا مهيباً حليماً، قليل سفك الدماء، كثير العفو شجاعاً، فتح الفتوحات الجليلة مثل: المرقب، وطرابلس، التي لم يجسر أحد من الملوك مثل صلاح الدين وغيره على التعرض إليهما، لحصانتها، وكسر جيش التتر على حمص ، وكانوا في جمع عظيم لم يطرق الشام قبله مثله، ولا يحتمل

هذا المختصر ذكر فضائله، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ذكر سلطنة ولده الملك الأشرف

ولما توفي السلطان جلس في الملك بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور قلاوون المذكور، وكان جلوسه في سابع ذي القعدة من هذه السنة، صبيحة اليوم الذي توفي فيه والده، ولما استقر السلطان الملك الأشرف في المملكة قبض على حسام الدين طرنتاي نائب السلطنة في يوم الجمعة ثاني عشر ذي القعدة، فكان آخر العهد به، وفوض نيابة السلطنة إلى بدر الدين بيدار، والوزارة إلى شمس الدين محمد بن السلعوس

ثم دخلت سنة تسعين وستمائة

ذكر فتوح عكا

في هذه السنة في جمادى الآخرة فتحت عكا.

وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية إلى عكا، وأرسل إلى العساكر الشامية وأمرهم بالحضور وأن يحضروا أصحابهم المجانيق، فتوجه الملك المظفر صاحب حماة وعمه الملك الأفضل وسائر عسكر حماة أصحابه إلى حصن الأكراد، وتسلمنا منه منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري حمل مائة عجلة، ففرقت في العسكر الحموي، وكان المسلم إلى منه عجلة واحدة، لأنني كنت إذ ذاك أمير عشرة، وكان مسيرنا بالعجل في أواخر فصل الشتاء، فاتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق، فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة، وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهراً، وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيول على العادة،

وكذلك أمر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها، وكان نزول العساكر الإسلامية عليها في أوائل جمادى الأولى من هذه السنة، واشتد عليها القتال ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها بل كانت مفتحة، وهم يقاتلون فيها، وكانت منزلة الحمويين برأس الميمنة على عادتهم، فكنا على جانب البحر والبحر عن يميننا إذا واجهنا عكا، وكان يحضر إلينا مراكب مقببة بالخشب الملبس جلود الجواميس، وكانوا يرموننا بالنشاب والجروح، وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة، ومن جهة يميننا من البحر، وأحضروا بطسة فيها منجنيق يرمي علينا وعلى خيمنا من جهة البحر، فكنا منه في شدة حتى اتفق في بعض الليالي هبوب رياح قوية فارتفع المركب وانحط بسبب الموج وانكسر المنجنيق الذي فيه بحيث أنه انحطم ، ولم ينصب بعد ذلك.

وخرج الفرنج في أثناء مدة الحصار بالليل، وكبسوا العسكر، وهزموا اليزكية، واتصلوا إلى الخيام وتعلقوا بالأطناب، ووقع منهم فارس في جوة مستراح بعض الأمراء فقتل هناك، وتكاثرت عليهم العساكر، فولى الفرنج منهزمين إلى البلد، وقتل عسكر حماة عدة منهم، فلما أصبح الصباح علق الملك المظفر صاحب حماة عدة من رؤوس الفرنج في رقاب خيلهم التي كسبها العسكر منهم، وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف ، واشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى لهم في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة بالسيف، ولما هجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب، وكان في داخل البلد عدة أبرجة عاصية بمنزلة قلاع، دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها، وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئاً يفوت الحصر من كثرته، ثم استنزل السلطان جميع من عصى بالأبرجة ولم يتأخر منهم أحد، فأمر بهم فضربت أعناقهم عن آخرهم حول عكا، ثم أمر بمدينة عكا فهدمت إلى الأرض ودكت دكا.

ومن عجائب الاتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة، واستولوا على من بها من المسلمين، ثم قتلوهم

فقدّر الله عز وجل في سابق علمه أنها تفتح في هذه السنة في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين، فكان فتوحها مثل اليوم الذي ملكها الفرنج فيه، وكذلك لقب السلطانين.

ذكر فتوح عدة حصون ومدن

لما فتحت عكا ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام، فأخلوا صيدا، وبيروت، وتسلمها الشجاعى في أواخر رجب، وكذلك هرب أهل مدينة صور، فأرسل السلطان وتسلمها، ثم تسلم عثليث في مستهل شعبان، ثم تسلم انطرطوس في خامس شعبان، جميع ذلك في هذه السنة أعني سنة تسعين وستمائة، واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب، وأمر بها فخرت عن آخرها، وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام، وكان أمرا لا يطمع فيه ولا يرام، وتظهر الشام والسواحل من الفرنج بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية، وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام، فله الحمد والمنة على ذلك

من كتاب نهاية الأرب للنويري

obeikandi.com

ذكر أخبار الملوك السلجقية بالشام وحلب

وأول من ملك منهم السلطان تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان محمد ابن جغريبك داود بن ميكائيل بن سلجق، وهو أخو ملكشاه وكان السلطان ملكشاه قد أقطعه الشام وما يفتح من تلك النواحي في سنة سبعين وأربعمائة، فجاء إلى حلب وحصرها ولحق أهلها مجاعة شديدة. وكان معه جماعة كثيرة من التركمان فأنفذ إليه الأقيسيس^(١) صاحب دمشق يستنجد على العساكر المصرية، لأنها كانت قد حاصرت بدمشق من قبل أمير الجيوش بدر الجمالي، فسار إلى نصره الأقيسيس، فلما سمع العسكر المصري بقربه فارقوا البلد وعادوا إلى مصر، وخرج الأقيسيس يلتقيه عند سور دمشق، فاغتاظ منه تتش كونه لم يتقدم في تلقيه، وعاتبه، فاعتذر بأمور لم يقبلها منه، فقبض عليه تتش في الوقت وقتله، وملك دمشق وأحسن السيرة في أهلها، وعدل فيهم وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة اثنتين وسبعين.

وفي سنة أربع وسبعين افتتح تاج الدولة انطربوس وبعض الحصون الساحلية، وعاد إلى دمشق، وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة كانت الحرب بينه وبين سليمان بن قتلمش السلجقي صاحب الروم وأنطاكية، فهزم عسكره وقتله على ما ذكره إن شاء الله في أخبار سليمان، وملك تتش مدينة حلب خلا القلعة، فكتب الحتيتي إلى السلطان ملكشاه يستدعيه، فوصل إليها وفارقها تتش كما قدمنا ذكره.

ذكر استيلائه على حمص وغيرها من ساحل الشام

كان تاج الدولة تتش قد توجه إلى أخيه السلطان ملكشاه إلى بغداد في سنة أربع وثمانين، وجاء إليه زعماء الأطراف، فلما أذن لهم في العود أمر

أقسنقر صاحب حلب، وبوزان صاحب الرها، أن يسيرا في خدمة أخيه بعساكرهما إلى أن يستولي على ما هو للمستنصر العلوي صاحب مصر بساحل الشام من البلاد، ويتوجها معه إلى مصر ليملكها.

فساروا في سنة خمس وثمانين ، ونزلوا على حمص وحصروها وبها صاحبها خلف بن ملاعب، وكان الضرر به وبأولاده عظيما على المسلمين، فحصروا البلد وضيقوا على من به وملكه تتش، وأخذ ابن ملاعب وولديه، ثم سار إلى قلعة عرقة، وهي بالقرب من طرابلس، فملكها وملك أفامية، ثم نازل طرابلس وبها جلال الملك بن عمار فراسل أقسنقر، وحمل إليه ثلاثين ألف دينار، وتحفا بمثلها، وعرض عليه المناشير التي بيده من السلطان بالبلد والتقدم إلى النواب بتلك البلاد بمساعدته، والتحذير من محاربته، فقال أقسنقر لتتش: أنا لا أقاتل من هذه المناشير بيده، ورحل من الغد، فرحل تاج الدولة وعاد بوزان إلى بلاده، والله أعلم.

ذكر ما فعله في طلب السلطنة

قال: لما بلغ تاج الدولة تتش قدوم أخيه السلطان ملك شاه إلى بغداد توجه من دمشق إلى خدمته، فلما وصل إلى هيت أتاه الخبر بموته، فاستولى على هيت وعاد إلى دمشق فتجهز لطلب السلطنة ، وجمع العساكر وأخرج الأموال وسار إلى حلب وبها قسيم الدولة أقسنقر، فصالحه قسيم الدولة وأتبعه لما علم من اختلاف أولاد صاحبه، وأرسل إلى ياغي سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحران يشير عليهما بطاعة تاج الدولة، حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه، ففعلوا ذلك وصاروا معه وخطبوا له في بلادهم.

وقصد تتش الرحبة فملكها في المحرم سنة ست وثمانين وأربعمئة، ثم سار إلى نصيبين ففتحها عنوة وقتل من أهلها خلقا كثيرا ونهب الأموال،

وفعل الأفعال القبيحة، ثم سلمها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة العقيلي. وسار يريد الموصل، وأتاه الكافي ابن فخر الدولة بن جهير وكان بجزيرة ابن عمر فاستوزره، والتقى بإبراهيم بن قريش في ثلاثين ألفاً، وتتش في عشرة آلاف، فاقتتلوا فانهزم إبراهيم والعرب، ثم أخذ أسيراً وجماعة من العرب فقتلوا صبراً، ونهبت أموالهم وما معهم من الخيل والإبل والأغنام وغيرها وقتل كثير من نساء العرب أنفسهن خوفاً من السبي والفضيحة، وملك تشش بلادهم الموصل وغيرها، واستتاب بها علي ابن شرف الدولة مسلم، وهو ابن صفية عمة تشش.

ذكر ملكه ديار بكر وأذربيجان وعوده إلى الشام

قال: ثم سار تاج الدولة تشش في شهر ربيع الآخر فملك ميافارقين وسائر ديار بكر من ابن مروان، وسار منها إلى أذربيجان. وانتهى خبره إلى ابن أخيه بركياروق وكان قد استولى على كثير من البلاد، فسار في عسكره ليتبع عمه، فلما تقارب العسكران اجتمع قسيم الدولة وبوزان وقالوا: « نحن إنما أطعنا هذا حتى ننظر ما يكون من ابن صاحبنا، وقد ظهر أمره » ففارقاه والتحقا ببركياروق فعاد تشش إلى الشام.

ذكر عود تشش إلى البلاد وملكه همذان وغيرها

قال: ولما عاد إلى الشام أخذ في جمع العساكر فكثر جموعه وعظم جنده . فسار في سنة سبع وثمانين وأربعمائة عن دمشق نحو حلب لطلب السلطنة، فاجتمع قسيم الدولة اقسنقر وبوزان وأمدهما السلطان ركن الدولة بركياروق بالأمير كربوقا، فالتقوا بالقرب من تل السلطان، قريب حلب واقتتلوا واشتد القتال فانهزموا، وثبت قسيم الدولة فأخذ أسيراً وجيء به إلى تاج الدولة فقال له: « ما كنت تصنع بي لو ظفرت؟ » قال: « كنت أقتلك » وقال: « فأنا أحكم عليك بحكمك » فقتله

صبرا. وسار نحو حلب، ودخلها وأسر كربوقا وبوزان وتسلم الرها وحران. وسار إلى بلاد الجزيرة فملكها جميعها، وملك ديار بكر وخلاط. وسار إلى أذربيجان فملك جميع بلادها، ثم منها إلى همذان فملكها، واستوزر فخر الملك بن نظام الملك.

ذكر انهزام بركياروق منه

قال: ولما سار تتش إلى أذربيجان كان بركياروق بنصيبين فبلغه الخبر فسار إلى قتاله ولم يكن معه غير ألف رجل، وعمه في خمسين ألفا. فجهز إليه عمه بعض الأمراء فكبسه وهزمه ونهب سواده، فسار إلى أصفهان على مذكرناه في أخباره وخطب للسلطان تاج الدولة ببغداد.

ذكر قتل تاج الدولة تتش

قال: ولما هزم بركياروق سار من موضع الواقعة إلى همذان، ثم سار إلى الري، وكاتب الأمراء الذين بأصفهان يدعوههم إلى طاعته، ويبدل لهم الأموال الكثيرة. وكان بركياروق مريضا بالجدري، فأجابوه يعدونه أنهم ينحازون إليه، وهم ينتظرون ما يكون من صاحبهم. فلما عوفي بركياروق أرسلوا إلى تتش أنه ليس لك عندنا إلا السيف، وخرجوا له والتقوا بموضع قريب من الري، وقد كثرت جموع بركياروق، فانهزم أصحاب تتش وثبت هو في القلب فقتله أصحاب قسيم الدولة بثار صاحبهم، والله أعلم.

ذكر حال الملك رضوان وأخيه دقاق بعد قتل أبيهما تتش

قال: كان تاج الدولة تتش قد أوصى أصحابه بطاعة ابنه الملك رضوان، وكتب إليه من بلد الجبل قبل المصاف الذي قتل فيه يأمره بالمسير إلى بغداد، وأن يقيم بدار المملكة. فسار في عدد كثير منهم

إيلغازى بن أرتق، والأمير وثاب بن محمود بن صالح بن مرداس وغيرهما، فلما قارب هيت جاءه الخبر بقتل أبيه، فعاد إلى حلب ومعه والدته فملكها، وكان بها أبو القاسم بن بديع الخوارزمي قد سلمها تتش إليه، وحكمه فيها وفي القلعة. ولحق برضوان زوج أمه جناح الدولة الحسين بن إيتكين، وكان مع تتش فسلم من المعركة. وكان مع رضوان أيضا أخواه الصغيران أبو طالب وبهرام، فكانوا كلهم مع أبي القاسم كالأضياف لتحكمه في البلد، فاستمال جناح الدولة المغاربة، وكانوا أكثر أجناد القلعة، فلما انتصف الليل نادوا بشعار الملك رضوان، واحتاطوا على أبي القاسم، وأرسل إليه الملك رضوان يطيب قلبه، فاعتذر فقبل عذره، وخطب لرضوان على منابر حلب وأعمالها، وكانت الخطبة قد دامت باسم أبيه بعد قتله نحو شهرين.

وسار جناح الدولة في تدبير الدولة أحسن سيرة، وخالف عليهم الأمير ياغى سيان بن محمد بن ألب التركماني، صاحب أنطاكية، ثم صالحهم، وأشار على الملك رضوان بقصد ديار بكر لخلوها من وال يحفظها، فساروا جميعا وقدم عليهم من بالأطراف الذين كان تتش قد رتبهم فيها، وقصدوا سروج، فسبقهم إليها الأمير سقمان بن أرتق فأخذها ومنعهم منها، وأمر أهل البلد فخرجوا إلى رضوان وتظلموا من عساكره وما يفسدونه من غلاتهم، ويسألونه الرحيل، فرحل عنهم إلى الرها، وكان بها رجل يقال له الفارقليط - كان يضمن البلد من بوزان - فقاتل قتالا شديدا ثم ملكها، وطلب ياغى سيان القلعة من رضوان فوهبها له، فتسلمها وحصنها، فهرب رجالها، وأرسل إليهم أهل حران يطلبونهم ليسلموا إليهم البلد، فسمع ذلك قراجا فصلب ابن الفتى وغيره ممن اتهمهم، وجاء الخبر إلى رضوان وقد اختلف جناح الدولة وياغى سيان وأضمر كل منهما لصاحبه الغدر، فهرب جناح الدولة إلى حلب فدخلها، واجتمع بزوجته أم الملك رضوان، وسار رضوان وياغى سيان إلى حلب، فسمع بدخول جناح الدولة إليها، ففارق ياغى سيان

الملك رضوان وسار إلى أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي ودخل رضوان حلب.

هذا ما كان من أمر رضوان ، وأما الملك دقاق بن تتش، فإنه كان قد حضر المصاف مع أبيه، فلما قتل أبوه أخذه إيتكين الحلبي - وهو من غلمان أبيه - وسار به إلى حلب، فأقام عند أخيه الملك رضوان.

ثم راسله الأمير ساوتكين الخادم - متولي دمشق - سرا يدعوه ليملكه دمشق، فهرب من حلب، فأرسل أخوه رضوان في طلبه عدة من الخدام فلم يدركوه، وسار حتى وصل إلى دمشق ففرح به ساوتكين الخادم وأظهر البشر لوروده، فلما صار بدمشق أرسل إليه ياغي سيان يشير عليه أن ينفرد بملك دمشق عن أخيه رضوان، واتفق وصول معتمد الدولة طغتكين إلى دمشق ومعه جماعة من خواص تتش وعسكره، وقد سلموا من الوقعة، وكان طغتكين قد أسر ثم خلص، فلما وصل إلى دمشق لقيه الملك دقاق وأرباب الدولة وبالغوا في تعظيمه وإكرامه. وكان طغتكين زوج والدة دقاق، فمال إليه لذلك ووثق به وحكمه في بلاده. ثم اتفقا على قتل ساوتكين الخادم فقتلاه، وسار إليه ياغي سيان من أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي فجعله وزيراً لدقاق، وحكمه في دولته. فصارت دمشق لدقاق وحلب لرضوان.

ذكر الحرب بين الملكين رضوان وأخيه دقاق

وفي سنة تسعين وأربعمائة سار الملك رضوان من حلب إلى دمشق يريد الاستيلاء عليها وانتزاعها من أخيه دقاق، فلما قاربها رأى حصانتها وامتناعها، فعلم عجزه عنها ، فسار إلى نابلس وإلى القدس ليأخذها، فلم يمكنه ذلك، وانقطعت العساكر عنه فعاد إلى حلب ومعه ياغي سيان صاحب أنطاكية وجناح الدولة ، وكانا قد التحقا به. ثم فارقه ياغي

سيان وقصد دقاق وحسن له محاصرة أخيه بحلب. فجمع دقاق عساكره وسار ومعه ياغي سيان، فأرسل رضوان إلى سقمان بن أرتق وهو بسروج يستنجد، فأتاه في خلق كثير من التركمان. فسار بهم رضوان نحو دقاق وعسكره ونهبت خيامهم وأموالهم، وعاد رضوان إلى حلب، ثم اتفقا على أن يخطب لرضوان بدمشق وأنطاكية قبل أخيه دقاق، وقيل كان ذلك في سنة تسع وثمانين.

وفي سنة تسعين وأربعمئة خطب الملك رضوان في أكثر ولايته للمستعلي بأمر الله صاحب مصر، وسبب ذلك أن جناح الدولة كان قد فارق رضوان لتغير رأه منه، وجاء إلى حمص وكانت له، فلما رأى ياغي سيان بعده عن رضوان صالحه، وجاء إلى حلب، ونزل بظاهرها وكان لرضوان منجم يقال له الحكيم أبو سعد يميل إليه، فقدمه بعد مسير جناح الدولة فحسن له مذهب العلويين، وأتته رسل المستعلي تدعوه إلى طاعته ويبذل له المال وإنفاذ الجيوش لأخذ دمشق، فخطب له بشيزر وجميع أعمال ولايته سوى أنطاكية، وقلعة حلب، والمعرة، وكانت الخطبة أربع جمع.

ثم حضر إليه سقمان بن أرتق، وياغي سيان فأنكرا ذلك واستعظماه فأعاد الخطبة العباسية، وسار ياغي سيان إلى أنطاكية فلم يقيم بها غير ثلاثة أيام حتى وصل الفرنج إليها وحصروها وملكوها في سنة إحدى وتسعين وأربعمئة على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار المستعلي صاحب مصر.

ذكر ملك دقاق مدينة الرحبة

وفي شعبان سنة ست وتسعين وأربعمئة ملك الملك دقاق مدينة الرحبة، وكانت بيد قايماز أحد مماليك السلطان ألب أرسلان، استولى

عليها لما قتل كربوقا، فسار دقاق وطغتكين أتابك إليه وحصره، ثم رحلا عنه. فاتفقت وفاته في صفر من هذه السنة، وقام مقامه غلام تركي اسمه حسن، وخطب لنفسه وخاف من الملك دقاق، فاستظهر لنفسه، وأخذ جماعة من أعيان البلد وصادرهم وحبس آخرين، فسار دقاق إليه وحصره، فسلم العامة البلد واعتصم هو بالقلعة، فأمنه دقاق وسلمها له فتسلمها وأقطعه إقطاعا كثيرا بالشام، وقرر الرحبة وجعل فيها من يحفظها وعاد إلى دمشق.

ذكر وفاة الملك دقاق وملك ولده ثم أخيه

كانت وفاته في شهر رمضان سبع وتسعين وأربعمائة، ولما توفي خطب أتابكه طغتكين لولد له صغير عمره سنة واحدة، ثم قطع خطبته وخطب لأرتاش بن تتش عم هذا الطفل في ذي الحجة وله من العمر اثنتي عشرة سنة، ثم أشار عليه طغتكين بقصد الرحبة فخرج إليها وملكها، وعاد فمنعه من دخول البلد، فمضى إلى حصون له، وأعاد طغتكين خطبة الطفل ولد دقاق، وقيل إن والدته أرتاش خوفته من طغتكين وقالت له: إنه زوج أم دقاق، وهي لا تتركه حتى يقتلك ويستقيم الملك لولد ابنها، ثم حسن له من يحسد طغتكين مفارقة دمشق وقصد بعلبك وجمع الرجال والاستنجاد بالفرنج، والعود إلى دمشق وأخذها من طغتكين، فخرج من دمشق سرا في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة مع صغر سنة، ولحقه الأمير إيتكين الحلبي وهو صاحب بصرى، فعاثا في ناحية حوران، ولحق بهما من كان يريد الفساد، وراسلا بغدوين ملك الفرنج يستنجدانه، فأجابهما إلى ذلك، فسارا إليه واجتمعا به، وقررا معه القواعد، وأقاما عنده، فلم يريا منه إلا التحريض على الإفساد في أعمال دمشق وتخريبها، فلما يئسا من نصرته فارقا وتوجها في البرية إلى الرحبة فملكها أرتاش وعاد عنها، واستقام أمر طغتكين بدمشق، واستبد بالأمير وأحسن إلى الناس ونشر فيهم العدل..

هذا ما كان من أمر ملوك دمشق ثم انتقل ملكها إلى طغتكين وأولاده من بعده على ما ذكره إن شاء الله تعالى بعد ذكرنا للملوك حلب السلجقية، ومن ملكها بعدهم إلى أن ملكها أتابك زنكي بن أفسنقر.

ذكر أخبار ملوك حلب

قد قدمنا أن حلب كانت بيد الملك رضوان بن تتش، فلم تزل بيده إلى أن توفي في سنة سبع وخمسمائة، وكانت أموره غير مشكورة فإنه قتل أخويه أبا طالب وبهرام، وكان يستعين في كثير من أموره بالباطنية لقلة تدبيرة، فلما مات ملك بعده ابنه تاج الملوك ألب أرسلان الأخرس، وعمره ست عشرة سنة. ولم يكن أخرس، وإنما كان في لسانه حبسة وتممة، وأمه بنت ياغي سيان الذي كان صاحب أنطاكية.

قال: ولما ملك تاج الملوك سلك سنة أبيه في قتل إخوته فقتل أخوين له وهما: شقيقه ملكشاه، ومبارك لأبيه، واستولى على أمور دولته لؤلؤ الخادم، فلم يكن لتاج الملوك معه في السلطنة غير اسمها، ومعناها للؤلؤ، ولم تطل مدته في الملك، فإن غلمان قتلوه في سنة ثمان وخمسمائة، وأقاموا بعده أخاه سلطان شاه بن رضوان، فكان مع لؤلؤ كعادة أخيه، فلما كان في سنة إحدى عشرة وخمسمائة - وقيل سنة عشر - قتل لؤلؤ المستولي على الأمر، وكان سبب قتله أنه أراد قتل سلطان شاه كما فعل بأخيه، ففطن غلمان سلطان شاه لذلك، فبادروه بالقتل. وولي أتابكة سلطان شاه بعده شمس الخواص ألتونتش، فبقى شهراً وعزلوه، وولي بعده أبو المعالي بن الملحى الدمشقي ثم عزلوه وصادروه. فخاف أهل حلب من الفرنج فسلموا البلد إلى الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق، وانقرضت الدولة السلجقية من حلب، والله أعلم.

ذكر أخبار من ملك حلب بعد انقراض الدولة السلجقية منها

ملكها الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق باتفاق أهلها في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فتسلمها . وكان له مع الفرنج وقائع كثيرة وحروب يطول شرحها . واستتاب بحلب ولده سليمان، فخالفه وعصى عليه، في سنة خمس عشرة وخمسمائة وكان عمره إذ ذاك عشر سنين، فبلغ والده الخبر، فسار مجداً فلم يشعر إلا وقد هجم البلد وقبض على من كان حسن لابنه العصيان، وقتلهم . وكان منهم إنسان من أهل حماة من بيت قرناص، كان إيلغازي قد قدمه على أهل حلب، وجعل إليه الرئاسة فجازاه بذلك، فقطع يديه ورجليه وسمله فمات، وأراد قتل ولده فمنعته رقة الوالد، واستتاب بحلب سليمان شاه ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق، ولقبه بدر الدولة، وعاد إلى ماردين، فلم تزل حلب بيده، إلى أن توفي في سنة ست عشرة وخمسمائة بميفارقين . وبقي سليمان بحلب إلى أن استولى عليها ، ابن عمه بلك بن بهرام بن أرتق، وبقيت بيد بلك إلى أن قتل في سنة ثمان عشرة وخمسمائة وهو يحاصر منبج، وكان قد قبض على صاحبها حسان البعلبكي، وملك المدينة وحاصر القلعة، فأتاه سهم فقتله وكان حسام الدين ثمرتاش بن إيلغازي مع عمه بلك، فحمله مقتولا إلى ظاهر حلب، فتسلمها في العشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة ، واستولى عليها، وجعل فيها نائبا يثق به، وعاد إلى ماردين، وكان يجب الدعة والرفاهية، فلما عاد إلى ماردين ملك حلب أقسقر البرسقي صاحب الموصل بمكاتبة من أهلها، لأن الفرنج كانوا حاصروهم وضيقوا عليهم، فكتبوا إليه يستنجدونه، فحضر بعساكره، فرحل الفرنج عنها، وملكها في ذي الحجة سنة ثمان عشرة ، فكانت بيده إلى أن قتل في سنة عشرين وخمسمائة على يد الباطنية .

وملك بعده ابنه عز الدين مسعود إلى أن توفي في سنة إحدى وعشرين

وخمسمائة، فبقيت بيد نائبه تومان ، ثم استناب بعده بها قتلغ، فوصل إليها بعد وفاة مسعود، وتسلمها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، فظهر منه بعد أيام جور عظيم وظلم شديد، ومد يده إلى أموال الناس. وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق - الذي كان صاحبها قديما - فأطاعه أهلها، وقبضوا على أصحاب قتلغ الذين بالمدينة في شوال من السنة، وحاصروه في القلعة. فسمع الفرنج بذلك فتقدموا إلى المدينة، فصولحوا بهال حتى رحلوا عنها. وداموا على حصار قتلغ بالقلعة إلى منتصف ذي الحجة، ثم ملكها عماد الدين زنكي بن أقسنقر، على ما ذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الأتابكية، هذا ما كان من أمر حلب، فلندكر أخبار دمشق.

ذكر أخبار من ملك دمشق بعد انقراض السلجقية منها إلى أن ملكها نور الدين محمود بن زنكي

أول من ملكها معتمد الدولة ظهير الدين طغتكين ، وقيل فيه طغتكين وطغديكين، استولى على دمشق كما قدمناه في سنة سبع وتسعين وأربعمائة، واستقل بالأمر منذ فارقتها الملك أرتاش بن تتش وكان لطغديكين مع الفرنج وقائع كثيرة في سنين عديدة يطول شرحها، أضربنا عن ذكرها لأنها لم تسفر عن فتح بلد ولا أسر ملك وملك طغديكين بصرى في سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وكانت بيد إيتكين الحلبي، فلما صار مع السلطان الملك أرتاش كما ذكرنا سلمها أهلها لطغديكين، فتسلمها وأحسن إليهم، واستمر في ملك دمشق إلى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، فتوفي في ثامن عشر صفر منها، وكان عاقلا خيرا ، كثير الغزو والجهاد للفرنج، حسن السيرة في رعيته، مؤثرا للعدل فيهم. ولما توفي ملك بعده ابنه والله أعلم.

ذكر أخبار تاج الملوك بوزي بن أتابك طغديكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه. في ثامن عشر صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة بوصية من أبيه له بالملك. وكان أكبر أولاده، فلما ملك أقر وزير والده - وهو أبو علي طاهر بن سعد المزدغاني - على وزارته.

ذكر أخبار الاسماعيلية وقتل الوزير المزدغاني

كان بهرام مقدم الاسماعيلية قد هرب قديما من بغداد إلى الشام بعد قتل أخيه إبراهيم الأسد أبادي، وملك قلعة بانياس، وجعل خليفته بها يدعو الناس إلى مذهبه، فكثروا وانتشروا، وملك عدة حصون منها القدموس وغيره، وهي الآن تعرف بقلع الاسماعيلية، من الأعمال المضافة إلى المملكة الطرابلسية.

وكان بوادي (التيم) من أعمال بعلبك أرباب مذاهب مختلفة منهم: النصيرية، والدرزية، والمجوس وغيرهم، وأميرهم اسمه الضحاك، فسار إليهم بهرام في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وقاتلهم، فخرج إليه الضحاك في ألف رجل، وكبس عسكره وقتل منهم مقتلة عظيمة، وقتل بهرام فيمن قتل، وانهزم من بقي وأتوا بانياس على أقبح صورة. وكان بهرام قد استخلف على بانياس رجلا من أعيان أصحابه اسمه إسماعيل، فقام مقامه، وجمع شمل من سلم من أصحابه، وبث دعائه في البلاد، وساعده الوزير المزدغاني وعاضده وأقام المزدغاني بدمشق عوض بهرام إنسانا اسمه أبو الوفاء، فقوى أمره على شأنه، وكثر أتباعه حتى صار هو المستولي على دمشق، وحكم أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك. ثم إن المزدغاني راسل الفرنج ليسلم إليهم مدينة دمشق ويسلموا إليه مدينة صور، واستقر الأمر بينهم على ذلك، وتقرر الميعاد في يوم جمعة عينه، وقرر المزدغاني مع الاسماعيلية أن يحتاطوا على أبواب الجامع في ذلك

اليوم، فلا يمكنوا أحدا من الخروج منه، لتجبيء الفرنج ويملكوا البلد. فاتصل الخبر بتاج الملوك، فاستدعى الوزير المزدغاني فحضر إليه فلما خلا به قتله وعلق رأسه على باب القلعة، ونادى في البلد بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف، وذلك في منتصف شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وخمسة. فخاف إسماعيل متولى بانياس عند ذلك من الناس أن يثوروا به وبأصحابه، فسلم بانياس إلى الفرنج، وانتقل إليهم هو ومن معه، فلقوا شدة عظيمة وهوانا ومات إسماعيل في أوائل سنة أربع وعشرين وخمسة.

ذكر حصار الفرنج دمشق وانهمزاهم

قال: ولما بلغ الفرنج ما كان من قتل المزدغاني، عظمت المصيبة عليهم، واجتمعوا بجملتهم، صاحب القدس، وصاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، وغيرهم من ملوك الفرنج وقباصتهم ومن وصل إليهم في البحر فكانوا في ألفي فارس، وأما الراجل فلا يحصى كثرة، وساروا إلى دمشق لمحاصرتها، فبلغ ذلك تاج الملوك، فجمع العرب والتركمان فاجتمع معه ثمانية آلاف فارس، ووصل الفرنج إلى دمشق في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين فنازلوها، وأرسلوا سراياهم إلى أعمالها لجمع الميرة والإغارة. فبلغ تاج الملوك أنهم ساروا إلى حوران، فسير أميرا من أمرائه اسمه شمس الخواص في جمع من المسلمين، فلقوا الفرنج وقاتلوهم قتالا شديدا، كان الظفر للمسلمين، وقتل الفرنج فلم يفلت منهم غير مقدمهم في أربعين رجلا، وأخذوا ما معهم، وكان عشرة آلاف دابة موقرة، وثلاثمائة أسير، وعادوا إلى دمشق بالظفر والغنيمة. فألقى الله الرعب في قلوب الفرنج فرحلوا شبه المنهزمين، وأحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وغيره، وتبعهم المسلمون يقتلون من تخلف منهم. وكان نزولهم ورحيلهم في ذي الحجة. وفي سنة أربع وعشرين استوزر تاج الملوك الرئيس أبا الدواد المفرج بن الحسن بن الصوفي.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة

ثار الباطنية بتاج الملوك، فجرحوه جرحين فبرأ أحدهما وبقي الآخر، فاشتد عليه في شهر رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة فأضعفه وأسقط قوته فمات في الحادي والعشرين من الشهر . وكانت مدة إمارته أربع سنين وخمسة أشهر وأياما، وكان كثير الجهاد مقداما فأقام في حروبه مقام أبيه، وفاق عليه، ولما مات قام بعده ولده إسماعيل بوصية منه.

ذكر أخبار شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري ابن طغديكين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه في الحادي والعشرين من شهر رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة. وكان والده قد أوصى له بالملك ولولده الآخر شمس الدولة محمد بمدينة بعلبك وأعمالها، فنفذت وصيته وقام بتدبير الأمر بين يدي شمس الملوك الحاجب فيروز شحنة دمشق - وهو صاحب أبيه - واعتمد عليه، وابتدأ أمره بالرفق بالرعية، والإحسان إليهم.

قال: وبلغ شمس الملوك أن أخاه شمس الدولة صاحب بعلبك استولى على حصني اللبوة والرأس، واستمال من بهما وتسلمهما، وجعل فيهما من الجند من يحفظهما، فراسله في ذلك وتلطف معه وقبح عليه فعله، وطلب إعادتهما إليه، فامتنع . فتجهز بعساكره في آخر ذي الحجة من السنة وقصد جهة الشمال، ثم عطف مغربا، فلم يشعر من بحصن اللبوة إلا وقد نزل عليهم، وزحف لوقته فلم يتمكنوا من نصب منجنيق ولا غيره، فراسلوه في طلب الأمان، فأمنهم وتسلم الحصن من يومه. وسار إلى حصن الرأس وفعل به كذلك، وتسلمه وجعل فيهما من يحفظهما. ثم رحل إلى بعلبك وحصرها وبها شمس الدولة وقد استعد، فوالى الزحف حتى ملك البلد بعد قتال شديد. وتحصن شمس الدولة

فنازله فراسله في طلب الأمان وأن يقره على ما أوصى له به والده، فأجابه إلى ذلك وعاد إلى دمشق.

ذكر ملكه قلعة بانياس

وفي سنة سبع وعشرين وخمسمائة ملك شمس الملوك قلعة بانياس من الفرنج. وسبب ذلك أن الفرنج استضعفوه وطمعوا فيه. وكانت قد تقررت بينهم هدنة، فقصدوا نقضها، ومدوا أيديهم إلى أموال جماعة من تجار دمشق بمدينة بيروت، فشكا التجار ذلك إلى شمس الملوك، فراسل الفرنج في إعادة ما أخذوه، فلم يردوا شيئاً، فجمع العساكر وتأهب ولم يعلم أحداً بمقصده. ثم سار في آخر المحرم من السنة ونزل على بانياس في صفر، وزحف زحفاً متتابعاً. وقرب من سور المدينة وترجل بنفسه، وتبعه الناس فوصلوا إلى السور ونقبوه، ودخلوا البلد عنوة، والتجأ من كان فيه من جند الفرنج إلى الحصن، فقتل كثير من الفرنج بالبلد وقاتل من بالقلعة قتالاً شديداً، ثم ملك القلعة بالأمان في ربيع صفر وعاد إلى دمشق.

ذكر ملكه مدينة حماة

وفي شوال سنة سبع وعشرين وخمسمائة ملك شمس الملوك مدينة حماة وهي لأتابك زنكي بن اقسنقر، وذلك أنه لما ملك قلعة بانياس أقام بدمشق إلى شهر رمضان، وسار إلى حماة في العشر الآخر منه. وكان قد بلغه أن الخليفة المسترشد بالله قد حضر إلى الموصل، فطمع في البلاد لتغير الخليفة على زنكي، فحصر حماة وقاتل من بها يوم العيد، وملك البلد في اليوم الثاني قهراً، وطلب من به الأمان فأمنهم، وحصر القلعة، واستولى عليها وعلى ما بها من الذخائر، وسار منها إلى قلعة شيزر، وبها صاحبها ابن منقذ، فحصرها ونهب بلدها. فراسله صاحبها وسار معه بهال، فعاد إلى دمشق في ذي القعدة من السنة.

وفي تاسع شهر ربيع الآخر وثب على شمس الملوك بعض ممالك
جده طغديكين، فضربه بسيف فلم يصنع فيه شيئا، وتكاثر عليه ممالك
شمس الدولة فمسكوه، فقرره ما الذي حمله على ما فعل، فقال: « أردت
راحة المسلمين من شرك وظلمك»، فلم يزل يضرب حتى أقر على جماعة
أنهم وضعوه على ذلك، فقتلهم من غير تحقيق، وقتل أخاه سونج، فعظم
ذلك على الناس، ونفروا عنه وأنفوه.

ذكر ملكه شقيف تيرون ونهبه بلد الفرنج

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسة سار إلى شقيف تيرون وهو في الجبل
المطل على بيروت وصيدا، وكان في يد الضحاك بن جندل رئيس وادي
التيمن قد تغلب عليه وامتنع به واحتفى على المسلمين والفرنج، فسار
إليه وملكه في المحرم من هذه السنة، فعظم أخذه على الفرنج، لأن
الضحاك كان لا يتعرض إلى شيء من بلادهم المجاورة له، فجمع الفرنج
جموعهم فساروا إلى بلد حوران يخربون أمهات الضياع. فسار إليهم ونزل
بإزائهم وجرت بينهم مناوشة عدة أيام، ثم نهض ببعض عسكره وجعل
بقيتهم قبالة الفرنج. وسار وقصد بلاد طبرية والناصرية وعكا وما جاورها
من البلاد، والفرنج لا يشعرون به، فقتل وخرب وأحرق وسبى وامتلاّت
أيدي المسلمين من الغنائم، فبلغ الفرنج خبره، فرجعوا إلى بلادهم، وعاد
هو على غير الطريق الذي سلكه، فوصل سالما وراسله الفرنج في تجديد
الهدنة.

ذكر مقتل شمس الملوك وأخيه شهاب الدين

محمود

وفي شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وخمسة، قتل شمس الملوك
إسماعيل . وسبب ذلك أنه كان قد ركب طريقا شنيعا من الظلم

ومصادرات العمال وغيرهم من أهل البلد وأعيانه، وبالغ في العقوبات، وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس. ثم ظهر عنه أنه كاتب عماد الدين زنكي ليسلم إليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول ، وأخلى المدينة من الذخائر والأموال، ونقل ذلك إلى صرخد وتابع الرسل إلى زنكي يحثه على الوصول ويقول: إن أهملت المجيء سلمت البلد إلى الفرنج. فامتعض أصحاب أبيه وجده منه، وذكروا الحال لوالدته فساءها وأشرفت منه ووعدتهم بالراحة من هذا الأمر، ثم ارتقت غفلة غلمانها وأمرت غلمانها بقتله فقتلوه. وأمرت بإلقائه في موضع من الدار ليشاهده غلمانه، فلما رأوه سروا بمقتله. وأمّه زمرد خاتون ابنة جاولي، وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلّة على وادي الشقراء، ونهر بردى. هذا أحد ما قيل في قتله.

وقيل كان سبب مقتله أن والده كان له صاحب اسمه يوسف بن فيروز، وكان متمكنا منه حاكما في دولته ثم دولة ولده هذا، فاتهم بأم شمس الملوك، وبلغه الخبر فهم بقتل يوسف فهرب منه إلى تدمر، وتحصن بها وأظهر الطاعة لشمس الملوك، وأراد (شمس الملوك)، قتل أمّه، فبلغها الخبر فقتلته خوفا على نفسها، والله أعلم.

وكان مولده في سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة ، فتكون مدة حياته اثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر، ومدة ملكه سنتين وتسعة أشهر وأياما.

ذكر أخبار شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري

ابن طغديك

ملك دمشق بعد مقتل أخيه شمس الملوك في شهر ربيع الأول سنة

تسع وعشرين وخمسمائة، وحلف له الناس واستقر له الأمر ثم وصل أتابك زنكي إلى دمشق ونازلها في أول جمادى الأولى من السنة، فبينما هو يحاصرها إذ ورد عليه رسول الخليفة المسترشد بالله بالخلع ويأمره بصلح صاحب دمشق والرحيل عنها، فصالحه، وخطب له بدمشق مع صاحبها، وفارق البلد لليلتين بقيتا من الشهر.

ذكر ملكه مدينة حمص

وفي الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وخمسمائة، تسلم شهاب الدين محمود مدينة حمص وقلعتها. وذلك أن أصحابها أولاد الأمير خيرخان بن قراجا الوالي عليها من قبلهم ضجروا من كثرة تعرض عسكر زنكي إليها وإلى أعمالها، وتضييقهم على من بها، فراسلوا شهاب الدين في تسليمها، فأجابهم، وسار إليها وتسلمها، وسلم إليهم تدمر، وأقطع حمص لملوك جده معين الدين أنر، وجعل فيها نائباً عنه ممن يثق به من أعيان أصحابه، وعاد إلى دمشق ثم ملكها أتابك زنكي في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتزوج زمرد خاتون والدة شهاب الدين لتحكمها بدمشق، وظن أنه يملك البلد باتصاله بها، فلم يتهياً له ملكها.

قال: واستمر ملك شهاب الدين محمود إلى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، فقتل على فراشه في شوال منها، قتله ثلاثة من خواصه كانوا يبيتون عنده فقتلوه ليلاً، وخرجوا من القلعة فنجا أحدهما وقتل الآخران.

ذكر ملك جمال الدين محمد ابن تاج الملوك بوري بن طغديكين

ملك دمشق بعد مقتل أخيه شهاب الدين محمود في شوال سنة ثلاثين وخمسمائة. وذلك أن محمود لما قتل، كتب معين الدين أنر إلى جمال الدين صاحب بعلبك بالخبر، واستدعاه ليملكه البلد، فجاء مسرعاً

لمحاصرة دمشق فقاتله أهلها، فرحل عنهم، ثم اتفق قتل عماد الدين زنكي في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فسار مجير الدين ابق إلى بعلبك وحصرها وبها نجم الدين أيوب، فخاف أن أولاد زنكي لا يمكنهم إنجاده في عاجل الحال، فصالحه وسلم القلعة إليه، وأخذ منه إقطاعا ومالا، وملكه عدة قرى من بلد دمشق. وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق وسكنها، وأقام بها، واستمرت دمشق بيد مجير الدين إلى أن ملكها نور الدين محمود بن زنكي في سنة تسع وأربعين وخمسمائة على ما ذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.

ولما ملكها (نور الدين) تحصن مجير الدين بالقلعة، فراسله في تسليمها وبذل له إقطاعا من جملته مدينة حمص، فأجاب إلى ذلك، وسلم القلعة وتسلم الإقطاع، وسار إلى حمص. ثم راسل أهل دمشق بعد ذلك على أن يسلموها إليه. فعلم نور الدين به، وأخذ منه حمص وعوضه عنها بالسلم فلم يرض بها، وسار إلى بغداد وابتنى بها دارا بالقرب من النظامية. وتوفي بها.

هذا ما كان من أخبار ملوك دمشق على سبيل الاختصار، وإنما أوردنا أخبارهم في هذا الموضع على سبيل الاستطراد، ولكي تكون أخبارهم متتابعة. فلنرجع إلى أخبار الملوك السلجقية، ولنذكر ملوك الروم منهم.

وجلس لعزاء أخيه، وحلف الجند وفوض أمر دولته إلى معين الدين أنر، وزاده في علو مرتبته، وأقطعه بعلبك، وزوجه بأمه.

قال: ولما إتصل بزمرد خاتون قتل ابنها محمود كتبت إلى زوجها أتابك زنكي وهو بالجزيرة أن ينهض في طلب ثار ابنها، فسار مسرعا وملك بعلبك عنوة في ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين، وحصر دمشق في سنة أربع وثلاثين، وبذل لمعين الدين حمص وبعلبك وغير ذلك على أن يسلم إليه دمشق فلم يوافق، فجدد في الحصار. فبينما هو يحاصرها مرض جمال الدين محمد ومات في ثامن شعبان منها، فطمع زنكي حينئذ في البلد ووالى الزحف والقتال. قال: ولما مات جمال الدين ولي بعده ولده.

ذكر أخبار مجير الدين ابق بن جمال الدين محمد بن بوري بن طغدين

ملك دمشق بعد وفاة أبيه في ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وهي إذ ذاك محاصرة، فقام بتدبير دولته معين الدين مدبر دولة أبيه. وداوم زنكي الحصار وضيق على أهل البلد، فعند ذلك راسل أنر الفرنج واستدعاهم لنصرته، وإعانتته على حرب زنكي، وبذل لهم بدولا من جملتها أن يحاصر بانياس ويسلمها إليهم. وخوفهم أن زنكي إن ملك دمشق قصدهم وغزاهم، فاجتمعوا وعزموا على المسير إلى دمشق، فاتصل ذلك بزنكي فتوجه إلى حوران وقصد غزو الفرنج وذلك في منتصف شهر رمضان، فبلغ خبره الفرنج فأقاموا ببلادهم، فعاد إلى حصار دمشق ثم نزل بعذرا في سادس شوال، وأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة، وعاد إلى بلاده.

ووصل الفرنج إلى دمشق في ميعاد أنر، بعد رحيل زنكي. فسار معهم إلى بانياس وحصرها وأخذها وسلمها للفرنج، ولما فعل ذلك عاد زنكي

ذكر أخبار ملوك السلجقية أصحاب قونية واقصرا وملطية ودقوقا من الروم

أول من ملك منهم شهاب الدولة قتلмыш بن أرسلان يبغي بن سلجق. وكان ابتداء أمره أنه عصى على السلطان طغرل بك في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، وملك قلعة كردكوه وامتنع بها، وأخذ أموالا كانت حملت من خوارزم إلى السلطان، فسير إليه طغرل بك جيشا فهزمه مرة بعد أخرى، فلما مات طغرل بك أظهر العصيان على ألب أرسلان ابن جفريبيك داود، وجمع جموعا كثيرة، وقصد الري ليستولي عليها عندما بلغه وفاة طغرل بك، فسار إليه السلطان ألب أرسلان والتقوا واقتتلوا فانهمز عسكر قتلмыш، وفر هو لقصد كردكوه، فوجد ميتا غير مقتول، كما ذكرنا في أخبار ألب أرسلان في سنة ست وخمسين وأربعمائة ولما مات ملك بعده ابنه سليمان.

ذكر أخبار الملك سليمان ابن شهاب الدولة قتلмыш

وهو الثاني من الملوك السلجقية بالروم، ملك ما كان بيد أبيه بعد وفاته في سنة ست وخمسين وأربعمائة.

ذكر فتح مدينة أنطاكية

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة سار سليمان من بلاده، وقصد الشام وملك مدينة أنطاكية، وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. وكان سبب ملكه إياها أن صاحبها الفردوس الرومي كان قد سار عنها إلى بلاد الروم، ورتب في أنطاكية شحنة وكان الفردوس كثير الإساءة إلى أهل البلد وإلى جنده، حتى أنه حبس ابنه، فاتفق ابنه والشحنة على تسليم البلد إلى سليمان، فكاتبوه يستدعونه فركب في البحر ومعه ثلاثمائة فرس وكثير من الرجالة، وخرج منه وسار في جبال وعرة

ومضايق شديدة حتى وصل إليها في وقت الموعد، فنصب السلايم وصعد باتفاق من الشحنة وابن صاحبها، فملكها في شعبان من السنة، وقاتله أهل البلد فهزمهم مرة بعد أخرى، وقتل كثيرا منهم، ثم عفا عنهم، وتسلم القلعة وأخذ من الأموال مالا يحصى كثرة، وأحسن إلى الرعية وعدل فيهم، وأرسل إلى السلطان ملكشاه يشره بالفتح فأظهر الفرح بذلك وهنا الناس.

قال: ولما فتحها أرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش، صاحب حلب، يطلب منه حمل ماكان صاحب أنطاكية يحملة إليه، ويخوفه معصية السلطان، فأجابه أن صاحب أنطاكية كان كافرا يحمل الجزية عن رأسه وأصحابه، وأنا مسلم والخطبة والسكة في بلادي للسلطان، وهذا الفتح إنما فتحته بسعاده وكاتبته به، فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية، ونهب سليمان بلد حلب، فلقية أهل السواد، فشكوا إليه من نهب عسكره. فقال لهم: أنا كنت أشد كراهة لما جرى، ولكن صاحبكم أحوجنني إلى ما فعلت، فلم تجر عادتى بنهب مال مسلم، ولا أخذ ما حرمة الشريعة، وأمر أصحابه بإعادة ما نهب على أصحابه، فأعادوه. ثم جمع شرف الدولة الجموع وسار لقتال سليمان، فالتقوا واقتتلوا، فانهزم عسكر شرف الدولة وقتل هو، وذلك في يوم الجمعة لست بقين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

ذكر مقتل الملك سليمان بن قتلмыш

قال: ولما قتل سليمان بن قتلмыш شرف الدولة، أرسل إلى مقدم حلب يطلب تسليمها له، فأنفذ إليه مالا، واستمهله إلى أن يكاتب السلطان ملكشاه. وأرسل المقدم إلى تتش صاحب دمشق يعده بتسليمها إليه، فسار تتش إلى حلب. فعلم سليمان بذلك، فاسر نحوه والتقوا وقاتلوا، فانهزم أصحاب سليمان وثبت هو في القلب. فلما عاين الهلكة، قتل نفسه

بسكين، وقيل بل قتل في المعركة، واستولى تتش على معسكره، وذلك في سنة تسع وسبعين وأربعمئة. وكان سليمان قد أرسل جثة شرف الدولة مسلم في صفر سنة ثمان وسبعين على بغل، ملفوفة في إزار إلى حلب، وطلب من أهلها تسليمها إليه، فأرسل تتش جثة سليمان في صفر من السنة التي تليها على تلك الهيئة، وطلب منهم تسليمها. ولما قتل ملك بعده ببلاد الروم ولده والله أعلم.

ذكر أخبار قلج أرسلان بن سليمان

وهو الثالث من الملوك السلجقية بالروم.

ملك بعد قتل أبيه في صفر سنة تسع وسبعين وأربعمئة، واستمر في المملكة الرومية وملك الموصل في سنة خمسائة. وذلك أن صاحبها جكرمش كان قد حاصره جاوي سقاوا، وأسرهم ومات في أسره. فكتب أصحاب جكرمش إلى الأمير صدقة، وإلى قسيم الدولة أقسنقر البرسقي، وإلى قلج أرسلان، يستدعون كل واحد منهم إليها، ليسلموا إليه الموصل، فامتنع صدقة، وسار قلج أرسلان. فلما وصل إلى نصيبين رحل جاوي عن الموصل، واتفق وصول البرسقي وهو شحنة بغداد إلى الموصل، ونزل بالجانب الشرقي بعد رحيل جاوي وفي ظنه أنه يملك البلد، فلم يخرج إليه أحد من أهلها ولا راسلوه بكلمة واحدة، فعاد في بقية يومه. وأرسل أصحاب جكرمش وأهل الموصل إلى قلج أرسلان واستحلفوه لهم، فحلف، وحلفهم على الطاعة له والمناصحة، وسار إلى الموصل وملكها لخمس بقين من شهر رجب سنة خمسائة، وأسقط خطبة السلطان وخطب لنفسه بعد الخليفة، وأحسن إلى العسكر وخلع على ولد جكرمش وأخذ القلعة من غزلي مملوك جكرمش، وجعل عليها دزداراء، ورفع الرسوم المحدثه في الظلم، ونشر العدل وتألف الناس، وقال: من سعى إليّ بأحد قتلته، فلم يسع إليه أحد بأحد.

ذكر قتل الملك قلعج أرسلان وملك ولده الملك مسعود

كان مقتله في العشرين من ذي القعدة من سنة خمسماية. وذلك أنه لما فارق جاولي الموصل، سار إلى الرحبة وملكها بعد حصار وقتال، فلما أحكم الملك قلعج أمر الموصل، سار عنها لقتال جاولي، وجعل ابنه ملكشاه في دار الإمارة بالموصل، وسنه إحدى عشرة سنة، وجعل معه أميرا يدبره وجماعة من العسكر، وكانت عدة عسكره أربعة آلاف فارس بالعدد الكاملة والخييل الجيدة. فسمع عسكره بقوة جاولي وكثرة أتباعه وجنده، فاختلفوا، فكان أول من خالف عليه إبراهيم بن ينال صاحب آمد، وكان معه لما فتح الموصل. ففارق خيامه وأثقاله وعاد من الخابور إلى بلده ثم فارقه غيره، فعمل قلعج في المطاولة لما بلغه من قوة جاولي وكثرة جموعه، وأرسل في طلب عساكره من الروم. وكان في جملة عسكر جاولي الملك رضوان صاحب حلب، فاغتنم جاولي قلة أصحاب قلعج فقاتله قبل وصول عسكره، واقتتلوا قتالا شديدا، فحمل قلعج بنفسه وانهزم أصحابه. فلما رأى قلعج انهزام عسكره ألقى نفسه في الخابور، وحمى نفسه بالنشاب، فانحدر به الفرس إلى ماء عميق، وغرق، فظهر بعد أيام، فدفن بالسليمانية وهي قرية من قرى الخابور، وسار جاولي ودخل الموصل وأرسل ملكشاه بن قلعج إلى السلطان محمد.

قال: وملك بعده ولده الملك مسعود بن قلعج، وأقام في الملك إلى سنة إحدى وخمسين وخمسماية، فتوفي فيها. ولم أقف من أخباره على شيء أورده له، وملك بعده ولده.

ذكر أخبار الملك عز الدين قلع أرسلان بن مسعود

ابن قلع أرسلان بن سليمان بن قتلмыш بن أرسلان
يبلغ ابن سلجق، وهو الخامس من الملوك السلجقة ببلاد
الروم

ملك بعد وفاة والده في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. وكان ذا
سياسة، وعدل وافر، وهيبة عظيمة، وله غزوات كثيرة إلى بلاد الروم. وكان
له من بلاد الروم قونية وأعمالها وأقصر وسيواس وملطية وغير ذلك. وكان
له عدة أولاد، فلما كبرت سنه فرق ببلاده على أولاده في حياته، وملك
نحو تسع وعشرين سنة.

ذكر تسليمه البلاد لبنيه وبني أخيه وما جعل لكل منهم

قال المؤرخ: لما ضعف الملك عز الدين قلع أرسلان هذا عن القيام
بوظائف الملك لكبر سنه، أفرد البلاد لأولاده وأولاد أخيه وسلم لكل
واحد منهم جهة، فسلم إلى ابنه ركن الدين سليمان دوقاط، وإلى ابنه
غياث الدين كيخسرو قونية، ولولده محيي الدين أنقرة - وتسمى
أنكورية - ولولده معز الدين قيصر شاه ملطية، ولولده مغيث الدين
طغرل شاه أبلستين، ولولده نور الدين محمود قيسارية، ولولده قطب
الدين سيواس وأقصر، ولولد أخيه نكسار، ولولد أخيه أماسيا. هذه
أمهات البلاد، ويضاف إلى كل جهة ما يجاورها. ثم ندم على ذلك وأراد
أن يجمع جميع المملكة لولده الأكبر قطب الدين، وخطب له ابنة الملك
الناصر صلاح الدين يوسف صاحب مصر ليتقوى به، فلما اتصل ذلك
ببقية أولاده امتنعوا من طاعته، وأزالوا حكمه عنهم، فكان يتردد بينهم
على سبيل الزيارة، ثم توجه إلى ولده غياث الدين كيخسرو صاحب
قونية، فخرج إليه وقبل الأرض بين يديه واستبشر بقومه، واتمر بأمره،

فقال له: أريد أن أسير إلى ولدي محمود صاحب قيسارية، وأخذها منه فسار هو وولده كيخسرو، وحصرا محمود، فمرض قلج أرسلان، وتوفي في منتصف شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسة فساد كيخسرو إلى بلده، واستقر كل واحد منهم على ما بيده من البلاد.

ذكر قتل نور الدين محمود واستيلاء قطب الدين على قيسارية ووفاته واستيلاء ركن الدين سليمان على سائر المملكة

قال: كان قطب الدين صاحب أقصرا وسيواس إذا توجه من أحدهما إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية، ويجتمع بأخيه نور الدين محمود صاحبها، ويظهر له المودة. فاطمأن له محمود. وكان الأمير اختيار الدين حسن أحد أمراء والده يحذره عاقبة طمأنينته لأخيه، فنزل قطب الدين في بعض الأحيان بظاهر قيسارية وجاء نور الدين إليه فقتله، ورمى برأسه إلى أصحابه، وتسلم البلد بعد أن امتنع من بها عليه، ثم قتل الأمير اختيار الدين حسن وكان من أكابر الأمراء الديانين، وألقاه في الطريق، فجاء كلب ليأكل من لحمه، فثار الناس وقالوا: « لاسمعا ولا طاعة هذا أمير كبير في الإسلام، وبنى مدرسة للعلم، وله صدقات دارة؛ لانتركة تأكله الكلاب»، فأمر عند ذلك بدفنه، فدفن في مدرسته. ثم مرض قطب الدين ومات، فسار أخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى سيواس، وهي تجاوره، فملكها ثم ملك قيسارية أقصرا ثم سار بعد ذلك إلى قونية، وبها أخوه غياث الدين فحصره بها. وملكها، وفارقها غياث الدين إلى الشام. ثم عاد إلى الروم وسار إلى القسطنطينية، ثم ملك البلاد على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وسار ركن الدين بعد ذلك إلى نكسار وأماسيا فملكها من ابني عمه، وملك ملطية في شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسة، وفارقها أخوه

معز الدين قيصر شاه، وسار إلى الملك العادل جميع البلاد التي كانت بيد إخوته وأولاد عمه إلا أنقره، فإنها امتنعت عليه لحصانتها، فجعل عليها من عسكره من يحصرها، فحوصرت ثلاث سنين كوامل وتسلمها في سنة ستمائة، وعوض أخاه محيي الدين عنها قلعة في أطراف بلاده، وحلف له عليها، فسار محيي الدين إليها فجهز في إثره من قتله.

ذكر وفاة ركن الدين سليمان وملك ولده قلعج أرسلان

قال: ولما غدر بأخيه محيي الدين صاحب أنكورية وقتله، لم يمهله الله عز وجل، فمرض بالقولنج، بعد قتله لخمسة أيام، ومات في سبعة أيام، وكانت وفاته في سادس ذي القعدة سنة ستمائة وكان قيبا بأمر الملك، شديدا على الأعداء، إلا أن الناس كانوا ينسبونه إلى فساد في اعتقاده، وأنه يقول بقول الفلاسفة. وكان كل من رمي بهذا المذهب يأوي إليه، لكنه كان يستر ذلك عن الناس، ولا يتظاهر به.

قال: ولما مات اجتمع الناس بعده على ولده قلعج أرسلان، وملكوه عليهم وكان صغير السن، فبقى إلى بعض سنة إحدى وستمائة.

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو بن قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج أرسلان بن سليمان بن قلتمش بن أرسلان بيغو بن سلجق، بلاد الروم من ابن أخيه، وهو الثاني من ملوك السلجقية بالروم

ملك المملكة الرومية في شهر رجب، سنة إحدى وستمائة. وذلك أن ركن الدين سليمان لما أخذ منه قونية، كما قدمناه، قصد الشام إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، فلم يجد عنده قبولا، فسار من عنده وتنقل في البلاد إلى أن سار إلى القسطنطينية، فأحسن إليه ملك الروم وأكرمه وأقطعه إقطاعا، فأقام عنده وتزوج بابنة بعض

البطارقة الأكابر. وكان للبطريق قلعة من قلاع القيسطنطينية ، فلما ملك الفرنج قسطنطينية، هرب غياث الدين إلى (حموه) ، بالقلعة ، فنزل عنده وقاسمه فيما هو فيه وقنعا بها فلما مات أخوه في سنة ستمائة كما ذكرناه، وملك ولده قلعج أرسلان ، فخالف عليه بعض الأمراء والأكابر وكان من الترك، فأنف أن يملك صغيرا، فراسل غياث الدين فحضر إليه في جمادى الأولى، واجتمع معه بعض العسكر وتوجه إلى قونية وبها قلعج أرسلان ابن أخيه، فخرج له بعض عسكرها فهزموه وبقي حيران ولا يدري ما يصنع، ولا أين يتوجه ، فقصد بلدة صغيرة من بلاد قونية يقال لها أوكرم، فقدر الله أن أهل مدينة أقصرا وثبوا على واليها، فأخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين، فلما وصل الخبر أهل قونية قال أهلها: نحن أولى بذلك منهم، لأنه كان حسن السيرة فينا، فنادوا باسمه ، وأخرجوا من عندهم، واستدعوه، فملك المدينة وقبض على ابن أخيه، وملك البلاد أجمع في ساعة واحدة، فسبحان من إذا أراد أمراً هياً أسبابه. وحضر إليه أخوه قيصر شاه الذي كان صاحب ملطية، فلم يجد عنده قبولا، فأعطاه شيئا وأمره بمفارقة البلاد، فعاد إلى الرها، واستتب الملك لكيخسرو وعظم شأنه، والله أعلم.

ذكر ملكه مدينة أنطالية

وفي ثالث شعبان سنة ثلاث وستمائة ملك الملك غياث الدين كيخسرو مدينة أنطالية بالأمان، وكانت للروم. وكان قد حصرها قبل هذا التاريخ وهدم عدة أبرجة من سورها، وأشرف على فتحها عنوة، فاستنجد من بها من الروم بفرنجة جزيرة قبرص، فوصل إليها جماعة منهم فيئس منها وفارقها وترك طائفة من أصحابه بالقرب منها في الجبال التي بينها وبين بلاده، وأمرهم بقطع الميرة عنها، فضاق أهلها فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم، فظنوا أنهم يريدون إخراجهم من المدينة، فوقع الخلف بينهم، فأقتتلوا فأرسل الروم إلى المسلمين يطلبونهم

ليتسلموا البلد، فوصلوا إليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج، فانهمز الفرنج منهم واعتصموا بالحصن. فأرسل المسلمون يطلبون كيخسرو، فجاء من قونية وحصر الفرنج وتسلم الحصن، واستمر غياث الدين كيخسرو في الملك إلى أن توفي سنة سبع وستائة وملك بعده ولده الملك الغالب عز الدين كيكافوس بن كيخسرو، وملك كيكافوس هذا بعض بلاد حلب، وانتزعت منه، ولم يكن له ولد فملك بعده أخوه.

**ذكر ملك علاء الدين كيقباز بن غياث الدين كيخسرو
ابن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن
قتلمش بن أرسلان بيغو بن سلجوق وهو العاشر من ملوك
السلجوقية بالروم**

ملك بعد وفاة أخيه في سنة ست عشرة وستائة، وكان أخوه كيكافوس قد اعتقله لما ملك، وأشار عليه أصحابه بقتله فلم يفعل. فلما مات كيكافوس أخرج الجند كيقباز وملكوه عليهم، وقيل إنه لما اشتدت علة كيكافوس أخرجه من الاعتقال، وحلف له العساكر.

قال: ولما ملك كيقباز خالف عمه مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان صاحب أرزن الروم؛ ومغيث الدين هذا هو الذي أمر ولده أن يتنصر وزوجه ملكة الكرج، وأقام معها مدة، فهويت غيره من ممالكها فرآه معها، فأنكر ذلك عليها، فاعتقلته، ومات مغيث الدين هذا في سنة اثنتين وعشرين وستائة، وملك بعده ابنه.

قال: ولما ملك كيقباز خاف من الروم المجاورين لبلاده، فأرسل إلى الملك الأشرف صاحب دمشق وصالحه، وتعاهد على المصافاة والتعاقد، والله أعلم.

وفي سنة ثلاث وعشرين وستائة في شعبان سار كيقباز إلى بلاد الملك

المسعود صاحب آمد، وملك عدة من حصونه. وكان صاحب آمد قد اتفق مع السلطان جلال الدين خوارزم شاه على مخالفة الأشرف صاحب دمشق، فأرسل الأشرف إلى كيقباد بقصد آمد، فسار وفتح حصن منصور وحصن شمشكازاد وغيرهما، فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الملك الأشرف، وعاد إلى موافقته. فأرسل الأشرف إلى كيقباد يعرفه الصلح وأن يعيد إلى صاحب آمد ما أخذه، فامتنع وقال: ما أنا نائب الأشرف يأمرني وينهاني، فأمر الأشرف عساكره بمساعدة صاحب آمد إن أصر ملك الروم على قصد محاصرته. فاجتمع العسكر الأشرفي مع صاحب آمد وساروا إلى كيقباد وهو يحاصر قلعة الكختا، فالتقوا في شوال فانهزم صاحب آمد ومن معه هزيمة عظيمة، وأسر كثير من أصحابه، وجرح، وملك كيقباد قلعة الكختا.

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة ملك كيقباد أرزنكان، وكان صاحبها بهرام شاه قد طال ملكه بها، وجاوز ستين سنة، ولم يزل في طاعة السلجقية ملوك الروم، فلما توفي ملك بعده ولده علاء الدين داود شاه، فأرسل إليه كيقباد يطلبه بعسكره يسير معه إلى مدينة أرزن الروم ليحاصرها، فحضر إليه فقبض عليه وأخذ مدينته، ثم ملك حصن كماخ، وكان من أمنع الحصون. وقصد أرزن الروم ليأخذها من ابن عمه طغرل شاه، فاستنجد صاحبها بالأمير حسام الدين علي نائب الأشرف بخلاط، وأظهر طاعة الأشرف، فسار إليه بمن عنده من العسكر خوفاً أن كيقباد إذا ملك أرزن الروم قصد خلاط وغيرها، فعاد ولم يقدم على قصدها، وتوجه إلى مدينة أنطاكية ليشتو بها والله أعلم.

ذكر اجتماع كيقباد والأشرف على حرب جلال الدين خوارزم شاه وانهزامه منهما

كان سبب ذلك أن جلال الدين خوارزم شاه لما حاصر خلاط حضر

إليه صاحب أرزن الروم، وهو طغرل شاه السلجقي ابن عم كيقباز، وأطاعه وأعانه على الحصار، وكان بينه وبين ابن عمه عداوة مستحكمة فخاف كيقباز أن السلطان جلال الدين يتوصل إلى ملك بلاده، فراسل الملك الكامل صاحب مصر وهو إذ ذاك بحران، وسأله أن يستدعي الملك الأشرف من دمشق، فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف واجتمع هو وكيقباز، واتفقا على حرب جلال الدين، وكان عسكر كيقباز عشرين ألف فارس وعسكر الأشرف خمسة آلاف فارس، إلا أنهم كانوا من الشجعان الذين لا يقوم أحد بحربهم، فسار جلال الدين لقتالهم والتقوا يوم السبت الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة بمكان من أعمال أزنجان، فانهزم جلال الدين وعاد إلى خلاط، فأخذ من كان بها من أصحابه وفارقها، وأسر في هذه الواقعة جماعة من أصحاب السلطان. فأمر كيقباز بضرب أعناقهم، وأسر ابن عمه صاحب أرزن الروم، وقصد به بلده، فتسلم أرزن الروم وما معها من القلاع، وما بها من الخزائن وغيرها. فكان طغرل شاه كما قيل: « خرجت النعمة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين »؛ وكان هذا قد عاهد جلال الدين على أنه يملكه بعض بلاد كيقباز، فأخذ ما بيده . واستمر كيقباز في الملك إلى أن توفي، وكانت وفاته في سنة أربع وثلاثين وستمائة، وملك بعده ولده.

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو ابن الملك علاء الدين كيقباز غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلмыш بن أرسلان ييغو ابن سلجق، وهو الحادي عشر من الملوك السلجقية ، بالروم

ملك المملكة الرومية بعد وفاة أبيه الملك كيقباز في سنة أربع وثلاثين وستمائة، وجلس على تخت السلطنة بمدينة قونية وراسله الملوك في

الموافقة، وهي السنة التي وصل التتار فيها إلى الروم، وفي سنة خمس وثلاثين أرسل غياث الدين إلى والدته الملك العزيز يخطب بنت ابنها العزيز لنفسه، وأن يتزوج الملك الناصر صاحب حلب أخت السلطان غياث الدين، فاستقر بينهما الأمر، وعقد عقد السلطان على غازية خاتون ابنة الملك العزيز على خمسين ألف دينار، ووصل صاحب كمال الدين ابن العديم من حلب إلى السلطان. فزوج أخته من الملك الناصر على نظير هذا الصداق. فحصل الاتفاق بينهما، ثم أرسل السلطان غياث الدين إلى حلب يطلب أن تقام له الخطبة بها وتضرب السكة باسمه، فتوقفت صاحبة والدته العزيز في ذلك، فأشير عليها بالموافقة فأجابت إلى ذلك، وخطب له بحلب. وفي سنة إحدى وأربعين وستمائة، دخل ييجو مقدم التتار إلى بلاد الروم، والتقى هو والسلطان غياث الدين فكسروهم كخيروهم، ثم عاودوا القتال فهزموه، وقتل جماعة من أصحابه، والتجأ إلى بعض المعازل؛ ثم حصلت المهادنة على أتاوة يؤديها غياث الدين للتتار في كل سنة.

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة وصل التتار إلى بلاد الروم صحبة جرماغون وييجو من قبل منكوقان الملك، فخرج السلطان غياث الدين لقتالهم بجميع عساكره، واستصحب حريمه ليقاتل قتال الحریم. واستشار أصحابه فيما يفعل، فكان منهم من هول عليه أمر التتار وكان غياث الدين قد زوجه والده بكرجي خاتون ابنة ملك الكرج، فلما أفضت السلطنة إليه جعل أخاها مقدما على الجيش، وكان نصرانيا، لم ينتقل عن ملته، فكرهه الأمراء وكرهوا السلطان بسببه. فلما كان في هذا الوقت قال للسلطان غياث الدين: « ضم إلي من في عسكري من الكرج والفرنج، وأنا ألقى التتار بهم ». فغاض الأمراء كلامه، وتقدم أحد أعيانهم فحلف أنه لا بد أن يلقي التتار بنفسه، ومن صحبه، وركب في نحو عشرين ألف فارس، وتقدم إلى التتار وهم بصحراء اقشهر زنجان، وكان غياث الدين على الجبل الأقرع واسمه كوه داغ، وهو مشرف على الوطأة

التي نزل بها التتار. وسار الأمير فيمن معه، وتبعه السلطان ببقية الجيش فوجد المقدم أمامه واد قطعاه السيل، فلم يستطع قطعه إلى جهة التتار . فسار مع لحف الجبل، يطلب طريقا يمكنه التوصل منه إلى التتار. فركب التتار وقصدوه ودنوا منه وراسلوه بالسهام، فأهلكوا أكثر الخيل التي معه، فكان السهم لا يقع إلا في فرس أو فارس، فتفرقوا عند ذلك، وطلبوا النجاة لأنفسهم، وعاد السلطان غياث الدين إلى المخيم، وجهاز حريمه إلى قونية، وهي دار المملكة، ومسافتها من المكان الذي هو فيه نحو شهر، فسن صحبة أمير، ولم يحملن معهن إلا ما خف، ورجع السلطان وترك الوطاق والدهاليز والخيام منصوبة، وبها الأثقال والخزائن والذخائر. وأقام التتار ثلاثة أيام لم يقدموا على دخول الوطاق ظنا منهم أنها مكيدة، ثم عبروا الوطاق واستولوا على ما فيه، ورجعوا.

وتوفي غياث الدين في هذه السنة، وخلف ثلاثة أولاد: عز الدين كيكاس، وركن الدين قلج أرسلان، وعلاء الدين كيقباز.

ذكر أحوال أولاد السلطان غياث الدين كيخسرو بعد وفاة أبيهم

قال: لما توفي غياث الدين استقر أولاده الثلاثة في السلطنة، ولم ينفرد بها أحد عن الآخر، وضربت السكة باسمهم جميعا، وخطب لهم وكان والدهم قد جعل ولاية العهد لولده علاء الدين كيقباز بن كرجي خاتون، فاتفقوا على أن يتوجه إلى منكوقان يطلب منه الصلح والهدنة، ويقر له أتاوة. هذا بعد أن استولى بيجو على قيسارية وأعمالها وما حولها، وصار بيده من المملكة الرومية مسافة شهر.

قال: فتوجه علاء الدين كيقباز إلى منكوقان ملك التتار ومعه الهدايا والتحف، وذلك في سنة خمس وخمسين وستائة. وقصد الأردو ومعه

الأمير سيف الدين طرنطاي، وهو من أكابر الأمراء وشجعان الدين ملك السواحل. وأقام أخواه بقونية فاختلعت أراؤهما وآل أمرهما إلى القتال. فانتصر عز الدين كيكافوس واستقر بقونية بمفرده، واعتقل ركن الدين قلعج أرسلان، كل ذلك ويبجو بالروم قال: ولما اعتقل قلعج أرسلان، ضاق أصحابه ومنهم صاحب شمس الدين الطغرائي، والأمير سيف الدين جاليش وغيرهم، ففكروا فيما يفعلون فزوروا كتابا عن السلطان عز الدين كيكافوس إلى سيف الدين طرنطاي ورفيقه، أن يسلم إليهم السلطان علاء الدين كيقباز، وما معها من الهدايا والتحف، ليتوجه صاحب بذلك إلى منكوقان، ويعود طرنطاي ورفيقه إلى قونية. وساورا بهذه الكتب الموضوعية في إثر السلطان كيقباز، فلحقوه وقد وصل إلى أردوباطو فدخلوا على باطو وقالوا: « إن السلطان عز الدين كان قد أرسل أخاه ليتوجه إلى القان وأرسل معه هذين - يعنون طرنطاي ورفيقه. ثم اتضح له أنها قد أضمرنا سوء، وأن طرنطاي ضربته صاعقة فيما مضى من الزمان، فلا يصلح أن يدخل بين يدي القان. ورفيقه شجاع الدين طبيب ساحر، وقد أخذ صحبتته شيئا من السم القاتل ليغتال به منكوقان، فأرسلنا عوضا عنهما وأمرنا بردهما » فلما سمع باطو ما قاله صاحب، أمر بإحضار طرنطاي ورفيقه وفتش ما معها من القماش والأصناف، فكان فيه براني أشربة وعقاقير، من جملتها السقمونيا، فأمره أن يأكل من ذلك فأكل وامتنع من السقمونيا. فظنها باطوسما، واستدعى الأطباء فقالوا إنها من الأدوية، وآخر الأمر أن باطو خير صاحب ورفيقته بين أن يستصحبوا الهدايا إلى القان، ويكون السلطان صحبة طرنطاي ورفيقه أو العكس. فاختار صاحب أن يكون السلطان معه والهدايا مع طرنطاي، وافترقا على ذلك. وتوجه السلطان كيقباز والصاحب إلى القان، وتوجه طرنطاي ورفيقه بالهدايا إليه، وافترقا في الطريق، فكل قصد جهة، واتفقت وفاة السلطان في طريقه، وجرت لهم خطوط يطول شرحها، آخرها أنهم وصلوا إلى القان بالأردو وتنافسوا

الرياسة في مجلسه، ثم اتفق الحال أن تكون مملكة الروم مقسومة بين الأخوين، فجعل لعز الدين كيكاوس من نهر سيواس إلى حد بلاد اشكري، ولركن الدين قلعج أرسلان من نهر سيواس إلى تخوم أرزن الروم من الجهة الشمالية المتصلة ببلاد التتار. واستقر عليهما اتاوة يحملونها إلى الأردو، وعاد الصاحب شمس الدين وطرنطاي ورفقتهما من عنده ، فما وصلوا إلى الروم حتى دخلت التتار، وكان بينهم وبين السلطان عز الدين ما نذكره إن شاء الله في أخبار التتار.

قال: ووصل الصاحب ورفقته إلى الروم

في سنة سبع وخمسين وستمائة، واستقرت القسمة بين الأخوين على ما قرره منكوقان، وانفرد كل منهما بما استقر له، وانضم إليه جماعة من الأمراء . ثم قدم هولاکو وملك بغداد، فاستدعاهما فسارا إليه، وحضرا معه أخذ حلب، ثم عادا إلى بلادهما على القسمة التي قسمها منكوقان، فلما كان في سنة ستين وستمائة بعث هولاکو يستدعي شمس الدين بوتاش نائب السلطان عز الدين، فأرسله إليه فوصل إلى أرزنكان صحبة رسل هولاکو. فوافق وصورهم إليها عند غطاس النصاري، فخذلوا إلى الفرات بجمع كثير، ومعهم الجاثليق وقد رفعوا الصلبان على الرماح، وأعلنوا بالنواقيس والصياح، فأنكر عليهم شمس الدين، وقصد منعهم، فمنعه رسل هولاکو، وقالوا: « هذه بلاد السلطان ركن الدين فلا يحدث فيها » ، وسألوا الجاثليق: « كيف كان عادتكم في أيام السلطان غياث الدين؟ » فقال: « كنا نحمل له ثلاثة آلاف درهم، ونعمل ما نختار » فأخذوا منه ثلاثة آلاف درهم ومكنوه من عمل العيد كما أراد، فلما جرت هذه المفاوضة بين رسل هولاکو وشمس الدين ، عاد مغضبا ورجع إلى السلطان عز الدين، وحمله على المخالفة والعصيان، فوافقه على ذلك واستولى على أكثر بلاد أخيه ركن الدين. فتوجه ركن الدين إلى هولاکو واستنصر به، فبعث معه تومانا^(٢) من التتار، فكسرهم عز الدين، ثم

استمدوا هولاء، فأمدهم بتومان آخر، فهرب عز الدين وفارق البلاد ودخل إلى الأشكري بالقسطنطينية، وصحبته أخواله، وهما على دين النصرانية، وثلاثة نفر من أمرائه. واستولى ركن الدين على جميع البلاد واستقل بملكها.

وأما عز الدين فإنه لما وصل إلى الأشكري أكرمه وأحسن إليه، فأقام عنده إلى سنة اثنتين وستين وستمائة، فقصد الأمراء الذين كانوا معه وهم عز الدين أمير آخر، وعلي بعاذر، وأمير مجلس، أن يشبوا على الأشكري فيقتلوه، وأعلموا صاحبهم عز الدين بذلك. وقالوا له: « اكتمه عن خالك » فلم يكتمه عنهما، وأعلمهما به، وأمرهما أن يعرفا الأشكري بذلك، وأنه لا يركب في اليوم الذي قصد الأمراء الفتك به فيه. فعرفاه، فقبض على الأمراء وكحلهم، وقبض على السلطان عز الدين واعتقله بقلعة من القلاع الغربية، فأقام بها إلى سنة ثمان وستين وستمائة. وجمع الأشكري أصحاب الأمراء وأتباعهم، وعرض عليهم الدخول في دينه. فمن وافق تركه ومن أبى كحله. فمنهم من وافق وتنصر، ومنهم من امتنع فكحل، وعرض على رجل منهم أن يتنصر فصاح وقال: « الجنة معدة للإسلام، والنار معدة لكم » فقال: هذا رجل ثابت على دينه وأطلقه، وكتب له ورقة للطريق.

وفي سنة ثمان وستين وستمائة خلص السلطان عز الدين وأهله من الاعتقال، وسبب ذلك أن منكوتمر بن طغان جهز عسكرياً إلى اسطنبول، فأغاروا عليها، وأخذوا عز الدين من القلعة التي كان بها، وأحضره إلى منكوتمر، فأكرمه وأحسن إليه وأقام ببلاد قرم، وتزوج بها، واستمر إلى أن توفي في سنة سبع وسبعين وستمائة.

ذكر قتل السلطان ركن الدين قلج أرسلان وولاية ابنه غياث الدين كيخسرو

وفي سنة ست وستين وستمائة دبر البرواناه على السلطان ركن الدين،
واتفق مع التتار الذين عنده على قتله ليتمكن من البلاد. فعمل وليمة
 واجتمع فيها التتار، واستدعوا السلطان فحضر إليهم وأكل وشرب،
فقاموا إليه وخنقوه بوتر، فمات ، واستقر في الملك بعده ولده السلطان
غياث الدين كيخسرو، وله من العمر أربع سنين، واستولى البرواناه على
الحكم في المملكة الرومية، والله أعلم.

ذكر خبر البرواناه معين الدين سليمان وأصله وتنقله

أما أصله فمن الديلم. وكان والده مهذب الدين علي، حضر وهو
شاب في أيام السلطان علاء الدين كيقباز إلى سعد الدين المستوفي
بالروم، وهو إذ ذاك نافذ الحكم، فسأله أن يجري عليه جاريا في بعض
المدارس، يكون درهما في اليوم، يقتات به. وكان شابا جميلا وسيما من
طلبة العلم، فمال إليه المستوفي فقال: أريد أن أتخذك ولدا، وأخذه وقربه
وأدناه وأحسن إليه، وزوجه بابنته ثم اتفقت وفاة المستوفي ، فوصف
مهذب الدين للسلطان علاء الدين بالكفاية والمعرفة والفضيلة، فقربه
منه ، وترشح للوزارة واستوزره وألقى إليه مقاليد الدولة، ورزق مهذب
الدين ولده معين الدين سليمان المسمى بالبرواناه.

وتقدم معين الدين في الدولة السلجقية إلى أن استولى على الجبل
والعقد، ولم يكن للسلطان غياث الدين كيخسرو هذا معه في السلطنة
غير الاسم. ومعين الدين هذا هو والد الأمير علاء الدين علي بن
البرواناه، أحد أمراء الدولة الناصرية^(٣). وولي القاهرة، ثم ولي نيابة دار
العدل الشريف، وتقدم على الجيوش، قال: واستمر غياث الدين

كيخسرو في اسم السلطنة بالروم إلى أيام السلطان أحمد في سنة إحدى
وثمانين وستمائة، فاستدعاه إلى الأردو، وعزله عن السلطنة، ورسم له
بالإقامة بأرزنكان، فأقام بها إلى سنة اثنين وثمانين وستمائة. فدرس عليه
أرغون بن أبغا من خنقه بوترفمات ولما عزل غياث الدين فوض السلطان
أحمد السلطنة في الروم إلى السلطان مسعود ابن السلطان غياث الدين
كيكاوس ابن السلطان غياث الدين كيوخسرو ابن السلطان علاء الدين
كيقباد ابن السلطان غياث الدين كيوخسرو ابن السلطان عز الدين قلعج
أرسلان ابن الملك مسعود ابن الملك قلعج أرسلان ابن الملك سليمان ابن
الملك شهاب الدولة قتلмыш بن رسلان ييغو بن سلجق ملك المملكة
الرومية، بعد عزل غياث الدين كيوخسرو ابن ركن الدين قلعج أرسلان في
أيام السلطان أحمد في سنة إحدى وثمانين وستمائة، فاستمر وليس له من
الأمر شيء إلا اسم السلطنة خاصة، والحكم في المملكة الرومية للتتار
وشحانهم.

هذا آخر ما اتصل إلينا من أخبارهم إلى حين وضعنا هذا التأليف في
سنة أربع عشرة وسبعائة. فلنذكر أخبار الدولة الأتابكية، لأنها من فروع
الدولة السلجقية، وبتمامها يتم هذا الباب إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الدولة الأتابكية

وهذه الدولة من فروع الدولة السلجقية، كان ابتداءؤها أولا بحلب في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ثم انقطعت بقتل أقسنقر مدة ثم قامت بالموصل وحلب والشام وبمصر خطبة، وقاعدة هذه الدولة وعماؤها المشار إليه من ملوكها نور الدين محمود بن زنكي. ونحن نذكر أصل هذا البيت الأتابكي وننقله إلى أن ملك نور الدين الشهيد، وما انتهى إليه حال هذه الدولة إلى حين انقراضها، فنقول: أصل البيت الأتابكي أقسنقر التركي.

ذكر أخبار قسيم الدولة أقسنقر التركي

كان تركيا من أصحاب السلطان ركن الدولة ملكشاه السلجقي، وتربى معه من صغره وهو من أترابه، واستمر في صحبته حتى أفضت إليه السلطنة، فكان من أعيان أمرائه، واعتمد عليه في مهماته وزاد في علو مرتبته، فصار الوزير نظام الملك مع عظم شأنه وجلالة قدره، يتقيه ويداريه. وما يدل على مكانته وعلو شأنه كونه لقب قسيم الدولة، مع صون الألقاب والمشاححة فيها في ذلك الوقت.

ولما ملك السلطان ملكشاه مدينة حلب كما ذكرناه في أخباره سلمها لقسيم الدولة في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة ثمانين، فعمرها وأحسن السيرة فيها فمال الناس إليه وأحبوه، ثم تسلم من الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب شيزر: اللاذقية، وأفامية، وكفر طاب، فأشار الوزير نظام الملك على السلطان ملكشاه أن يسلم ذلك إلى قسيم الدولة مع حماه ومنبج، فأقطعه السلطان جميع ذلك، فعظمت هيئته، وظهرت كفايته، وقمع أهل الفساد والبغي. ثم استدعاه السلطان إلى العراق فقدم متجملا بعسكر عظيم، فاستحسن ذلك منه وعظمه

وأعادته إلى أعماله. وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة قصد أقسنقر شيزر ونهبها وعاد إلى حلب. وفي سنة ثلاث وثمانين حاصر مدينة حمص وملكها، فسار صاحبها ابن ملاعب إلى الديار المصرية.

وفي سنة أربع وثمانين ملك حصن أفامية والرحبة، واستمر قسيم الدولة كذلك إلى أن مات السلطان ملكشاه في سنة خمس وثمانين، فجهز عند ذلك جيشا إلى تكريت فملكها، واتفق أن تاج الدولة تتش صاحب دمشق طمع بعد وفاة أخيه السلطان ملكشاه في السلطنة، فسار من دمشق إلى حلب، فلم يمكن قسيم الدولة إلا موافقته والدخول في طاعته. وكان من أمر تتش ما قدمناه في أخباره، وفارقه قسيم الدولة والتحق بالسلطان بركياروق ولد صاحبه السلطان ملك شاه كما قدمنا ذكر ذلك مبينا.

ذكر قتل قسيم الدولة

قال: ولما فارق قسيم الدولة تتش واستمر في خدمة السلطان بركياروق وعاد تتش إلى الشام، أمر بركياروق قسيم الدولة وبوزان صاحب حران بالعود إلى بلادهما ليمنعا تتش من التغلب عليها، فعادا، وجمع تتش العساكر وسار نحو حلب، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان، وأمدهما السلطان بركياروق بالأمير كربوقا صاحب الموصل، فالتقوا مع تتش بالقرب من تل السلطان على ستة فراسخ من مدينة حلب. فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيرا، فقتله تتش صبرا، ودخل بوزان وكربوقا حلب، فحصرهما تاج الدولة تتش وفتحها وأخذهما، فقتل بوزان واعتقل كربوقا، فلم يزل إلى أن خلص في أيام الملك رضوان بعد قتل تتش. وكان مقتل قسيم الدولة في سنة سبع وثمانين وأربعمائة. وكان رحمه الله حسن السيرة والسياسة كثير الإحسان إلى رعيته فكانوا في أيامه بين عدل غامر ورخص شامل وأمن واسع، رحمه الله تعالى.

ذكر أخبار عماد الدين أتابك زنكي بن قسيم الدولة أقسنقر

قال المؤرخون: لما قتل قسيم الدولة كان عمر ولده زنكي نحو عشر سنين، ولم يخلف من الذرية غيره، فاجتمع ممالك والده عليه وأصحابه. فلما خلع قوام الدين كربوقا من السجن، بعد قتل تتش في سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وملك حران ونصيبين والموصل وماردين، وعظم شأنه وهو في طاعة السلطان بركياروق، أحضر ممالك قسيم الدولة، وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكي، وقال: هو ابن أخي، وأنا أولى الناس بتربته، فأحضروه إليه، وأقطعهم كربوقا الإقطاعات السنية واستعان بهم في حروبه، وسار بهم إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان، والتقوا فهزمهم كربوقا. وهو أول مصاف حضره زنكي بعد قتل والده. ولم يزل عند كربوقا إلى أن توفي في سنة أربع وتسعين وأربعمائة. وملك بعده موسى التركماني، فقتل ولم تطل مدته. ثم ملك الموصل شمس الدولة جكرمش، وهو من ممالك السلطان ملكشاه، فاتخذ عماد الدين زنكي كالولد، فكان عنده إلى أن قتل في سنة خمسائة. ثم ملك الموصل بعده جاولي سقاوا، فاتصل به عماد الدين، وقد كبر وظهرت شهامته. ولم يزل معه حتى عصى على السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، فأرسل السلطان الأمير مودود إلى الموصل، في سنة اثنتين وخمسمائة، وأقطعه إياها، ففارقه عماد الدين وغيره من الأمراء، والتحقوا بمودود، فأكرم زنكي وشهد حروبه، ثم سار مودود إلى الشام ففتح في طريقه قلاعاً كانت للفرنج، ثم حضر عند أتابك طغديك صاحب دمشق وسار إلى طبرية وحاصرها، وقاتلوا قتالاً شديداً، فظهر من عماد الدين زنكي شجاعة عظيمة، منها أنه كان في نفر وخرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه فهزمهم، واستمر في حملته وهو يظن أن أصحابه يتبعونه، فتخلفوا عنه، وتقدم وحده إلى أن وصل إلى باب المدينة، وأثر رمحه فيه. وقاتل الفرنج عليه وحى نفسه، وعاد سالماً، فعجب الناس من

إقدامه وسلامته. ثم عاد إلى دمشق صحبة الأمير مودود، فخرج مودود لصلاة الجمعة، فلما صلى وانصرف، فبينما هو في صحن الجامع ويده بيد طغديكين وثب عليه إنسان فضربه بسكين، فحمل إلى بيت طغديكين فمات في بقية يومه، وكان صائماً ولم يفطر، وقتل قاتله، قال: ولما قتل كتب ملك الفرنج إلى طغديكين يقول:

« إن أمة قتلت عميدها، في يوم عيدها، في بيت معبودها، حقيق على الله أن يبيدها»، ثم أقطع السلطان الموصل وغيرها بعد قتل مودود للأمير جيوش بك، وسير معه ولده الملك مسعود، كما ذكرناه، ثم جهز السلطان أقسنقر البرسقي في العساكر لقتال الفرنج، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه، فساروا وفيهم عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عساكر العجم زنكي الشامي، فسار أقسنقر إلى الرها وإلى سميساط وبلد سروج، وقاتل الفرنج وأبلى زنكي في هذه المواقف بلاء حسناً، فعادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقي وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود، والأمير جيوش بك، إلى أن أظهر العصيان على السلطان في سنة أربع عشرة وخمسة، ثم استأمن الملك مسعود لأخيه السلطان على ما قدمنا ذكر ذلك في أخبار الدولة السلجقية.

ذكر ابتداء حال عماد الدين زنكي وترقيه وتنقله في الولايات

كان ابتداء ولايته في سنة ست عشرة وخمسة، وذلك أن السلطان محمود أقطع الأمير أقسنقر البرسقي مدينة واسط وأعمالها، مضافاً إلى ما بيده من ولاية الموصل وشحنكية العراق وغير ذلك، فسار البرسقي إليها عماد الدين زنكي وأمره بحمايتها، فسار إليها في شعبان وقام بحمايتها أحسن قيام، وحضر مع الخليفة المسترشد بالله قتال ديبس بن صدقة

أمير الحلة. وكان لعماد الدين في ذلك آثار حسنة ، وأقام إلى أن عزل أقسنقر البرسقي عن شحنكية العراق، ورجع إلى الموصل في سنة ثمان عشرة وخمسمائة. وكان عماد الدين إذ ذاك بالبصرة قد سيره البرسقي لحمايتها ، فلما توجه البرسقي إلى الموصل أرسل إليه يأمره باللاحاق به، فقال لأصحابه: « قد ضجرنا مما نحن فيه بالموصل، في كل يوم أمير جديد، ونحتاج نخدمه، وقد رأيت أن أسير إلى السلطان محمود فأكون معه»؛ فأشاروا عليه بذلك. فسار إلى السلطان فقدم عليه وهو بأصفهان، فأكرمه. وكان يقف عن يمين تحت السلطان إلى جانبه لايتقدم عليه غيره، وهي منزلة والده من قبله. ثم بلغ السلطان أن العرب تجمعت ونهبت البصرة ، فأقطعها لعماد الدين زنكي، وأعادته إليها، وهذه الولاية هي أول ولاياته من قبل السلطان، فضبط عماد الدين زنكي البصرة وأعمالها وقام فيها أحسن قيام، وكف الأيدي عنها.

فلما وقع الاختلاف بين السلطان محمود والخليفة المسترشد بالله، وحضر السلطان إلى بغداد وحصرها كما قدمنا ذكر ذلك، أرسل إلى عماد الدين زنكي وهو بواسط يأمره بالحضور بنفسه ومعه المقاتلة في السفن وعلى الدواب، ففعل ذلك وجاء في موكب عظيم في البر والبحر، فركب السلطان للقائه، ورأى الناس من ذلك ما هالهم، وعظم عماد الدين في أعينهم. ثم حصل الاتفاق بعد ذلك بين السلطان والخليفة كما ذكرنا.

ذكر ولاية عماد الدين زنكي شحنكية العراق

وفي شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وخمسمائة أسند السلطان محمود شحنكية العراق إلى الأمير عماد الدين زنكي، ومسبب ذلك أن السلطان لما عزم على المسير عن بغداد إلى همدان، نظر فيمن يصلح لشحنكية العراق ممن يأمن جانبه مع الخليفة، واعتبر أعيان دولته، فلم ير فيهم من يقوم بأعباء هذا الأمر مقامه، فاستشار أصحابه في ذلك

فكل أشار عليه به وقالوا: « لا يقدر على سد هذا الخزق ، وإعادة ناموس هذه الولاية، ولا تقوى نفس أحد على ركوب هذا الخطر، غير عماد الدين زنكي، ففوض إليه ولايتها، مضافا إلى ما بيده من الإقطاع، وكانت شحنة العراق من أعظم الولايات، وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن من جهة العراق، ولم يطل مقام زنكي ببغداد حتى انتقل إلى ولاية الموصل.

ذكر ولاية عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها

كانت ولاية عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة. وسبب ذلك أن أفسنقر البرسقي لما قتل على ما ذكرناه، وولي بعده ابنه مسعود في ثامن ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة، فمات مسعود في سنة إحدى وعشرين، وهو يحاصر الرحبة. فلما مات قام بعده أخ له صغير، واستولى على البلاد جاوли مملوك أبيه، ودبر أمر الصبي، وأرسل إلى السلطان يطلب تقرير أعمال الموصل على الصغير ولد أفسنقر البرسقي، وبذل الأموال الكثيرة على ذلك، وكان الرسول في ذلك القاضي بهاء الدين علي بن القاسم الشهر زوري، وصلاح الدين محمد الياغسياني أمير حاجب البرسقي، فسارا حتى حضرا دركة السلطان ليخاطباه في ذلك، وكانا يكرهان جاوли ويخافانه، ولا يرضيان بطاعته، فاجتمع صلاح الدين مع نصير الدين جقر الذي صار ينوب عن عماد الدين، فذكر له صلاح الدين ماورد فيه، وكان بينهما صهارة. فعخوفه نصير الدين من جاولي، وقبح عنده طاعته، وقرر في نفسه أن جاولي إنما أبقاه لحاجته إليه، وأنه متى أجيب إلى مطلوبه لا يبقى على أحد منهم، وحسن له المخاطبة في ولاية عماد الدين زنكي، وضمن له الولايات والإقطاعات الكبيرة، وكذلك للقاضي بهاء الدين، فقاما وركبا إلى دار الوزير شرف الدين أنو شروان بن خالد، واجتمعا به وقالوا له: « قد علمت وعلم السلطان أن ديار الجزيرة والشام

قد تمكن الفرنج منهما، وقويت شوكتهم بها، واستولوا على أكثرها، وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردین إلى عريش مصر، ما عدا البلاد الباقية للمسلمين. وكان البرسقي بشجاعته وانقياد العساكر إليه، يكف بعض عاديتهم وشرهم، وقد زاد طمعهم منذ قتل، وولده هذا طفل صغير، ولا بد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأي وتجربة، يذب عنها، ويحمي حوزتها. وقد أنهينا الحال لثلاث يجري خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين فيختص اللوم بنا. ويقال لم لا أنهيتم إلينا جلية الحال، فرفع الوزير قولها إلى السلطان فاستحسنه وشكرهما عليه، وأحضرهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية، فذكرا جماعة فيهم عماد الدين زنكي، وبذلا عنه تقربا إلى خزانة السلطان مالا جليلا، فأجاب السلطان إلى ولايته، فأحضره وولاه جميع تلك البلاد، وكتب منشوره بها، وسار عماد الدين زنكي إليها فبدأ بالبوازيج ليملكها ويتقوى بها ويجعلها ظهره، لأنه خاف من جاوли أنه ربما يصدده عن البلاد، ثم سار عن البوازيج إلى الموصل، فلما سمع جاولي بقربه خرج إلى لقائه ومعه سائر العسكر، وترجل عند مقابلته، وقبل الأرض بين يديه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فدخلها في شهر رمضان من السنة، وأقطع جاولي الرحبة وسيره إليها، وولى نصير الدين دزدارية قلعة الموصل وجعل إليه سائر دزدارية القلاع، وجعل صلاح الدين محمد أمير حاجب، وبهاء الدين علي الشهرزوري قاضي القضاة بجميع بلاده، وزاده إقطاعا وأملاكا، وكان لا يصدر إلا عن رأيه.

فلما فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جزيرة ابن عمرو بها مماليك البرسقي، فامتنعوا عليه فحصرهم وراسلهم، وبذل لهم البذول الكثيرة على التسليم، فلما لم يجيبوا إلى ذلك جد في قتالهم وكان بينه وبين البلد دجلة، فأمر الناس باللقاء أنفسهم في الماء، ففعلوا وعبروا سباحة وعبر بعضهم في السفن والأكلاك، وتكاثروا على أهل الجزيرة. وكانوا قد خرجوا إلى أرض بين الجزيرة ودجلة، تعرف بالزلاقة، ليمنعوا عسكر عماد

الدين، فلما رأوه قد عبر دجلة انهزموا ودخلوا البلد، وأرسلوا في طلب الأمان، فأمنهم ودخل البلد بعسكره. ثم زادت دجلة في تلك الليلة زيادة عظيمة لحقت سور البلد، وصارت الزلاقة مملوءة بالماء، فلو أقام بها عماد الدين تلك الليلة هلك هو وعسكره، ولم يسلم منهم أحد، فأيقن الناس بسعادته.

ثم سار عن الجزيرة إلى نصيبين، وكانت لحسام الدين قمرتاش بن إيلغازي صاحب ماردين، فلما نازها سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا فاستنجده على أتابك زنكي، فوعده النجدة بنفسه وجميع عسكره. وعاد قمرتاش إلى ماردين، وأرسل رقعة على جناح طائر إلى نصيبين، يعرف من بها من العسكر أنه وابن عمه واصلان إليهم بالعسكر الكثير لدفع زنكي عنهم، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيام. فبينما أتابك زنكي في خيمته وإذا بطائر سقط على الخيمة وهو ينظر إليه، فأمر بمسكه فمسك، فرأى فيه الرقعة فقرأها، وأمر بكتب غيرها يقول: « إنني مضيت إلى ركن الدولة وقد وعدني النصر بجميع العساكر وما نتأخر عن الوصول أكثر من عشرين يوماً » وأمرهم بحفظ البلد هذه المدة، إلى أن يصلوا وجعلها على الطائر، وأرسله. فوصل إلى نصيبين فلما قرأ من بها الرقعة، سقط في أيديهم، وعلموا عجزهم عن حفظ البلد هذه المدة، فأرسلوا إلى زنكي وصالحوه وسلموا إليه البلد، فبطل على داود وقمرتاش ما كانا عزماء عليه.

ولما ملك نصيبين سار عنها إلى سنجار، فامتنع من بها عليه ثم صالحوه وسلموها إليه، وسير منها الشحن إلى الخابور فملكه جميعه، ثم سار إلى حران وهي للمسلمين. وكانت الرها وسروج والبيرة وتلك النواحي جميعها للفرنج، وأهل حران معهم في ضر عظيم، وضيق شديد، لخلو تلك البلاد من حامي يذب عنها. فلما قاربها خرج أهل البلد إلى لقائه، وسلموها إليه، فأرسل إلى جوسلين صاحب الرها، وتلك البلاد

وهادنه مدة يسيرة، وكان غرضه أن يتفرغ لإصلاح البلد، ويحشد، ويملك حلب والشام، ثم يقاتل الفرنج.

ذكر ملك عماد الدين حلب

وفي المحرم سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، ملك عماد الدين زنكي حلب وقلعتها. وسبب ذلك أنها كانت بيد تومان نيابة عن عز الدين مسعود بن آقسنقر البرسقي. ثم استتاب بعده قتلغ فوصل إليها بعد وفاة مسعود، وتسلمها. ثم ثار به أهل المدينة وسلموها إلى سليمان بن عبد الجبار. فسير عماد الدين إليها الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقوش في عسكر قوي، ومعهما التوقيع من السلطان لعماد الدين بالموصل والجزيرة والشام. فوصلوا إلى حلب وسيرا قتلغ وابن عبد الجبار إلى عماد الدين بالموصل، فسارا إليه وأقام حسن قراقوش بحلب واليا عليها. فلما وصل بدر الدولة ابن عبد الجبار وقاتلغ إلى عماد الدين أصلح بينهما، ولم يردهما إلى حلب، وسير حاجبه صلاح الدين محمد الياغسياني في عسكر إلى حلب، فصعد إلى قلعتها ورتب الأمور، وجعل فيها واليا، وسار عماد الدين إلى الشام في جيوشه، فملك في طريقه مدينة منبج وبزاعة، ووصل إلى حلب، فتلقاها أهلها، فدخلها ورتب أحوالها، وجعل رئاستها لأبي الحسن علي بن عبد الرزاق.

ذكر ملكه مدينة حماه

وفي سنة ثلاث وعشرين ملك عماد الدين زنكي مدينة حماه. وسبب ذلك أنه أظهر أنه يريد جهاد الفرنج، وأرسل إليه تاج الملوك بوري بن أتابك طغديكين صاحب دمشق يستنجده، ويطلب منه معونته على جهاد الفرنج، وكانوا قد حصروا دمشق. فأجاب إلى ذلك وجرد تاج الملوك عسكرا من دمشق، وأرسل إلى ابنه سونج وهو بمدينة حماه يأمره بالنزول

إلى العسكر والمسير به إلى زنكي، ففعل وساروا جميعهم فوصلوا إليه، فأكرمهم وأحسن لقاءهم، وتركهم أياماً، ثم قبض على سونج بن تاج الملوك، وعلى جماعة من الأمراء والمقدمين، وأنهب خيامهم وما فيها واعتقلهم بحلب. وسار من يومه إلى حماة، فوصل إليها وهي خالية من الجند فاستولى عليها، ورحل عنها إلى حمص. وكان صاحبها خيرخان بن قراجنا في عسكر عماد الدين، وهو الذي أشار عليه بالقبض على تاج الملوك، فقبض عليه أيضاً، ونزل على حمص، وطلب منه أن يأمر أصحابه وولده بحمص بتسليمها، فأرسل إليهم فلم يفعلوا، فحصرها مدة طويلة، ثم رحل عنها وعاد إلى الموصل.

ذكر ملكه حصن الأثارب وهزيمة الفرنج

قال: ولما فرغ عماد الدين من أمر البلاد الشامية، رجع إلى الموصل فأراح واستراح، وأمر أصحابه بالاستعداد فاستعدوا، ورجع إلى حلب وعزم على قصد حصن الأثارب، وهو فيما بين حلب وأنطاكية على ثلاثة فراسخ من حلب. وكان من به من الفرنج يقاسمون أهل حلب على جميع أعمالها الغربية حتى رعى لأهل حلب بظاهر باب الجنان، بينها وبين البلد عرض الطريق. فلما علم الفرنج بقصده جمعوا فارسهم وراجلهم واستعدوا وساروا نحوه، فتقدم إليهم والتقوا واقتتلوا واشتد القتال، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة، وأسر كثير من فرسانهم، وقتل كثير، وتقدم إلى الحصن فنأزله وفتحته عنوة، وعم من فيه بالقتل والأسر وأخربه، وجعله دكا، ثم سار إلى قلعة حارم وهي بالقرب من أنطاكية فحصرها، فبذل الفرنج نصف دخل بلد حارم وهادنوه فأجابهم إلى ذلك، وعاد عنهم وقد اشتد أزر المسلمين وصار قصار الفرنج حفظ ما بأيديهم، وذلك في سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

ولما عاد إلى ديار الجزيرة ملك سروج ودارا وهما من أعمال ركن الدولة صاحب حصن كيفا.

وفي سنة ست وعشرين سار عماد الدين بالعساكر من الموصل إلى العراق لنصرة السلطان مسعود بعد وفاة السلطان محمود، وكان مسعود قد كاتبه واستنجد به، فسار إليه ومعه الأمير ديبس بن صدقة فسار حتى نزل إلى البادية، وخرج الخليفة المسترشد بالله لحربه - وذلك في سابع عشرين شهر رجب من السنة - والتقوا واقتتلوا قتالا شديداً، فحمل عماد الدين على ميمنة الخليفة وبها جمال الدولة إقبال فهزمها، فحمل الخليفة بنفسه واشتد القتال فانهزم ديبس، وأراد عماد الدين الصبر فرأى الناس قد تفرقوا عنه فانهزم، وقتل من العسكر جماعة.

ثم سار المسترشد وحاصر الموصل كما ذكرناه في أخباره. وأن سبب ذلك أن الخليفة أرسل الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الاسفرائيني الواعظ إلى عماد الدين برسالة فيها خشونة، زادها الشيخ زيادة ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة، فقبض عليه عماد الدين وأهانته ولقيه بما يكره، فسار الخليفة في النصف من شعبان سنة سبع وعشرين ونازل الموصل، ففارقها زنكي ببعض العسكر، وترك بعضه مع نائبه نصير الدين جقردزار القلعة. ووصل عماد الدين إلى سنجار وقطع الميرة عن عسكر الخليفة وتخطف من ظفر به من العسكر. ودام الحصار ثلاثة أشهر، ثم رحل الخليفة عنها ولم يظفر منها بشيء.

وفي مدة الحصار ملك شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماه.

ذكر حصره مدينة آمد وملكه قلعة الصور

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة اجتمع عماد الدين أتابك زنكي وتمرناش صاحب ماردين، وحصروا مدينة آمد. فأرسل صاحبها إلى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده، فجمع عساكره وغيرها وسار نحو آمد ليرحلها عنها، فالتقوا على بابها، واقتتلوا في جمادى الآخرة، فانهزم داود وقتل جماعة من عسكره. ولم يبلغ عماد الدين من آمد غرضاً، فقصده قلعة الصور من ديار بكر، وحصرها وضايقها، فملكها في شهر رجب واتصل به ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوئي فاستوزره، وكان حسن السيرة عظيم الرئاسة والكفاية، والله أعلم.

ذكر ملكه قلاع الأكراد الحميدية

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة أيضا استولى على جميع قلاع الأكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرها. وكان لما ملك الموصل أقر صاحبها الأمير عيسى الحميدي على ولايتها وأعمالها، فلما حضر المسترشد أمر عماد الدين بحصر قلاع الأكراد فحصرت مدة طويلة، وقوتل من بها إلى أن ملكت في هذه السنة، فاطمأن حينئذ أهل السواد المجاورين لهذه القلاع، لأنهم كانوا مع الأكراد في ضيق عظيم من نهب أموالهم.

وفيها صلح أمر زنكي مع الخليفة

ذكر حصره مدينة دمشق

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة نازل عماد الدين أتابك زنكي مدينة دمشق، وحصرها في جمادى الأولى، وكان سبب ذلك أن صاحبها شمس الملوك كان قد كتب إليه يستدعيه ليسلم إليه البلد، فسار إليها، فقتل

شمس الملوك قيل وصبوله، وملك أخوه شهاب الدين محمود كما ذكرناه، فاستمر في مسيره فحاصرها. فأتاه وهو في الحصار رسول الخليفة بالخلع، ويأمره بمصالحة صاحب دمشق والرحيل عنها فصالحهم، وخطب له بدمشق ورحل عنها لليلتين بقيتا من جمادى الأولى من السنة.

وفي سنة ثلاثين وخمسة استنصر الخليفة الراشد بالله بعماد الدين على السلطان مسعود كما ذكرناه في أخبار الدولة العباسية، فجاء إليه هو وأصحاب الأطراف إلى بغداد، وكان بين الخليفة والسلطان ما ذكرناه من غلبة السلطان مسعود ومسير الخليفة إلى الموصل مع عماد الدين، وقد شرحنا ذلك مبينا في أخبار الدولة العباسية، فلا فائدة في إعادته، وإنما نبهنا عليه في هذا الموضع جريا على القاعدة.

ولما خلع الراشد وبويع للمقتفي لأمر الله، أرسل إليه عماد الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري، فحضر إلى الديوان، فأمر الخليفة أن يعطي أتابك زنكي: صريفين، ودرب هرون، وجري، ملكا، وهي من خاص الخليفة. «فعظم بذلك شأنه، وبايع للمقتفي لأمر الله، وخطب له بالموصل.

ذكر غزاة العسكر الأتابكي إلى بلاد الفرنج

وفي شعبان سنة ثلاثين وخمسة جهز عماد الدين أتابك زنكي عساكره مع الأمير سوار نائبه بحلب، فقصدوا بلد الفرنج على حين غفلة منهم، وساروا نحو جهة اللاذقية، فنهبوا منها شيئا كثيرا، وقتلوا وأسروا سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي، وغنموا مائة ألف رأس من الدواب، ما بين فرس وحمار وبقر وغنم، وغنموا غير ذلك من الأقمشة والعين والحلي ما لا يدخل تحت الإحصاء، وخرّبوا بلاد اللاذقية وما جاورها، ورجعوا بالظفر والغنيمة، والله أعلم.

ذكر ملكه قلعة بعرين وهزيمة الفرنج

وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة حصر عماد الدين زنكي حمص، وهي لصاحب دمشق، فلم ينل منها غرضاً. فرحل عنها إلى بعرين وهي للفرنج، فحاصرها في شوال، وهي من أمنع الحصون وأحصنها، وزحف عليها، فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وساروا بملوكهم وقباصتهم وكنودهم ليرحلوه عنها، فالتقوا واقتتلوا واشتد القتال، فأجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية، فاحتمى ملوكهم وفرسانهم بحصن بعرين لقربه، فحصرهم، فدخل القسوس والرهبان إلى بلاد الفرنج والروم وما ولاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين، وقالوا: إن المسلمين ليس لهم همة إلا قصد البيت المقدس، فاجتمعت ملوك النصرانية وصاروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام، وجدّ عماد الدين في الحصار، فقلت الأقوات عندهم، فسألوا الأمان على أن يتركهم يتوجهوا إلى بلادهم، فلم يجب إلى ذلك، إلى أن بلغه أن ملك الروم قد أقبل بجموع الفرنج والنصرانية، فأمنهم على تسليم الحصن وخمسين ألف دينار. ففعلوا ذلك. فلما فارقوا الحصن بلغهم اجتماع الروم والفرنج بسببهم، فندموا على تسليمه، وفتح عماد الدين في مقامه: المعرة، وكفر طاب، من الفرنج.

ولما فتح المعرة حضر إليه أرباب الأملاك، وطلبوا أملاكهم، فطلب منهم كتبها فاعتذروا أنها عدت عندما ملكها الفرنج، فأمر بإحضار دفاتر الديوان بحلب، وكشف منها فمن وجد باسمه خراج فيها عن ملك سلمه إليه أو لعقبه إن كان قد مات، وأعاد الأملاك بهذه الطريق، وهذه غاية في الإحسان وفي تسهيل البر والخير ونهاية في العدل.

وفيهما سار إلى دقوقا وملكها بعد قتال شديد.

ذكر ملكه مدينة حمص وغيرها من أعمال دمشق

وفي المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وصل زنكي إلى حماة، وسار منها إلى بقاع بعلبك، فملك حصن المجدل، وسار إلى حمص وحصرها وملكها وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وكان لصاحب دمشق، وبعث إلى شهاب الدين محمود صاحب دمشق يخطب أمه زمرد خاتون ابنة جاولي، فتزوجها وحملت إليه.

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام وملكه بزاعة وما فعله بالمسلمين

كان ملك الروم صاحب القسطنطينية قد دخل إلى البلاد في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وخرج على أنطاكية وسار إلى أذنة والمصيصة، وهما بيد ابن لاون الأرمني صاحب الدروب فحصرها، وملكها ورحل إلى عين زربة، فملكها عنوة، وملك تل خمدون، وحمل أهله إلى جزيرة قبرص، وعمر ميناء اسكندرونة، ثم خرج إلى الشام فحصر مدينة أنطاكية في ذي القعدة فصالحه صاحبها ريمند الفرنجي، فرحل عنها إلى بغراس ودخل ابن ليون في طاعته.

ثم سار إلى الشام في سنة اثنتين وثلاثين، وقصد بزاعة فحصرها، وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب، فملكها بالأمان في الخامس والعشرين من رجب، ثم غدر بأهلها فقتل منهم وسبى، فتنصر قاضيها وجماعة من أهلها وأعيانها نحو من أربعمائة نفس. وأقام الروم عشرة أيام يطلبون من اختفى، ودخنوا على من دخل المغاير، فهلكوا. ثم رحل إلى حلب ونزل على قويق ومعه الفرنج الذين بساحل الشام، وكان عماد الدين يحاصر حمص، فلما بلغه خبرهم، سير طائفة من العسكر ليحفظوا حلب منهم، فلما نزلوا على حلب خرج إليهم أحداث البلد وقاتلوا قتالا

شديداً، فقتل كثير من الروم وجرح كثير، وقتل بطريق عظيم القدر عندهم. فأقاموا ثلاثة أيام ورحلوا إلى قلعة الأثارب، فخاف من بها من المسلمين فهربوا عنها في تاسع شعبان، فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والأسرى، ومعهم جمع كثير من الروم يحفظونهم، وساروا، فلما سمع الأمير سوار نائب عماد الدين بحلب بذلك، سار بمن عنده من العسكر إلى الأثارب فأوقع بالروم وقتلهم، وخلص الأسرى وعاد إلى حلب.

وأما عماد الدين فإنه فارق حمص وسار إلى سلمية فنزلها، وعبر ثقلة الفرات إلى الرقة، وأقام جريدة. وقصد الروم شيزر، وهي من أمنع الحصون، وكانت للأمير أبي المعالي سلطان بن علي بن منقذ الكناني، فنازلوها وحاصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا فأرسل صاحبها إلى عماد الدين يستنجده، فسار إليه ونزل على نهر العاصي بينها وبين حماه، فكان يركب بعسكره إلى شيزر ويقفون حيث يراهم الروم، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم، ثم أرسل إلى ملك الروم يقول: « إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال، فانزلوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وإن ظفرتم بي استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها» ولم تكن له بهم قوة، وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشبابه، فأشار فرنج الشام على ملك الروم بقتاله وهونوا عليه أمره، فلم يفعل، وقال: « أتظنون أن ليس لهم من العسكر إلا ما ترون، إنما هو يريد أن تلقوه فيأتيه من نجدات المسلمين ما لا يحمد»، وكان عماد الدين يرسل إلى ملك الروم يقول: « إن فرنج الشام خائفون منه، ولو فارق مكانه لتخلفوا عنه، ويرسل إلى الفرنج فيقول: « إن ملك الروم من الشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعها»، فاستشعرت كل طائفة من الأخرى، فرحل ملك الروم من شيزر في شهر رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً وترك المجانيق وآلات الحصار كما هي، فسار عماد الدين يتبع ساقه العسكر، فظفر بكثير منهم ممن تخلف.

ذكر ملك عماد الدين بعلبك

وفي ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ملك زنكي مدينة بعلبك وهي لصاحب دمشق، وسبب ذلك أن شهاب الدين محمود صاحب دمشق قتله غلماناً في هذه السنة كما ذكرنا، وملك بعده أخوه جمال الدين محمد، وكانت والدته محمود زوجة عماد الدين بعلبك، فوجدت لذلك وجداً عظيماً، وحزنت حزناً شديداً، وكتبت إلى أتابك زنكي وهو بالجزيرة تعرفه بالحادثة وتطلب أن يقصد دمشق ويطلب ثأراً ولدها، فبادر إلى ذلك ولم يتوقف وعبر الفرات عازماً على قصد دمشق، فبلغ ذلك صاحبها فاحتاط واستعد، وسار عماد الدين إلى بعلبك فوصل إليها في العشرين من ذي القعدة، وضيق على أهلها ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً ترمي ليلاً ونهاراً. فأشرف أهلها على الهلاك، فطلبوا الأمان فأمنهم وتسلم المدينة. وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الأتراك، فلما أيسوا من نصرة معين الدين أتابك صاحب دمشق - وكانت بعلبك له - فطلبوا الأمان، فأمنهم وتسلم القلعة منهم، ثم غدر بهم وصلبهم ولم ينج منهم إلا القليل. فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه وحذروه ونفروا منه.

قال: ولما فتح بعلبك كان لمعين الدين بها جارية، وكان يهواها، فأخذها زنكي وسيرها إلى حلب، فلم تزل بها إلى أن قتل زنكي، فسيرها نور الدين إلى معين الدين، فكانت أعظم أسباب المودة بينهما.

قال: ولما فرغ عماد الدين من بعلبك سار إلى دمشق في شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ونزل على داريا، فقاتله أهل دمشق فكسروهم وتقدم إلى المصلى فقاتلوه مرة بعد أخرى. كل ذلك والظفر له عليهم، وأرسل إلى صاحب دمشق يبذل له بعلبك وحصن وغيرها مما يختاره من البلاد، فمال إلى تسليمها، فحذره أصحابه وخوفوه عاقبة غدره،

فامتنع من الإجابة فعاود عماد الدين القتال والزحف. واتفقت وفاة جمال الدين صاحب دمشق في ثامن شعبان، وولي بعده ابنه مجير الدين أبق، فاشتد طمع عماد الدين وزحف زحفا شديدا، فلما رأى أنر أن عماد الدين لا يندفع عنهم، راسل الفرنج واستنصر بهم، فاجتمعت الفرنج وعزموا على المسير لدفعه عن دمشق، فعلم عماد الدين بذلك فتوجه إلى حوران في خامس عشر رمضان عازما على لقاء الفرنج قبل أن يجتمعوا مع الدماشقة، فلما بلغ الفرنج خبره لم يتحركوا من بلادهم، فعاد إلى حصار دمشق ونزل بعذرا شمالها في سادس شوال، وأحرق عدة من قرى المريج والغوطة، ورحل إلى بلاده.

ثم وصل الفرنج إلى دمشق، وكان معين الدين قد بذل لهم أنه يحاصر بانياس ويسلمها إليهم، وكانت في طاعة زنكي، ففعل معين الدين ذلك وسلمها للفرنج. فلما بلغ عماد الدين ذلك رجع إلى بعلبك وفرق عساكره للإغارة على بلد حوران وأعمال دمشق. وسار جريدة، فنزل على دمشق بخواصه في آخر الليل، ولم يعلم به أحد من أهلها، فلما أصبح الناس ورأوا عسكره ارتج البلد، واجتمع العسكر والعامّة على السور، وخرجوا إليه فقاتلوه، فلم يمكنه الإقدام على القتال لتفريق عساكره، فأحجم عنهم وعاد إلى مريج راهط، وأقام ينتظر عود عسكره، فعادوا إليه وقد ملأوا أيديهم من الغنائم فلما اجتمعوا رحلوا إلى بلاده.

ذكر ملكه شهرزور وأعمالها

وفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ملك شهرزور وأعمالها وما يجاورها من الحصون، وكانت بيد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني، وكان حكمه نافذا على سائر التركمان، قاصيهم ودانيهم، وكلمته لا تخالف، يرون طاعته فرضا؛ وتحاماه الملوک، وأتاه التركمان من كل فج عميق، فلما كان في هذه السنة سير أتابك عماد الدين عسكرا، فجمع قفجاق

أصحابه ولقيهم، واقتتلوا فانهزم قفجاق واستبيح عسكره، وسار الجيش الأتابكي في أعقابهم فحاصروا الحصون والقلاع وبذلوا الأمان لقفجاق فسار إليهم، وانخرط في سلك العسكر وسار في الخدمة هو وابنه من بعده.

وفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة كان بين أتابك زنكي وبين داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا حرب شديدة انهزم فيها داود، وملك زنكي من بلاده قلعة بهمرد، وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل.

وفيها خطب له بمدينة آمد وصار صاحبها في طاعته، وكان قبل ذلك موافقا لداود على قتال زنكي فلما رأى قوة زنكي سار معه.

وفيها أغار العسكر الأتابكي من حلب على بلد الفرنج، فأخربوا ونهبوا وظفروا بسرية للفرنج، فقتلوا منهم وكان عدة من قتل سبعمائة رجل.

توفي ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوثي وزير عماد الدين أتابك زنكي، وكان رحمه الله حسن السيرة كريما رئيسا.

ذكر ملك عماد الدين زنكي قلعة آشب وغيرها من بلاد الهكارية

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة أرسل عماد الدين جيشا إلى قلعة آشب، وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها، وبها أموالهم وأهلوه، فحاصرها الجيش الأتابكي وضيق على من بها وملكها، فأمر عماد الدين بهدمها، وبني القلعة العمادية وكانت العمادية حصنا عظيما من حصونهم فخرّبوه لكبره، لأنه كبير جدا، فعجزوا عن حفظه فخربت الآن آشب وعمرت العمادية، والعمادية نسبة إلى عماد الدين زنكي،

وكان نصير الدين جقر نائب عماد الدين بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية.

ذكر صلحه والسلطان مسعود

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وصل السلطان مسعود إلى بغداد على عادته، وجمع العساكر وتجهز لقصد بلاد زنكي، وكان قد حقد عليه واتهمه أنه أفسد عليه أصحاب الأطراف وحرضهم على الخروج على السلطان، فلما بلغ زنكي ذلك أرسل إلى السلطان يستعطفه ويستميله، وأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري في تقرير القواعد، فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار، يحملها عماد الدين إلى السلطان ليعود عنه، فحمل منها عشرين ألف دينار أكثرها عروضاً، ثم تنقلت الأحوال بالسلطان حتى احتاج إلى مداراة زنكي، فأطلق له ما بقي، ومن جيد الرأي ما فعله عماد الدين زنكي في هذه الحادثة، فإن ولده الأكبر سيف الدين غازي كان لا يزال عند السلطان - سفراً وحضراً - بأمر والده، فأرسل إليه الآن يأمره بالهرب من عند السلطان إلى الموصل، وأرسل إلى نائبه بالموصل أن يمنع ابنه المذكور من الدخول. فلما هرب غازي أرسل يأمره بالعود إلى السلطان، ولم يجتمع به، وأرسل معه رسولا إلى السلطان يقول: « إن ولدي هرب خوفاً لما رأى تغير السلطان علي، وقد أعدته، ولم أجمع به فإنه مملوكك والبلاد لك » فوقع ذلك من السلطان بموقع عظيم، ومال إلى زنكي.

ذكر ملكه بعض ديار بكر

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة سار عماد الدين زنكي إلى ديار بكر، فملك بها عدة حصون منها مدينة طنزة ومدينة اسعرد ومدينة المعدن

التي يعمل بها النحاس، ومدينة حيزان وحصن الزوق، وحصن فطليس، وحصن باناسا وحصن ذي القرنين وغير ذلك. وأخذ من بلاد ماردين مما هو بيد الفرنج جهلين والموزر وتل موزر وغيرها من حصون شبختان ورتب أمور الجميع وجعل فيها من يحفظها، وقصد مدينة آمد، وحاني فحصرهما وأقام بتلك الناحية. وفيها سير عسكرياً إلى مدينة عانة من أعمال الفرات فملكها.

ذكر فتح الرها وغيرها من بلاد الجزيرة مما هو بيد الفرنج

وفي سادس جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة فتح عماد الدين أتابك زنكي مدينة الرها من حصون الفرنج الجزيرة، وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها، وبلغت آمد ونصيبين، ورأس عين، والرقعة وكانت مملكة الفرنج بهذه الديار من قريب ماردين إلى الفرات مثل: الرها، وسروج، والبيرة. وسن ابن عطير، وجملين، والموزر والقراي، وغير ذلك. وكانت هذه الأعمال وغيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين الفرنجي، وكان صاحب رأي الفرنج، والمقدم على عساكرهم، لما فيه من الشجاعة والمكر، وكان عماد الدين يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع من الفرنج بها من يمنعها، ويتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة، فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ إلى قصد بلادهم، فاطمأنوا وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاده الغربية، فبلغ أتابك زنكي ذلك، فنادى في العسكر بالرحيل إلى الرها وجمع الأمراء عنده وقدم الطعام، وقال: « لا يأكل معي على مائتي هذه إلا من يطعن معي غداً في باب الرها. » فلم يتقدم غير أمير واحد وصبي لا يعرف، لما يعلموا من إقدام زنكي وشجاعته، وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلك الصبي: « ما أنت في هذا المقام » فقال أتابك زنكي: « دعه فوالله إني أرى وجهه لا يتخلف عني. »

وسار والعسكر معه فوصل إلى الرها، فكان عماد الدين أول من حمل على الفرنج والصبي معه، وحمل فارس من الفرنج على زنكي عرضاً فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله، وسلم زنكي. ونازل البلد وقاتل عليه ثمانية وعشرين يوماً وملكه غنوة، وملك القلعة، ونهب الناس الأموال، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء.

فلما رأى عماد الدين البلد أعجبه، ورأى أن تخريب مثله لا يجوز في السياسة، فنودي بالعسكر برد ما أخذه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، ورد ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فردوا ذلك وعاد البلد إلى حالته الأولى، وجعل فيه عسكرياً يحفظه، وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات، ما عدا البيرة لخصائنها.

وحكى ابن الأثير رحمه الله في تاريخه الكامل قال: حكى لي بعض العلماء بالأنساب والتواريخ، قال: كان صاحب صقلية قد أرسل سرية إلى طرابلس الغرب، وتلك الأعمال فنهبوا وقتلوا، وكان عند صاحب صقلية رجل مسلم كان يكرمه ويحترمه، ويرجع إلى قوله، ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان، حتى كان أهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب. ففي بعض الأيام كان جالساً في منظرية يشرف على البحر، وإذا بمركب لطيف قد أقبل وأخبر من فيه أن عسكره دخلوا بلاد الإسلام، وظفروا وغنموا وقتلوا، وكان المسلم إلى جانبه، وقد أغفى فقال له الملك: « يافلان ألا تسمع إلى ما يقولون؟ » قال: « لا » قال: « إنهم يخبرون بكذا وكذا، أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها؟ » قال: « كان قد غاب عنهم وشهد فتح الرها، فقد فتحها المسلمون الآن »، فضحك من هناك من الفرنج فقال الملك: « لاتضحكوا فما يقول والله إلا الحق »، فوصل بعد أيام الخبر من فرنج الشام بفتحها، قال ابن الأثير: وحكى لي جماعة من أهل الدين والصلاح أن إنساناً صالحاً رأى الشهيد زنكي في منامه فقال له: « ما فعل الله بك » قال: « غفر لي بفتح الرها ».

ذكر مقتل نصير الدين جقر، وولاية زين الدين علي كوجك

كان مقتله في ذي القعدة تسع وثلاثين ووخسمائة. وسبب ذلك أنه كان ينوب عن عماد الدين أتابك زنكي بالموصل وسائر الأعمال التي شرقي الفرات، وكان الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود عند زنكي، وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أن هذه البلاد لهذا الملك. وكان ألب أرسلان في هذه السنة بالموصل، ونصير الدين يحضر إلى خدمته في كل يوم، فحسن له بعض المفسدين طلب الملك وقالوا له: « إن قتلت نصير الدين ملكت الموصل وغيرها، ولا يبقى مع أتابك زنكي فارس واحد »، فمال إلى ذلك، فلما دخل نصير الدين إليه وثب إليه من عنده فقتلوه، وألقوا رأسه إلى أصحابه، ظنا منهم أنهم يتفرقون ويخرج الملك ويملك البلاد، فلما رأى أصحابه الرأس قاتلوا من الدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير، فدخل القاضي تاج الدين يحيى بن الشهرزوري إلى الملك ألب أرسلان وخدعه، وكان فيما قاله حين رآه منزعجا: « يامولانا لم تحرد من هذا الكلب؟ هو وأستاذه مماليكك، الحمد لله الذي أراحنا منه ومن صاحبه على يديك »، ثم قال له: « وما الذي يقعدك في هذه الدار؟ قم لتصعد إلى القلعة وتأخذ الأموال والسلاح وتملك البلد، وتجمع الجند وليس دون البلاد بعد الموصل مانع »، فقام معه وركب وأصعده إلى القلعة، فلما قاربها أراد من بها من النقيب والأجناد القتال، فتقدم إليهم القاضي تاج الدين فقال: « افتحوا الباب وتسلموه وافعلوا ما أردتم » ففتحوا الباب ودخل الملك والقاضي إلى القلعة ومعهما من أعان على قتل نصير الدين. فلما صاروا بالقلعة سجنوا كلهم إلا القاضي.

وبلغ الخبر عماد الدين وهو يحاصر قلعة البيرة، وقد أشرف على فتحها، فخاف أن تختلف البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين، ففارق

البيرة وأرسل زين الدين علي بن بكتكين إلى قلعة الموصل واليا على ما كان نصير الدين يتولاه. وسار عماد الدين عن البيرة، فخاف من بها من الفرنج أن يعود إليهم، فسلموها لصاحب ماردين. وملكها المسلمون. فإن لم يكن عماد الدين زنكي فتحها، فهو سبب فتحها.

ذكر مقتل عماد الدين زنكي

كان مقتله رحمه الله لخمس مضي من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وذلك أنه كان يحاصر قلعة جعبر، وكانت بيد سالم بن مالك العقيلي منذ سلمها السلطان ملكشاه إلى أبيه، عوضا عن قلعة حلب كما تقدم في أخبار السلجقية. فحاصرها عماد الدين الآن وأقام عليها إلى هذا التاريخ، فدخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة، وهربوا إلى القلعة ولم يشعر أصحابه. فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها بالعسكر، وأعلموهم بقتل صاحبهم، فبادر أصحابه إليه فأدركوه وبه رمق. ثم مات رحمه الله تعالى وكان عمره نحو من أربع وستين سنة، ومدة ملكه منذ ولي الموصل وإلى أن قتل عشرين سنة.

وكان حسن الصورة أسمر اللون، وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة لا يقدر القوي معه على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابا من الظلم، وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمرها وامتلأت بأهلها وغير أهلها، وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول: « مهما كانت البلاد لنا فأني حاجة لكم إلى أملاك؟ فإن خرجت عن أيدينا فالأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية، وتعدوا عليهم، وغصبوهم أملاكهم، والإقطاعات تغني أصحاب السلطان عنها. وخلف من الأولاد سيف الدين غازي وهو أكبر أولاده ونور الدين محمود وهو الملك العادل، وقطب الدين مودود، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصير الدين أمير

أميران. فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والإناث، ونور الدين من الذكور، وبقي في عقب قطب الدين، على ما نذكر إن شاء الله تعالى.

قال: ولما قتل أتابك زنكي كان ولده نور الدين محمود معه، فأخذ خاتمه من يده، وسار إلى حلب فملكها، وسنذكر أخباره مفصلة بعد سيف الدين غازي، والله أعلم.

ذكر ملك سيف الدين غازي ابن الشهيد عماد الدين أتابك زنكي

قال: لما قتل أتابك زنكي كان الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود معه، فاجتمعت العساكر عليه، وكان الحاكم على دولة زنكي والمدبر لها من أرباب الأقلام جمال الدين محمد بن علي بن منصور الأصفهاني شبه الوزير، ومعه الحاجب صلاح الدين محمد بن أيوب الياغسياني فاتفقا على حفظ الملك لأولاد صاحبهم عماد الدين وتحالفا على ذلك، وركبا إلى خدمة الملك ألب أرسلان، وخدماه وضمنا له فتح البلاد. وقالوا له: « إن أتابك زنكي إنما كان الناس يطيعونه لأنه كان نائبك » فقبل منهما ذلك وظن صدقهما ومناصحتهما وقربهما، وأرسلا إلى زين الدين علي بن مظفر الدين صاحب إربل بالموصل يعرفانه بوفاة الشهيد ويأمرانه أن يرسل إلى ابنه سيف الدين غازي ليحضر إلى الموصل، وكان بشهرزور وهي إقطاعه من قبل أبيه، ففعل ذلك ووصل إلى الموصل، وأشار جمال الدين على الملك بإرسال الحاجب صلاح الدين إلى حلب ليدبر أمر نور الدين فأمره بالمسير إليها فسار، وكانت حماه إقطاعه، وانفرد جمال الدين بالملك ألب أرسلان فقصده به الرقة، واشتغل بالشرب واللهو واستمال جمال الدين العسكر، وحلفهم لسيف الدين غازي، وصار يأمر من تخلف بالمسير إلى الموصل هاربا من الملك، وبقي جمال الدين يسير بالملك من الرقة إلى سنجار، ويخذه ويطمعه، وما زال حتى انتهى به إلى

الموصل. وأرسل الأمير عز الدين الديبسي إلى الملك في عسكره، والملك في نفر يسير، فأخذه وأدخله الموصل، فكان آخر العهد به. فاستقر أمر سيف الدين بالموصل واستوزر جمال الدين، وأرسل إلى السلطان مسعود في إمرة الموصل فأمره على البلاد، وأرسل له الخلع، وكان سيف الدين قد تقدمت له خدمة على السلطان مسعود ولازمه سفرا وحضرا في أيام زنكي.

قال: ولما استتب الأمر لسيف الدين غازي بالموصل عبر إلى الشام لينظر في أمور البلاد، ويقرر قاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، ولما عبر الفرات لم يحضر نور الدين إليه وخافه فراسله واستماله بحسن سياسته، فاستقرت الحال بينهما أن يجتمعا خارج العسكر السيفي، وكل منهما في خمسمائة فارس. فسار نور الدين يوم الميعاد من حلب بهذه العدة، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلما رآه نور الدين ترجل وقبل الأرض، وأعاد أصحابه فاجتمعا وتحالفا واتفقا أحسن اتفاق، واستقر نور الدين بحلب وما معها، وسيف الدين بالموصل وما معها.

ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعله سيف الدين غازي

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وصل ملك الألمان في جمع كثير من الفرنج، وعزم على ملك الشام، وظن أنه يملكه لا محالة لكثرة أصحابه واجتمع عليه من بالشام والسواحل من الفرنج. ووصل إلى دمشق وحاصرها، ونزل الميدان الأخضر، فأيقن أهلها بخروجها عن الإسلام. وكان ملكها يوم ذاك مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغديك، وليس له من الأمر شيء والحكم في البلد لأتابكه معين الدين مملوك جد أبيه، فأرسل إلى سيف الدين غازي يستنجد، فجمع عساكره والعساكر الحلبية، وسار إلى دمشق، فخافه الفرنج. ثم راسل فرنج الساحل ووعدهم بحصر بانياس، فاجتمعوا بملك الألمان وقالوا له: « إن هذا

ملك بلاد المشرق قد قدم» وخوفوه عاقبة أمره، فرحل ملك الألمان إلى بلاده، وتسلم الفرنج بانياس، كما وقع الاتفاق عليه، وعاد سيف الدين إلى الموصل.

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي

كانت وفاته في أواخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة بالموصل لمرض حاد، ودفن بمدرسته التي بناها بالموصل. فكانت ولايته ثلاث سنين وشهرا وعشرين يوما، وعمره نحو من أربع وأربعين سنة، وخلف ولدا ذكرا رباه عمه نور الدين محمود أحسن تربية، وزوجه بابنة عمه قطب الدين، ولم تطل مدته، ومات في عنفوان شبابه، وانقرض عقب غازي بوفاته.

قال: وكان سيف الدين غازي يمد لعسكره في كل يوم سباطا كبيرا، طرفي النهار يكون في سباطه للغذاء مائة رأس من الغنم. وأمر الأجناد أن يركبوا بالسيوف والدبابيس، فاقتدى به أصحاب الأطراف، وهو أول من حمل على رأسه السنجق من عمال الأطراف، وبنى المدرسة الأتابكية العتيقة بالموصل، ووقفها على طائفتي الشافعية والحنفية، وبنى رباط الصوفية بالموصل، ولم تطل أيامه حتى يفعل ما في نفسه من وجوه البر، رحمه الله. وسندكر إن شاء الله تعالى من ملك الموصل بعده، إذا انقضت أخبار الشهيد نور الدين وولده.

ذكر أخبار الملك العادل نور الدين أبي القاسم محمود ابن أتابك عماد الدين أبي سعيد زنكي بن أقسنقر

قد ذكرنا أنه لما مات والده رحمه الله في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، توجه بخاتمه إلى حلب وملكها، وذكرنا أيضا ما كان بينه وبين أخيه سيف الدين غازي رحمه الله، وما اتفقا عليه، فلنذكر من

أخباره خلاف ذلك. ولنبدأ بغزواته وفتوحاته ، ثم نذكر ما استولى عليه من الممالك وغير ذلك.

ذكر الغزوات والفتوحات النورية وما استنقذه من أيدي الفرنج

ذكر عصيان مدينة الرها وفتحها الثاني ونهبها

قال: لما قتل أتابك زنكي كان جوسلين الفرنجي صاحب الرها في ولايته وهي تل باشو، فراسل عامة أهل الرها من الأرمن وحملهم على العصيان والامتناع على المسلمين، فأجابوه إلى ذلك، فسار في عساكره إلى الرها وملك البلد، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها. فسار نور الدين ، وجد السير إليها، فلما قاربها هرب جوسلين عنها، وعاد إلى بلده، ودخل نور الدين البلد، ونهب المدينة، وسبى أهلها، فخلت منهم ولم يبق بها إلا القليل، وذلك في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فتح مدينة ارتاح بالسيف، ونهبها ، وحصن ما بوله وبصرفوث وكفر لاثا، وكان الفرنج بعد قتل أتابك زنكي قد طمعوا وظنوا أنهم يستردون ما أخذ منهم فخاب ظنهم.

ذكر فتح حصن العريمة

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة فتح حصن العريمة، وهو من أعمال طرابلس. وكان ملك الألمان لما سار عن دمشق وجهه إلى العريمة ولد ألفنش صاحب طليطه، وهو من أولاد أكابر ملوك الفرنج، وكان جده هو الذي فتح طرابلس، فملك العريمة، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس من القمص، فأرسل القمص إلى نور الدين، وإلى معين الدين صاحب دمشق أن يقصدا حصن العريمة ويملكاه. فسار نور الدين من حلب

ومعين الدين من دمشق واستمد سيف الدين غازي، فأمدهما بعسكر
كثيف مع الأمير عز الدين الديبسي، صاحب جزيرة ابن عمر، فنازلوا
الحصن، وحصروه وبه ولد ألفنش، فاستسلم من به بعد امتناع، وملكه
المسلمون، وأخذوا كل من فيه من فارس وراجل وصبي وامرأة. وكان ولد
ألفنش ممن أسر وأخربوا الحصن ثم عادوا.

ذكر انهزام الفرنج بيغرى

وفي سنة ثلاث وأربعين أيضا، اجتمع الفرنج لقصد حلب، فسار
إليهم الملك العادل نور الدين بعسكره، فالتقوا بيغرى، واقتتلوا قتالا
شديدا، أجلت الحروب عن ظفر الملك العادل، وانهزام الفرنج وأسر
جماعة من مقدميهم. ولم ينج من ذلك الجمع إلا اليسير. وأرسل نور
الدين من الغنيمة والأسارى إلى أخيه سيف الدين وإلى الخليفة ببغداد
وإلى السلطان مسعود وغيرهم. وفي هذه الواقعة يقول ابن القيسراني من
قصيدة أولها:

يـالـيـت أن الصـد مـصـدود
أولا فليـت النـوم مـرـدود

جاء منها:
وكيف لانشي على عيشنا المحمـ
مود والسلطان محمدود
وصارم الإسلام لايشي
إلا وشل والكفر مقـدود
مكارم لم تك مـوجـود
إلا ونور الدين مـوجـود
وكم له من وقعة يومها
عند ملوك الكفر مشهـود

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة، غزا نور الدين بلاد الفرنج، من ناحية أنطاكية، وقصد حصن حارم وهو للفرنج، وحصره وخرب ربهضه، ونهب سواده ثم رحل إلى حصن إنب فحضره، فاجتمعت الفرنج لقتاله مع البرنس، واقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم الفرنج وقتل البرنس وجماعة كثيرة من أصحابه، وأسر خلق كثير، وكان البرنس من عتاة الفرنج، ولما قتل ملك بعده أنطاكية ابنه يميند، ثم غزاهم نور الدين غزوة ثانية، فقتل وأسر، وكان ممن أسر البرنس الثاني زوج أم يميند صاحب أنطاكية، وكان قتل البرنس عظيما عند الطائفتين، وأكثر الشعراء مدح نور الدين بهذا الظفر، فكان ممن قال فيه ابن القيسراني الكاتب قصيدته المشهورة وهي:

هذي العزائم لاماتدعي القضب
وذي المكارم لاماقالت الكتب
وهذه الهمم اللائي متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صافحت يابن عماد الدين ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب
ما زال جـدك يـبني كل شاهقة
حتى بنى قبة أوتادها الشهب
أغررت سيفوك بالإفرنج راجفة
فرؤاد روميـة الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت لها الصلب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب

ذكر فتح حصن أفامية

وفي سنة خمس وأربعين وخمسمائة فتح الملك العادل نور الدين حصن أفامية من الفرنج، وهو مجاور شيزر وحماة، وهو من أحصن القلاع وأمنعها، فاجتمع الفرنج من الساحل وساروا نحوه ليرحلوه، فلم يصلوا إلا وقد ملكه وملاه من الذخائر والسلاح وشحنة بالرجال، وسار عنه في طلب الفرنج، فعدلوا عن طريقه وسألوه الهدنة، وعاد مظفراً منصوراً.

ذكر أسر جوسلين وفتح بلاده

كان نور الدين قد جمع عساكره في سنة ست وأربعين وخمسمائة، وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجي وهي شمالي حلب، وعزم على محاصرتها، وكان جوسلين فارس الفرنج وطاغيته، صاحب رأي وشجاعة، فجمع وأكثر، وسار نحو نور الدين والتقوا واقتتلوا، فكانت الهزيمة على المسلمين، وقتل كثير منهم، وأسر سلحدار نور الدين فيمن أسره فأخذ جوسلين سلاحه، وأرسله إلى الملك مسعود بن قلع صاحب الروم، وقال: « هذا سلاح زوج ابنتك وسأتيك بعده بما هو أعظم منه » فأهم نور الدين ذلك وعظم عليه، وعلم أنه لا يتمكن من جوسلين في حرب، لأنه إما أن يحارب أو يحتمي بحصونه. فجعل عليه العيون من التركمان، ووعدهم إن أسروه وأتوا به أو برأسه بمواعيد كثيرة. فرصدوه إلى أن خرج إلى الصيد، وأسروه فصالحهم على مال يؤديه إليهم، فسير في إحضار المال إليهم فجاء بعضهم إلى أبي بكر بن الداية، نائب نور الدين بحلب، وأخبره بالقضية، فسير عسكراً مع من حضر إليه بالخبر، وكبس التركمان وأخذوا جوسلين أسيراً. وكان من أعظم الفتوحات، وأصيبت النصرانية كافة بأسره.

ولما أسر سار نور الدين إلى قلاعه فملكها، وهي : تل باشر، وعين تاب، وأعزاز، وتل خالد، وقورس، والراوندان، وبرج الرصاص، وحصن

البارة، وكفر سود، وكفر لاثا، ودلوك، ومرعش، ونهر الجوز، وغير ذلك من أعماله في مدة يسيرة. واجتمع الفرنج في سنة سبع وأربعين، وحشدت الفارس والراجل، وساروا نحو نور الدين وهو بدلوك، فلما قربوا منه رجع إليهم واقتتلوا قتالا شديدا كان الظفر له وقتل وأسر منهم، وعاد إلى دلوك فملكها، وكان نور الدين إذا فتح حصنا من هذه الحصون شحنه بما يحتاج إليه من الرجال والسلاح والذخائر وغيرها.

ذكر حصر قلعة حارم وفتحها

وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة حصر نور الدين قلعة حارم وشدد الحصار، فصالحه الفرنج على نصف أعمال حارم، وصالحهم ورحل عنهم، ثم فتحها في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة.

ذكر ملكه بانياس وما قرره على طبرية وأعمالها

وفي سنة تسع وخمسين ملك حصن بانياس، وكان بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، كما قدمنا، فنازله، فجمع الفرنج لقصده، فلم يكمل جمعهم إلا وقد ملك الحصن وشحنه بالرجال والذخائر، ثم شاطر الفرنج على أعمال طبرية، وقرروا له على الأعمال التي لم يشاطرهم عليها في كل سنة مالا يحملونه إليه، والله أعلم.

ذكر فتح المنيطرة

والمنيطرة فيما بين طرابلس وبلبك، وهي الآن من الأعمال المضافة إلى المملكة الطرابلسية، فلما كان في سنة إحدى وستين وخمسمائة، سار نور الدين إليها جريدة، وملكها وأعجل الفرنج عن الاجتماع لرده، وسبى وغنم، فجاء الفرنج بعد أن ملكها فأيسوا منها، ورجعوا عنها، والله أعلم.

ذكر فتح صافيتا وعريمة

وفي سنة اثنتين وستين وخمسمائة جمع نور الدين العساكر وسار إليه أخوه قطب الدين من الموصل واجتمعوا على حمص، فدخل بالعساكر إلى بلاد الفرنج بالساحل واجتاز على حصن الأكراد، فأغاروا ونهبوا وسبوا. وقصدوا عرقة فنازلوها وحصروها، وحصروا جبلة وأخذوها وخربوها. وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يمينا وشمالا تغير وتخرب، وفتحوا العريمة، وصافيتا، وعادوا إلى حمص فصاموا بها شهر رمضان، وكان الفرنج في سنة ثمان وأربعين قد كبسوا عسكر نور الدين بالبقية على حين غفلة من العسكر، فنالوا من المسلمين منالا عظيما، فجعل نور الدين في مقابلة ذلك فتح حارم وبانياس والمنيطرة وصافيتا وعريمة وتخرب بلادهم، وأدرك ثأره عن غير بعد.

ثم سار بعد شهر رمضان إلى بانياس، وقصد العبور إلى بيروت، فجرى بين العسكر اختلاف أو جب رجوعه، وأعطى قطب الدين في هذه السنة الرقة، وأعادته إلى بلده. هذا ما فتحه رحمه الله من بلاد

الفرنج، فلنذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية.

ذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية

في سنة أربع وأربعين وخمسمائة، استولى الملك العادل على سنجار، وكانت بيد أخيه قطب الدين، ملكها بعد وفاة سيف الدين غازي، ثم حصل الاتفاق بينهما على أن يكون نور الدين صاحب حلب وحمص والرحبة والشام، وقطب الدين بالموصل وديار الجزيرة، وسلم سنجار لأخيه قطب الدين، وأخذ نور الدين ما كان من الذخائر بسنجار، وكانت كثيرة جدا، وعاد إلى حلب وقد حصل الاتفاق بينه وبين أخيه.

ذكر ملكه مدينة دمشق

وفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة ملك دمشق من مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغديكين، وسبب قصده لها أن الفرنج ملكوا في السنة التي قبل هذه السنة مدينة عسقلان، واستولوا على تلك النواحي، فلم يتمكن نور الدين من غزوهم ودفعهم، لأن دمشق تحول بينه وبينهم. ولم تمكنه مفاجأة صاحبها لعلمه أنه إن سار إليها راسل صاحب دمشق الفرنج واستنجد بهم. وكان قد استقر لهم ضريبة على دمشق تحمل إليهم في كل سنة، ويحضر رسلهم لقبضها، فزاد استيلاؤهم إلى أن أخذوا كل من فيها من الغلمان والجواري، بحيث أنهم يطلبون الغلام أو الجارية ويخيروه، إن اختار الرجوع إليهم أخذوه، اختار مولاه أو امتنع؛ وإن اختار المقام عند مواله تركوه. فأهم ذلك نور الدين، وخاف أن الفرنج متى استولت على دمشق ملكوا الشام أجمع، فأخذ في أعمال الحيلة وراسل مجير الدين صاحبها وهاداه وداهنه واستماله، وبقي يوقع بينه وبين أمرائه، فكتب إليه يقول: «إن فلانا الأمير قد كاتبني في تسليم دمشق»، فقبض عليه مجير الدين حتى اختل أمر عسكره وضعف. ثم راسل نور الدين الأحداث من الأمراء بدمشق، ووعدهم الجميل، فمالوا إليه ووعدوه بتسليمها له، فسار إليها. فلما نازها كاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم بعلبك ليمنعوا نور الدين عنه، فحشدوا فارسهم وراجلهم، فلم يتكامل جمعهم إلا وقد ملك نور الدين دمشق، سلمها له الأمراء، ودخلها من الباب الشرقي. وتحصن صاحبها بالقلعة، فبذل له نور الدين حمص، فرضي وسلم القلعة وسار إلى حمص، ثم عوضه عن حمص مدينة بالس فامتنع، وتوجه إلى بغداد ومات بها.

وفي سنة اثنتين وخمسين، ملك نور الدين حصن شيزر من آل منقذ، وكانت الزلزلة قد هدمت أسواره، فعمرها والله أعلم.

ذكر ملكه بعلبك

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ملك بعلبك وقلعتها وكانت بيد إنسان يقال له ضحاك البقاعي، منسوب إلى البقاع البعلبكي، كان صاحب دمشق قد ولاه إياها، فلما ملك نور الدين دمشق لم تمكنه مشاحته لقربه من الفرنج، فطاوله إلى الآن وملكها منه.

ذكر ملكه قلعة جعبر

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة ملك قلعة جعبر من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي وكانت بيده ويبد آباءه كما تقدم، وكان السبب في ملكه لها أن صاحبها سار إلى الصيد، فأمره بنوكلاب وجاؤوا به إلى نور الدين في شهر رجب سنة ثلاث وستين، فاعتقله نور الدين وأكرمه في اعتقاله. وأخذ في طلبها باللين، فلم يوافق على إعطائها، ثم أخذه بالشدة فلم يوافق، فسير الجيوش لحصرها، فحوصرت مدة فلم يظفر منها بطائل، فعاد صاحبها بالملاطفة، وعرضه عنها سروج وأعمالها والملاحة التي من بلد حلب، وباب بزاعه، وعشرين ألف دينار معجلة، فقبل العوض وسلم القلعة، وهذه القلعة في عصرنا هذا إلى سنة أربع عشرة وسبعمائة خراباً لا باب عليها والله أعلم.

ذكر ملكه الديار المصرية

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة ملك أسد الدين شيركوه الديار المصرية بجيوش الملك العادل نور الدين، وهي السفرة الثالثة له إليها من قبل نور الدين، ونذكر ذلك مفصلاً في أخبار الدولة الأيوبية، ودامت الخطبة بها للملك العادل مدة حياته، وصدرت من أيام ولده الملك الصالح إسماعيل.

ذكر ملكه الموصل

وفي سنة ست وستين وخمسمائة ملك الموصل بعد وفاة أخيه قطب الدين، وأقر عليها سيف الدين غازي بن قطب الدين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار غازي. وأطلق نور الدين سائر المكوس بالموصل وبسائر البلاد، وجاءته الخلع من الخليفة المستنصر بالله، فلبسها، ثم خلعها على سيف الدين غازي ابن أخيه، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبني وأقام بالموصل عشرين يوما وعاد إلى الشام.

ذكر وفاته رحمه الله وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاة الملك العادل نور الدين محمود في حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، بعلة الخوانيق، ولقب بعد موته بالشهيد، ومولده في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فيكون عمره نحوًا من ثمان وخمسين سنة، ومدة ملكه منذ وفاة أبيه ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر وستة أيام، ومن العجب أنه ركب إلى الميدان الأخضر بدمشق في ثاني شوال، ونصب فيه قبعا^(٤) فسايره حسام الدين مودود، وقال له: « أترى هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم من العام المقبل؟ » فقال له نور الدين: « لا تقل هكذا، قل: هل نكون ههنا بعد شهر؟ فإن السنة بعيدة » ورجع إلى القلعة، وختن ابنه وأصابته العلة، فمات بعد عشرة أيام. ومات الأمير حسام الدين قبل استكمال الحول، ودفن نور الدين بقلعة دمشق، ثم نقل إلى مدرسته التي بناها بجوار سوق الخواصين بدمشق وقبره هناك مشهور.

وأما سيرته وأفعاله رحمه الله تعالى فإنه أفرغ وسعه في الجهاد، واستنقذ من أيدي الفرنج ما ذكرناه، وكان ثابتًا في حروبه، وبنى: المدارس، والمساجد، والربط، والبيمارستانات، والخانات، والطرق، والجسور، وجدد القني وأصلحها، وأوقف الوقوف على معلمي الخط لتعليم الأيتام، وعلى

سكان الحرمين الشريفين، وأقطع أمراء العرب الإقطاعات حتى كفوا عن التعرض إلى الحاج، وبنى أسوار المدن والحصون التي هدمتها الزلزلة التي ذكرناها في أخبار الدولة العباسية، وكان رحمه الله مواظبا على الصلاة في الجماعة، حريصا على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصدا في الإنفاق والمطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في سخطه وعاقب على شرب الخمر.

قال الشيخ عز الدين أبو الحسن علي بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير رحمه الله: « قد طالعت تواريخ الملوك المتقامين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه » قال: وكان رحمه الله لا يفعل فعلا إلا بنية حسنة، كان بالجزيرة رجل من الصالحين العباد، وكان نور الدين يكتبه ويراسله فيرجع إلى قوله، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالأكرة، فكتب إليه يقول: « ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة؟ »، فكتب إليه نور الدين بخطه يقول « والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر، العدو قريب منا، وبيننا نحن جلوس إذ يقع الصوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا، إذ لا بد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جهاما لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جهامها، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لمراكبها في الحرب. فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة ».

قال: وحكي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة، فلم يحضرها عنده، فوصفت له، فلم يلتفت إليها، فبينما هم معه في حديثها إذ جاءه رجل صوفي فأمر له بها. فقبل له إنها لاتصلح

لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها كان أنفع له. فقال: « أعطوها له، فانني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة»، فسلمت إليه، قيل والذي أعطيها شيخ الصوفية عماد الدين بن جموية، فبعثها إلى همدان، فبيعت بألف دينار.

قالوا: وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وسمع الحديث وأسمعه، وكان يعظم الشريعة المطهرة، ويقف عند أحكامها، فمن ذلك أنه كان يلعب بالكرة عند دمشق، فرأى إنساناً يحدث آخر ويومئ إليه بيده، فأرسل يسأله عن حاله، فقال: « لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني»، فلما قيل ذلك له ألقى الجوكان من يده، وخرج من الميدان وتوجه إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وأرسل إليه يقول: « إني قد جئت في محاكمة فاسلك معي ما تسلكه مع غيري. » فلما حضرا، ساوى خصمه وحاكمه، فلم يثبت قبله حق، وثبت الحق لنور الدين. فعند ذلك أشهد على نفسه أنه وهب الملك للذي حاكمه، وقال: « كنت أعلم أن لاحق له عندي، وإنما حضرت معه لثلا يظن بي أي ظلمته، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له ».

قال: وهو أول من بنى دار الكشف وسماها دار العدل، وكان يجلس فيها في الأسبوع يومين، وعنده القاضي والفقهاء لفصل الحكومات بين القوي والضعيف، وكان شجاعاً حسن الرأي والمكيده في الحرب، عارفاً بأمور الأجناد، وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين^(٥) وباشر القتال بنفسه. وكان يقول: « طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها ».

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده. كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداً، أقر الإقطاع عليه، فإن كان كبيراً استبد بتدبير نفسه، وإن كان صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه ويتولى أمره إلى أن

يكبر، فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سببا عظيما للنصر في المشاهد والحروب. قال: وبنى أسوار مدن الشام وقلاعها، فمنها: حلب، وحماه، وحمص، ودمشق، وبارين، وشيزر، ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون، وأخرج عليها الأموال الكثيرة التي لا تسمح النفوس بمثلها، وبنى المدارس بحلب، وحماه ودمشق، وغيرها. وبنى الجوامع في كثير من البلاد، فمنها جامعها بالموصل، إليه النهاية في الحسن والإتقان، وفوض عمارته وأخرج عليه للشيخ عمر الملاء، وكان من الصالحين، فقليل له إنه لا يصلح لمثل هذا العمل، فقال: «إذا وليت بعض أصحابي من الأجناد والكتاب، أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات، فلا يفي عمارة الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإن ظلم كان الاثم عليه لا علي»، وبنى أيضا بمدينة حماه جامعاً على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأزهرها، وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم بسبب زلزلة وغيرها، وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها وأشهرها البيمارستان الذي بناه بدمشق، وقفه على كافة المسلمين من غني وفقير، وبنى الربط والخانقاهات للصوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وأدر عليهم الإدارات الصالحة.

قال: وكان قد ضبط ناموس الملك إلى غاية لامزيد عليها، فكان يلزم الأجناد بوظائف الخدمة، ولا يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس، إلا نجم الدين أيوب، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه وغيره، فإنهم كانوا يقفون حتى يأمرهم بالجلوس، وكان مع ذلك إذا دخل عليه الفقير والصوفي والفقيه يقوم له ويجلسه إلى جانبه. وكان إذا أعطى أحدهم شيئا يقول إن هؤلاء لهم في بيت المال حق، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا.

ولم يزل الناس معه في غاية الأمن والخير والبركة والنمو والإحسان

والعدل والبر، وإظهار السنة، وقمع البدعة إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى.

ذكر أخبار الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين أتابك زنكي بن أقسنقر

ملك بعد وفاة والده في حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسائة. وحلف له الأمراء وأطاعه الناس في سائر البلاد وخطب له الملك الناصر صلاح الدين يوسف بالديار المصرية، ولم يكن الملك الصالح إذ ذاك قد بلغ الحلم، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم.

قال العماد الأصفهاني الكاتب: وورد كتاب صلاح الدين بالمثل الفاضلي معزيا للملك الصالح وفي آخره: « وأما العدو خذله الله تعالى فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهازه، وسيل لقراره ، إلى أن يزعجه من مجائمه، ويستوقفه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريم، وأيسر لوازمه. أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم، وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة، وفيما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الاسلام عالما أن الجماعة رحمة».

قال: ولما بلغ سيف الدين غازي بن قطب مودود وفاة عمه، استبشر لذلك، ونادى بالموصل بالفسحة في الشرب واللهو، وكان الخبر قد أتاه وهو سائر إلى خدمة عمه نور الدين، فإنه كان قد استدعاه بالجيوش، فعاد وهرب سعد الدين كمشتكين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار سيف الدين غازي مبيناً، قال: ولما اتفق ذلك منه لم يكتب

الجماعة الذين في خدمة الملك الصالح إلى صلاح الدين يوسف بالخبر، خوفاً أنه إذا بلغه ذلك قصدهم، واستولى على الملك الصالح وأبعدهم، فشق ذلك عليه، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: وأقام الملك الصالح بدمشق وجماعة الأمراء عنده لم يمكنوه من المسير إلى حلب، لئلا يغلبهم عليه شمس الدين بن الداية، ويختص بخدمته، فإنه كان من أكبر الأمراء النورية. ولما وصل كمشتكين من الموصل إلى حلب أحسن إليه الأمير شمس الدين ابن الداية، وأكرمه، وجهزه إلى دمشق لإحضار الملك الصالح منها إلى حلب، وجهز معه العساكر. فلما قارب دمشق سير الأمير شمس الدين محمد بن المقدم عسكرياً إليه، فهزموه. ونهبوا ما معه، فعاد إلى حلب منهزماً، فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه، ثم نظر أمراء دمشق المصلحة، فعلموا أن مسيره إلى حلب أجود من مقامه بدمشق. فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون سعد الدين كمشتكين ليأخذ الملك الصالح، فجهزه إليهم، فسار إلى دمشق في المحرم سنة سبعين وخمسمائة، فأخذ الملك الصالح وعاد به إلى حلب. فلما وصل إليها، قبض سعد الدين على ابن الداية وإخوته، وعلى الرئيس ابن الخشاب رئيس حلب، ومقدم الأحداث بها.

واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح، فخاف ابن المقدم وغيره من الأمراء بدمشق أن سعد الدين يسير إليهم ويفعل بهم كما يفعل بابن الداية، فراسل سيف الدين غازي بن مودود في الحضور من الموصل ليتسلم دمشق، فخشي غازي أن تكون مكيدة فلم يحضر، فراسله سعد الدين، واتفق الحال على أن يستقر بيده ما استولى عليه من الأعمال الجزيرية. فقال أمراء دمشق: حيث صالح سيف الدين، لم يبق له مانع من المسير إلى دمشق. فراسلوا الملك الناصر صلاح الدين في الحضور من مصر ليتسلمها، فوصل إليها، وتسلمها، وملك حمص وحماة وبعليك. ولم يقطع خطبة الملك الصالح، وأظهر أنه إنما حضر لخدمته،

واسترجاع ما استولى عليه سيف الدين غازي وغيره من الأعمال الجزيرية. ثم كان بينه وبين العسكر الحلبي من الحروب ما نذكره في أخبار الدولة الأيوبية، إلى أن أحوجوه إلى الاستقلال بالأمر والخطبة لنفسه وملك البلاد.

ذكر مقتل سعد الدين كمشتكين وحصر الفرنج حارم

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، قبض الملك الصالح على سعد الدين، وهو المتولي على أمر دولته، والحاكم فيها. وسبب ذلك أن أبا صالح بن العجمي كان من أكابر حلب، وكان مقدما عند نور الدين، وتقدم عند ولده وأطاعه الناس، وكثرت أتباعه، فوثب عليه بعض الباطنية بالجامع فقتله، فنسب ذلك لسعد الدين فوشوا به عند الملك الصالح، فقبض عليه. وكانت حارم اقطاعه، فامتنع من بها من تسليمها، فسيره الملك الصالح تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها، فأمرهم فلم يرجعوا إلى قوله، وعذب وهم ينظرون إليه إلى أن مات تحت العقوبة. فبلغ الفرنج ذلك، فنازلوا قلعة حارم ونصبوا عليها المجانيق، فصالحهم الملك الصالح على مال ففارقوها، وتسلمها بعد حصار ثان، ورتب فيها من المماليك النورية من يحفظها.

ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل

كانت وفاته لخمس بقين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وابتدأت علته في تاسع الشهر، وكان مرضه القولنج ومات وله من العمر تسع عشرة سنة، وقيل في سبب وفاته إن علم الدين سليمان بن جندر سقاه في عنقود عنب وهو في الصيد؛ وقيل بل سقاه ياقوت الأسدي في شراب، فعظم موته على سائر الناس، وحزنوا لفقده حزنا شديدا.

قال ابن الأثير: ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر للتداوي، فاستفتى الفقيه علاء الدين الكاشاني، وأفتاه بجواز شربها، فقال: « إن كان الله قد قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر؟ » فقال: لا والله فقال: « والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمه علي » ومات رحمه الله ولم يشربها.

ولما أيس من نفسه أحضر الأمراء والأجناد في الثالث والعشرين من شهر رجب وأوصاهم بتسليم البلد لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، واستحلفهم على ذلك، فقال بعض أصحابه: إن عز الدين ملك الموصل وله ما يكفيه ولو أوصيت بها لابن عمك عماد الدين زنكي فإنه تربية والدك، وزوج أختك، وليس له غير سنجار؟ . فقال: « إن هذا لم يغب عني، ولكن قد علمتهم أن صلاح الدين قد تمكن . وتغلب على عامة البلاد الشامية، ومتى كانت حلب لعماد الدين عجز عن حفظها وعز الدين يحفظها، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام، فاستحسن الناس ذلك منه، وعجبوا من جودة رأيه مع صغر سنه، وأن مرضه لم يشغله عن حسن اختياره. ثم مات رحمه الله.

وكان عفيف اليد والفرج واللسان، لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الملوك والشباب، حسن السيرة، عادلا في رعيته. وبوفاته انقرض عقب نور الدين المذكور.

ولنرجع إلى ذكر ملوك الموصل الذين ملكوا بعد وفاة سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي.

ذكر أخبار قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر

ملك الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي في أواخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وذلك أنه لما مات سيف الدين غازي اجتمعت كلمة الوزير جمال الدين الأصفهاني، وزين الدين علي أمير الجيش على تولية قطب الدين طلبا للسلامة، فاستحلفوه وحلفوا له، وركبوه إلى دار السلطان، وأطاعه سائر البلاد التي كانت تحت يد أخيه، وتزوج الخاتون ابنة حسام الدين ثمرتاش صاحب ماردين. وكان سيف الدين غازي قد تزوجها ولم يدخل بها، فتزوجها قطب الدين وهي أم أولاده الملوك.

قال: ولما ملك قطب الدين كان نور الدين بحلب، وهو أكبر منه، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه، فسار إليهم، وقصد انتزاع الملك من أخيه قطب الدين، ثم انفقا وعاد نور الدين إلى حلب، وشهد قطب الدين بعض الحروب مع أخيه نور الدين، كما ذكرناه في أخبار نور الدين.

ذكر القبض على الوزير جمال الدين محمد بن علي ابن المنصور الأصفهاني ووفاته وشيء من أخباره وسيّرتة

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة قبض قطب الدين على الوزير جمال الدين واعتقله، فتوفي في اعتقاله في شعبان سنة تسع وخمسين، ولعمري ما كان يستحق أن يعتقل، وهو الذي عمل على إثبات الملك في البيت الأتابكي بعد قتل الشهيد أتابك زنكي، على ما قدمنا في أخبار سيف الدين غازي.

قال ابن الأثير الجزري رحمه الله في تاريخه الكامل: حكى لي إنسان

صوفي يقال له أبو القاسم؛ كان مختصا بخدمته في الحبس، قال: « لم يزل مشغولا في محبسه بأمر آخرته، وكان يقول كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر، فلما أن مرض قال لي في بعض الأيام: يا أبا القاسم إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفني» قال: « فقلت في نفسي قد اختلط عقله » ، فلما كان الغد أكثر السؤال عنه، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط، فقلت: « قد جاء الطائر »، فاستبشر ثم قال: « جاء الحق »، وأقبل على الشهادة، وذكر الله تعالى إلى أن توفي، فلما توفي طار ذاك الطائر، فعلمت أنه رأى شيئا في معناه.

ودفن بالموصل عند فتح الكرامي رحمة الله عليهما نحو سنة، ثم نقل إلى المدينة، فدفن بالقرب من حرم النبي صلى اله عليه وسلم في رباط بناه لنفسه. وقال لأبي القاسم: « بيني وبين أسد الدين شيركوه عهد : من مات قبل صاحبه حمله إلى المدينة، فدفنه بها في التربة التي عملها، فإذا أنا مت فامض إليه وذكره ».

فلما توفي سار أبو القاسم إلى شيركوه في المعنى، فقال له شيركوه: كم تريد؟ فقال: « أريد أجرة حمل يحمله، وجمل يحملني وزادي » فأنتهره وقال: « مثل جمال الدين يحمل هكذا إلى مكة » وأعطاه مالا صالحا ليحمل معه جماعة يحجون عن جمال الدين، وجماعة يقرأون بين يدي تابوته إذا حمل وإذا أنزل عن الجمل، فإذا وصل إلى مدينة يدخل أولئك القراءون ينادون للصلاة عليه، فيصلي عليه في تكريت، وبغداد والحلة، وفيد، ومكة، والمدينة، وكان يجتمع له في كل بلد من الخلق ما لا يحصى، ولما أراد الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وأنشد بأعلى صوته:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما
سرى جوده فوق الركاب ونائله

يمر على الوادي فتثنى رماله
عليه وبالنادي فتثنى أرامله

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم، وطافوا به حول الكعبة ، وصلوا عليه
بالحرم الشريف، وبين قبره وقبر النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر
ذراعا.

. وأما سيرته رحمه الله فكان أسخى الناس، وأكثرهم بذلا للمال، رحيا
بالخلق، متعظفا عليهم عادلا فيهم، فمن أعماله الحسنة أنه جدد بناء
مسجد الخيف بمنى وغرم عليه أموالا كثيرة، وبنى الحجر بجانب
الكعبة، وزخرف الكعبة وأذهبها وعملها بالرخام. ولما أراد ذلك أرسل إلى
المتقي لأمر الله هدية جليلة، وطلب منه ذلك، وأرسل إلى الأمير عيسى
أمير مكة هدية كبيرة، وخلعا ثمينة، منها عمامة شراها بثلاثمائة دينار،
حتى مكنه من ذلك، وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات،
والدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم،
وعمل بعرفات أيضا مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نعيان في طرق
معمولة تحت الأرض، وأخرج على ذلك مالا كثيرا وكان يجري الماء في
المصانع في كل سنة أيام الحج، وبنى سورا على مدينة النبي صلى الله
عليه وسلم. وعلى فيد.

وكان يخرج على باب داره في كل يوم للصعاليك والفقراء مائة دينار
أميري؛ هذا سوى الإدارات والتعهدات للأئمة والصالحين وأرباب
البيوت. ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على
دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص
والكلس، فقبض قبل أن تكمل عمارته وبنى أيضا جسرا كذلك على
النهر المعروف بالأرصاد، وبنى الربط. وقصده الناس من أقطار الأرض،

وكانت صدقاته وصلاته من أقاصي خراسان إلى حدود اليمن، وكان يشتري الأسرى في كل سنة بعشرة آلاف دينار، هذا من الشام حسب، سوى ما يشتري من الكرج.

وقال ابن الأثير أيضا: حكى لي والدي عنه قال: كثيراً ما كنت أرى جمال الدين إذا قدم إليه الطعام يأخذ منه ومن الحلوى، ويتركه في خبز بين يديه. فكنت أنا ومن يراه نظن أنه يحمله إلى أم ولده علي، فاتفق أنه في بعض السنين جاء إلى الجزيرة مع قطب الدين، وكنت أتولى ديوانها، وحمل جاريته أم ولده إلى داري لتدخل الحمام، فبقيت في الدار أياماً، فبينما أنا عنده في الخيام، وقد أكل الطعام فعل كما كان يفعل. ثم تفرق الناس فقمت فقال: «أقعد» فقعدت. فلما خلا المكان قال لي: «قد أثرتك اليوم على نفسي، فإنني في الخيام ما يمكنني أن أفعل ما كنت أفعله، خذ هذا الخبز واحمله أنت في كمك في هذا المنديل، واترك الحماقة من رأسك، وعد إلى بيتك، فإذا رأيت في طريقك فقيراً يقع في نفسك أنه مستحق، فأقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام»، قال: ففعلت ذلك، وكان معي جمع كثير ففرقتهم في الطريق لئلا يروني أفعل ذلك، وبقيت في غلmani، فرأيت في موضع إنساناً أعمى وعنده أولاد له وزوجته، وهم من الفقر على حال شديد، فنزلت عن دابتي إليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم إياه، وقلت للرجل تجيء غداً بكرة إلى دار فلان، أعني داري - ولم أعرفه نفسي - فإنني آخذ لك من صدقة جمال الدين شيئاً. ثم ركبت إليه العصر، فلما رأي قال: «ما الذي فعلت في الذي قلت لك؟» فأخذت أذكر له شيئاً يتعلق بدولتهم فقال: «ليس عن هذا أسألك، إنما أسألك عن الطعام الذي سلمته إليك؟» فذكرت له الحال ففرح، ثم قال: «بقي أنك قلت للرجل يجيء إليك هو وأهله فتكسوهم وتعطيهم دنائير وتجري لهم كل شهر دنائير؟» قال: فقلت له: «قد قلت للرجل يجيء إلي» فازداد فرحاً وفعل للرجل ما قال، ولم يزل

يصل إليه رسمه حتى قبض. قال: وله من هذا كثير. فمن ذلك أنه تصدق بثيابه من على بدنه في بعض السنين التي تعذرت فيها الأقوات.

ولما وقفت على ترجمته لهجت بالترحم عليه ، وقرأت ختمه شريفة في شهر رمضان سنة أربع عشرة وسبعمائة، وسألت الله تعالى أن يسطر ثوابها في صحيفة حسناته ، وقررت ذلك على نفسي في كل سنة في شهر رمضان، وأرجو أن لا أقطعها مالم أنسى ذلك، رحمه الله تعالى.

ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة فارق زين الدين علي بن بكتكين، النائب عن قطب الدين خدمته، وسار إلى إربل . وكان هو الحاكم في الدولة، وأكثر البلاد بيده، ومنها إربل وبها أهله وأولاده وخزائنه، وشهرزور وجميع القلاع التي معها، وجميع بلاد الهكارية وبلد الحميدية، وتكريت وسنجار، وحران، وقلعة الموصل هو بها، وكان قد أصابه طرش ثم عمي، فلما عزم على مفارقة الموصل إلى بيته بإربل، سلم جميع ما كان بيده من البلاد إلى قطب الدين، وبقي معه إربل خاصة، وكان شجاعا عاقلا حسن السيرة سليم القلب ميمون النقية، ما انهزم من حرب قط، وكان كريما كثير العطاء للجنود وغيرهم، فمن عطاياه أن الحيص يبص الشاعر قد امتدحه بقصيدة، فلما أراد إنشادها قال له: « أنا لا أعرف ما تقول، ولكنني أعلم ما تريد » وأمر له بخمسمائة دينار وخلعة وفرس، فكان مجموع ذلك بألف دينار، ولم يزل بإربل إلى أن مات بها في هذه السنة.

ولما فارق زين الدين قلعة الموصل، سلمها قطب الدين إلى فخر الدين عبد المسيح وحكمه في البلاد، فعمر القلعة وكانت خرابا، لأن

زين الدين كان قليل الالتفات إلى العمارة، وسار عبد المسيح سيرة شديدة، وسياسة عظيمة وكان خصياً أبيض من ممالك أتابك زنكي.

ذكر وفاة قطب الدين مودود وملك ولده سيف الدين غازي

كانت وفاة قطب الدين مودود بن زنكي بالموصل في ذي الحجة سنة خمس وستين وخمسمائة، وقيل في شوال منها. وكان مرضه حمى حادة فكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهوراً، وكان من أحسن الملوك سيرة، وأعفهم عن أموال الرعية، كثير الإنعام والإحسان إليهم، محبوباً إلى كبيرهم، وصغيرهم عطوفاً على شريفهم ووضيعهم، كريم الأخلاق. ولما مات رحمه الله تعالى ملك بعده ولده سيف الدين غازي.

ذكر أخبار سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكي

ملك الموصل، وما كان بيد والده قطب الدين بعد وفاته في ذي الحجة أو شوال سنة خمس وستين وخمسمائة؛ بوصية من أبيه، وكان والده قد أوصى بالملك بعده لولده الأكبر عماد الدين زنكي، فحرف عبد المسيح رأيَه عنه. فلما كان في اليوم الثاني استخلف سيف الدين غازي، فاستقر في الملك بعد وفاة أبيه، واستولى عبد المسيح على المملكة. ولم يكن لغازي معه غير الاسم، فاتصل ذلك بنور الدين محمود، فأزعجه وأثف منه وكبر لديه، فسار إلى الموصل سنة ست وستين، ودخلها من غير قتال، وكان الجند والعوام قد كاتبوه في تسليم البلد إليه، فلما علم بذلك عبد المسيح كاتبه أيضاً وسأله الأمان، فأمنه وقال: « لاسبيل أن يكون بالموصل »؛ ونقله إلى الشام، ودخل نور الدين الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى، وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى القلعة

خادما يقال له سعد الدين كمشتكين، وجعله دزدارا ثم عاد إلى الشام رحمه الله.

ذكر ملك سيف الدين غازي البلاد الجزيرية

كان سبب ذلك أن عمه الملك العادل نور الدين قد استدعاه بعساكر الموصل وديار الجزيرة وغيرها لقصد الغزاة ، فسار سيف الدين غازي وجعل على مقدمته سعد الدين كمشتكين، فلما كانوا ببعض الطريق، وافاهم الخبر بوفاة نور الدين، فهرب سعد الدين جريدة، واستولى غازي على بركه وثقله وموجوده، وعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشحن إلى الخابور، واستولى عليه وأقطعه، وسار إلى حران فحصرها عدة أيام، وبها قايماز الحراني مملوك نور الدين، فأطاعه بعد امتناع على أن تكون حران له ، فلما نزل إليه، قبض عليه سيف الدين غازي، وسار إلى الرها فحصرها وملكها، وبها خادم خصي أسود لنور الدين، فسلمها وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر، فأعطىها ثم أخذت منه، ثم انتهى حاله إلى أن استعطى ما يقوم به.

وسير سيف الدين إلى الرقة، فملكها وملك سروج وجميع بلاد الجزيرة، إلا قلعة جعبر لحصانتها، ورأس عين لأنها كانت لقطب الدين صاحب ماردين، وعاد عبد المسيح إلى خدمة سيف الدين من سيواس، وحسن لسيف الدين العبور إلى الشام ليملكه، فأشار عليه عز الدين محمود - وهومن أكابر الأمراء - أن يقتصر على ما بيده ، فرجع إليه وعاد إلى الموصل ، وذلك في سنة تسع وستين وخمسمائة.

ذكر حصره أخاه زنكي بسنجار

وفي سنة سبعين وخمسمائة في شهر رمضان حصر سيف الدين غازي أخاه عماد الدين زنكي بسنجار، وكان سبب ذلك أن الملك الصالح

إسماعيل بن نور الدين كتب إلى سيف الدين يستحثه على الوصول إليه ليدفع الملك الناصر صلاح الدين يوسف عن حلب، فجمع سيف الدين غازي العساكر، وكاتب عماد الدين في اللحاق به. وكان صلاح الدين قد كاتبه وأطمعه في الملك، فامتنع عماد الدين بسبب ذلك، فجهز سيف الدين العساكر مع أخيه عز الدين مسعود إلى الشام، وتوجه هو لحصار أخيه بسنجار، فحصرها، وبينما هو كذلك، إذ أتاه الخبر بانضمام أخيه مسعود من صلاح الدين، فراسل حيثئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده، ورحل إلى الموصل. ثم كان بين سيف الدين وبين الملك الناصر ما تذكره في أخبار الملك الناصر من هزيمة غازي في سنة إحدى وسبعين.

ورجع إلى الموصل، وعزل عز الدين زلفندار واستعمل مكانه في إمارة الجيش مجاهد الدين قايماز.

وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة عصى شهاب الدين محمد بن مروان صاحب شهرزور على سيف الدين غازي، وكان قبل ذلك في طاعته، فراسله في معاودة الطاعة، فعاد وحضر إلى الخدمة.

ذكر وفاة سيف الدين غازي

كانت وفاته في ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة وكان مرضه السل، فطال به، ثم أدركه برسام فمات، وعمره نحواً من ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً، وكان حسن الصورة تام القامة أبيض اللون، وكان عاقلاً وقوراً قليل الالتفات إذا ركب، وإذا جلس، ولم يذكر عنه في نفسه ما ينافي العفاف، وكان شديد الغيرة لا يدخل دوره غير الخدام الصغار، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ الأموال على شحه وجبنه.

ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده معز الدين سنجر شاه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة، فخاف على الدولة من ذلك، لتمكن صلاح الدين يوسف بالشام، وامتنع عز الدين مسعود من الموافقة والأيمان، فأشار الأمراء أن يكون الملك بعده لعز الدين مسعود أخيه، ففعل، وجعل لولده سنجر شاه جزيرة ابن عمر وقلاعها، وجعل قلعة الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك.

ذكر ملك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي

ملك الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي في ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وقام بتدبير دولته مجاهد الدين قايباز. وفي سنة سبع وسبعين كانت وفاة الملك الصالح اسماعيل، وأوصى بحلب لعز الدين مسعود كما ذكرناه في أخباره. فكاتبه الأمراء بذلك واستدعوه لتسليمها، فسار إليها ومعه مجاهد الدين قايباز، فدخلها في العشرين من شعبان منها وأقام بحلب عدة شهور ثم سار إلى الرقة.

ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين زنكي وأخذ سنجار عوضاً عنها

قال: ولما فارق عز الدين مسعود حلب، ووصل إلى الرقة، جاءته رسل أخيه عماد الدين زنكي صاحب سنجار يطلب منه أن يسلم إليه مدينة حلب ويأخذ سنجار، فلم يجب إلى ذلك، فراسله مرة أخرى وألح في طلبها، وقال متى لم تسلم إليّ حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين، فأشير بتسليمها إليه فسلمها له، وتسلم سنجار، وعاد إلى الموصل.

ذكر القبض على مجاهد الدين قايماز

وفي جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وخمسمائة قبض عز الدين مسعود على نائبه مجاهد الدين قايماز، ولما قصد القبض عليه لم يقدم عليه مفاجأة لقوة مجاهد الدين، فأظهر المرض وانقطع عن الركوب، فدخل إليه مجاهد الدين وحده، وكان خصيصا به لا يمنع من الدخول على النساء، فقبض عليه وركب لوقته إلى القلعة، واحتوى على أموال قايماز وخزائنه، وولى زلفندار قلعة الموصل، وجعل شرف الدين أحمد بن أبي الخير - وهو ابن أمير حاجب العراق - أمير حاجب، وحكمه في دولته، وكانت إربل وأعمالها تحت حكم مجاهد الدين، ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين علي، وهو صبي صغير. وتحت حكمه أيضا جزيرة ابن عمر، وهي لمعز الدين سنجر شاه ابن سيف الدين غازي، وهو صبي أيضا، ويبيده شهرزور وأعمالها ونوابه بها، ودقوقا، وقلعة عقر الحميدية ونائبه بها، ولم يكن مع عز الدين إلا الموصل خاصة، وقلعتها لمجاهد الدين، فلما قبض امتنع صاحب إربل عن الطاعة، واستبد صاحب الجزيرة، وأرسل الخليفة من حصر دقوقا وأخذها، ولم يحصل لعز الدين غير شهرزور والعقر، وصارت إربل والجزيرة أضرب شيء عليه، وأرسل صاحب إربل إلى الملك الناصر صلاح الدين بالطاعة له، وقوي طمع الملك الناصر في الموصل لما قبض على مجاهد الدين، فلما رأى عز الدين ما حصل من الضرر والفساد بسبب قبض مجاهد الدين، قبض على شرف الدين أحمد الحاجب وزلفنداره، عقوبة لهما كونهما حسنا له القبض على قايماز.

ذكر اطلاق مجاهد الدين قايماز وما كان من العجم وانهمزاهم

قال: وفي المحرم سنة ثمانين وخمسمائة أطلق عز الدين مسعود مجاهد الدين قايماز، وذلك بشفاعة شمس الدين بن البهلوان صاحب همدان

وبلاد الجبل. ولما أطلقه سيره إلى ابن البهلوان وإلى أخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين. فبدأ في مسيره بقزل وهو صاحب أذربيجان، فلم يمكنه من المضي إلى شمس الدين، وقال: « مهما يختار أنا أفعله»، وجهاز معه ثلاثة آلاف فارس، وساروا نحو إربل ليحصروها، فلما قاربوها أفسدوا في البلاد وخربوها، وسبوا وأخذوا النساء قهرا، ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم، وسار إليهم زين الدين يوسف صاحب إربل في عسكره، فلقاهم وهم قد تفرقوا للنهب، فانتهاز الفرصة وقاتل من لقي منهم، فهزمهم وتمت الهزيمة على العجم، وغنم الإربليون أموالهم ودوابهم وسلاحهم، وعاد العجم إلى بلادهم، وعاد مجاهد الدين إلى الموصل، وكان يقول: مازلنا ننتظر العقوبة من الله عز وجل على سوء فعل العجم.

ذكر وفاة عز الدين مسعود

كانت وفاته في التاسع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بالموصل مقابل دار المملكة وبقي في مرضه ما يزيد على عشرة أيام لا ينطق إلا بالشهادتين وتلاوة القرآن والاستغفار، وكانت مدة ملكه ثلاثا وعشرين سنة وسبعة أشهر إلا أياما، وكان خير الطبع، كثير الخير، والإحسان وزيارة الصلحاء وبرهم، وكان حليما قليل المعاقبة كثير الحياء لا يكلم جلساءه إلا وهو مطرق، وما قال في شيء سئله « لا» ولبس خرقه التصوف بمكة، وكان يلبسها في كل ليلة، ويخرج إلى مسجد بناه في داره فيصلي فيه نحو ثلث الليل، رحمه الله.

وملك بعده ولده نور الدين أرسلان شاه بن مسعود، وقام بتدبير دولته في ابتدائها مجاهد الدين قايماز مدبر دولة والده، واستمر نور الدين أرسلان شاه في الملك إلى سنة سبع وستائة، فتوفي في أوائل شهر ربيع منها، ودفن في مدرسته التي أنشأها مقابل داره بالموصل، وكانت علته

قد طالّت ، وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرا، وكان بينه وبين الملك العادل بن أيوب مخالفة، ثم اتفاق ومصاهرة، وكان شهما شجاعا ذا سياسة للرعايا شديدا على أصحابه مانعا من تعدي بعضهم على بعض.

ولما مات ملك بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، وكان والده قد حلف له العساكر، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي قلعة عقر الحميدية وقلعة شوس، وأمر أن يتولى تدبير دولة القاهر فتاه بدر الدين لؤلؤ ، فقام بتدبير الدولة والنظر في مصالحهما. واستمر الملك القاهر في الملك إلى سنة خمس عشرة وستمئة، فتوفي في ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الأول منها، فكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهر، وكان كريما قليل الظمع في أموال رعيته مقبلا على أمرائه، وملك بعده ولده نور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه ملك الموصل، بوصية من أبيه، وكان عمره يوم ذاك عشر سنين، وجعل الوصي عليه والمدير لدولته بدر الدين لؤلؤ، فقام أحسن قيام، وراسل الملوك أصحاب الأطراف المجاورين له، وطلب منهم تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التي كانت اتفقت بينهم وبين أبيه، فوافقوه. وكتب إلى الديوان العزيز، فجاءته الخلع والتقليد من الخليفة بولاية نور الدين، ونظر بدر الدين في أمور الدولة فلم يلبث نور الدين إلا أن توفي في هذه السنة.

ولما مات استحلف بدر الدين لؤلؤ العساكر لأخيه ناصر الدين محمود بن الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه، وله من العمر ثلاث سنين. واستمر بدر الدين لؤلؤ في تدبير الدولة، فتجدد طمع عز الدين زنكي بن مسعود، ومظفر الدين عمية في ملك الموصل لصغر سنه، فجمعا الرجال وتجهزا للحركة، وقصدا أطراف الموصل بالنيب

والفساد، فخرج إليهم بدر الدين لؤلؤ بعساكر الموصل ، والتقوا، فكانت الهزيمة على العسكر البدري، وعاد إلى الموصل وتبعه مظفر الدين، ثم حصل الاتفاق بعد ذلك واستقر كل واحد على ما بيده. ثم ملك عماد الدين قلعة كواشي، وهي من أحسن قلاع الموصل.

ثم مات ناصر الدين محمود بعد مدة يسيرة، واستقر بدر الدين لؤلؤ بملك الموصل، وتلقب بالملك الرحيم ودامت أيامه إلى أن توفي في سنة سبع وخمسين وستائة، فكانت مدة ملكه نحو أربعين سنة، وملك بعده أولاده ، فكان الذي استقل بملك الموصل من أولاده الملك الصالح ركن الدين اسماعيل، قتله التتار في سنة تسع وخمسين وستائة، وملك الملك المظفر علاء الدين علي سنجار، ولما استولى التتار على هذه الممالك وصل هؤلاء إلى الديار المصرية المحروسة في أيام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وجهزهم صحبة الخليفة المستنصر بالله، فكان من أمره وأمرهم ما ذكرناه ونذكره إن شاء الله تعالى، فلنرجع إلى ذكر أخبار عماد الدين زنكي بن مودود.

ذكر أخبار عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر

استقر ملكه بسنجار بعد وفاة أبيه، واستقلال أخويه سيف الدين غازي، ثم عز الدين مسعود بملك الموصل، ثم تعوض عماد الدين بحلب عن سنجار، كما قدمنا ذكره في أخبار عز الدين مسعود، ثم أخذ الملك الناصر يوسف منه حلب، وعوضه عنها بسنجار وربض الخابور، والركة، على ما نبينه إن شاء الله في أخبار الملك الناصر فاستقر ملكه أخيرا بسنجار وما معها في سنة تسع وسبعين وخمسة وثمانين وكان عادلا حسن السيرة في رعيته عفيفا عن أموالهم، كثير التواضع ، يحب أهل

العلم والدين، ويجلس معهم، ، ويرجع إلى آرائهم إلا أنه كان شديد البخل.

ولما مات ملك بعده ولده قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرناقش مملوك أبيه، وكان ديناً خيراً عادلاً حسن السيرة، واستمر ملك قطب الدين بسنجار إلى سنة ست عشرة وستمائة، فتوفي في ثامن صفر منها، وكان كريماً حسن السيرة في رعيته كثير الاحسان إليهم، وكان قد سلم الأمور إلى نوابه.

ولما مات ملك بعده ابنه عماد الدين شاهان شاه بن محمد. ولما ملك سار بعد شهور إلى تلعفر ، وهي في مملكته فدخل عليه أخوه عمر بن محمد في جماعة فقتلوه.

وملك عمر بن محمد -- وهو فروخ شاه -- فبقي بسنجار إلى أن أخذها الملك الأشرف في سنة سبع عشرة وستمائة، وعوضه عنها بالركة. وهو آخر من ملك سنجان من البيت الأتابكي، فكانت مدة ملكهم لها أربعاً وتسعين سنة. وتوفي بعد أخذها منه بقليل. فلنذكر أخبار أولاد غازي.

ذكر أخبار معز الدين سنجان شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي

ملك جزيرة ابن عمر بعد وفاة والده في صفر سنة ست وسبعين وخمسائة. وكان كثير الأذى لعمه عز الدين مسعود، فحاصر مسعود في سنة سبع وثمانين أربعة أشهر، واستقرت القاعدة بينهم على أن يكون لكل منهما نصف أعمال الجزيرة، وتكون الجزيرة بيد سنجان شاه في جملة النصف، ودام ملكه بالجزيرة إلى أن قتل.

ذكر مقتله وملك ولده معز الدين محمود

كان قتله في سنة خمس وستائة على يد ولده غازي. وسبب ذلك أن سنجر شاه كان سيء السيرة في رعيته وأولاده وجنده وغيرهم، فكان من جملة ما اعتمده مع أولاده أنه بعث ابنه محمودا ومودودا إلى قلعة أروخ من بلد الزوزان وأخرج ابنه غازي إلى دار بالمدينة أسكنه بها ووكل به من يمنعه من التصرف، وكانت الدار إلى جانب بستان لبعض الرعية فكان يدخل إليها من البستان الحيات والعقارب وغير ذلك من الحشرات، فاصطاد غازي حية وسيرها إلى أبيه لعله يرق له ويعطف عليه، فلم يزد إلا تماديا وإصراراً، فعندها أيس من خيره وأعمل الحيلة حتى نزل من الدار، ووضع إنسانا كان يخدمه أظهر أنه غازي، وخرج من بلاد الجزيرة وقصد الموصل، فشاع الخبر أن غازي قد توجه إلى الموصل وهو مختلف بالجزيرة ما خرج منها، ثم أعمل الحيلة وتسلق فنزل إلى دار أبيه، فستر عليه سراري والده لبغضهم في أبيه، ثم اتفق أن والده شرب في بعض الأيام، وسكر ودخل الخلاء، فضربه ابنه غازي هذا بسكين فقتله، ثم ذبحه وتركه ملقى وقعد يلعب مع الجواري. فخرج بعض الخدم الصغار إلى باب الدار، وأعلم أستاذ الدار بالخبر، فأحضر أعيان الدولة، وعرفهم الأمر وأغلق الأبواب على غازي واستحلف الناس لمحمود بن سنجر شاه، ودخل على غازي فمانع عن نفسه ثم قتلوه ورمي على باب الدار، وأكلت الكلاب بعضه ودفن بآقيه.

ووصل محمود إلى البلد وملك ولقب معز الدين لقب أبيه وغرق الجواري اللواتي اتفقن مع غازي على قتل أبيه في دجلة، ثم قتل محمود أخاه مودودا بعد مدة يسيرة.

ثم استقرت هذه الممالك الجزيرية وغيرها في يد بدر الدين لؤلؤ، وهو الملقب بالملك الرحيم، وملك أولاده من بعده إلى أن استولى عليها التتار في سنة سبع وخمسين وستائة. هذا ملخص ما وصل إلينا من أخبار هذه الدولة فلنذكر ما عداها.....

ذكر بيعة المستعلي

هو أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد، وهو التاسع من ملوك الدولة العبيدية، والسادس من ملوك مصر منهم، بويع له في بكرة نهار الخميس لاثني عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة

وذلك أن المستنصر بالله لما توفي بادر الأفضل أمير الجيوش بدخول القصر وأجلسه على تخت المملكة، وسير إلى إخوته نزار، وعبدالله، وإسماعيل، وأعلمهم بوفاة أبيهم، وأمرهم بسرعة الحضور، فلما حضروا شاهدوا أخاهم الصغير وقد جلس على سرير الخلافة، فامتعضوا من ذلك، فقال لهم الأفضل: تقدموا وقبلوا الأرض لله تعالى، ولمولانا المستعلي بالله وببايعوه، فهو الذي نص عليه الإمام المستنصر بالله قبل وفاته بالخلافة من بعده، فقال نزار: لو قطعت ما بايعت من هو أصغر مني سنا، وخط والدي عندي بولاية العهد، وأنا أحضره. وخرج مسرعا ليحضر الخط فمضى إلى الإسكندرية، فسير الأفضل خلفه من يحضره، فلم يعلم أين توجه ولا كيف سلك، فانزعج الأفضل لذلك.

وقيل إنه لما توفي المستنصر بالله جلس بعده ولده أبو منصور نزار، وهو ولي العهد وأراد أخذ البيعة لنفسه فامتنع الأفضل أمير الجيوش من ذلك لكراهته فيه واجتمع بجماعة الأمراء والخواص وقال لهم: إن هذا كبير السن ولا نأمنه على نفوسنا، والمصلحة أن نبايع لأخيه الصغير أبي القاسم أحمد. فوافقوه على ذلك إلا محمود بن مصال اللكي، فإن نزارا كان قد وعده بالوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل، فلما علم ابن مصال الحال أطلع نزارا عليه.

وبادر الأفضل وبايع أحمد الخلافة، ونعته المستعلي بالله وأجلسه على

سرير الملك، وجلس الأفضل على دكة الوزارة، وحضر قاضي القضاة نصر الإمام علي بن الكحال ومعه الشهود، وأخذ البيعة على مقدمي الدولة ورؤ سائها وأعيانها، ثم مضى إلى إسماعيل وعبد الله، وهما بالقصر في المسجد وعليهما التوكيل، فقال لهما: إن البيعة قد تمت لمولانا المستعلي بالله، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: تبايعاني أم لا ؟ فقالا: السمع والطاعة ، إن الله اختاره علينا . وبايعاه، وكتب بذلك سجل قرأه على الأمراء الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الإنشاء ، وبادر نزار وأخوه عبد الله ومحمود بن مصال إلى الإسكندرية، وعليها ناصر الدولة أفتكين التركي، أحد ممالك أمير الجيوش بدر الجمالي، فعرفوه الحال ووعدوه بالوزارة، فبايعه أهل الثغر، ولقب بالمصطفى لدين الله.

ذكر ما اتفق لنزار ومن معه

قال: وفي محرم سنة ثمان وأربعمائة خرج الأفضل بعساكره إلى الإسكندرية لقتال نزار وأفتكين وابن مصال، فلما قرب منها خرجوا إليه والتقوا، واقتتلوا قتالا شديدا، فكانت الهزيمة على الأفضل ومن معه، فرجع إلى مصر ونهب نزار ومن معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحري.

ثم خرج الأفضل ثانيا وحاصر الإسكندرية ، واشتد الحصار إلى ذي القعدة. فلما اشتد الحال رأى ابن مصال مناما، فلما أصبح أحضر رجلا أعجميا وقال له: رأيت كأني راكب فرسا، وكأن الأفضل يمشي في ركابي

فقال له العجمي: الماشي على الأرض أملك لها . فلما سمع منه ذلك جمع أمواله وهرب إلى لك قرية من قرى برقة، فعند ذلك ضعفت قوة نزار وأفتكين، فاضطر إلى مسالمة الأفضل وأرسلا يطلبان الأمان، فأمنهما وفتحت البلد.

ودخل الأفضل الإسكندرية وقبض على نزار وأفتكين، وسيرهما إلى

مصر، وكان آخر العهد بنزار، قيل إنه جعله بين حائطين إلى أن مات. وكان مولده في عاشر شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة . وأما أفتكين فإنه أظهر قتله بعد ذلك للناس . وأما محمود بن مصال فكاتبه الأفضل ورغبه في العود، فعاد إلى مصر، فأكرمه الأفضل.

وفي سنة تسعين وأربعمائة خطب الملك رضوان صاحب حلب للمستعلي بالله أربع جمع، ثم قطع خطبته، على ما ذكرناه في أخبار الدولة السلجقية والله أعلم .

ذكر استيلاء أمير الجيوش على البيت المقدس

وفي شعبان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة خرج الأفضل أمير الجيوش بعساكره إلى الشام ونزل البيت المقدس، وهو في يد الأمير سقمان وإيلغازي، ابني أرتق، وجماعة من أقاربها. وخلق كثير من الأتراك.

فراسلها يلبس منها تسليم البيت المقدس من غير حرب ولا سفك، فلم يجيباه لذلك، فنصب المجانيق وهدم منه قطعة، وقاتل، فاضطر التسليمه فسلماه له، فخلع عليهما وأطلقهما، وعاد الأفضل إلى مصر.

ونقل محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب في تاريخ مصر أن الأفضل لما رجع من بيت المقدس مر بعسقلان، وكان في مكان دارس بها رأس الحسين بن علي، رضي الله عنهما، فأخرجه وعطره وطيبه، وحمل في سبط إلى أجل دار بها، وعمر المشهد، ولما تكامل حمل الأفضل الرأس على صدره وسعى ماشيا إلى أن رده إلى مقره، ثم نقل إلى مصر على ما نذكره إن شاء الله، وقيل إن المشهد ابتداء بعمارتها بدر الجمالي وكماله الأفضل.

ذكر استيلاء الفرنج على ما نذكره من البلاد الإسلامية بالساحل والشام والبيت المقدس

لم يكن جميع ما استولوا عليه. مما نذكره داخلا في ملك الدولة العبيدية، بل كان منه ما هو في أيدي نواب المستعلي، وما هو بيد الملوك الذين تغلبوا على الأطراف، ولم يكن أيضا في أيام المستعلي خاصة، وإنما أوردناه بجملته في هذا الوضع لتكون الأخبار متتابعة ولا تنقطع بالسنين والدول. وقد نبهنا عليه فيما تقدم من أخبار الدولة العباسية.

والذي نذكره الآن في هذا الموضع هو ما استولوا عليه من سواحل الشام سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وما بعدها.

كان ابتداء ظهورهم وامتدادهم وتطرقهم إلى البلاد الإسلامية في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وذلك أن بلاد الأندلس لما تقسم ملوكها بعد بني أمية وصارت كل جهة بيد ملك، وأنفت نفس كل واحد أن ينقاد إلى الآخر، ويدخل تحت طاعته، فكانوا كملوك الطوائف في زمن الفرس، وعجز كل واحد عن مقاومة من يليه أو يقصده من الفرنج، أدى ذلك إلى اختلال الأحوال، وتغلب الأعداء على البلاد الإسلامية. فأول ما استولوا عليه مدينة طليطلة من الأندلس، على ما ذكرناه في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، ثم ملكوا جزيرة صقلية في سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وتطرقوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئا ثم استرجع منهم، على ما قدمناه

ذكر ملكهم مدينة انطاكية

كان استيلاء الفرنج خذلهم الله تعالى، على مدينة أنطاكية في جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة. وكانت بيد ملوك الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة إلى أن افتتحها الملك سليمان بن شهاب الدين

ولد قتل مش السلجوقي، صاحب أقصر أوقونية وغير ذلك من بلاد الروم في سنة سبع وسبعين وأربعمائة، على ما ذكرناه في أخبار الدولة السلجقية، وبقيت في يده إلى أن قتل . وتداولتها أيدي المتغلبيين من ملوك الإسلام وأمرائهم إلى أن استقرت بيد ياغي سيان، وهو يخطب فيها للملك رضوان بن تش صاحب حلب، ولأخيه الملك دقاق صاحب دمشق.

فلما كان في سنة تسعين وأربعمائة جمع بغدوين ملك الفرنج جمعا كثيرا من الفرنج، وكان نسيب رجار الفرنجي صاحب صقلية، فأرسل إليه بغدوين يقول: قد جمعت جمعا كثيرا وأنا وأصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية وأكون مجاورا لك .

فجمع رجار أصحابه واستشارهم فقالوا كلهم: هذا جيد لنا ولهم، وتصبح كلها للنصرانية. فلما سمع رجار كلامهم وما اجتمعوا عليه، رفع رجله وحقق حبة قوية، وقال: وحق ديني هذه خير من كلامكم قالوا: وكيف ذلك؟ قال إذا وصلوا إلي احتجت إلى كلفة كثيرة، ومراكب تحملهم إلى إفريقية، وعساكر من جهتي، فإن فتحوا البلاد وكانت لهم صارت مؤونتهم من صقلية وينقطع عني ما يصل إلي من المال من ثمن الغلات في كل سنة، وإن لم يفتحوها رجعوا إلى بلادهم وتأذيت بهم، ويقول تميم، صاحب إفريقية غدرت بي ونقضت عهدي، وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا وبين بلاد إفريقية، وإفريقية باقية متى وجدنا قوة أخذناها بها.

ثم أحضر رسوله وقال له: إذا عزمتم على جهاد المسلمين فاقصدوا بذلك فتح بيت المقدس وخلصوه من أيديهم، ويكون لكم الفخر، وأما إفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود، فاخرجوا إلى الشام.

وقيل إن المستنصر، أو المستعلي لما رأى قوة الدولة السلجقية وتمكنها، وأنهم استولوا على ملك بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم، راسل الفرنج يدعوه إلى الخروج إلى الشام، ليملكوه، ويكونوا بينه وبين المسلمين، والله تعالى أعلم.

فلما عزم الفرنج على قصد الشام صاروا إلى قسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد الإسلام ويسيروا في البر فيكون أسهل عليهم ، فمنعهم ملك الروم من ذلك، ولم يمكنهم أن يَمروا ببلادهِ، وقال: لا أمكنكم من العبور إلا أن تحلفوا أنكم تسلمون إلى أنطاكية، وكان قصده أن يحثهم على الخروج إلى بلاد الإسلام ظنا منه أن الترك لا يبقون منهم أحدا لما رأى من صرامتهم وملكهم البلاد.

فأجابوه إلى ذلك وعبروا الخليج في سنة تسعين وأربعمائة. ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان بن سليمان بن قتلмыш، فلقيهم في جموعه ومنعهم، فقاتلوه وهزموه، وذلك في شهر رجب منها، ومروا في بلاده إلى بلاد ابن ليون الأرمني، فسلكوها وخرجوا منها إلى أنطاكية، فحاصروها.

قال المؤرخ : فلما سمع صاحبها ياغي سيان بتوجههم إليها خاف من النصاري الذين بها، فأخرج من بها من المسلمين بمفردهم في أول يوم وأمرهم أن يحفروا الخندق ، ثم أخرج النصاري من الغد لذلك . فعملوا فيه إلى العصر، فلما أرادوا دخول البلد منعهم ، وقال لهم: أنطاكية لكم فهبوا لي حتى أنظر ما يكون بيننا وبين الفرنج، فقالوا: من يحفظ أولادنا ونساءنا؟ فقال: أنا أخلفكم فيهم، فأمسكوا ثم صاروا في عسكر الفرنج.

وحصرت أنطاكية تسعة أشهر، وظهر من حزم ياغي سيان واحتياطه وجودة رأيه ما لم يشاهد مثله، وهلك أكثر الفرنجة موتا وقتلا، وحفظ ياغي سيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم، وكف الأيدي عنهم فلما طال مقام الفرنج عليها راسلوا أحد المستحفظين للأبراج، وهو زراد، ويعرف بروزبة، وبذلوا له مالا وإقطاعا، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي، وهو مبني على شباك في الوادي.

فلما تقرر الأمر بينهم وبينه، جاءوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه، وصعد جماعة كبيرة منهم بالحبال، فلما زادت عدتهم على خمسمائة، ضربوا البوق وذلك عند السحر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة، فاستيقظ ياغي سيان وسأل عن الحال ف قيل له: هذا البوق من القلعة، ولا شك أنها قد أخذت. ولم يكن من القلعة وإنما من ذلك البرج.

فداخله الرعب، ففتح باب البلد وهرب في ثلاثين غلاما، وجاء نائبه ليحفظ البلد، فقبل له: إنه قد هرب، فخرج من الباب الآخر هاربا. وكان ذلك إعانة للفرنج، ولو ثبت ساعة هلكوا.

ثم إن الفرنج دخلوا البلد من بابه، ونهبوا وقتلوا من فيه من المسلمين.

وأما ياغي سيان، فإنه لما طلع عليه النهار رجع إلى عقلة وكان كالولهان فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ، فقال لمن معه: أين أنا؟ فقالوا: على أربعة فراسخ من أنطاكية، فندم كيف خلص سالما ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل.

وجعل يتلهف على ترك أهله وأولاده والمسلمين، ويسترجع، فسقط عن فرسه لشدة ما ناله، وغشي عليه. فأراد أصحابه أن يركبوه فلم يكن فيه مسكة، وكان قد قارب الموت، فتركوه وساروا عنه فاجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الخطب وهو بأخر رمق فقتله، وحمل رأسه إلى الفرنج بأنطاكية.

ذكر مسير المسلمين لحرب الفرنج وما كان من أمرهم

قال: ولما وصل خبر أنطاكية بالأمير قوام الدين كربوقا صاحب الموصل، جمع العساكر وسار بهم لحربهم واجتمع معه الملك دقاق صاحب دمشق وصاحب حمص وصاحب سنجار، فلما بلغ الفرنج اجتماعهم عظمت عليهم المصيبة وداخلهم الخوف، لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات، وسار المسلمون حتى نازلوا أنطاكية، فأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين، فأغضبهم ذلك وأضمرؤا في أنفسهم الغدر به إذا كان قتال، وعزموا على إسلامه عند الصدمة.

قال: وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها ثلاثة عشر يوما ليس لهم ما يأكلونه، فتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر، فلما انتهت حالهم إلى ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد، فلم يعطهم، وقال: لا تخرجون منه إلا بالسيف.

وكان معهم من الملوك: بغدوين ، وصنجيل وكندفري، والقمص صاحب الرها، وييمند صاحب أنطاكية وهو مقدم العسكر. وكان معهم راهب مطاع فيهم فقال لهم: إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فاهلاك متحقق.

وكان هو قد دفنها قبل ذلك وعفى أثرها. وأمرهم بالصوم ثلاثة أيام والتوبة، ففعلوا ذلك، فلما كان في اليوم الرابع أدخلهم جميعهم وجميع عامتهم والصناع، وحفروا عليها في ذلك المكان فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: أبشروا بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب بين خمسة وستة ونحو ذلك، فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن سهل، فقال: أمهلوهم حتى يتكاملوا، ولم يمكن من معاجلتهم، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم.

فلما تكامل خروج الفرنج ، ولم يبق منهم أحد بأنطاكية ضربوا مصافا عظيما، فانهزم العسكر الإسلامي لما عاملهم به كربوقا من الاستهانة بهم والإعراض عنهم، فتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم، وآخر من انهزم سقمان بن أرتق، وجناح الدولة، لأنها كانا في الكمين، وانهزم كربوقا معهم، فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، فخافوا أن يتبعوهم، وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة ورغبة في الشهادة، فقتل الفرنج منهم ألفا، وغنموا ما في العسكر من الأقوات، والأموال، والآلات، والدواب، وغير ذلك، فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم.

ذكر ملكهم معرة النعمان

قال المؤرخ : ثم سار الفرنج إلى معرة النعمان، فنازلوها وحصروها، وقاتلهم أهلها قتالا شديدا، فرأى الفرنج منهم شدة ونكاية عظيمة. فعمل الفرنج عند ذلك برجا من خشب يوازي سور المدينة، ووقع

القتال عليه، فصبّر المسلمون على القتال إلى الليل، ثم خاف قوم منهم وفشلوا، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها، فنزلوا عن السور وأخلوا مكانهم الذي كانوا يحفظونه، وفعلت طائفة أخرى مثل ذلك ولم تزل كل طائفة منهم تتبع الأخرى حتى خلا السور، فصعد الفرنج إليه على السلالم، فلما علوه تحير المسلمون ودخلوا دورهم، ووضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير.

وأقاموا بها أربعين يوما وساروا إلى عرقة، فحاصروها أربعة أشهر، ونقبوا سورها عدة نقوب ولم يقدروا عليها. وراسلهم ابن منقذ صاحب شيزر، وصالحهم عليها، ثم ساروا إلى حمص وحاصروها، فصالحهم صاحبها جناح الدولة، وخرجوا على طريق النواقر إلى عكا فلم يقدروا عليها، فساروا إلى البيت المقدس.

ذكر استيلائهم خذلهم الله تعالى على البيت المقدس

كان استيلاء الفرنج خذلهم الله تعالى، على البيت المقدس في يوم الجمعة، ضحى، لسبع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وكان إذ ذاك بيد افتخار الدولة نيابة عن المستعلي بالله. فإنه كان بيد تاج الدولة تش السلجقي صاحب الشام، وأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني، فجاءه الأفضل أمير الجيوش واستولى عليه، وبقي بيد نوابه إلى الآن، فقصدته الفرنج عند عجزهم عن فتح عكا، وحاصروه نيفا وأربعين يوما، ونصبوا عليه برجين، أحدهما من ناحية صهيون، فأحرقه المسلمون وقتلوا جميع من فيه من الفرنج.

فلما فرغوا من ذلك أتاهاهم الصارخ أن المدينة قد امتلكت من الجانب الآخر، وهو الجانب الشمالي، وركب الناس السيف ولبث الفرنج أسبوعا يقتلون فيهم.

واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود وقاتلوا فيه ثلاثة أيام،

فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلموه إليهم، فوفوا لهم، وخرجوا إلى عسقلان وأقاموا بها.

وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم، وعبادهم وزهادهم، ممن فارق أهله، ووطنه وجاور بذلك الموضع الشريف . وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلاً من الفضة، زنة كل قنديل (ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه) (٦) أربعون رطلاً بالرطل الشامي وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً من الفضة، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلاً. وغنموا ما لا يقع عليه الإحصاء وورد إلى بغداد القاضي سعد الهروي في شهر رمضان، ومعه جماعة، يستنفرون الناس، وأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وصدع القلوب واستغاثوا بالجامع يوم الجمعة، وبكوا، وذكروا ما نزل بالمسلمين من البلاء، وما حل بهم من المصيبة. فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي، وغيرهما، إلى السلطان بسبب ذلك، فاتفق ما ذكرناه من الاختلاف الذي وقع بين الملوك السلجقية، فتمكن الفرنج من البلاد.

قال: ولما اتصل خبر هذه الحادثة العظيمة بالأفضل أمير الجيوش جمع العساكر وخرج إليهم، فقاتلهم في شهر رمضان من السنة. ثم كبسه الفرنج هو ومن معه، وهم على غير تعبئة، فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. وحاصر الفرنج عسقلان، فصالحهم أهلها على عشرة آلاف دينار، وقيل عشرين ألف دينار، فعادوا إلى القدس.

قال: وكان الذي ملك البيت المقدس من الفرنج كندفري

ذكر ظفر المسلمين بالفرنج

قال المؤرخ : وفي ذي القعدة سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة لقي كمشكين بن الدانشمند طايلو، وهو صاحب ملطية وسيواس، بيمند الفرنجي بالقرب من ملطية، وكان صاحبها قد كاتبه واستقدمه عليه،

فورد عليه في خمسة آلاف، فلقبهم ابن الدانشمند، وقاتلهم، فهزم ييمند وأسر.

ثم وصل من البحر سبعة قمامصة من الفرنج، فأرادوا خلاص ييمند، فأتوا إلى قلعة أنكوربة فأخذوها وقتلوا من بها من المسلمين، وساروا إلى قلعة أخرى فحاصروها وفيها إسماعيل بن الدانشمند، فجمع الدانشمند جمعا كثيرا، ولقي الفرنج، وجعل له كمينا، فقاتلهم وخرج عليهم الكمين فقتلهم. وكانوا ثلاثمائة ألف لم يفلت منهم غير ثلاثة آلاف هربوا..

وسار ابن الدانشمند إلى ملطية فملكها وأسر صاحبها.

قال ابن الأثير الجزري: وكانت هذه الوقائع في شهور قرية.

قال: ولم يزل ييمند في أسره إلى سنة خمس وتسعين، فأخذ منه مائة ألف دينار وأطلقه

**ذكر قتل كندفري وملك أخيه بغدوين وما استولى عليه
الفرنج من البلاد وهي : حيفا، وأرسوف، وقيسارية،
والرها، وسروج**

وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة سار كندفري صاحب البيت المقدس إلى عكا، فحاصرها، فأصابه سهم فقتله، وكان قد عمر مدينة يافا وسلمها إلى قمص من الفرنج اسمه طنكري، فلما قتل كندفري سار أخوه بغدوين إلى البيت المقدس في خمسمائة فارس وراجل، فبلغ ذلك الملك شمس الملوك دقاق صاحب دمشق، فنهض إليه في عسكره ومعه الأمير جناح الدولة في جموعه فقاتله، فنصر على الفرنج.

وفي هذه السنة ملك الفرنج مدينة حيفا عنوة وهي على ساحل البحر بالقرب من عكا، وملكوا أرسوف بأمان وأخرجوا أهلها منها، وملكوا قيسارية بالسيف وقتلوا أهلها، وفيها ملك الفرنج مدينة سروج من ديار الجزيرة، وكانوا قبل ذلك قد ملكوا الرها بمكاتبة من أهلها، لأن أكثر

أهلها أرمن، فلما كان الآن جمع الأمير سقمان بن أرتق جمعا عظيما من التركمان وزحف بهم إليهم، فلقوه وقاتلوه، فهزموه في شهر ربيع الأول. فلما تمت الهزيمة على المسلمين سار الفرنج إلى سروج، فتسلموها، وقتلوا كثيرا من أهلها وسبوا حريمهم، ونهبوا أموالهم، ولم يسلم منهم إلا من انهزم

ذكر أخبار صنجيل الفرنجي وما كان منه في جروبه وحصار طرابلس والطوبان وملك أنطربوس

وفي سنة خمس وتسعين وأربعمائة لقي صنجيل الملك قلعج أرسلان صاحب قونية، وصنجيل في مائة ألف مقاتل وقلج في عدد يسير، واقتتلوا، فانهزم الفرنج وأسر كثير منهم، وفاز قلعج بالظفر والغنيمة. ومضى صنجيل مهزوما في ثلاثمائة، فوصل إلى الشام، فأرسل فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس إلى الأمير جناح الدولة بحمص وإلى الملك دقاق بدمشق يقول: من الصواب معالجة صنجيل إذ هو في العدد اليسير فخرج إليه جناح الدولة بنفسه وسير دقاق ألفي مقاتل، وأتتهم الأمداد من طرابلس، وصافوا صنجيل فأخرج مائة من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق، وخمسين إلى عسكر حمص وبقي في خمسين

فأما عسكر حمص فانهزموا عند المشاهدة وتبعهم عسكر دمشق.

وأما عسكر طرابلس فإنهم قتلوا المائة الذين قاتلوهم، فحمل صنجيل في المائتين الباقيتين، فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل ونازل طرابلس وحصرها.

وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصرها، هم وأهل السواد، لأن أكثرهم نصارى، فقاتل من بها أشد قتال، فقتل من الفرنج ثلاثمائة: ثم هادنهم ابن عمار على مال وخيل، فرحل صنجيل عنهم إلى مدينة أنطربوس، وهي من أعمال طرابلس، فحصرها وفتحها، وقتل من بها من المسلمين.

ورحل إلى حصن الطوبان^(٧)، ومقدمه ابن العريض، فقاتلهم فنصر عليهم وأسر فارسا من أكابر فرسانهم، فبذل فيه صنجيل عشرة آلاف دينار، وألف أسير فلم يجبه ابن العريض إلى ذلك..

ذكر ملك الفرنج جليل وعكا

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة لاذقية، فيها التجار والمقاتلة والحجاج وغيرهم، فاستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس، فحاصروها معه وضايقوها، فلم يروا فيها مطمعا، فرحلوا عنها إلى مدينة جليل فحاصروها وقاتلوا عليها قتالا شديدا، فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج طلبوا الأمان على تسليمها، فبذل لهم صنجيل الأمان، وتسلم البلد منهم فلم يف لهم. وأخذ الفرنج أموالهم وعاقبوهم عليها بأنواع العذاب. ثم ساروا إلى عكا نجدة لبغديون، صاحب القدس، على حصارها، فنازلوها وحاصروها في البر والبحر، وعليها زهر الدولة الجيوشي، فقاتلهم أشد قتال. فلما عجز عن حفظ البلد فارقه، وملك الفرنج عكا بالسيف، وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة. وساروا منها إلى دمشق ثم إلى مصر.

وفي سنة تسع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج حصن أفامية، وسرمين من أعمال حلب.

وفي سنة اثنتين وخمسمائة فتح السرداني عرقة، وذلك أنها كانت بيد غلام فخر الملك ابن عمار، وقد عصى على مولاه، فضاق به القوت وانقطعت عنه الميرة، فكاتب طغديكين صاحب دمشق أن يرسل إليه من يتسلم الحصن لعجزه عن حفظه، فبعث إليه طغديكين صاحباً له اسمه إسرائيل في ثلاثمائة، فتسلم الحصن، فلما نزل غلام ابن عمار رماه إسرائيل بسهم فقتله في الاختلاط، طمعا في المال الذي بعرقه لئلا يطلع طغديكين عليه.

قال وأراد طغديكين أن يشحن الحصن بالعساكر والأقوات، فتوالت الأمطار مدة شهرين، فعجز عن ذلك. فلما انقطع المطر ركب في

أربعة آلاف فارس وجاءوا إلى عرقه، فتوجه إليه السرداني وهو يحاصر طرابلس ومعه ثلاثمائة فارس، فانهزم عسكر طغديكين عندما أشرفت الخيل من غير قتال، فأخذ السرداني أثقالهم وتسلم الحصن بأمان، وقبض على إسرائيل، وقال لا أطلقه إلا بفلان وهو من أكابر الفرنج كان أسيرا ففودي به.

ذكر ملك الفرنج طرابلس وبירות

كان صنجيل لما ملك مدينة جبيل، كما ذكرنا، حصر طرابلس، فلما لم يتمكن منها وعجز عن الاستيلاء عليها بنى بالقرب منها حصنا وجعل تحته ريبضا، وأقام يرصدها ينتظر فرصة، فخرج الملك أبو علي بن عمار، صاحب طرابلس، فأحرق ريبضه، فوقف صنجيل على سقوفه المحترقة، ومعه جماعة من القمامصة والفرسان، فانخسف بهم. فمرض صنجيل عشرة أيام، ومات، وحمل إلى القدس فدفن هناك، وذلك في سنة تسع وتسعين وأربعمائة

ودامت الحرب على طرابلس خمس سنين، فسار الملك ابن عمار إلى بغداد يستنجد بالخليفة والسلطان على الفرنج، على ما ذكرناه، وعاد من بغداد في منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسمائة وتوجه إلى جبلة فدخلها وأطاعه أهلها

وأما طرابلس فإن ابن عمار لما فارقتها راسل أهلها الأفضل أمير الجيوش يلتمسون منه واليا يكون عندهم ومعه الميرة في البحر، فسير إليهم الأفضل شرف الدولة بن أبي الطيب واليا، ومعه الغلال وغيرها. فلما صار إليها قبض على جماعة من أهل ابن عمار واستولى على ما وجده من أمواله وذخائره

فلما كان في شعبان سنة ثلاث وخمسمائة وصل اسطول كبير من بلاد الفرنج، مقدمه قمص كبير اسمه ريمند بن صنجيل^(٨)، ومراكبه مشحونة بالرجال والسلاح والميرة وليس ريمند هذا ابن صنجيل صاحب الحصن المقدم ذكره، فنزل على طرابلس وكان السرداني وهو ابن اخت

صنجيل محاصرا لها قبله، فجرت بينهما فتنة أدت إلى الشر والقتال فوصل تنكري صاحب أنطاكية إليها إعانة للسرداني، ووصل بغدوين صاحب البيت المقدس في عسكره، فأصلح بينهم، فنزل الفرنج بأجمعهم على طرابلس وضايقوها، وذلك في شعبان، وألصقوا أبراجهم بسورها، فلما شاهد الجند وأهل البلد ذلك سقط في أيديهم، وذلت نفوسهم، وزادهم ضعفا، فتأخر الأسطول المصري عنهم بالميرة والنجدة، وداوم الفرنج القتال والزحف إلى أن ملكوا البلد عنوة، وذلك يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، سنة ثلاث وخمسة، ونهبوا ما فيها، وأسروا الرجال، وسبوا النساء والذرية، وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة وكتب العلم الموقوفة ما لا يحصى ولا يوصف.

وكانت طرابلس من أعظم البلاد، وأهلها من أكثر الناس أموالا.

وسلم الوالي الذي كان بها وجماعة من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها، فوصلوا إلى دمشق، وعاقب الفرنج أهل طرابلس بأنواع العقوبات، وأخذت دوائهم وذخائرهم.

ووصل الأسطول المصري بالرجال والغلال وغيرها، ما يكفيهم سنة، وكان وصول الأسطول إليها بعد أن ملكت بثمانية أيام، ففرق ما في الأسطول على الجهات المجاورة لها: صور وصيدا وبيروت

ذكر ملك الفرنج جبلة وبلنياس

قال: ولما فرغ الفرنج من طرابلس سار تنكري صاحب أنطاكية إلى بلنياس، فافتتحها وأمن أهلها، ونزل على مدينة جبلة وبها فخر الملك ابن عمار، وكان القوت قد قل بها، فقاتل من بها إلى أن ملكها في الثاني والعشرين من ذي الحجة بالأمان.

وخرج فخر الملك ابن عمار وقصد شيزر، فأكرمه صاحبها الأمير سلطان بن علي بن منقذ الكناني. ثم سار إلى دمشق فأكرمه طغدين

صاحبها . وأجزّل له في العطية، وأقطعه أعمال الزبداني، وذلك في المحرم سنة أربع وخمسة

ذكر ملكهم مدينة صيدا

وفي جمادى الأولى سنة أربع وخمسة ملك الفرنج مدينة صيدا، وكانت من جملة ما هو بيد طغديكين صاحب دمشق. وذلك أنه وصل في البحر ستون مركباً للفرنج مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم، ليحج إلى القدس ويغزو المسلمين بزعمه، فاجتمع به بغدوين صاحب القدس وقرر معه الغزو فنزلوا على مدينة صيدا في ثالث شهر ربيع الآخر، وضايقوها في البر والبحر، ومنعوا الأسطول المصري من الوصول إليها، وكان بساحل مدينة صور، فعمل الفرنج برجاً من الخشب وأحكموه، وجعلوا عليه ما يمنع النار والحجارة عنه، وزحفوا به. فلما عاين أهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم وأشفقوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الفرنج وطلبوا الأمان، فأمنوهم على نفوسهم وأموالهم والعسكر الذي عندهم، ومن أراد المقام بها عندهم أمنوه، ومن أراد المسير عنهم لا يمنعه، وحلفوا لهم على ذلك فخرج الوالي وجماعة كثيرة معه تحت الأمان، وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوماً.

ورحل بغدوين عنها إلى القدس، ثم عاد إليها بعد مدة يسيرة يقرر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينار، فاستغرق أموالهم وأفقرهم.

ذكر استيلائهم على حصن الأثارب وحصن زردنا

وفي سنة أربع وخمسة جمع صاحب أنطاكية الفارس والراجل، وسار إلى حصن الأثارب، وهو على ثلاث فراسخ من حلب، فحصره ومنع الميرة عمن فيه، فضاق الأمر عليهم، فنقب المسلمون من القلعة نقباً وقصدوا أن يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكية فيقتلوه، فلما فعلوا

ذلك استأمن إليه صبي أرمني فعرفه الحال، فاحتاط لنفسه واحترز، وجد في قتالهم حتى ملك الحصن عنوة، وقتل من أهله ألفي رجل وسبي.

ثم سار الى حصن زردنا فحصره وفتحته، وفعل بأهله مثل ذلك. فلما سمع بذلك أهل منبج فارقوها خوفا من الفرنج، وكذلك أهل بالس، فطلب أهل الشام الهدنة، فامتنع الفرنج ثم أجابوا، فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار، وخيول وثياب، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار، وصالحهم علي الكردي صاحب حماة على ألفي دينار. وكانت عدة الهدنة إلى إدراك المغل وحصاده. ثم جاءت العساكر من العراق ولم يبلغوا غرضاً.

ذكر حصر مدينة صور وفتحها

كان استيلاء الفرنج، خذلهم الله تعالى، على مدينة صور في الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة خمس وخمسمائة، وذلك أن الفرنج في هذه السنة اجتمعوا مع بغدوين صاحب القدس على حصارها، وكانت إذ ذاك بيد نواب الأمر بأحكام الله وبها من قبله عز الملك الأعز، فحاصروها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السنة، وعملوا ثلاثة أبراج من الخشب علو البرج سبعون ذراعاً في كل برج ألف رجل، ونصبوا عليها المجانيق، وألصقوا أحد الأبراج بسور صور، فجمع عز الملك أهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون بها شر الأبراج، فقام شيخ من أهل طرابلس وضمن إحراقها، وأخذ ألف رجل بالسلاح التام، ومع كل رجل حزمة حطب، فقاتلوا الفرنج حتى وصلوا إلى البرج الملتصق بالسور وألقوا الحطب من جهاته، وأشعلوا فيه النار. ثم خاف أن يشتغل الفرنج الذين في الأبراج باطفاء النار، فرماهم بجرار مملوءة بالعذرة كان قد أعدها لهم فلما سقطت عليهم اشتغلوا بما نالهم من الرائحة الكريهة، فتمكنت النار من البرج وأحرق المسلمون البرجين أيضاً.

وكاتب عز الملك طغديكين، صاحب دمشق، فأنجده بالرجال، وأرسل أصحابه للإغارة على بلاد الفرنج، فرجعوا من حصار مدينة صور في شوال من السنة.

ثم عادوا في سنة ست وخمسة إلى الحصار، وضايقوا البلد، فأرسل أهل صور إلى طغديكين صاحب دمشق يطلبون منه أن يرسل إليهم من جهته من يتولى أمرهم ويحميهم، وتكون البلد له. فسير إليهم عسكرياً، وجعل عندهم والياً اسمه مسعود، وكان شهياً شجاعاً عارفاً بالحرب ومكايدها، وأمدّه بالعساكر والميرة، فطابت قلوب أهل البلد. ولم يقطع خطبة الأمر بأحكام الله ولا غير سكتته، وكتب إلى الأفضل أمير الجيوش يعرفه ما عمل ويقول: متى وصل من مصر من يتولاها ويذب عنها سلمتها إليه، وطلب منهم ألا ينقطع الأسطول عنها بالرجال والميرة، فأجابه الأفضل إلى ذلك، وشكره على ما فعل، وجهاز أسطولا إليها، فاستقامت أحوال أهلها.

ولم يزل كذلك إلى سنة ست عشرة وخمسة، بعد قتل الأفضل أمير الجيوش، وذلك أن المأمون ابن البطائح لما ولي إمرة الجيوش بعد قتل الأفضل سير إلى صور أسطولا على العادة، وأمر المقدم عليه أن يعمل الحيلة على الأمير مسعود، الوالي من قبل طغديكين، ويقبض عليه، ويتسلم البلد منه، وكان سبب ذلك أن أهل صور شكوا منه إلى الأمر بأحكام الله، فلما وصل الأسطول وجاء الأمير مسعود ليسلم على المقدم قبض المقدم عليه واعتقله، وحمله إلى الأمر، فأكرمه وأعادته إلى صاحبه بدمشق. واستولى مقدم الأسطول على مدينة صور، وراسل الأمير طغديكين بالخدمة، واعتذر إليه، فقبل عذره، ووعدته المساعدة.

فلما سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قوي طمعهم فيها، وشرعوا في الجمع، واتصل خبرهم بوالها، فعلم أنه لا قوة له ولا طاقة بهم، لقلّة من بها من الجند والميرة، وأرسل إلى الأمر بذلك، فرأى أن يرد ولاية صور إلى طغديكين، فأرسل إليه بذلك، فملكها ورتب بها الجند وغيرهم.

وسار الفرنج إلى صور، ونازلوها في شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة، وضيقوا عليها ولازموا القتال، فقلت الأقوات، وسئم من بها القتال، وضعفت نفوسهم. وسار طغديكين إلى بانياس ليقرب منهم ويذب عن

البلد، وأرسل إلى الأمر يستنجده، فلم ينجده، وأشرف أهلها على الهلاك. فحيثئذ راسل طغديكين الفرنج على أن يسلم إليهم البلد، ويمكنوا من بها من الجند والرعية من الخروج بما قدروا عليه من أموالهم وغيرها، فاستقرت القاعدة على ذلك، وفتحت أبواب البلد، وفارقه أهله، وحملوا ما أطاقوا وتفرقوا في البلاد، ولم يتعرض الفرنج إليهم، وملك الفرنج البلد في التاريخ الذي قدمناه، ولم يبق بصور إلا ضعيف عاجز عن الحركة.

وفي سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ملك الفرنج حصن القدموس من المسلمين، وملكوا بانياس بمراسلة إسماعيل الإسماعيلي، ورغبته في ذلك وانضمامه إلى الفرنج، على ما قدمنا ذكره في أخبار تاج الملوك طغديكين صاحب دمشق.

هذا ما استولى عليه الفرنج من البلاد الإسلامية . فلنرجع إلى أخبار الدولة العبيدية.

ذكر وفاة المستعلي بالله

كانت وفاته في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة

ومولده لعشر بقين من المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة، وكان عمره ثمانيا وعشرين سنة وثمانية وعشرين يوما

ومدة ولايته سبع سنين وشهرا واحدا وثمانية وعشرين يوما.

ولم تكن له سيرة تذكر، فإن الأمر كان للأفضل أمير الجيوش، لم يكن للمستعلي معه من الأمر إلا الاسم، والرسم للأفضل

وكان للمستعلي من الأولاد أبو علي المنصور، وجعفر، وعبد الصمد. وزيره: الأفضل أمير الجيوش.

قضاته: أبو الحسن بن الكحال النابلسي، ثم أعاد ابن عبد الحاكم، ثم أبو طاهر محمد بن رجاء، ثم أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.

ذكر بيعة الأمر بأحكام الله

هو أبو علي المنصور بن المستعلي بالله، وهو العاشر من ملوك الدولة العبيدية، والسابع من ملوك الديار المصرية منهم.

قال المؤرخ: لما مات المستعلي بالله أجلس الأفضل أمير الجيوش ولده أبا علي هذا على سرير الخلافة، وذلك في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وباع له الناس ولقبه بالأمر بأحكام الله، وله من العمر خمس سنين وشهر واحد وأيام.

قال: ودبر الأفضل الأمر على ما كان عليه في أيام أبيه المستعلي.

وفي سنة خمس مائة بنى الأفضل أمير الجيوش الدار المعروفة بدار الملك على شاطئ النيل بمصر، وكملت عمارتها في سنة إحدى وخمسمائة، وسكنها

ومدحه الشعراء. فمن مدحه أبو الفضل بن أمية المغربي من قصيدة جاء منها :

دار هي الفلك الأعلى، وأنت بها
شمس الضحى، وبنوك الأنجم الزهر

ودار الملك هذه هي دار الوكالة الآن، وكان موضعها أخصاص موقوفة على الأشراف، فأمر أن يؤخذ ما كان لهم من الحكر على الأخصاص من مال الرباع السلطانية

ذكر انشاء ديوان التحقيق

وفي سنة إحدى وخمسة جدد ديوانا وسماه ديوان التحقيق ، واستخدم فيه أبا البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني، وبقي فيه إلى أن قتل في سنة ثمان وعشرين. واستمر هذا الديوان إلى أن انقرضت الدولة العبيدية وانقطع، ثم أعاده السلطان الملك الكامل بن الملك العادل في سنة أربع وعشرين، واستخدم فيه أبو كوجك اليهودي، ثم أبطل في سنة ست وعشرين وستمئة فلم يعد، واستخدم في أيام السلطان الملك المعز أيك صفى الدين عبدالله بن علي المغربي في استيفاء مقابلة الدواوين، وهو نوع منه .

ذكر حل الإقطاعات وتحويل السنة

وفي سنة إحدى وخمسة كثرت شكاوى الأجناد وطوائف العساكر المصرية بسبب إقطاعاتهم، وأنها خربت وقل ارتفاعها، وأنها لا تقوم ببعض كلفهم، وأن الإقطاعات التي بيد الأمراء زائدة عن الارتفاع، فأحضر الأفضل محمد بن فاتك البطائحي، وهو وزيره واستاذ داره، واستشاره فيما يفعل في ذلك، فأشار بحل جميع الإقطاعات التي بيد الأمراء وغيرهم، وأن يجمع الأمراء والطوائف للمزايدة فيها، فاتفق الرأي على ذلك.

وأحضر الأمراء والأجناد في دار الوزارة، وتحدث معهم في ذلك، فقال الأمراء: لنا في إقطاعاتنا أملاك وبساتين ومعاصر وغيرها، فقال الأفضل: الأملاك لملاكتها على حالها يتصرفون فيها بالبيع والإيجار.

ثم حل الإقطاعات ووقعت الزيادة فيها، وتميز لكل منهم إقطاع، وكتبت المناشير بذلك، ثم شكى إليه كثرة عبء البلاد وأن متحصلها

لايفي بالعبرة وحصل لديوان السلطان ضياع مقودة عبرتها خمسون ألف دينار في كل سنة.

ونقلت السنة الشمسية الخراجية إلى الهلالية، وكانت سنة إحدى وخمسمائة الهلالية وسنة سبع وتسعين وأربعمائة الخراجية فنقلت إلى سنة إحدى وخمسمائة

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة أغار بغدوين ملك الفرنج على الفرما وقتل جميع من بها، وأحرق جامعها ومساجدها، وذلك بعد أن حاصرها أياما، والفرما كانت بلدة بين القصير والغرابي من منازل الرمل، وهي الآن خراب. وقصد بغدوين مصر فرحل عن الفرما، ورجع إلى البيت المقدس، وهو مثقل بالمرض، فهلك بموضع يقال له جور قبل وصوله إلى العريش. فشق الفرنج بطنه وألقوا مصارينه هناك، فهي ترجم إلى وقتنا هذا، ودخلوا بجثته، فدفنوها بقمامة بالبيت المقدس

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة رتب ذخيرة الملك جعفر في ولاية القاهرة، ونظر الحسبة وظلم وعسف، وهو الذي بنى المسجد بسوق الخيل المعروف: بالذخيرة، ومسجد «لاباللة»^(١٠)، وسبب تسميته بذلك أنه كان يقبض الناس من الطريق ويعسفهم، فيقولون له: لا بالله، فيقيدهم ويستعملهم فيه بغير أجر، ولم يعمل فيه صانع إلا وهو مكروه مقيد. فابتلى الله ذخيرة الملك بأمراض شديدة، ولما مات تجنب الناس الصلاة عليه وتشيعه.

ذكر نهب ثغر عيذاب

وفي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة عمر الشريف أبو محمد قاسم بن أبي هاشم، أمير مكة، مراكب حربية وشحنها بالمقاتلة وسيرهم إلى عيذاب،

فنهبوا مراكب التجار وقتلوا جماعة منهم، فحضر من سلم من التجار إلى باب الأفضل، وشكوا ما حل بهم فأمر بعمارة حراريق يجهزها، ومنع الناس أن يحجوا في سنة أربع عشرة، وقطع الميرة عن الحجاز، فغلت الأسعار، وكان الأفضل قد كتب إلى الأشراف بمكة يلومهم على فعل صاحبهم، فكتب الشريف إلى الأفضل يعتذر، والتزم برد المال إلى أربابه، ومن قتل من التجار فماله لورثته، وأعاد الأموال في سنة خمس عشرة

ذكر مقتل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الأحد سلخ شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة، وقد ركب من دار الملك بمصر فقتل عند كرسي الجسر، قتله الباطنية. قيل بمواطاة من الأمر، لأنه كان قد ضاق منه لتحكمه عليه ومنعه من شهواته، فقصد اغتياله إذا دخل عليه للسلام، فمنعه أبو الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم، ابن عمه، وقال: إن هذا الأمر فيه من قبح الأحذوثة وسوء الشناعة ما لا تحمد عاقبته، لأن هذا الرجل ما عرف له ولا لأبيه إلا المودة في خدمة هذا البيت والذب عنه، وإن قتلناه لا غنية أن نولي منصبه لغيره، فيكون المتولى بعده على وجل واحتراس، وإنما الرأي أن ندبر عليه فدبر عليه حتى قتل. هذا أحد الأقوال في قتله.

قال: ولما وثب الباطنية عليه ضرب ثمانى ضربات، لوقته، وحمل على أيدي مقدمي ركابه، والقائد الميمون محمد وأخوته لا يمكنون أحدا من الدنو منه، وهم ييشرون الناس بسلامته، حتى وضعوه على سريره وغطى، ونفذ المأمون أخاه حيدرة إلى الأمر يقول له: أدركني وتسلم ملكك لثلاث أغلب عليه أنا وأنت، وأوصاه أن يهنيء من وجده بسلامة الأفضل، ففعل حيدرة ذلك، وهنا حرم الأفضل وغيرهم. فعزم أولاده على إثارة

فتنة وأنهم يطلبون الأمر لأخيهم تاج المعالي، فأمر الأمر بحمل أولاد الأفضل إلى الاعتقال بخزانة البنود، فحملوا إليها، وبات الأمر بدار الملك.

قال: وكان الأفضل حسن الاعتقاد في مذهب السنة، جميل السيرة، مؤثرا للعدل، صائب الرأي والتدبير، حسن المهمة، كريم النفس، صادق الحديث.

ونال الناس بعد قتل الأفضل من الظلم والجور والعسف ما لا يعبر عنه.

فجاء الناس إلى باب الأمر واستغاثوا، ولعنوا الأفضل وسبوه أقبح سب، فخرج إليهم الخدم وقالوا: مولانا يسلم عليكم ويقول لكم: ما السبب في سب الأفضل وقد كان قد أحسن إليكم وعدل فيكم؟ فقالوا: إنه عدل وتصدق وحسنت آثاره، ففارقنا بلادنا حبا لأيامه، وأقمنا في بلده فحصل بعده هذا الجور، فهو السبب في خروجنا عن أوطاننا واستقرارنا ببلده

قال المؤرخ: لما قتل الأفضل أحضر الأمر وزيره الشيخ أبا الحسن علي الحلبي، والقائد أبا عبد الله محمد وسألهما عن الاموال، فقال القائد أما السر فأعلمه، وأما الظاهر فالوزير يعلمه، وأخبراه بذخائره وأمواله، وأقام الأمر في دور الأفضل، وهي دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة، وغيرهما، أربعين يوما، والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقلونه إلى القصور فوجد له من الذخائر النفيسة ما لا يحصى.

وذكر أن الذي وجد له من الأموال ستة آلاف ألف دينار عينا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار، وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ألف ومائتان وخمسون دينار، وخمسون أردبا دراهم، وثلاثون راحلة من الذهب

العراقي المغزول برسم الرقم، وعشرة بيوت في كل بيت منها عشرة مسامير من الذهب، زنة كل مسمار مائتا مثقال، عليها العمايم المختلفة الألوان مغطاة بالمناديل المزركشة، وتسعمائة ثوب من الديباج الملون، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتينيس برسم كسوة جسده، ولعبة من العنبر على قدر جسده برسم ثيابه توضع ثيابه عليها لتكتسب رائحتها، وترك من الطيب والآلات والنحاس ما لا يحصى.

وترك من الأبقار والجواميس والأغنام ما بلغ ضمان ألبانها ونتاجها أربعين ألف دينار في السنة. وكانت الدواة التي يكتب منها مرصعة بالجواهر، فقوم ما عليها من الجواهر باثني عشر ألف دينار، وخلف من الكتب خمسمائة ألف مجلد.

وحكى القاضي زكي الدين أبو زكريا يحيى بن علي الدمشقي في تاريخه عما خلفه الأفضل فقال: خلف جملة لم يسمع أحدا من الملوك والخلفاء في هذا الزمان جمع مثله ولا دخر مثل بعضه: وأن الأمر بأحكام الله شرع في حمل ما في دوره إلى القصر، فحمل على عدة كثيرة من الجمال والبغال، ونقل في شهرين وأيام

قال: وحكى الدينيلي التاجر الأمدي أن متولي الخزانة بالقصور ذكر له جملا مما حمل من موجوده في الدار، منها ستة آلاف ألف وأربعمائة دينار، ومن الورق ما قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار، ومن أطباق الذهب والفضة سبعمائة طبق، ومن الآلات مثل أتواز واصطال وصحاف وشربات وأباريق وزبادي وقدر، وقطع من الفضة والذهب مختلفة الأجناس ما لا يحصى كثرة، وبراني^(١١) صيني كبار، وعبيات مملوءة جواهر، ومن أصناف الديباج والعتابي وغيره تسعون ألف ثوب، وثلاث خزائن مملوءة صناديق كلها من الدبقي والشرب استعمال تينيس ودمياط، وخزانة الطيب مملوءة أسفاطا، وعود، وبراني مسك ونوافج،

وبراني زجاج مملوءة من الكافور القنصوري، غير مصاعد، ومن العنبر ما لا يحصى كثرة.

وكان له مجلس يجلس فيه للشراب فيه صور ثماني جوارى متقابلات، أربع منهن بيض من كافور وأربع سود من عنبر، قيام في المجلس، عليهن أفخر الثياب وأثمن الحلي وأحسن الجواهر، فكان إذا دخل باب المجلس نكسن رؤوسهن خدمة له، فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات. ووجد له من المقاطع والستور، والديباج والديبقي الحريري، والذهب، والفرش، والمخاد والمساند على اختلاف أجناسها، أربع حجر كل حجرة مملوءة من ذلك، وعدة صناديق مملوءة حقائق ذهب عراقي برسم الاستعمال. ووجد له ثمانمائة جارية منهن حظايا خمس وستون، لكل جارية حجرة وخزانة مملوءة من الكساوى، والآلات الديباج والذهب والفضة، ومن كل صنف.

قال الخازن: هذا ما حضرني حفظه مما في داره، وأما ما كان في مخازنه وتحت يد عماله وجباته وضمائن النواحي فما لا يحصى كثرة، من الأموال والغلال والحبوب والقطن والكتان، والشمع والحديد، والأخشاب وغير ذلك وكل نوع منه ما يجاوز الحد والاحصاء، ولا يمكن تحرير حسابه إلا في المدة الطويلة

وأما العدد والخيول والسلاح والبقر والغنم، فقال الخازن لم تتحرر لكثرتها، وقال حمل من داره أربعة آلاف بساط، وستون حمل طنafs، وخمسمائة قطعة بلور كبار وصغار، وخمسمائة قطعة محكم، وألف عدل من متاع اليمن والاسكندرية والغرب، وسبعة آلاف مركب من أصنافها.

وأما ما عمره من المساجد فمنها: جامع الفيلة، وقيل إنه لم يكمله.

وحكى الشريف محمد بن أسعد الجواني في كتابه المترجم بالنقط في ذكر الخطط أن جامع الفيلة بناه الأفضل في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، وأن الأفضل مات ولم يكمله فكملة المأمون في وزارته، وولى خطا بته الشريف أمين الدولة أبا جعفر، محمد بن محمد بن هبة الله الحسيني الطرابلسي النسابة وأمر أن يحضر جميع وجوه الدولة والرؤساء في أول جمعة، فحضروا. فلما رقا الشريف المنبر قال: «الحمد لله»، وارتج عليه ودهش، فلم يزل يكررها إلى أن أضجر الناس، وقد هم، ومضى إلى داره، فاعتل ومات في سنة سبع عشرة وخمسمائة، ومنها المسجد الذي على جبل المقطم، وبني في جامع عمرو بن العاص المئذنة الكبيرة والمئذنة السعيدية والمئذنة المستجدة وجامع الجيزة، وغير ذلك. وهو الذي أنشأ التاج والخمسة وجوه.

قال ناظم سيرة المأمون: وعمل الأفضل خيمة سماها خيمة الفرح، ثم سميت بالقاتول لأنها كانت إذا نصبت يموت تحتها من الفراشين رجل أو رجلان اشتملت على ألف ألف ذراع (وأربعمائة ألف ذراع) وكان ارتفاعها خمسين ذراعا بذراع العمل، أنفق عليها عشرة آلاف ألف دينار

ومدحه جماعة من الشعراء وذكروا هذه الخيمة، منهم أبو جعفر محمد ابن هبة الله الطرابلسي بقصيدته التي يقول فيها:
ضربت خيمة عز في مقرر علا
أوفت على عذبات الطود ذي القرن
جاءت مدى الطرف، حتى خلعت ذروتها
تأوي من الفلك الأعلى إلى سكن
أقطارها ملئت من منظر عجب
يهدي إليك ذكاء الصانع الفطن
فمن رياض سقاها القطر صيبه
فما بها ظمأ يوم إلى المزن

وجامح في عنان لا يجاذبه
وطائر غير صدادح على فنن
وأرقم لا يمجج السم ريقته
وضيغم ليس بالعادي ولا الوهن
ومائلين صفوفاً في جوانبها
لو يستطيعون خراج جمع للذقن
زينت بأروع لا تحصى فضائله
ماض من المجد والعلواء في سنن
وأطلع الدست فيها شمس مملكة
يرى التأمّل فضل العين والأذن
وعد على السعد أن النصر يضربها
بالصين، بعد فتوح الهند واليمن

وقال أبو علي حسن بن زيد الأنصاري، الكاتب بديوان المكاتبات،
يصفها ويمدح الأفضل:
مهلاً فقد قصرت عن شأوك الأمم
وأبدت العجز منها هذه الهمم
أخيمة ما نصبت اليوم، أم فلنك
ويقظة ما نراه منك أم حلم؟
ما كان يخطر في الأفكار قبلك أن
تسمو على أفق النهى الخيم
حتى أتيت بها شماء شاهقة
في مارن الدهر من تيه بها شمم
إن الدليل على تكوينها فلنكا
أن احتوتك، وأنت الناس كلهم

ومنها:

لديك جيش، وجيش في جوانبها
مصور وكتلا الجيشين مزدحم

إذا الصبا حركتها ماج موكبها
فمقدم منهم فيهما ومنهم زم
أخيلها أخيلك السلاقي تغير بها
فليس تتزع عنها الخزم واللجم
علمت أبطالها أن يقدموا أبدا
فكلهم لغبار الحرب مقتحم
أمتهم أن يخافوا سطوة لردى
فقد تسالمت الأسياف والقمم
كأنها جنة، والقاطنون بها
لا يستطيعون على أعمارهم هم
علت. فخلنا لها سرا تحدثه
للفرقدين وفي سمعها صمم
إن أنبت أرضها زهرا فلا عجب
وقد همت فوقها من كفك الديم

قال المؤرخ: وكان للأفضل شعر حسن، فمن قوله في غلامه المعالي:
أقضي بيميس، أم هو قد
أم شقيق يلوح أم هو خد
أنما مثل الهلال سقا عليه
وهو كالبدري حين وافاه سعد

وكانت ولاية الأفضل سبعا وعشرين سنة وخمسة أشهر.

ذكر تفويض أمور الدولة وإمرة الجيوش للمأمون البطائحي

قال المؤرخ: وفي الخامس من ذي الحجة من سنة خمس عشرة
وخمسة فوض الأمر بأحكام الله أمور الدولة وإمرة الجيوش للقائد أبي
عبد الله محمد بن الأمير ثقة الدولة أبي شجاع فاتك بن الأمير منجد

الدولة أبي الحسن مختار المستنصري المعروف بابن البطائحي، وكان قبل ذلك عند الأفضل أستاذ داره، واستقرت نعوته في سجله المقروء على كافة الأمراء والأجناد «بالأجل المأمون، تاج الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع، ذخّر أمير المؤمنين». ثم نعت بعد ذلك «بالأجل المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنعام، نظام الدين والدعاة». ثم نعت بعد ذلك بنعوت الأفضل وهي: «السيد الأجل المأمون، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنعام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين»

قال ناظم سيرة المأمون: ولما كان يوم الثلاثاء الثالث عشر من ذي الحجة من السنة، وهو يوم الهناء بعيد النحر، جلس المأمون في داره وقت أذان الفجر، وجاء الناس لخدمته للهناء على طبقاتهم في أرباب البيوت والأقلام، ثم الشعراء، وركب إلى القصور، فأتى باب الذهب، فوجد المرتبة المختصة بالوزارة قد هيئت له في موضعها الجاري به العادة، وأغلق الباب الذي عندها على الرسم المعتاد لوزير السيف والقلم، وهذا الباب يعرف بباب السرداب، فلما شاهد المرتبة توقف عن الجلوس عليها لأنه لم يذكر له ذلك قبل حضوره، ثم ألجأته الضرورة، لأجل حضور الأمراء، إلى الجلوس عليها فجلس وأولاده الثلاثة عن يمينه، وأخواه عن يساره، والأمراء المطوقون خاصة قائمون بين يديه، ومن عداهم لا يصل إلى هذا الموضع، فما كان بأسرع من أن فتح الباب وخرج عدة من الاستاذين المحنكين، وخرج إليه الأمير الثقة متولي الرسالة وزمام القصور. فوقف أمام المرتبة وقال: أمير المؤمنين يرد على السيد الأجل المأمون السلام، فوقف المأمون عند ذلك وقبل الأرض، وجلس في موضعه، وتأخر الأمير الثقة حتى نزل من على المصطبة التي عليها المرتبة وقبل الأرض ويد المأمون، ودخل من فوره من الباب، وأغلق الباب، على ما كان عليه الأفضل.

قال: وكان الأفضل يقول: ما أزال أعد نفسي سلطانا حتى أجلس

على تلك المرتبة ويغلق الباب في وجهي، والدخان في أنفي، لأن الحمام كانت خلف الباب في السرداب

قال: ثم فتح الباب وعاد الثقة وأشار بالدخول إلى القصر، فدخل المأمون إلى المكان الذي هيء له، ودعي لمجلس الوزارة، وبقي الأمراء بالدهاليز إلى أن جلس الخليفة واستفتح المقرئون. واستدعى المأمون فحضر بين يديه وسلم عليه أولاده وإخوته، ثم دخل الأمراء وسلموا على طبقاتهم، ثم الأشراف وديوان المكاتبات والانشاء، ثم قاضي القضاة، والشهود، والداعي، ثم مقدموا الركاب ومتولي ديوان المملكة.

ثم دخل الأجناد من باب البحر، وهو الباب الذي يقابل المدرسة الكاملية الآن، ثم دخل والي القاهرة ووالي مصر وسلما ببياض أهل البلدين، ثم البطرك والنصارى والكتاب منهم، وكذلك رئيس اليهود.

ودخل الشعراء على طبقاتهم، وأنشد كل منهم ما سمحت به قريحته.

وكانت هذه عادة السلام على ملوك هذه الدولة، وإنما أوردنا ذلك ليعلم منه كيف كانت عادتهم

وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة

ورد إلى الديار المصرية طائفة كثيرة من عرب لواته من جهة المغرب، وانتهوا إلى الاسكندرية وأعمالها، وأفسدوا فسادا متحكما، فندب المأمون إليهم أخاه نظام الملك حيدرة، الملقب بالمؤتمن، فقاتلهم وهزمهم، وغنم أموالهم، وتوجه إلى الاسكندرية ودخلها، فصادف مراكب البنادقة قد هجموا على ساحل الثغر وأسروا، فخرج إليهم، وحاربهم وهزمهم، فعادوا.

ذكر القبض على المأمون

قال: وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة في يوم السبت لأربع خلون من شهر رمضان قبض الأمر بأحكام الله على وزيره المأمون أبي عبد الله محمد وعلى أخوته ، وثلاثين نفرا من خواصه وأهله، واعتقله، ولم يزل في اعتقاله إلى سنة اثنتين وعشرين ، فصلبه مع اخوته.

وقيل في سبب ذلك أن المأمون راسل الأمير جعفرا، أخا الأمر، وأغراه بقتل أخيه وأنه يقيم مكانه في الخلافة، واستقرت القاعدة بينهما على ذلك، واتصل ذلك بالشيخ أبي الحسن علي بن أبي أسامة، متولي ديوان المكاتبات، وكان خصيصا بالأمر قريبا منه، وناله من المأمون أذى كثير، فاعلم الأمر بالحال. وكان المأمون كثير التطلع لأخبار الناس والبحث عن أحوالهم، وكثر الوشاة في أيامه.

قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل: كان ابتداء حال المأمون أن والده كان من جواسيس الأفضل بالعراق، فمات ولم يخلف شيئا، فتزوجت أمه وتركته فقيرا فاتصل ببعض البنائين بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير، فدخل مع الحمالين إلى دار الأفضل مرة بعد أخرى، فرآه الأفضل خفيفا رشيقا، حسن الحركة، حلو الكلام والحجة فسأل عنه، ف قيل هو ابن فلان، فاستخدمه مع الفراشين. ثم تقدم عنده وكبرت منزلته وعلت درجته، إلى أن انتهى إلى ما ذكرنا.

قال محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب في تاريخ مصر: إن ابن الأثير وهم في وفاة والد المأمون، وأن والده مات في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، والمأمون إذ ذاك مدبر دولة الأفضل، وأكثر الناس ينكرون ما ذكره ابن الأثير.

وقال صاحب كتاب البستان في حوادث الزمان: إن المأمون كان يرش بين القصرين، وجده من غلمان المستنصر بالله. والله اعلم.

ذكر اخبار أبي نجاح بن متى النصراني الراهب وقته

كان هذا الراهب من أهل أشموم طناح، وكان قد خدم ولي الدولة يحنأ بن أبي الليث، ثم اتصل بالخليفة الأمر بعد القبض على المأمون، وبذل في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم، وتسلسل الأمر إلى أن عم البلاء منه جميع رؤساء الديار المصرية وقضاتها وكتابها وغيرهم، ولم يبق أحد إلا ناله منه مكروه من الضرب والنهب وأخذ المال، وارتفع شأنه عند الأمر حتى كان يعمل له ملابس مخصوصة به بدمياط وتيس من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب، فكان يلبسها، ويلبس من فوقها الغفافير الديباج، وكان يتطيب في كل يوم بعدة مثاقيل من المسك. وكان يركب الحمير بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، ويجلس في قاعة الخطابة بالجامع العتيق بمصر ويستدعي الناس للمصادرة. فاستدعى في بعض الأيام رجلا يعرف بابن العرس وكان من أكابر العدول ذوي الهيئات والديانة، والناس يعظمونه ويجلونه وأوقع به الإهانة والإخراق، فخرج من عنده ووقف في الجامع يوم الجمعة وقال: يا أهل مصر، انظروا عدل مولانا الأمر في تمكينه هذا النصراني من المسلمين، فارتج الناس لكلامه وكادت تكون فتنة، فدخل جماعة على الأمر وخوفوه العاقبة، وعرفوه ما حل بالمسلمين منه فاستدعاه، وكان في المجلس رجل من الأشراف، فانشد الأمر أبياتا منها: إن الذي شرفت من أجله

يزعم هذا أنه كاذب

فقال له الأمر: ما تقول يا راهب؟ فسكت. فأمر به فقتل، وكان الذي تولى قتله الأمير مقداد والي مصر، وصلبه على الجسر، ثم أنزل وربط على

خشيلة ورمي في بحر النيل، وخرجت الكتب إلى الأعمال البحرية أنه إذا ألقاه الماء إلى جهة أخرجوه عنها حتى ينتهي إلى البحر المالح.

وإذا قتل هذا الراهب وجدوا له مقطعا فيه ثلاثمائة طراحة سامان محشوة، جددا، لم تستعمل، هذا من هذا النوع، خلا ما وجد من الذهب والفضة والأقمشة والديبايح.

ذكر مقتل الأمر بأحكام الله وشيء من أخباره

كان مقتله في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، بجزيرة مصر بالقرب من المقياس، وثب عليه عشرة نفر من النزارية وقتلوه، فحمل في جل إلى الجامع، ونقل في مركب عشاري، وأحدر إلى اللؤلؤة في الخليج، ثم حمل إلى القصر، فتوفى بقية يومه. وقتل القوم الذين قتلوه وكان مولده في يوم الثلاثاء لليلة خلت من المحرم سنة تسعين وأربعمائة وقتل في يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم منه، فكان عمره أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر، وولايته تسعا وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصف شهر، وكان محكوما عليه إلى أن قتل الأفضل وتولى المأمون فظهر أمره، وصار يتصرف (ويركب) في يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الثلاثاء، وإذا لم يركب في يوم منها ركب في غيره. ولم يستوزر بعد المأمون وزيرا لل سيف والقلم، بل استبد بأموره وباشرها بنفسه.

وكان قبيح السيرة في رعيته، يظلمهم ويأخذ أموالهم ويغتصب أملاكهم، وسفك دمائهم، وارتكب المحذورات، واستحسن القبائح، ويكفي من سوء سيرته تمكينه الراهب من المسلمين، وقد تقدم خبره.

وولد للأمر في هذه السنة ولد سمي أبا القاسم الطيب وجعله ولي عهده، فأخفاه الحافظ.

وزراؤه : الأفضل، ثم المأمون.

قضاته: ابن ذكا النابلسي إلى أن رفع ابراهيم بن حمزة الشاهد الى الأفضل أمير الجيوش أنه أحدث في مجلس الحكم فعزله، وولى أبا الفضل نعمة ابن بشير الجليس النابلسي إلى أن استقال، فولى الرشيد أبا عبد الله محمد ابن قاسم الصقلي إلى أن توفي، فأعاد الجليس ثم صرفه، وولى أبا الفتح مسلم، فبقي إلى أن تولى المأمون فعزله ونفاه لما أخطأ في قراءته، وولى أبا الحجاج يوسف بن أيوب الأندلسي إلى أن توفي في سنة إحدى وعشرين وخمسائة، فولى الأمر أبا عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر القيسراني، فاستمر إلى أن قتل الأمر بأحكام الله.

ذكر بيعة الحافظ لدين الله

هو أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله، وهو الحادي عشر من ملوك الدولة العبيدية، والثامن من ملوك الديار المصرية منهم. بويح له بعد مقتل ابن عمه الأمر، في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسائة، بولاية العهد إلى أن يستبرئ نساء الأمر، وهل فيهن من هي مشتملة على حمل أم لا.

ذكر قيام أحمد بن الأفضل الحافظ وما كان من أمر أحمد إلى أن قتل

قال المؤرخ: لما بويح الحافظ لدين الله ثار الجند الأفضلية وأخرجوا ابن مولاهم، أبا علي أحمد بن الأفضل، الملقب بكتيفات، وولوه إمرة الجيوش، وذلك في يوم الخميس السادس من ذي القعدة منها، فحكم، واعتقل الحافظ صبيحة يوم بيعته، ودعا للإمام المنتظر، وقوي أمر ابن الأفضل.

وفي سنة خمس وعشرين رتب أحمد بن الأفضل في الأحكام أربعة
قضاة: الشافعية، والمالكية، والإسماعيلية، والإمامية، يحكم كل قاضي
بمقتضى مذهبه ويورث بمقتضاه، فكان قاضي الشافعية الفقيه
سلطان^(١٢) وقاضي المالكية اللبني^(١٣) وقاضي الاسماعلية أبو الفضل^(١٤)
ابن الأزرق، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل^(١٥)

وسار أحمد بن الأفضل سيرة جميلة بالنسبة إلى أيام الأمر، ورد على.

الناس بعض مصادراتهم، وأظهر مذهب الإمامية الاثني عشرية، وأسقط
من الأذان قولهم «حي على خير العمل»، وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر
بدعاء اخترعه لنفسه وهو «السيد الأجل الأفضل، مالك أصحاب
الدول، والمحامي عن حوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين،
الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره، والقائم
بنصرته بإضي سيفه، وصائب رأيه وتديره، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح
بيانه وإرشاده، مولى النعم، ورافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي
السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير
الجيوش» واستمر أمره إلى يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم سنة ست
وعشرين وخمسمائة. فاتفق ركوبه في هذا اليوم إلى الميدان بالبستان الكبير
ظاهر القاهرة، للعب بالأكرة على جاري عادته، فوثب عليه مملوك رومي
وقيل بل من صبيان الخاص، فطعنه طعنة ألقاه بها عن فرسه، ونزل
واحتز رأسه، ومضى به إلى القصر، وذلك بموافقة من الأجناد، فكانت
مدة تغلبه على الأمر سنة واحدة وشهرين وثلاثة عشر يوما، ودفن بتربة
أبيه خارج باب النصر.

ذكر بيعة الحافظ لدين الله الثانية

قال: ولما قتل أحمد بن الأفضل بويح الحافظ بالخلافة بيعة عامة، وظهر الحمل المنتظر بنتا، فانتقلت الخلافة إليه وأمر أن يدعى له على المنابر: اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأقررت الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره، وجعلته آية لمن يدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا، عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، صلاة دائمة إلى يوم الدين

قال: ولما تم أمر الحافظ استوزر أبا الفتح يانس، وهو رومي من مماليك الأفضل، ولقبه بأمر الجيوش، فقتل الطائفة المعروفة بصبيان الخاص، ومن جملتهم قاتل أحمد بن الأفضل، وكان عظيم الهيبة، بعيد الغور، فخافه الحافظ وتخيل منه، وتخيل يانس أيضا من الحافظ، فدبر كل واحد منهما على صاحبه، فسبق تدبير الحافظ فيه فسمه في ابريق اسنعمل الماء منه عند الطهارة فعولج وكاد أن يبرأ. فكلّم الحافظ بعض الأطباء، فقال له الطبيب: إن رأى مولانا أمير المؤمنين أن يمضي إليه ويزوره ويهنئه بالعافية فإنه لا بد أن ينهض إليك ويمشي، فإذا مشى لا يكاد يعيش أبدا. فمضى إليه الحافظ فقام إليه وتلقاه، فمات في ليلته، وذلك في السادس والعشرين من ذي الحجة فكانت مدة وزارته تسعة أشهر.

ذكر الخلف بين ابني الحافظ لدين الله

قال المؤرخ: وفي شعبان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة جرى بين أبي تراب حيدرة وحسن، ولدي الحافظ، حرب شديدة، وافتقرت العساكر على فرقتين، وهما الريمانية والجيوشية، وكان بينهما وقعة في خامس شهر

رمضان، ووقع الحرب بينهما بين القصرين، وقتل من الطائفتين تقدير عشرة آلاف إنسان. وكان سبب ذلك أن الحافظ جعل ولده حيدرة ولي عهده من بعده، فلم يرض حسن بذلك، فوقع الاختلاف والحرب بينهما. واستظهر حسن على أخيه حيدرة، فهرب حيدرة إلى أبيه، فأرسل الحافظ إلى ابنه حسن ليدخل إليه، فامتنع وضايق القصر، وطالبه بأخيه حيدرة، فتلافاه الحافظ وجعله ولي عهده من بعده. وتمكن حسين من الدولة والتصرف فيها بحسب رأيه، ولم يبق للحافظ معه حكم.

ذكر مقتل حسن بن الحافظ

كان مقتله في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وذلك أنه لما استقر في ولاية العهد والوزارة والتدبير واستبد بالأمر، قبض على جماعة من الأمراء وقتلهم، بسبب قيامهم مع أحمد بن الأفضل، وأقام غيظهم، فخافه من بقي من الأمراء العتق، وأجمعوا على خلع أبيه من الخلافة وولده حسن من الوزارة، فاجتمعوا بين القصرين، وراسلوا الحافظ، وأعلموه بما أجمعوا عليه فاستعطفهم الحافظ واعتذر إليهم، وهرب حسن إلى أبيه، فقبض عليه وقيده، وذكر ذلك للأمراء، فقالوا: لا بد من قتله، فسقاه أبوه سما فمات، وجعله على سرير، وأمره الأمراء بمشاهدته، فدخلوا عليه ورأوه فسكتوا. وقيل إن قيام الأمراء كان بتدبير الحافظ

ذكر وزارة بهرام الأرمني

وفي يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، وقيل لإحدى عشرة ليلة خلت منه، استوزر الحافظ بهرام الأرمني النصراني، ونعته بسيف الإسلام تاج الملوك، وكان بهرام المذكور قد وصل إلى الديار المصرية واجتمع بالحافظ، فرأى منه عقلا وافرا وإقداما في الحرب، وحسن تدبير.

وكان سبب وصوله من بلاده أن القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحق بمكانه من غيره، فعدل الأرمن عنه وولوا غيره، فغضب لذلك وخرج من تل باشر وقدم مصر، فعينه الجافظ للوزارة، واستشار بعض أهله وأكابر دولته فيه، فكلهم كره ذلك وأشار عليه ألا يفعل، وقالوا: إنه نصراني لا يرضاه المسلمون، وإن من شروط الوزارة أن الوزير يرقى المنبر مع الإمام في الأعياد ليزر عليه المزة الحاجزة بينه وبين الناس، وأن القضاة هم نواب الوزراء، من زمن أمير الجيوش بدر الجمالي، ويذكرون في النيابة عنهم في الكتب الحكمية النافذة عنهم إلى الآفاق وكتب الأنكحة. فقال الحافظ: إذا رضيناه نحن فمن يخالفنا، وهو وزير السيف؟ وأما صعود المنبر فيستنيب عنه فيه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك. واستوزر والناس ينكرون ذلك عليه.

وقال بعض المؤرخين: إن بهرام كان والي الغربية يومئذ، وأنه سار منها مجدا إلى أن وصل إلى القاهرة وحاصرها يوما واحدا ودخلها، فلما ولي الوزارة وثبتت بها قدمه سأل الحافظ أن يسمح له بإحضار إخوته وأهله، فأذن له في ذلك. فأرسل إليهم وأحضرهم من تل باشر، فتواصلوا حتى كمل منهم ومن غيرهم من الأرمن تقدير ثلاثين ألف إنسان، فاستطالوا على المسلمين. وبنيت في أيامه كنائس كثيرة وديرة حتى إن كل رئيس من أهله بنى له كنيسة، وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا الملة الإسلامية. وكثرت الشكايات فيه. وكان أخوه المعروف بالباساك، وإليه تنسب المنية ^(١٦) التي بالقرب من إطفيح ^(١٧)، قد ولي الأعمال القوصية فجار فيها جورا عظيما واستباح الأموال، فعظم ذلك على الناس

ذكر خروج بهرام من الوزارة ووزارة رضوان بن الولخي

قال: ولما ثقلت وطأة بهرام على الناس اجتمع الأمراء وكاتبوا رضوان ابن الولخي، وذلك في صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وكان يومئذ

متولي الغربية ولاه بهرام إياها إبعادا له، فلما أته كتب الأمراء نهض في طلب الوزارة، ورقى المنبر، وخطب خطبة بليغة حرض الناس فيها على الجهاد، فأجابوه، وحشد العربان وقدم الى القاهرة، وكان الأمراء قد كاتبوه وقالوا: إذا وقع الوجه في الوجه ارفع المصاحف على الرماح فلما ننحاز إليك، ففعل ذلك، وخرج بهرام إليه لما قرب من القاهرة، فلما عاين الأمراء والجند المصاحف التحقوا جميعهم برضوان، وبقي بهرام في الأرمن خاصة. فراسل الحافظ وقال: أنا ألقاهم بمن معي؟ فخاف الحافظ عاقبة ذلك، فأمره أن يتوجه الى قوص ويقيم عند أخيه الباساك الى حين يدبر أمرا. فعاد بهرام الى القاهرة وأخذ ما خف حمله، وخرج من باب البرقية في حادي عشر جمادى الأولى، وتوجه الى الأعمال القوصية.

قال: ولما انفصل عن القاهرة أتت العوام منازل الأرمن، وكانوا قد نزلوا الحسينية وعمروها دورا. ولما اتصل بأهل قوص انهزم بهرام ثاروا بأخيه الباساك وقتلوه ومثلوا به، وربطوا في رجله كلبا ميتا، ورموه على مزبلة. فقدم بهرام بعد ذلك بيومين، ومعه طائفة من أقاربه، فرأى الباساك على هذه الحال، فقتل جماعة من أهل قوص بالسيف ونهبها وسار إلى أسوان. ثم رجع ونزل بالديرة البيض، وهي من أعمال أخميم بالجانب الغربي.

قال: ولما فارق بهرام القاهرة دخلها رضوان ووقف بين القصرين، وأستأذن الحافظ فيما يفعله، فأمره بالنزول بدار الوزارة، فنزلها، وخلع عليه خلع الوزارة، ونعته بالأفضل. وندب رضوان جماعة من العسكر مع أخيه ناصر الدين، فتوجهوا إلى بهرام، فاستقر الأمر بينهم أن يقيم بالديرة البيض، وعاد الجند الذين مع بهرام إلى مصر.

ودبر رضوان الأمر أحسن تدبير، وصادر جماعة من أصحاب بهرام وشدد عليهم الطلب، وقتلهم بالسيف.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

أحضرت من تنيس امرأة بغير يدين، وموضع يديها مثل الحلمتين، فجيء بها إلى مجلس الوزارة بين يدي رضوان، فعرفته. أنها تعمل برجليها ما يعملها الناس باليدين من خط ورقم وغير ذلك، فأحضر لها دواة، فتناولت الأقلام برجلها اليسرى وتأمّلتها قلما قلما فلم ترض شيئا منها، فأخذت السكين وبرت لنفسها قلما وشقته وقطته، واستدعت ورقة فأمسكتها برجلها اليمنى، وكتبت باليسرى بأحسن خط ما تكتب النساء بأيديهن مثله، وحدت الله في آخر الرقعة، وناولتها للوزير. فتناولها فوجدها قد سألته الزيادة في راتبها، فزادها، وأعادها إلى بلدها.

وفيها بنى رضوان المدرسة المعروفة به بالاسكندرية واستدعى الفقيه أبا طاهر بن عوف إلى حضرته وأسند إليه تدريسيها.

ذكر خروج رضوان من الوزارة وما كان من أمره إلى أن قتل

وفي شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة أحضر الحافظ بهرام الأرمني من الصعيد، وأسكنه في القصور وأكرمه، فعظم ذلك على الأفضل رضوان، فشغب الحافظ عليه الجند، فقام بعضهم عليه، وجرت بينهم حرب بالقاهرة. وطلب رضوان أن يسكن مع الحافظ في القصور، فلم يمكنه، فتزايد الحال على الأفضل وضعفت قدرته عن لقاء العساكر، فهرب إلى الشام، وذلك في منتصف شوال منها، وقصد كمشتكين وإلى صرخد، فأقام عنده فأكرمه. ثم عاد إلى مصر في سلخ المحرم سنة أربع وثلاثين وقد جمع جمعا صالحا من الجند، فخرج إليه العسكر وحاربوه عند باب الفتوح، فمضى ونزل عند الرصد، ثم مضى إلى الصعيد، فندب إليه الحافظ الأمير سيف الدولة أبا الفضل بن مصال بأمان، فسار

إليه وتلطف به، إلى أن أحضره إلى القصر، في رابع شهر ربيع الآخر من السنة، فاعتقله في بعض قاعات القصور. فأقام في الاعتقال إلى سنة اثنتين وأربعين، فخرج من نقب نقبه في القصر، وذلك في ليلة الثلاثاء لسبع بقين من ذي القعدة منها. وركب وحوله جماعة ممن كان يكاتبه، وتوجه إلى الجيزة، ولقي عسكر الحافظ وقتلهم عند جامع ابن طولون، فهزمهم. ودخل القاهرة، ونزل بالجامع الأحمر، وأغلق الحافظ باب القصر في وجهه، فاستحضر رضوان أرباب الدولة والدواوين، وأمر ديوان الجيش بعرض الجند، فعرضهم، وأخذ أموالا كثيرة خارجة عن الحصر كانت في الدواوين، وأنفق، وأرسل إلى الحافظ في طلب المال، فأرسل إليه عشرين ألف دينار. وأمر الحافظ مقدمي السودان بالهجوم على رضوان وقتله، فهجموا عليه، فهم بالركوب، فأعجلوه عن ذلك، وضربه بعضهم بسيف فقتله. وقتل معه أخوه، وأحضرت رأسهما إلى الحافظ. وسكنت الفتنة، وأرسل الحافظ الرأس لزوجته رضوان فلما وقع في حجرها قالت: هكذا تكون الرجال. فلم يكن في وقت رضوان أشجع منه.

وكان مولده في سنة تسع وأربعمئة. وأول ولاية وليها الأعمال القوصية والأعمال الإخميمية في سنة ثمان وعشرين وخمسائة.

ذكر وفاة بهرام الأرمني

كانت وفاته لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين وخمسائة بالقصور، وكان الحافظ قد أسكنه بدار بها ولم يمكنه من التصرف، وكان يشاوره في تدبير الدولة والأمور ويصدر عن رأيه، فلما هلك حزن عليه حزنا شديدا، وأمر بغلق الدواوين ثلاثة أيام.

وأحضر الحافظ بطرك الملكية بمصر، وأمره بتجهيزه، فجهزه. وأخرج وقت صلاة الظهر في تابوت عليه الديباج، وحوله جماعة من النصارى

يبحرون باللبان والسندروس والعود، وخرج الناس كلهم مشاة ولم يتخلف عن جنازته أحد من الأعيان، ثم خرج الحافظ على بغلة خلف التابوت وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر طيلسان، ولم تزل الناس مشاة والقسوس يعلنون بقراءة الإنجيل، والحافظ على حالته إلى دير الخندق بظاهر القاهرة، وقيل بل إلى بستان الزهري في الكنيسة المستجدة ونزل الحافظ عن بغلته، وجلس على شفير القبر، وبكى بكاء كثيرا.

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة طلع النيل حتى بلغ تسعة عشر ذراعا وأربع أصابع، ووصل الماء إلى الباب الجديد أول الشارع الأعظم بالقاهرة، وصار الناس يتوجهون من القاهرة إلى مصر من جهة المقابر، ولما وصل الماء إلى الباب أظهر الحافظ الحزن والإنقطاع، فدخل عليه بعض خواصه وسأله عن السبب، فأخرج له كتابا وقال له: انظر هذا السطر، فقرأه، فإذا فيه. إذا وصل الماء إلى الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد. وقال: هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا وأحوال الدولة وما يأتي بعدها

ذكر وفاة الحافظ لدين الله وشيء من أخباره

كانت وفاته في ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ومولده في المحرم سنة أربع وستين وأربعمائة، وقيل في المحرم سنة ثمان وستين. فكانت مدة عمره ستا وسبعين سنة وشهورا، ومدة ولايته منذ بويع البيعة العامة الثانية، بعد قتل أحمد بن الأفضل، ثمانى عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما.

قال المؤرخ: وكان الحافظ موصوفا بالبطش والتيقظ، وكان شديد المفاتشة وهو الذي عمل طبل القولنج الذي كسره الملك الناصر صلاح الدين يوسف، وكان هذا الطبل قد عمل من سبعة معادن والكواكب

السبعة في إشراقها. وكان خاصته أنه كلما ضرب به بضربة خرج الريح من مخرج الضارب.

قال بعض المؤرخين : إن الحافظ خطر بباله أن ينقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى القاهرة، وكانت المدينة إذ ذاك يخطب بها لبني العباس، لظهور ملوك الدولة السلجقية، فأرسل نحوها من أربعين رجلا من أهل النجدة والقدرة، فتوجهوا إلى المدينة وأقاموا بها مدة، وتحيلوا بأن حفروا سرياً من مكان بعيد، وعملوا حساب الخروج في المكان المقصود. فعصم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من أن ينقل من المكان الذي اختاره له، فيقال إن السرب انهار عليهم فهلكوا، وقيل بل سعي بهم فأهلكوا.

وكان للحافظ من الأولاد: أبو علي حسن، هلك كما ذكرنا، وعبد الله، هلك في حياته أيضاً، وأبو المنصور إسماعيل، وأبو الأمانة جبريل، ويوسف. ووزراءه: تقدم ذكرهم. ولما قتل رضوان بن الوحشي لم يستوزر بعده أحداً، وإنما كانوا كتاباً. فمن أشهر كتابه أبو علي حسن الأنصاري كان (القاضي) الفاضل يقول : لم يسمح الزمان بمثله.

ومن أشهر شعرائه الشريف أبو الحسن الأخفش المغربي ومن جملة شعره في قصيدة:

ذكر الدوح وشاطئ بردى
وحباب فيه يحكي بردا
والصبايم رح في أرجائه
وتحوك الريح منه زردا
ينثر الدر عليه فضة
وتذيب الشمس فيه عسجدا
ورشألوم لم تكن ريقته
خمرة صافية ماعربدا

قضاته: لما غلب أحمد بن الأفضل على الأمر ، أبقى محمد بن هبة الله ابن ميسر القيسراني على القضاء، ثم صرفه الحافظ واستقضى أبا الفخر صالح بن عبد الله بن أبي رجاء، ثم قبض عليه الوزير يانس الرومي وقتله، فولى سراج الدين أبو الثريا نجم بن جعفر ، مضافا الى الدعوة، إلى أن قتل في ذي القعدة سنة ثمان وعشرين، فأعيد سناء الملك ابن ميسر، فأقام إلى أن قبض عليه في يوم الأحد لسبع خلون من المحرم سنة إحدى وثلاثين، وسير إلى تنيس فقتل بها، وولي بعده القاضي الأعز أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عقيل، إلى أن توفي في شعبان سنة ثلاث وثلاثين. وأقام الناس بغير قاض ثلاثة أشهر، ثم ولي أبو الفضائل هبة الله بن عبد الوارث الأنصاري لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة منها. ثم جرت مفاوضة بينه وبين «النبیه» أبي الحسن علي بن «إسماعيل» ، قيل أدت إلى مصافغة خرج في أثناءها القاضي إلى القصر وهو مخرق الأثواب، وقد تحلقت عمامته في حلقه، فعظم على الحافظ خروجه على هذه الهيئة وغرمه مائتي دينار، واستتاب أبا طاهر إسماعيل بن سلامة الأنصاري، فأقام في النيابة إلى مستهل المحرم سنة خمس وثلاثين، فوفر جاري القضاء، وهو أربعون دينارا في كل شهر، وخدم بجاري التقدم في الدعوة، وهو ثلاثون دينارا، في الوظيفتين، فأجيب الى ذلك وأقام إلى أن صرف لسبع خلون من صفر سنة ثلاث وأربعين، وبقي على الدعوة. وولى القضاء أبو الفضائل يونس بن محمد ابن الحسن المقدسي إلى آخر المدة

ذكر بيعة الظافر بأعداء الله

هو أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله، وهو الثاني عشر من ملوك الدولة العبيدية، والتاسع من ملوك الديار المصرية منهم، بويع له بعد وفاة أبيه لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسةائة، واستوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن

مصال، ونعته بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش، وكان إذ ذاك من أكابر امراء الدولة.

وفي الرابع من شعبان من السنة اجتمع السودان وجماعة من المفسدين بالبهنسانية، فخرج إليهم الوزير فحاربهم وهزمهم .

ذكر قيام العادل بن السلار ووزارته ومقتل ابن مصال

في هذه السنة ثار الأمير المظفر أبو الحسن علي بن السلار والي الإسكندرية وخرج وحشد وتقدم بمن معه، ودخل القاهرة في يوم الأربعاء سابع شعبان، ووقف على باب القصر، وراسل الظافر والمدبر له من النساء، فراجعت في ذلك وفاء لابن مصال، ثم أجيب إلى ما سأله. وفتح باب القصر، وخلع على المظفر خلع الوزارة ولقب بالعادل، فلما اتصل ذلك بابن مصال جمع عربان البلاد، ووافقه بدر الدين بن رافع مقدم العربان بتلك البلاد، وقصد ابن السلار فندب إليه ربيبه عباس ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بعسكر معه، فعسكر ببركة الحبش، فندب ابن مصال لحربه الأمير الماجد فجند في السير وكبس عسكر عباس، فأثخنهم جراحا وقتلا، فانهزم عباس وأجمع ابن مصال رأيه على قصد بلاد الصعيد، فعاجله ابن السلار وأمد ربيبه بالعساكر وأمره بمعاجلته قبل الجمع، فأدركه بالقرب من دلاص^(١٨). والتقوا بينها وبين مهد، وهي قرية هناك، واقتتلوا، فانجلت الحرب عن قتل ابن مصال وبدر بن رافع. وكانت هذه الواقعة في يوم الأحد تاسع عشر شوال. وحمل رأس ابن مصال إلى القاهرة، وطيف به، وخلع على العادل في ذلك اليوم.

وفي السادس والعشرين من شهر رمضان أغلق العادل أبواب القاهرة والقصور، وقبض على صبيان الخاص وقتلهم، وكانوا جمعا كثيرا وهم

أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة فكان الرجل إذا توفي وخلف أولادا حملوا إلى حضرة الخلافة وأودعوا في أماكن مفردة لهم، ويؤخذ في تعليمهم الفروسية وغير ذلك، وتسموا صبيان الخاص. وكان سبب إيقاع العادل بهم أنه بلغه أنهم تعاقدوا على قتله، فبادر بهم، وقبض عليهم، وقتل أكثرهم، وجعل من بقي منهم في المراكز بالشغور

وفي يوم الجمعة لأربع خلون من شوال من السنة قتل العادل أبا المكرم الموفق محمد بن معصوم التنيسي ناظر الدواوين، وكان سبب ذلك أن العادل في مبدأ أمره كان من صبيان الحجر، وكان يتكرر إلى الموفق برسائل ويكلمه بكلام غليظ، فكرهه الموفق، ثم كتب بعد ذلك لابن السلار منشور بإقطاع، فدخل به إليه، فتغافل عنه وأهمل أمره، فقال له ابن السلار: ما تسمع؟ فقال: كلامك ما يدخل في إذني أصلا، فأخذ ابن السلار منشورة وخرج من حيث أتى، فلما ولي أمر الدولة دخل عليه الموفق وسلم عليه، فقال له: ما أظن كلامي يدخل في أذنك، فتلجلج بين يديه وقال له: عفو السلطان. فقال: قد استعملت العفو من حين خروجي من عندك، ما أتيتك به، وأشار لبعض خدمه فأحضر مسمارا من حديد عظيم وضرب المسمار في أذنه حتى نفذ من الأخرى، وحمل إلى باب زويلة الأوسط ودق المسمار في خشبة، وعلق عليها وقد مات

ذكر ما فعله الفرنج بالفرما وما جهزه العادل من الأسطول إلى بلادهم

وفي شهر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة أغار الفرنج على الفرما فنهبوا وأحرقوها، وعادوا إلى بلادهم، فجهز العادل المراكب الحربية وشحنها بالرجال وسفرها في شهر ربيع الأول سنة ست وأربعين، فمضت إلى يافا وقاتلوا من بها في المراكب، واستولوا على عدة كثيرة من مراكب الفرنج، وأحرقوا ما عجزوا عن أخذه، وقتلوا خلقا كثيرا، ثم

امتدوا إلى ثغر عكا وفعلوا فيه كفعلهم بيافا. وكذلك فعلوا بصيدا وبירות وطرابلس، ونكوا في الفرنج نكاية عظيمة. ووجدوا طائفة كثيرة من حجاج الفرنج فقتلوا عن آخرهم ، وكان جملة ما أنفق في هذا الأسطول ثلاثمائة ألف دينار .

وفي سنة ست وأربعين قطعت جميع الكساوي المرتبة للأمرء والدواوين عن أربابها، وتوفرت.

ذكر مقتل العادل بن السلار وسلطنة ربييه عباس

كان مقتله في السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وكان سبب ذلك أن العادة كانت جارية بتجريد عسكر من مصر في كل سنة لحفظ عسقلان من الفرنج، وكان الفرنج قد حاصروها في سنة سبع وأربعين، فلما كان في هذه السنة وقعت القرعة في البذل على عباس ربيب العادل، وهو ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، فجرده العادل بالعساكر، وقال له: هذا الثغر قد نازله الفرنج، ولاغنية أن تتوجه بالعساكر إليه لتدفعهم عنه، فخرج عباس من القاهرة ومعه جماعة من أكابر الأمراء، منهم أسامة بن منقذ، وكان خصيصا بعباس، فلما وصلا إلى بلبس تذاكر عباس وأسامة القاهرة وطيب المقام بها وما خرجا إليه، وما يلقيانه من الشدائد ولقاء العدو، فتأوه عباس لذلك ولام عمه كونه جرده ، فقال له أسامة: لو أردت أنت كنت سلطان مصر، قال: وكيف الحيلة في ذلك؟ فقال: هذا ولدك نصر، بينه وبين الظافر مودة عظيمة، فأرسله إليه وخاطبه على لسانه أن تكون أنت السلطان مكان عمك، فهو يختارك ويكره العادل. فإن أجابك لذلك فاقتل عمك.

فجهز عباس ابنه وعرفه ما تقرر مع أسامة، فدخل إلى القاهرة على حين غفلة من العادل، واجتمع بالظافر وأعلمه الحال، فأجاب لما طلب.

ثم مضى نصر إلى عند جدته زوجة العادل، وأعلم العادل أن والده أعاده شفقة عليه من السفر، ومضى العادل إلى مصر وجهاز المراكب الحربية، وأنفق في رجالها ليلحق عباساً، وأقام طول نهاره في العرض والنفقة على رجالها، وعاد إلى داره بالقاهرة وهو على غاية من التعب، فلما نام على فراشه احتز نصر بن عباس رأسه، ومضى به إلى القصر، ودخل إلى الظافر، وجهاز إلى أبيه، فركب لوقته، ودخل إلى القاهرة صبيحة نهار الأحد الثاني عشر من المحرم، فوجد جماعة من الأتراك، كان العادل قد اصطنعهم لنفسه، قد ثاروا لذلك، فلاطفهم وطمئهم، فلم يطمئنوا ومضوا إلى دمشق.

وكانت وزارة العادل ثلاث سنين ونصف سنة تقريباً، وكان من الاكراد الزرزارية. ولما قتل طيف برأسه في القاهرة ومصر جميعاً، ونصب الظافر عباساً في السلطنة.

ذكر مقتل الظافر بأعداء الله وأخويه

كان مقتله في ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وذلك أنه خرج ليلاً متنكباً ومعه خادمان وجاء إلى دار نصر بن عباس، وهي الدار المعروفة قديماً بدار جبر بن القاسم، ثم عرفت بسكن المأمون ابن البطائحي، وهي المدرسة المعروفة بالسيوفية في وقتنا هذا، المقابلة لحافر الدبابلة، بخط سوق السيوفيين بالقاهرة وهي لطائفة الفقهاء الحنفية. فلما جاء الظافر إليه قتله نصر بن عباس، وحفر له تحت لوح رخام ودفنه، وقتل أحد الخادمين وهرب الآخر.

وكان سبب ذلك أن الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ لما حسن لعباس قتل عمه العادل، وقصدوا قتل أسامة. فلما علم بذلك اجتمع بعباس وقال له: كيف تصبر على ما يقوله الناس في ولدك واتهامهم أن

الخليفة الظافر يفعل به ما يفعله مع النساء؟ فعظم ذلك على عباس، وقيل بل كان الظافر قد أنعم على نصر بن عباس بقلينوب، فجاء نصر الى والده وأعلمه بذلك، فقال له أسامة: ما هي بمهرك غالية، فقال عباس لأسامة: كيف تكون الحيلة على هذا الأمر؟ فقال: إن الخليفة في كل وقت يأتي لولدك في هذه الدار خفية، فإذا أتاه فامر به بقتله، فأوصى عباس ابنه بذلك، فلما جاءه قتله نصر.

قال: ولما كان صبيحة يوم قتله ركب عباس وولده على العادة وأتى الى القصر، فقال لبعض الخدم: أعلم مولانا ليجلس للاجتماع معه. فدخل وأعلم أهل القصر بما التمسه عباس من الاجتماع بالخليفة، فقالوا: قل له إنه خرج البارحة ولم يعد، فجاء الخادم إليه وأعلمه الخبر، فشدد عباس في طلب الظافر، ودخل الى القاعات ومعه أكابر الخدم، وقال: لا بد من مولانا، فقل له عند ذلك: أنت أعلم بحاله، فأحضر أخويه: يوسف وجبريل، وقال لهما: أنتما قتلتما مولانا. فأنكرا ذلك وحلفا عليه الإيثار المغلظة. وأحضر القاضي وجماعة من الأعيان أهل الفتيا وداعي الدعاة وقال: قد صح عندي أن أخوي الظافر قتلاه، فأفتوه بقتلهما، فقتلا بين يديه وقيل إنه قتل معهما أبا البقاء بن حسن بن الحافظ، وصارم الدولة، مصلح، زمام القصر.

قال: وكان الظافر من أحسن خلق الله وجهاء، وكان مولده يوم الأحد، النصف من شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسة، فكانت مدة عمره إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوما ومدة ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وخمسة أيام.

ولده: أبو القاسم عيسى

وزراءه: تقدم ذكرهم

قضاته: أبو الفضائل يونس، إلى أن صرفه العادل بن السلار في سنة سبع وأربعين، وولى أبا المعالي مجلي بن نجا المخزومي، فأقام إلى آخر الدولة.

ذكر بيعة الفائز بنصر الله

هو أبو القاسم عيسى بن الظافر بأعداء الله، وهو الثالث عشر من ملوك الدولة العبيدية، والعاشر من ملوك الديار المصرية منهم. بويع له بعد مقتل والده في يوم الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسة، وعمره خمس سنين، وذلك أنه لما قتل الظافر استدعى عباس ابنه أبا القاسم عيسى هذا وحمله على كتفه ووقف في القاعة، وأمر أن تدخل الأمراء فدخلوا، فقال: هذا ولد مولاكم وقد قتل أبوه وعماه كما ترون، والواجب الطاعة لهذا الطفل. فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا، وصاحوا صيحة عظيمة زل منها عقل الصبي واختل، ثم سيره إلى أمه، ولقب بالفائز فأقام يصرع في كل يوم

وانفرد عباس بالوزارة وبتدبير الأمور، ولم يبق على يده يد، وظن أن الأمر استقام له.

ذكر خروج عباس من الوزارة وما آل إليه أمره

قال المؤرخ: لما قتل الظافر بأعداء الله أكثر أهل القصر النواح عليه، وشرعوا في أعمال الحيلة على عباس، ووافق ذلك نفور الأمراء منه لإقدامه على القتل، فاختلفت الكلمة عليه، وهاجت العساكر وتفرقت الفرق، ولبسوا السلاح. فخرج إليهم عباس في يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الأول من السنة، فقاتلهم وهزمهم، وقتل جماعة منهم.

فأرسلت عمة الفائز أخت الظافر شعور أهل القصر طي الكتب إلى

الأمير طلائع بن رزيك، وهو اذ ذاك متولي الأعمال السيوطية، وقيل كان متولى منية بني خصيب^(١٩) وسألوه الانتصار لمولاه، فجمع العربان والأجناد ومقطعي البلاد، وسار الى القاهرة، فوصل إليها في تاسع عشر شهر ربيع الأول من السنة، وخرج الناس للقاءه.

فاستشار عباس أسامة بن منقذ فأشار عليه باللحاق بالشام، فدخل الى القصر وأخذ في جمع تحفه وحمل أمواله، وسار هو وأسامه بن منقذ الى الشام على طريق أيلة. فأرسلت عمة الفائز الى الفرنج بعسقلان رسلاً على البريد تعلمهم الحال وتبذل لهم الأموال في الخروج على عباس وأخذ ما معه، فخرجوا إليه وقتلوه، فتخاذل عنه اصحابه، ونهبوا ما معه فأسره الفرنج وحملوه الى عسقلان، ونجا أسامة الى دمشق.

وقيل إن الفرنج قتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً ففداه الصالح بن رزيك، واحضره الى القاهرة وضرب عنقه.

ذكر وزارة الصالح أبي الغارات طلائع بن رزيك

قال المؤرخ: لما توجه عباس نحو الشام وافق ذلك قدوم طلائع بن رزيك، فخرج الأمراء والعساكر إليه، فمن الأمراء من شهر سلاحه وقتلته، ومنهم من التحق به، ثم انجلى الأمر بعد ساعة عن دخول طلائع إلى القاهرة والعساكر بين يديه. وشق القاهرة وهو لابس السواد، وأعلامه سود كذلك حزناً على الظافر، وشعور نساء القصر التي سيرت إليه على الرماح.

ونزل طلائع دار المأمون التي كان بها نصر بن عباس، وأحضر الخادم الذي كان مع الظافر لما قتل وأعلمهم بمكانه، فأخرج وغسل وكفن، وحمل في تابوت على أعناق الأمراء والأستاذين، وابن رزيك يمشي أمام التابوت، وأتوا به الى القصر فصلى عليه ابنه الفائز ودفن في تربتهم

بالقصر، وجلس الفائز في بقية النهار، وخلع على ابن رزيك بالموشح والعقد، وعلى ولده واخوته وحاشيته، وقرىء سجله بالوزارة، ونعت بالملك الصالح. وقبض على جماعة من الأمراء وقتلهم، في ثالث عشر شهر ربيع الأول من السنة...

وفي سنة خمسين وخمسمائة خرج الأمير تميم، متولي أخميم وأسيوط، على الصالح، وجمع جمعاً صالحاً، فأخرج إليه الصالح عسكرياً، فالتقوا واقتتلوا، فقتل تميم في سابع عشر رجب.

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة انفسخت الهدنة بين الصالح بن رزيك والفرنج، فجهز الصالح الجيوش والسرايا الى بلاد الفرنج، فوصلت سرية الى عسقلان وغنمت وعادت سالمة، وجهز المراكب في البحر نحو بيروت، فأوقعت بمراكب الفرنج، وجهز سرية الى جهة الشوبك فعاثوا في تلك النواحي، وعادوا شالين بالغنائم والأسرى.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين قبض الصالح بن رزيك على الأمير ناصر الدولة ياقوت وأولاده واعتقلهم، وسبب ذلك أنه بلغه أنه كاتب أخت الظافر وقصد القيام على الصالح، وكان والياً عاملاً على الأعمال القوصية، وهو بالقاهرة. ولم يزل في حبسه إلى أن توفي في شهر رجب سنة ثلاث وخمسين.

وفي سنة أربع وخمسين ثار على الصالح طرخان بن سليط بن ظريف، متولى الإسكندرية، وجمع جموعاً من العربان وغيرها، وتقدم بها لحربه، فندب الصالح إليه الأمير عز الدين حسام بن فضة بعسكر، فالتقوا واقتتلوا، فهزم حسام جيوشه وظفر به، فاعتقله الصالح.

فلما كان في المحرم سنة خمس وخمسين ثار أخوه إسماعيل طلباً لثأره، وتلقب بالملك الهادي، فندب الصالح إليه الجيوش، فلما هجمت عليه

هرب وأتى الجيزة، واستتر عند بعض العربان، فلما كان في يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر هرب طرخان من الاعتقال هو والموكل به، فقبض عليه في السادس من الشهر وصلب على باب زويلة، ورمي بالنشاب، ثم مسك أخوه إسماعيل وصلب إلى جانبه بعد ضرب عنقه.

وفي سنة أربع وخمسين بنى الصالح حصنا من اللبن على مدينة بليس.

ذكر وفاة الفائز بنصر الله

كانت وفاته في ليلة الجمعة السابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وقيل لليلة بقيت منه، وكان مولده في يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين، فكان عمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر وأياما، ومدة ولايته ست سنين وخمسة أشهر وسبعة عشر يوما.

وزرائه: الأفضل عباس بن يحيى بن تميم، ثم الصالح طلائع بن رزيك.

قضاته: أبو المعالي مجلي بن نجا القرشي المخزومي، ثم صرف في أول وزارة الصالح، وأعيد أبو الفضائل يونس ثم صرف بالقاضي المفضل أبي القاسم هبة الله بن كامل.

ذكر بيعة العاضد لدين الله

هو أبو محمد عبد الله بن يوسف، بن الحافظ عبد المجيد، بن محمد، ابن المستنصر بالله أبي تميم معد، بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم علي، بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله نزار، بن المعز

لدين الله أبي تميم معد، بن المنصور بنصر الله أبي طاهر إسماعيل، بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد، بن المهدي عبيد الله، وهو الرابع عشر من ملوك الدولة العبيدية، والحادي عشر من ملوك الديار المصرية منهم، وعليه انقضت دولتهم، ببيع له بعد وفاة الفائز بنصر الله في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وكان الملك الصالح طلائع قصد ان يبايع لشخص من أقارب العاضد، فقال له بعض أصحابه لا يكن عباس أحزم منك حيث اختار صغيراً وترك من هو أسن منه، واستبد هو بالأمر، فعدل الصالح إلى العاضد، وبايع له وهو مراهق البلوغ، فكانت الخلافة للعاضد اسماً وللصالح رسماً.

ويوسف أبو العاضد هو أحد الأخوين اللذين قتلها عباس بعد قتل الظافر.

وفي سنة ست وخمسين تزوج العاضد لدين الله بابتة الملك الصالح ابن رزيك، وكان العاضد توقف عن زواجها، فجبره الصالح على ذلك واعتقله الى ان تزوجها، وقصد بذلك أن يرزق العاضد منها ولداً فتحصل الخلافة والملك لبني رزيك، فجاء بخلاف ما قصد.

ذكر مقتل الملك الصالح طلائع بن رزيك وقيام ولده الملك العادل رزيك

كان مقتله في السابع عشر من شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة، وذلك انه ركب في هذا اليوم من دار الوزارة الى القصر، وجلس على مرتبته على عادته، فلما انقضى المجلس خرج، فبينما هو في دهاليز القصر وثب عليه جماعة فضربوه بالسكاكين عدة ضربات مهلكة. وكان سبب ذلك انه تحكم بالدولة لخلوها من الأمراء وصغار

سن العاضد، وكان قد فرق الأمراء وقتل بعضهم، فبعثت ست القصور عمة العاضد الأموال الى بعض الأمراء وأغرثهم به، فرتبوا ذلك. قال: ولما ضرب بالسكاكين ألقى ابن الزبد نفسه عليه وقاتل دونه ودخل بقية الأمراء فخلصوه فركب وبه بعض رمق. فلما رأته ست القصور وقد ركب أيقنت بالهلاك. قال: ولما استقر في منزله أرسل الى العاضد يعاتبه على ما كان منه، فحلف وأنكر أن يكون اطلع على هذا الأمر قبل وقوعه فأرسل إليه أن يبعث إليه عمته ست القصور، فتوقف العاضد عن ذلك، فأرسل الصالح الى ست القصور وأخرجها، فلما جاءت الى منزله أمر بخنقها، فخنقت بين يديه حتى ماتت، ومات الصالح في بقية ليلته.

قال: وكان الصالح شديد التشيع متغالياً في مذهب الإمامية، وكان يكره أهل السنة، وقيل إنه كان يسب الصحابة، رضي الله عنهم، وغضب على من لا يتنقصهم، وكان فيه بخل وحسد، ومنع في أيامه من بيع الغلال حتى غلت الأسعار، وكان كثير التطلع إلى ما في أيدي الناس، وصادر جماعة ليس لهم تعلق بالدولة، وأفنى الأمراء قتلاً واعتقالاتاً، وهو أول من خطب بالملك في الديار المصرية.

وقال ابن الحباب في سيرته: إنه من ولد جبلة بن الأيهم الغساني، الذي ارتد عن الإسلام في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال المؤرخ: وكان والد الصالح يسمى أسد رزيك، قدم مع أمير الجيوش بدر الجمالي.

قال: وكان الصالح مع ذلك حازماً ضابطاً لأمر دولته شاعراً اديباً.

قال القاضي الأرشد عمارة اليمني: دخلت على الصالح قبل وفاته بليتين فناولني رقعة وقال: لقد عملت هذين البيتين في هذه الساعة، فإذا فيها:

نحنن في غفلة ونوم وللمو
ت عيون يقظانة لاتنام
قد رحلنا الى الحمام سنيناً
ليت شعري متى يكون الحمام

فقلت هما صالحان، وقمت، فكان آخر عهدي به.

قال المؤرخ: وكان الصالح يقطع الليل أثلاثاً: فالثلث الأول مع أمراء
دولته ووجوهها، والثلث الثاني مع جلسائه وندمائه وشعرائه، والثلث
الثالث مع خواص نسائه، فكان يسمى ابو العمرين قالوا: وكذلك كان
أمير الجيوش بدر الجمالي.

ومن شعر الصالح قوله:
يامريض القلب بالذنـ
ب، متى بالعفو تبرأ
كلما جددت يوماً
توبة ضيعت أخرى
تشتهي الأجر ولا تفـ
عل ما يكسب أجراً
أترى بعد ذهاب الـ
عمر تستأنف عمراً

وقوله:
ياما شياً فوق الثري
رفقاً، فسوف تصير تحتـه
إن قلت إني اعرف الـ
مولى القديراً، فما عرفته
إن كنت تعبد للمخـ
فة والرجاء، فما عبدته

والصالح هو الذي بنى الجامع خارج باب زويلة المعروف به. وكان يقول: ندمت على ثلاثة: احدها انني بنيت الجامع بظاهر القاهرة وجعلته عوناً على باب زويلة فيضرها وقت الحصار، والاخرى توليتي شاور أعمال الصعيد، والله لاكان خراب دولة بني رزيك إلا على يديه، والثالثة أنني أنفقت في العساكر مائتي ألف دينار لأجل فتح بيت المقدس فتأخرت عن ذلك.

قال: ولما توفي دفن بدار الوزارة، ثم نقل إلى تربته التي بقرافة مصر.

قال: ولما حضرته الوفاة أحضر ولده رزيك، وأوصاه بوصايا كثيرة من جملة ما أنه لا يعزل شاور، ولا يغير عليه مغيرا.

قال: ورثه الشعراء بقصائد كثيرة، فيها ما قاله القاضي الأرشد عمارة اليمني:

أفي أهل ذا النادي عليه أسأله
فإني لما بي، ذاهب العقل ذاهله
سمعت حديثاً أحسد الصم عنده
ويذهل وأعيه، ويخرس قائله

ومنها

وقدر ابني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوباً وما فيه كافله
وأني أرى فوق الوجوه كآبة
تدل على أن النفوس ثواكله
دعوني فما هذا أوان بكائه
سيأتيكم طل البكاء ووابله

وهي قصيدة طويلة أتى فيها بكل عجيب

قال: ولما مات الصالح خرجت الخلع من القصر لولده، وتلقب بالملك العادل مجد الإسلام

ذكر ظهور حسين بن نزار وقتله

وفي شهر رمضان سنة سبع وخمسين وخمسمائة ورد حسين بن نزار، بن المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله من بلاد المغرب، وقد جمع جمعا عظيما، وتلقب بالمنتصر بالله، فخرج إليه الأمير عز الدين حسام ابن فضة بن رزيك على صورة الإنضمام إليه واللاحق به.

فلما صار عنده في خيمته غدر به وقتله، وحمل رأسه الى العاضد لدين الله.

وفيهما بنى الأمير أبو الأشبال ضرغام البرج المعروف به بثغر الإسكندرية.

ذكر انقراض دولة بني رزيك

قد ذكرنا أن الملك الصالح بن رزيك، والد العادل، لما حضرته الوفاة أوصى ابنه العادل بوصايا كثيرة منها أنه لا يعزل شاور من عمله ولا يحركه، وحذره من ذلك فلما كان في سنة سبع وخمسين اجتمع أقارب العادل وحسنوا له عزل شاور عن ولاية الصعيد، فذكرهم بوصية أبيه، فأصروا على عزله، وكان أشدهم في ذلك الأمير عز الدين حسام بن فضة، فألزم العادل إلى أن كتب كتابا يستدعي فيه شاور، ويأمره بالحضور إلى القاهرة، فكتب إليه شاور يستعطفه، ويظهر الطاعة والإدلال لسابق الخدمة لأبيه، ومناصحته في القيام بأمر الدولة، ثم قال فيه: إن كان القصد أن يلي الأعمال أحدكم فليرسل السلطان من يتسلمها غير عز الدين حسان، وإن كان غيركم من الأمراء فأنا أحق به

من سواكم، وقد سمعتم وصية أبيكم الصالح في حقي وما كرهه في أمري وإقرار أعمال الصعيد في يدي، وأرسل الكتاب إلى العادل، فوقف عليه، وأوقف عليه أقاربه وأهله، فقالوا: إن أبقيته طمع في البلاد ولا يحمل إليك مالا، فقال العادل لهم: المصلحة تركه، فصمموا على عزله.

فأحضر العادل نصير الدين شيخ الدولة، وهو من أقاربه، وخلع عليه وولاه الأعمال القوصية، وكتب على يده إلى شاور بتسليم الأعمال إليه ووصوله إلى القاهرة، وتوجه نصير الدين، فلما وصل إلى إخميم أقام بها، وأرسل الكتاب إلى شاور طي كتابه، فلما وقف شاور على الكتاب أرسل إلى نصير الدين رسولا من جهته برسالة يقول له: إن بيني وبينك صحبة ولا تغتر بقول حسام، وارجع من حيث أتيت فهو خير لك، فرجع نصير الدين إلى القاهرة ولم يعاوده.

وأظهر شاور العصيان على الدولة، وأحضر جماعة من العربان من بني شيبان وغيرهم، وتوجه من الأعمال القوصية، وجعل طريقه على الواحات، وخرج منها إلى تروجه، وحشد العربان وأنفق فيهم الأموال، فوافقوه وانطاعوا له، فسار بهم نحو القاهرة. فندب العادل لحربه سيف الدين حسينا، صهره، ومعه جماعة من الأمراء، فراسلهم شاور واستمالهم، وبذل لهم الأموال الجمة، فمالوا إليه فلما التقوا انحازوا إلى جماعته وفارقوا مقدمهم، فانهزم حسين واستجار بظريف بن مكنون أمير جذام، وحمله في البحر، فمضى إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فمات هناك فندب إليه العادل عز الدين حساما، فانهزم منه أيضا.

فعند ذلك خرج العادل من القاهرة وتوجه إلى إطفيح، واستصحب أهله وذخائره، واستجار بسليمان بن الفيض اللخمي، وكان من أصحاب أبيه الصالح، فأنزله عنده، ومضى من وقته إلى شاور وأخبره بخبر العادل، فندب إليه جماعة فأخذوه أسيراً هو ومن معه، ونهب

أصحاب ابن الفيض ما كان معه، وحمل إلي شاور فوصل إليه في ليلة الجمعة لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فأمر شاور باعتقاله، وقال لسليمان بن الفيض: لقد خبأك الصالح ذخيرة لولده حين استجار بك فأسلمته لي، وأنا اخبئك ذخيرة لولدي، ثم أمر به فشنق، وسميت فرقة ابن الفيض غمازة من ذلك اليوم، فهي تعرف الآن بهذا الاسم، فكانت أيام العادل سنة واحدة وثلاثة أشهر وأياماً. وجميع دولة بني رزيك تسع سنين تقريباً.

ذكر وزارة شاور الأولى وخروجه منها

كانت وزارته في يوم الأحد لثمان بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وذلك أنه لما انهزمت جيوش العادل بن رزيك وهرب هو إلى إطفيح خلت القاهرة منهم، فدخلها شاور، وحضر بين يدي الخليفة العاضد لدين الله، فخلع عليه خلع الوزارة، وسلطنه، ولقبه بأمير الجيوش، وأطلق شاور لأهل القصور الإطلاقات الكثيرة، وزادهم على مقرراتهم في أيام بني رزيك، واستدعى أموال بني رزيك وودائعهم، وبسط العدل أياماً، ثم شرع في ظلم الناس، وبسط يده ويد أولاده في الدولة، وقطع أرزاق الأمراء والجند واستخف بهم وبالعاضد، وعتا ولده الكامل وتجبر، ولبس رداء الكبر، وبذخ في الأموال، وصرفها في غير وجوه مصارفها. وساءت سيرته في الأمراء فأجمعوا على إخراج العادل من الاعتقال ونصبه في الوزارة، فاتصل ذلك بالكامل بن شاور، فأشار على أبيه بقتل العادل، فامتنع عن ذلك وقال: إنه أولاني خيراً فلا أقتله، فقتله الكامل من غير إذن أبيه، فعظم ذلك على شاور وعلى الأمراء، وغضب الأمراء لقتل العادل، وخرجوا على شاور، وافترقوا على فرقتين: فكان الضرغام وإخوته وأهله على فرقة، والظهير عز الدين مرتفع وعين الزمان وابن الزبد فرقة.

وكان الضرغام ومن معه أظهر الفرقتين، فخرج على شاور وحاربه، فجمع شاور أمواله وذخائره وغلماؤه، وخرج ليلاً من القاهرة، فركب الضرغام في إثره فلحقه عند باب النصر، فقاتله طي بن شاور، فقتل طي، وأسر الكامل ومضى شاور إلى الشام، وذلك في صبيحة يوم الجمعة، لثلاث بقين من شهر رمضان من السنة، فكانت وزارته ثمانية أشهر وخمسة أيام. والله أعلم.

ذكر وزارة الضرغام بن سوار

قال: ولما توجه شاور إلى الشام عاد الضرغام إلى القصر، وأرسل إلى العاضد بما كان من أمر شاور، ومضى إلى داره بقية ليلته، وجاء إلى القصور من بكرة النهار، فاستدعاه العاضد لدين الله، وولاه الوزارة، ولقبه بالملك المنصور، واستخلف له الأمراء.

وأرسل علم الملك ابن النحاس إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، صاحب الشام، يقبض على شاور. فأظهر نور الدين الإجابة لذلك، وباطنه بخلاف ذلك.

قال: ولما ولي الضرغام الوزارة خرج عليه الأمير علي بن الخواص، فظفر به الضرغام، فأشهره بالقاهرة، وصلبه، وأحضر جماعة من الأمراء إلى داره لدعوة عملها، فلما حضروا قبض عليهم وقتلهم.

ذكر قدوم شاور من الشام وعوده إلى الوزارة ثانياً وقتل الضرغام

كان قدومه في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة. وذلك أنه لما توجه إلى دمشق اجتمع بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وحسن له أن يجهز معه جيشاً يفتح به مصر، ووصفها له ورغبه فيها،

والتزم أنه يحمل خزائنها إليه يستعين بها على قتال الفرنج، فمال إليه، وجهاز معه أسد الدين شيركوه بعساكر، فلما قاربوا مصر ندب إليهم الضرغام عسكرياً وقدم عليه أخاه ناصر المسلمين، فلقبهم على بليس فانهمز العسكر المصري وعاد إلى القاهرة.

وسار شاور والعساكر الشامية، فنزل بظاهر القاهرة في آخر الشهر، واجتمع معه خلق كثير من العربان، فعلم الضرغام أنه لا قبل له بما دهمه، فركب إلى القصر، وطاف به، وجعل ينادي العاضد، وهو يخاف أن ينزل إليه، فأرسل إليه العاضد يقول: أنج بنفسك، فخرج من القاهرة يريد مصر، ودخل شاور وشيركوه إلى القاهرة، وندب جماعة في إثر الضرغام فأدركوه عند مشهد السيدة نفيسة، فقتلوه هناك في يوم الجمعة، لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، وطيف برأسه القاهرة على رمح، وبقيت جثته ملقاة بين الآكام ثلاثة أيام حتى أكلتها الكلاب. ودفن ما بقي منه عند بركة الفيل، وعمل عليه قبة، فكانت مدة ملك الضرغام تسعة أشهر.

وكان فارساً بطلاً، كريماً، عاقلاً، أديباً، يحب العلماء ويقربهم، وله مجلس يجتمع فيه أهل العلم والأدب دون غيرهم. وكان حسن الخط، يقال إنه كان يحاكي ابن البواب في خطه.

قال: ودخل شاور إلى العاضد لدين الله في مستهل شهر رجب، فعاتبه على ما كان منه في إحضار العسكر الشامي، وحذره عاقبة ذلك، فوعده أنه يصرفهم إلى بلادهم، فقبل ذلك منه، وخلع عليه خلع الوزارة.

ذكر غدر شاور بشيركوه

قال: ولما انتصب شاور في الوزارة، وتم له ما أراد، أخذ في التدبير على العسكر الشامي، وحلف الأمراء، وتحاذل عن شيركوه، وصار يخرج إليه بوجه عليه آثار الغضب، ففهم أسد الدين شيركوه عنه، وعلم شاور

أنه لا قبل له بشيركوه، فاستعان بالفرنج واستدعاهم من الساحل لنصرته، ووعدهم بالأموال، واتصل ذلك بأسد الدين فحاصر القاهرة.

واتصل خبر شاور بالملك العادل نور الدين فكتب الى أسد الدين وأعلمه بما بلغه من مباطنة الفرنج، وأمره بالخروج عن الديار المصرية، فأبى ذلك وتوجه الى بلبس، واحتوى على بلاد الخوف، وجعل مدينة بلبس ظهره، فاجتمعت العساكر المصرية ومن أتاهم من الفرنج، ونازلوا أسد الدين، وحصلوه ببلبس ثلاثة أشهر، وهو ممتنع بها لم يبرز إليهم، فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر على الفرنج ان نور الدين ملك حارم وسار الى بانياس، فراسلوا شيركوه يسألونه الصلح، فأجابهم الى ذلك، وخرج من مدينة بلبس، فلما صار بظاهرها أشار شاور على ملك الفرنج بمهاجمته وقبضه فامتنع مري، ملك الفرنج، وأبى إلا الوفاء بيمينه لشيركوه.

وسار أسد الدين الى الشام، وعاد شاور الى القاهرة، ومعه طائفة من الفرنج يتقوى بهم، وكان قد بذل لهم على نصرته اربعمائة ألف دينار، ويهادنهم خمس سنين.

وكان دخول شاور إلى القاهرة لست مضين من ذي الحجة من السنة، واستمر بمصر من غير منازع، إلى سنة اثنتين وستين وخمسة.

ذكر عود أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية بالعساكر الشامية وانفصاله

قال المؤرخ: لما انفصل أسد الدين شيركوه عن الديار المصرية في سنة تسع وخمسين، بقي عنده منها أمر عظيم، وكان إذا خلا بنور الدين الشهيد يرغبه فيها، فجهزه بالعساكر والحشود، فسار من الشام في شهر

ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسة، فاتصل ذلك بشاور، فراسل الفرنج وانتصر بهم، فخرج الفرنج ووقفوا على الطريق التي يسلكها شيركوه إلى الديار المصرية، فعدل شيركوه عن تلك الطريق وجعلها عن يمينه، وسار حتى نزل إطفيح، في سادس شهر ربيع الآخر. وعبر النيل إلى الجانب الغربي، ونزل الجيزة. وأقام عليها إلى العشرين من جمادى الأولى. واستولى على الغربية وغيرها. فأرسل شاور إلى الفرنج يستحثهم، فأتوا على الصعب والدلول، وقد طمعوا في ملك الديار المصرية.

فلما تكاملوا بالقاهرة توجه أسد الدين شيركوه نحو الصعيد، وسار شاور والفرنج في آثارهم، فجمع أسد الدين الأمراء واستشارهم للعبور إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، فوافقوا على ذلك، فنهض شرف الدين بزغش، أحد الأمراء المماليك النورية، وكان شجاعا مقداما، وأنكر ذلك كل الإنكار، وامتنع من الموافقة، وقال: من خاف من الأسر أو القتل فلا يخدم الملوك ويأكل رزقهم، ويكون في بيته عند امرأته. وقال: والله لا نزال نقاتل إلى أن نقتل عن آخرنا أو نتصر. فوافقه أسد الدين، وجمع عسكره ورتبهم، وجعل أثقاله في القلب ليكثر بها السواد ولثلا ينهبها أهل البلاد.

فبينما هم في التعبئة إذا بشاور والفرنج قد أقبلوا، ورتبهم واقتتلوا، فكانت الهزيمة على شاور والفرنج وتوالت عليهم الحملات من العسكر الشامي، فتبادت بهم الهزيمة إلى الجيزة، وشيركوه في آثارهم، وقتل منهم خلق وغرق كثير منهم، وأسر أسد الدين صاحب قيسارية.

ودخل شاور والفرنج إلى القاهرة، وملك أسد الدين البر الغربي بكما له، وقصد الإسكندرية ليحاصرها، فلما قرب منها خرج إليه أهلها وسلموها إليه من غير ممانعة، وكان والي الثغر يوم ذاك نجم الدين بن مصال، فدخل شيركوه البلد، وأقام بها أياما قلائل، واستناب بها صلاح

الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين أيوب، وتركه بها ومعه ألف فارس. وتوجه هو إلى الصعيد فاستولى عليه، واستخرج أمواله، وصام شهر رمضان بمدينة قوص.

هذا وشاور يتجهز للخروج ويرتب أحواله وأحوال الفرنج ويرم ما تلف لهم، فلما تكامل ما يحتاج إليه قصد الإسكندرية، فأخرج أهلها الأموال وأنفقوها، واستعدوا للحصار، فكان في جملة ما أخرجوه للحصار أربعة وعشرون ألف قوس زنبورك وما يناسب ذلك من الآلات.

وسار شاور ومري ملك الفرنج، فنازلوا الإسكندرية، فلما رأوا شدة أهلها واجتماعهم على الحصار تقدم شاور إليهم وقال: سلموا إلي صلاح الدين ومن معه أضع عنكم المكوس، وأعطيكم الأخماس، فامتنعوا وقالوا: معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنج والإسماعيلية، فعند ذلك وقع الحصار واشتد على أهل الإسكندرية إلى أن قلت الأقوات.

وبلغ ذلك أسد الدين فसार من الصعيد وجد في السير إلى الإسكندرية، وكان شاور قد أفسد التركمان الذين مع أسد الدين فصاروا معه، واجتمع لشيركوه طائفة كبيرة من العربان، فلما علم شاور بقربه خافه وراسله في طلب الصلح، وبذل له خمسين ألف دينار، سوى ما أخذه من خراج البلاد، على أن يفارق الديار المصرية، فأجاب أسد الدين إلى ذلك، وشرط عليهم أن يرجع هو إلى الشام، ويرجع الفرنج إلى بلادهم. فاستقرت هذه القاعدة، وحلف الفرنج عليها.

ففتحت الإسكندرية عند ذلك، وخرج صلاح الدين يوسف إلى مري ملك الفرنج وجلس إلى جانبه، فدخل شاور عليهما، فقال لمري: سلمه إلي وأعطيك في كل سنة خمسين ألف دينار، فقال مري: نحن إذا حلفنا

لانغدر، ووبخه، وكان أسد الدين قد شرط على شاور أن الفرنج يرحلون ولا يلتمسون من البلاد درهماً ولا ضيعة ولا غير ذلك.

قال: وارتحل أسد الدين، ودخل مصر برضاء أهلها، وسار إلى بليس، وأرسل إلى ابن أخيه يوسف أن يتوجه في المراكب إلى عكا، هو ومن معه من العسكر، وما معه من الاثقال، ففعل ذلك، وركب من عكا إلى دمشق.

هكذا حكى ابن جلب راغب في تاريخه، قال: وارتحل أسد الدين من بليس في نصف شوال، ودخل شاور الإسكندرية، ثم خرج منها وعاد إلى القاهرة، فدخلها في مستهل ذي القعدة، وتلقاه العاضد لدين الله.

وأما الفرنج، فاستقر بينهم وبين شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة وتكون أبوابها بيد فرسانهم، ويكون لهم في كل سنة مائة ألف دينار.

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة خرج يحيى بن الخياط على شاور وطلب الوزارة، فندب شاور عسكرياً لحربه، فانهزم ومضى إلى بلاد الفرنج.

ذكر وصول الفرنج إلى القاهرة وحصارها وحريق مصر

قال المؤرخ: وفي سنة أربع وستين وخمسة عا د الفرنج إلى القاهرة، وذلك أنهم لما توجهوا في سنة اثنتين وستين رتبوا في القاهرة جماعة من أبطالهم وشجعانهم وفرسانهم ليحموها من عسكر يأتي إليها من الشام، فلما رأوا خلو مصر من الأجناد راسلوا ملكهم مري واستدعوه، وكان من الشجاعة والمكر على أمر عظيم، فامتنع وقال: الرأي ألا نقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تحمل إلينا نتقوى بها على قتال نور الدين، وإن قصدناها حمل أصحابها الخوف على تسليمها لنور الدين، وإن أخذها وجعل فيها مثل أسد الدين شيركوه فهو هلاك الفرنج وخروجهم من الشام، فلم يقبلوا رأيه، وقالوا: ما يصل عسكر نور الدين إلينا إلا وقد ملكناها، وغلبوا على رأيه.

فتجهز الفرنج وساروا حتى وصلوا إلى مدينة بليس ونازلوها، فوقع الإرجاف بمصر، وشرع شاور في إنشاء حصن على مصر واستعمل فيه الناس، فلم يبق أحد إلا وعمل فيه، وحفر خندقاً، وملك الفرنج بليس عنوة، وسبوا وقتلوا خلقاً كثيراً. وكان معهم بعض الأمراء المصريين ممن هرب من شاور، منهم يحيى بن الخياط.

ثم ساروا إلى القاهرة وأحاطوا بها، وذلك في العاشر من صفر، فخاف أهلها إن أهملوا القتال أن يحل بهم ما حل بأهل بليس، فجدوا في القتال والاحتراز.

قال: ولما قرب الفرنج من القاهرة أمر شاور بنهب مصر وإحراقها، فأحرقت في تاسع صفر، ونهبت، وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة، فانتقل بعضهم، وتحصن البعض بالجزيرة، وتوجه آخرون في المراكب إلى ثغري الإسكندرية ودمياط، وطائفة إلى الوجه القبلي، وتفرقوا وذهبت أموالهم، كل ذلك قبل نزول الفرنج على القاهرة بيوم

قال: وبقيت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً، إلى حادي عشر شهر ربيع الآخر.

قال: ولما علم العاضد لدين الله عجز أهل القاهرة عن مقاومة الفرنج أرسل إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي يستغيث به، وسير إليه شعور نسائه في طي الكتب.

وقيل إن شاور أرسل إلى نور الدين أيضاً.

وأرسل شاور إلى مري ملك الفرنج يذكره بسابق الصحبة والعهود القديمة، وقرر أن يحمل إليه ألف ألف دينار، فأجاب مري إلى ذلك وقال لأصحابه: نأخذ المال ونتقوى به ونمضي ثم نرجع فلا نبالي بعد ذلك بنور الدين، فاستوثق شاور منه بالآيمان وعجل له مائة ألف دينار، ومأطله بالبقية، وشرع يجمع له من أهل القاهرة المال، فلم يحصل له من جهتهم غير خمسة آلاف دينار لضعفهم.

هذا والرسل تتابع إلى الملك العادل ويستغيثون به، وقرر له ثلث الديار المصرية.

قال: ولما وصلت الكتب إليه طلب أسد الدين شيركوه من حمص، فسار منها إلى حلب في ليلة واحدة، فجهزه نور الدين وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والسلاح وغير ذلك، فاختر أسد الدين من العسكر ألفي فارس من الأقوياء، وستة آلاف من بقية العسكر، وأنفق نور الدين لكل فارس عشرين ديناراً، ثم سار شيركوه، فكان خروجه من دمشق في منتصف شهر ربيع الأول، وأردفه نور الدين بجماعة من الأمراء، منهم مملوكه عز الدين جرديك، وشرف الدين بزغش وعين

الدولة الياروقي. وناصر الدين خارتكين، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي ، وغيرهم، والله أعلم.

ذكر قدوم أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية ورحيل الفرنج عنها

قال: وقدم أسد الدين شيركوه بالعساكر، فكان وصوله إلى مصر في يوم الثلاثاء ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسة، ولما بلغ الفرنج قربه عادوا عن القاهرة إلى بلادهم، وكان رجوعهم في يوم السبت ثالث شهر ربيع الآخر، ومعهم من الأسرى اثنا عشر ألف نفس، ودخل أسد الدين القاهرة في سابع شهر ربيع الآخر، وخرج إليه العاضد لدين الله وتلقاه، وحضر يوم الجمعة التاسع من الشهر إلى الإيوان وجلس إلى جانب العاضد، وخلع عليه، وفرح الناس بقدومه. وعاد أهل مصر إليها، وشرعوا في إطفاء النيران وإصلاح ما تشعث، وكانت سقوف جامع عمرو بن العاص بمصر قد احترقت فجدده الملك الناصر صلاح الدين يوسف.

قال: وأمر العاضد أسد الدين شيركوه بالنزول على شاطئ النيل بالمقس، ورتب له شاور ولمن معه الإقامات الوافرة، وأظهر له وداً كثيراً، وصار يتردد إليه في كل يوم، فطلب أسد الدين من شاور ما لا ينفقه في عسكره، فمطله فسير إليه شيركوه الفقيه عيسى الهكاري يطالبه بالنفقة ويقول له: إن العسكر قد طال مقامهم وطالبوا بالنفقة وتغيرت قلوبهم عليك، وإني أخشى عليك منهم، فلم يكثر شاور بذلك، وشرع في الماطلة فيما كان قرره لنور الدين.

وعزم شاور على أن يصنع دعوة، ويحضر أسد الدين وجماعة الأمراء الذين معه إلى داره، ويقبض عليهم، ويستخدم من معه من الجند فيمتنع

بهم من الفرنج. فنهاه عن ذلك ولده الكامل، وحلف انه إن صمم على هذا الأمر عرف به شيركوه، فقال له أبوه: والله لئن لم تفعل هذا قتلنا عن آخرنا، فقال الكامل لأبيه: صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين الفرنج إلا أن يسمعوا أن أسد الدين قد قبض عليه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين ما أغاثه، ويملكون البلاد، فترك ما عزم عليه، واتصل ذلك بالعاضد فأعلم شيركوه.

ذكر مقتل شاور

كان مقتله في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر من السنة.

وذلك ان الأمراء النورية، لما رأوا مماطلته بالنفقة، وبلغهم أنه قد عمل على القبض عليهم اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك، وغيرهما، على قتله وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم عنه، واتفق أن شيركوه، خرج لزيارة قبر الإمام الشافعي هذا اليوم، وحضر شاور له على عادته، فقيل إنه توجه للزيارة، فقال: نتوجه إليه، فتوجه ومعه يوسف وجرديك وهما يسايرانه، فأنزلاه عن فرسه، وكتفاه، فهرب عنه أصحابه، فجعلوا في خيمة، وأحاط به جماعة ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فحضر من القصر جماعة من قبل العاضد، يستحث على قتله، وحضر أسد الدين إلى المخيم ورسل العاضد تتواتر لأسد الدين يأمره بقتله، فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد على رمح.

ومضى أولاه إلى القصور، واستجاروا بالعاضد، فقتلوا بعد العقوبة الشديدة، في يوم الاثنين لأربع خلون من جمادى الأولى منها، وهم: الكامل، والمعظم، وركن الإسلام، وتأسف شيركوه بعد ذلك على الكامل لأنه بلغه ما جرى بينه وبين أبيه.

قال: ولما قتل شاور استدعى العاضد أسد الدين شيركوه، فدخل إلى القاهرة في الساعة التي قتل فيها شاور، فرأى العوام وقد اجتمعوا، فهاله ذلك، فقال لهم: ان مولانا العاضد لدين الله أمير المؤمنين يأمركم أن تنهبوا دور شاور، فتفرق الناس عنه، ونهبوها. ودخل شيركوه إلى القصر، فتلقاء العاضد وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش. ولم تطل مدته في الوزارة حتى توفي إلى رحمة الله تعالى بعد خمسة وستين يوماً، وقام بالأمر بعده الملك الناصر صلاح الدين يوسف، على ما نذكره إن شاء الله في أخبار الدولة الأيوبية.

ذكر انقراض الدولة العبيدية

والخطبة للمستضىء بنور الله العباسي

كان انقراض هذه الدولة عند خلع العاضد لدين الله، وذلك في يوم الجمعة لسبع مضين من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة.

وكان سبب ذلك أن صلاح الدين يوسف لما ثبتت قدمه في ملك الديار المصرية واستمال الناس بالأموال، قتل مؤتمن الخلافة جوهرًا، زمام القصور، ونصب مكانه قراقوش الأسدي الخصي خادم عمه، ثم كانت وقعة السودان، فأفناهم بالقتل، على ما نذكره إن شاء الله مستوفى في أخباره، ثم أسقط من الأذان قولهم «حي على خير العمل»، وبطل مجلس الدعوة، وضعف أمر العاضد معه إلى الغاية فعند ذلك كتب الملك العادل نور الدين إلى الملك الناصر صلاح الدين يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه، والخطبة للخليفة المستضىء بنور الله، وكان المستضىء قد راسله في ذلك. فامتنع صلاح الدين، وكره إزالة هذه الدولة. فكتب إلى الملك العادل يعتذر، وقال: إن فعلنا هذا الأمر لئلا نؤمن من قيام أهل مصر علينا ليلهم إلى هذه الدولة، وكان قصد صلاح

الدين ان يتقوى بالعاخذ على نور الدين إن هو أراد الدخول إلى الديار المصرية.

فلما ورد جوابه على نور الدين بالاعتذار انزعج لذلك، ورادف رسله إليه يأمره بخلع العاخذ والقبض عليه.

فاستدعى الملك الناصر الأمراء واستشارهم في ذلك، فمنهم من حذره، ومنهم من هونه عليه، فأحضر الفقيه اليسع بن يحيى بن اليسع، وعرفه الحال، فلما كان في هذه الجمعة صعد إلى المنبر بجامع مصر قبل طلوع الخطيب، ودعا للمستضيء بنور الله، فلم ينكر عليه أحد، فلما كان في الجمعة الثانية أمر الملك الناصر الخطباء بمصر والقاهرة أن يخطبوا للمستضيء بنور الله أبي محمد الحسن، بن المستنجد بالله العباسي، فخطبوا له.

ثم توفي العاخذ لدين الله إثر هذا الخلع، في يوم عاشوراء من السنة، بعد ثلاثة أيام من خلعه، وكان ضعيفاً لما قطعت خطبته، فقال صلاح الدين: لاتعلموه، فإن عوفي أعلمناه، وإن توفي فلا نفجعه بهذه الحادثة.

وقال بعض المؤرخين: إن صلاح الدين لما قطع خطبته دخل عليه وقبض عليه واعتقله، فلما رأى ذلك كان في ذخائره فص في خاتم، فمصه، فمات لوقته، فكان صلاح الدين يقول: ندمت كوني دخلت على العاخذ وفعلت به ما فعلت، وكان أجله قد قرب.

ولما مات جلس الملك الناصر للعزاء به. فكانت مدة ولايته إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وتسعة عشر يوماً، مولده في يوم الثلاثاء لعشر بقين من المحرم سنة ست وأربعين وخمسمائة، فعمره على هذا إحدى وعشرون سنة إلا أحد عشر يوماً.

وكان له من الاولاد ثلاثة عشر، وهم: علي، وموسى، وعبد الكريم، وأبو الحجاج يوسف، وأبو الفتوح، وإبراهيم، وجعفر، ويحيى، وعبد القوي، وعبد الصمد، وأبو البشر، وعيسى، فاعتقلهم الملك الناصر بأجمعهم، واستمروا في الاعتقال إلى سنة اثنتين وستمئة، فكان من امرهم ما نذكره في أخبار الدولة الأيوبية.

ووزر له من ذكرنا أخبارهم، وهم: الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك، ثم ولده العادل رزيك، ثم شاور، ثم الضرغام، ثم عاد شاور، ثم أسد الدين شيركوه، ثم الملك الناصر صلاح الدين يوسف.

قضاته: أبو القاسم هبة الله بن الكامل، وأبو الفتوح عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي، ثم الأعز أبو محمد الحسن بن علي بن سلامة، ثم أعيد عبد الجبار، ثم أعيد ابن كامل، ثم صرف على أيام الملك الناصر بالقاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن درباس.

وكان العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، إذا رأى شيئاً استحل دمه.

جامع أخبار الدولة العبيدية ومدتها ومن ملك من ملوكها

كانت مدة تغلب ملوك هذه الدولة على البلاد منذ أخرج أبو عبد الله الشيعي عبد الله، المنعوت بالمهدي، من سجلماسة، ومن سجن اليسع بن مدرار إلى أن مات العاضد هذا مائتي سنة وسبعين سنة وشهوراً، منها ببلاد الغرب، منذ دخل عبيد الله المهدي رقاذه إلى أن وصل المعز لدين الله إلى القاهرة أربع وستون سنة وعشرة أشهر وخمسة وعشرون يوماً، وباقي هذه المدة بمصر والشام، إلى أن انقطعت دعوتهم بخروج عسقلان عن يد المسلمين واستيلاء الفرنج عليها، في جمادى

الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، في أيام الظافر بأعداء الله في وزارة عباس بن يحيى بن تميم.

وعدة من ملك منهم أربعة عشر ملكاً تسموا كلهم بالخلافة، وهم: عبيد الله المنعوت بالمهدي، ثم ابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد، ثم ابنه المنصور بنصر الله أبو الظاهر إسماعيل، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد، وهو أول من ملك الديار المصرية والبلاد الشامية منهم، وإليه تنسب القاهرة المعزية، ثم ابنه العزيز بالله أبو المنصور نزار، ثم ابنه الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور، ثم ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم، وقيل أبو الحسن، علي، ثم ابنه المستنصر بالله أبو تميم معد، ثم ابنه المستعلي بالله أبو القاسم أحمد، ثم ابنه الأمر بأحكام الله أبو علي المنصور، ثم ابن عمه الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن محمد ابن المستنصر بالله، ثم ابنه الظافر بأعداء الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ، ثم ابنه الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر، ثم ابن عمه العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، وعليه انقرضت دولتهم، وانتهت أيامهم، وباد ملكهم، فلم يعد إلى وقتنا هذا.

قال المؤرخ: ولما خلع العاضد ومات واعتقل الملك الناصر صلاح الدين يوسف أولاده بالقصور مر القاضي الأرشد عمارة اليميني الشاعر بالقصور، وهي مغلقة الأبواب، مهجورة الجناوب، خاوية على عروشها، خالية من أنيسها، فأنشأ قصيدته المشهورة التي رثى بها القصور وأهلها، وهي من عيون المراثي وأولها:

رميت ياد هركف المجد بالشلل

وجيده بعد حسن الحل بالعطل

سعت في منهج الرأي العثور، فإن

قدرت من عشرات الدهر فاستقل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل
سقيت مهلاً، أما تمشي على مهل
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة
على فجميعتنا في أكرم الدول
قدمت مصر فأولتني خلائها
من المكارم ما أرى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألف ومن
جماها أنها جاءت ولم أسئل

منها:

يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة
لك الملامة إن قصرت في عذلي
بالله زرساحة القصرين، وإبك معي
عليهما، لا على صفين والجم
وقل لأهلها: واللهم ما التحمت
فيكم جراحني، ولا قرحتي بمن دمل
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة
في نسـل آل أمير المؤمنين علي
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما
ملكتم بين حكم السبي والنفل
وقد حصلتكم عليها واسم جدكم
محمد، وأبيكم غير منتقل
مررت بالقصر، والأبواب خالية
من الوفود، وكانت قبلة القبل
فملت بوجهي خوف منتقد
من الأعادي، ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفي دمعي غداة خلت
رحابكم، وغدت مهجورة السبل

- ١٠٥٢٩ -

أبكى على مآثرات من مكارمكم
حال الزمان عليها، وهي لم تحل

وهي قصيدة مشهورة مطولة.

ولما انقرضت هذه الدولة قامت الدولة الأيوبية على ما نذكره إن شاء
الله تعالى في أخبار ملوكهم والله أعلم.

ذكر أخبار الدولة الأيوبية

وهي دولة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وأولاده، ودولة أخيه الملك العادل سيف الدين أبو بكر وأولاده، رحمهم الله تعالى.

ولنبداً بذكر نسب نجم الدين أيوب والد ملوك الدولة الأيوبية وابتداءً حاله وحال أخيه أسد الدين، وكيف تنقلت بهم الحال إلى أن ملك أسد الدين شيركوه الديار المصرية، وكيف انتقل الملك بعده إلى ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف. ثم نذكر أخبار من ملك من أولاده وأخيه الملك العادل وأولاده في حزمهم وسلمهم إلى حين انقراض دولتهم. وبالله التوفيق.

ذكر نسب الملك الأفضل نجم الدين

هو أبو سعيد أيوب بن شادي بن مروان. هذا هو المقطوع به الذي لانزاع فيه، ولاخلاف بين أحد من المؤرخين ونقلة أخبارهم.

وقال الملك الأجدد مجد الدين أبو محمد الحسن، ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المفاخر داود، ابن السلطان الملك المعظم شرف الدين أبي المظفر عيسى، ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد، ابن الملك الأفضل نجم الدين أبي سعيد أيوب، رحمهم الله تعالى، في كتابه المترجم بالفوائد الجلية في الفرائد الناصرية: سمعت من يقول: مروان بن محمد؛ وقال بعض الناس محمد بن يعقوب.

وقال شهاب الدين أبو شامة عبد الرحمن في كتابه المترجم بالروضتين في أخبار الدولتين سمعت من يقول: مروان بن يعقوب.

وقال الملك الأمجد: وقد اختُلف في نسبهم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ما قاله عز الدين علي بن الأثير الجزري أنّ نجم الدين أيوب من بلد دوين من أذربيجان، وأصله من الأكراد الرّواديّة: وهذا القبيل هم أشرف الأكراد.

قال الملك المجاهد: وهذا شيء يجري على السنة كثير من الناس، ولم أرَ أحداً ممن أدركه من مشايخ بيتنا يعترف بهذا النسب، لكنهم لا ينكرون أن نجم الدين كان بدوين.

قال: والمشهور عند بيتنا أنّ جدنا نزل على الأكراد وتزوَّج منهم، فصارت بيننا وبينهم خؤولة لا غير؛ ويدلّ على ذلك أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف لما ملك البلاد تقدم في دولته جماعة من الأكراد، فلم يبقَ أحدٌ منهم إلا جاء بنو عمه وأقاربه، حتى صار في عُصبة من أهله: والسلطان رحمه الله لم يأت إليه من يمت بقربة إلا من جهة النساء فقط؛ ولو كان من الرّواديّة لكان جميع القبيلة أولاد عمه، وإن لم يكن له ابن عم قريب فيكون ابن عم بعيد قطعاً لأن القبيلة كلّها أولاد رجل واحد، ولا شك أنّ الدّواعي تتوفر على الانتماء إلى الملك مالا تتوفر على الانتماء إلى الأمراء.

القول الثاني: أنهم من أولاد مروان بن محمد الأموي، آخر خلفاء الدولة الأموية.

قال الملك الأمجد: وهذا شيء ادّعاه الملك المعز فتح الدين أبو الفداء اسماعيل بن الملك العزيز ظهير الدين أبي الفوارس سيف الإسلام طغتكين بن أيوب باليمن، لما ملكه بعد أبيه، وتلقّب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين. وقال يحيى بن حميدة ابن أبي طي: قد

نقبت عن ذلك فأجمع الجماعة من بني أيوب على أنهم لا يعرفون جداً فوق شادي.

القول الثالث: ما ذكره حسن بن عمران الجرشي، فإنه جاء إلى الملك المعظم وعمل شجرة لنسب بني أيوب، فوصله بعلي بن أحمد المري، ممدوح أبي الطيب المتنبي الذي يقول فيه:
شرق الجؤب الغبار إذ سا
ر علي بن أحمد القمقام

وقال أيضاً في مدحه:
إنما ابن عوف بن سعيد
جمرات لا تشتهيه النعمام

ولم ينكر الملك المعظم عليه ذلك بل قبل منه.

قال: وهذا سرُّ النسب الذي عمّله الجرشي، وهو أيوب بن شادي ابن مروان بن أبي علي.

قال الملك الأجد: قلت: ويُحتمل أن يكون أبو علي هذا هو محمد المقدم ذكره—وأبو علي كنية له— ابن عنتر بن الحسن بن علي بن أحمد ابن أبي علي بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سفيان ابن عمرو بن مرة بن شبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وبقيّة النسب معروف، هذا ما قيل في نسبه. وأما ابتداء حاله:

ذكر ابتداء حال الملك الأفضل نجم الدين أيوب

وأخيه أسد الدين شيركوه

قال المؤرخ: قدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه من بلد دوين إلى العراق في خلافة المسترشد بالله، وخدموا مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد، فرأى من نجم الدين عقلاً ورأياً وحُسن سيرة، وكان أَسَنُّ من أخيه أسد الدين، فجعله مجاهد الدين دُزداراً بقلعة تكريت، وكانت له، فسار إليها ومعه أسد الدين.

وقيل بل كان نجم الدين قد خدم السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، فرأى منه أمانةً وعقلاً، وسداداً وشهامة، فولاه قلعة تكريت، فقام بها أحسن قيام، فلما ولي السلطان مسعود أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز، فأقرَّ نجم الدين في الولاية، وكان أتابك عماد الدين زنكي بن آق سنقر، والد السلطان الشهيد نور الدين لما انهزم من قراجا الساقى في سنة ست وعشرين وخمسائة، كما ذكرناه، بلغت به الهزيمة إلى تكريت، فقام نجم الدين بخدمته أتم قيام، وأقام له السفن إلى أن عَبَر دجلة، فكان سبب وُصْلته بالبيت الأتابكي وتقدمه.

قال: ثم اتفق بين أسد الدين وبين قوارص النصرائي، كاتب بهروز مشاجرةً في بعض الأيام، فكلمه النصرائي بكلمة أمضته، فضرب عنقه بيده، ورماه برجله فلما اتصل الخبر ببهروز، وحضر عنده مَنْ حذّره من جرأة شيركوه وتمكين نجم الدين واستحوازه على قلوب الرعايا، خاف عاقبة ذلك، وكتب بالإنكار عليه بسبب ماكان من أخيه، وعزّله. فسار نجم الدين أيوب وشيركوه إلى عماد الدين زنكي في الموصل، فلما وصلا إليه سُرَّ بهما وأحسن إليهما، فأقطعهما الإقطاعات الجليلة، وشهدا معه حُرُوب الكفار، وقتال الفرنج.

فلما ملك زنكي قلعة بعلبك، في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة جعل نجم الدين دُزداراً بها؛ فأقام بها إلى أن قُتل عماد الدين زنكي، في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وحاصر معين الدين أنر، صاحب دمشق قلعة بعلبك، حتى ضاق الأمر على نجم الدين، فاضطر إلى تسليمها إليه، وتعوّض عنها إقطاعاً وأملاكاً؛ وكان عنده من الأكابر الأمراء، واتصل أسد الدين شيركوه بخدمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، فجعله مقدماً على عسكره، وجعل له حمص والرحبة وغيرهما.

فلما تعلقّت همة تور الدين بمُلك دمشق أمر أسد الدين بمكاتبة أخيه نجم الدين أيوب في ذلك، فرأسله، فأعان نور الدين على فتح دمشق؛ فعظم محلّها عند نور الدين، فكان نجم الدين إذا دخل عليه جلس من غير أن يؤذّن له في الجلوس، ولم تكن هذه الرتبة لغيره من سائر الأمراء. فلما كان من أمر شاور ما قدّمناه، وقصد نور الدين محموداً واستغاث به، أرسل معه أسد الدين بالعساكر؛ وكان من أمره في المرة الأولى، في سنة تسع وخمسين وخمسمائة، والمرة الثانية، في سنة اثنتين وستين، والمرة الثالثة في سنة أربع وستين وخمسمائة ماقدّمنا ذكره في أخبار الدولة العبيدية في أيام العاضد لدين الله.

ذكر وزارة الملك المنصور أسد الدين شيركوه

بالديار المصرية ووفاته

كانت وزارته للعاضد لدين الله في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة.

وذلك أنه لما كان من أمر شاور ومقتله ما ذكرناه آنفاً استدعى العاضد لدين الله أسد الدين شيركوه، فدخل إلى القاهرة في الساعة التي قُتل

فيها شاور، فرأى من اجتماع العوام ما هالكة، فخاف على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين يأمركم بنهب دار شاور، فقصدوها الناس ونهبوها، وتفرقوا عنه، ولما نزل أسد الدين بدار شاور، وهي دار الوزارة، لم يجد فيها ما يجلس عليه.

قال: ولما تفرق الناس للنهب دخل أسد الدين على العاضد لدين الله، فتلقاه وخلع عليه خلع الوزارة، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، وكتب له تقليد الوزارة، وكتب عليه العاضد بخطه هذا: «عهد لم يعهد لوزير بمثله، وتقليد أمر رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله. والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرائشند سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتززت بخدمتك من النبوة؛ واتخذ الفوز سيلاً) ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعل الله عليكم كفيلاً» (النحل ٩١).

وخرج من عند العاضد وركب إلى دار الوزارة وسكنها، واستقل بالأمر، واستعمل على الأعمال من يثق به من كفأة أصحابه، وأقطع البلاد لعساكره، وأرسل إلى ديوان الإنشاء بالقصر يطلب من يكتب بين يديه، فأرسل إليه متولي الديوان القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني؛ وظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا الأمر لا يتم، وأن أسد الدين يقتل عن قريب كما قتل غيره، فأرسلوا إليه القاضي الفاضل وقالوا لعله يقتل معه. فكان من أمره ما كان.

ولم تطل مدة أسد الدين في الوزارة بل انقضت أيامه، وفاجأه حمامه، فتوفي في يوم السبت لثمان بقين من جمادى الآخرة من السنة.

واختلف في سبب وفاته، فقيل إنّه مات فجأة، وقيل بعلّة الخوانيق، وقيل بل سم، فكانت مدة وزارته خمساً وستين يوماً، وعمل عزاءه ثلاثة

- ١٠٥٣٦ -

أيام، وحمل إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصّلاة والسلام؛ ودُفن هناك برباط الوزير جمال الدّين وزير الموصل.

ولمّا مات أسد الدّين شيركوه استقرّ في الوزارة بعده الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف بن أيوب.

ذكر أخبار الملك الناصر صلاح الدين يوسف

ابن الملك الأفضل نجم الدين أيوب ووزارته بالديار المصرية

كانت وزارته بالديار المصرية عقب وفاة عمّه الملك المنصور أسد الدين شيركوه، وقد تطاول جماعة من الأمراء النورية للوزارة؛ منهم عين الدولة اليازوقي، وقطب الدين قايماز، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين؛ وخطبها كل منهم لنفسه، فأشار جماعة من المصريين وخواص العاضد لدين الله على العاضد أن يولي صلاح الدين وقالوا: إنه أصغر الجماعة سنًا، ولا يخرج من تحت أمر أمير المؤمنين، فإذا استقرّ وضعنا على العساكر من يستميلهم إلينا، فيبقى عندنا من الجند من نتقوى به، ثم نأخذ يوسف بعد ذلك أو نخرجه فإن أمره أسهل من غيره، فاستدعاه الملك العاضد لدين الله، وخلع عليه خلع الوزارة. ولقبه بالملك الناصر، فلم يطعه أحد من الأمراء الذين كانوا تطاولوا للوزارة ولاخدموه.

وكان الفقيه عيسى الهكاري معه، فسعى مع الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب حتى استماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع اليازوقي والحارمي وغيرهما، ثم اجتمع بالحارمي وقال له مثل ذلك، وقال له: إن صلاح الدين ولد أختك، وعزه وملكه لك، وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من سعى في إخراج الأمر عنه. واجتمع بالأمراء واستمالهم، فأطاعه بعضهم وعصى بعضهم.

فأما اليازوقي فإنه قال: لا أخدم يوسف أبدًا، وعاد إلى الملك العادل نور الدين هو وجماعة من الأمراء، وصار صلاح الدين نائباً عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين ولايكاتبه إلا «الأمير الاسفهلار

صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية. يفعلون كذا وكذا». ويضع علامته في الكتُب، عظمة أن يكتب اسمه.

ولما وزر صلاح الدين ثبت قدمه، واستمال قلوب الناس بالأموال فمالوا إليه فقوي أمره، وضعف أمر العاصد.

ذكر مقتل مؤتمن الخلافة جوهر، زمام القصور

وانتقال وظيفته إلى قراقوش الأسدي

وحرب السودان

كان مقتل مؤتمن الخلافة في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة، من سنة أربع وستين وخمسةائة.

وسبب ذلك أن الملك الناصر شرع في نقض إقطاع المصريين، فاتفق هذا الخادم مع جماعة من الأمراء المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى الديار المصرية، والأعتضاد بهم على صلاح الدين ومن معه؛ وأرسل الكتب مع إنسان، فجعلها في نعل ولبسه، وسار على أنه فقير رث الهيئة، فلما وصل إلى البيضاء وجده تركماني، فأنكر حاله إذ هو رث الهيئة جديد المداس، فأخذ مداسه وفتقه، فوجد الكتب فيه، فحمله بها إلى الملك الناصر، فوقف عليها، وكنم الأمر، وقرّر الرجل بالعقوبة، فأقر أن الكتب بخط رجل يهودي، فاستحضره، فأقر بها، ثم قتل صلاح الدين القاصد، واستشعر مؤتمن الخلافة من الملك الناصر، فلزم القصور واحترز على نفسه، فكان لا يخرج منها. فلما طال ذلك عليه خرج في هذا اليوم لقصر له بالخرقانية، فأرسل إليه الملك الناصر جماعة فقتلوه، وأتوه برأسه، فرتّب حينئذ على أزمنة القصور قراقوش الخصي، وكان من ممالك عمه أسد الدين ليطالعه بها يتجدد بالقصور.

قال: ولما قتل مؤتمن الخلافة ثار السّودان لذلك وأخذتهم الحميّة، وعظّم عليهم قتله، لأنّه كان رأسهم ورئيسهم، فحشدوا واجتمعوا، فزادت عدّتهم على خمسين ألف عبد؛ وكانوا أشد على الوزراء من العسكر، فندب الملك الناصر العسكر لقتالهم، وقدم على العسكر أبا الهيجاء السّمين؛ فالتقوا بين القصرين واقتتلوا، فقتل من الفريقين جمع كثير، فلمّا رأى الملك الناصر قوتهم وشدة بأسهم أرسل إلى محلّتهم المعروفة بالمنصورة، خارج باب زويلة، فأحرقها؛ فاتصل ذلك بهم، فضعفت نفوسهم، فانهزموا إلى محلّتهم فوجدوا النيران تُضرم فيها. واتبعهم العسكر فمنعهم من إطفائها، ودام [القتال] بينهم أربعة أيّام، نهاراً وليلاً، إلى يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة؛ فخرجوا بأجمعهم إلى الجيزة وقد أيقنوا بالهلاك، وخرج إليهم تورانشاه أخو الملك الناصر فقتلهم، ولم ينجُ منهم إلا اليسير، وكتب الملك الناصر إلى ولاة البلاد بقتل من يجدونه منهم، فقتلوا من عند آخرهم.

وبقي الملك الناصر يخشى من أهل القصر لما فعله بمؤتمن الخلافة جوهر، فكان جوهر هذا سبب زوال مُلك الدولة العبّيدية، وجوهر القائد سبب مُلك المعز للبلاد؛ فشّتان بين الجوهرين.

ذكر الحوادث في الأيام الناصريّة غير الفتوحات والغزوات

لم نقدّم هذه الحوادث التي نذكرها الآن على الغزوات والفتوحات إلاّ أنّها سابقة على ذلك في التاريخ، ولأنّا أردنا أن نُفرد غزواته وفتوحاته ليأتي الكلام عليها سياقاً يتلو بعضه بعضاً، ولا يقطع بغيره، فكان ممّا نذكره:

ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدين أيوب

والد الملك الناصر إلى الدنيا والمصرية

كان الملك الناصر قد كتب في طلب والده، رحمهما الله تعالى، فوصل بأولاده وأهله إلى القاهرة في السابع والعشرين من شهر رجب سنة خمس وستين وخمسمائة؛ ولما وصل تلقاه الخليفة العاضد لدين الله بظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهليلج، ولم تجر بمثل ذلك عادة، فكان يوماً مشهوداً، وخلع العاضد عليه، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من أنواع التحف والألطف شيئاً كثيراً؛ وأقطعه الإسكندرية ودمياط والبحيرة، وأقطع ولده شمس الدولة، أخا الناصر، قوص وأسوان وعيذاب، وكانت عبرتها يوم ذاك مائتي ألف وستة وستين ألف دينار.

ذكر إبطال الأذان بحي على خير العمل

قال المؤرخ: ولعشر مضيئ من ذي الحجة سنة خمس وستين وخمسمائة أمر الملك الناصر أن يسقط من الأذان قولهم «حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر». وكانت أول وصمة دخلت على الشيعة والدولة العبيدية؛ ويئسوا بعدها من خير يصل إليهم من الملك الناصر، ثم أمر أن يُذكر في الخطبة بكلام مُجمل، وليُلبس على الشيعة والعامة: اللهم أصلح العاضد لدينك.

ذكر ما أنشأه الملك الناصر صلاح الدين بالقاهرة ومصر

من المدارس والخوانق

قال المؤرخ: وفي أول سنة ست وستين وخمسمائة أمر الملك الناصر

بهذه دار المعونة المجاورة للجامع العتيق بمصر، ودار المعونة هي المكان الذي يعتقل فيه الناس، وأمر بنائها مدرسة لطائفة الفقهاء الشافعية، وتعرف هذه المدرسة بابن زين التجار. وإنما عرفت به لأنه درس بها.

ثم عمر دار العزل المجاورة لباب الجامع المعروف بباب الزكخته مدرسة للطائفة المالكية، ودرس فيها ابن أبي المنصور.

وفيهما اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه، ابن أخي صلاح الدين، الدار المعروفة بمنازل العز بمصر، وبنها مدرسة للطائفة الشافعية.

وكانت هذه الدار يسكنها الأمير ناصر الدولة ابن حمدان في الأيام المستنصرية؛ وقد تقدم ذكر ذلك.

ثم أمر الملك الناصر ببناء مدرسة الشافعي والبيهارستان، وعمر الخانقاه المعروفة بسعيد السعداء على ما يأتي ذكر ذلك.

وفي هذه السنة أيضاً أبطل الملك الناصر مجلس الدعوة من الجامع الأزهر وغيره، وكان من سنة الدولة العبيدية أن يقيموا لهم دُعاة كالمخطباء، والله أعلم.

ذكر تفويض القضاء بالديار المصرية

للقاضي صدر الدين بن درباس

وفي سنة ست وستين وخمسة في ثامن عشري جمادى الآخرة فوض السلطان الملك الناصر القضاء بالديار المصرية الى صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس المارداني ، فاستمر إلى آخر الايام الناصرية.

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة، في سابع المحرم قُطعت خُطبة العاضد لدين الله، ومات في يوم عاشوراء كما قدّمناه.

وفيهما في الثالث عشر من جمادى الأولى كُشِفَ حَاصِلُ الخزائن بالقصور، فوجد فيها مايزيد على مائة صندوق، ومن الذخائر النفيسة ما لا يزيد عليه.

وفيهما في صفر أمرَ الملك الناصر بإبطال المكوس بالقاهرة والأعمال عن التجار المتردّين إليها وإلى ساحل المقسم صادراً ووارداً، فكان مبلغ ذلك مائة ألف دينار عينا.

وفيهما رُسم بتحويل سنة خمس وستين الخراجية إلى سنة سبع وستين الهلالية، وكانت قد حُوّلت في سنة خمسمائة في أيام الأفضل أمير الجيوش.

ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب

كانت وفاته رحمه الله تعالى في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة، وذلك أنّه ركب من داره، فلمّا انتهى إلى باب القصر في وسط المحجة شَبَّ به فرسه فسقط عنه، فحُمِلَ إلى منزله، فعاش ثمانية أيام ومات فُدُنَ إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في الدار السلطانية، ثم نُقِلَا إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة وأتمّ السلام، وقُبرا في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل رحمه الله.

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أمرَ الملك الناصر ببيع الكتب التي بخزانة القصر، فكانت أكثر من مائة ألف كتاب من سائر المصنفات، فأبيعت بأخس الأثمان.

ذكر عمارة قلعة الجبل والصور

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أيضاً أمر الملك الناصر بعمارة قلعة الجبل والصور الكدائر على القاهرة ومصر، وجعل مبدأه من شاطئ النيل إلى شاطئه . فكان دَوْرُ السور على القاهرة والقلعة تسعة وعشرين ألف ذراع، وثلاثمائة ذراع وذراعين، من ذلك ما بين قلعة المقسم والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع؛ ومن القلعة بالمقسم إلى حائط قلعة الجبل ثمانية آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع واثنان وتسعون ذراعاً؛ ومن حائط قلعة الجبل إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر قلعة الجبل ثلاثة آلاف ومائتا ذراع وعشرة أذرع، كل ذلك بالذراع الهاشمي. وتولى عمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، وحفر في رأس الجبل بئراً يتوصل إلى مائها المعين من دَرَج منحوتة من الجبل؛ وتوفي الملك الناصر قبل أن تكمل عمارته.

وفيهما أمر ببناء المدرسة عند تربة الإمام الشافعي رحمه الله، وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني.

وأمر بالتخاذ دار في القصر ببيمارستاناً للمرضى، ووقفَ على ذلك وقوفاً، وهذا البيمارستان يُسمَّى في وقتنا هذا البيمارستان العتيق.

وفيهما أسقط مكوس مَكَّة، شَرَّفها الله تعالى، المقررة، على الحاج وعوض أميرها عن ذلك في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحاً تُحمل إلى ساحل جدة، وعيَّنَ لذلك ضياعاً بالديار المصرية وقرّر أيضاً حَمْلَ غَلَاتٍ إلى المجاورين بالحرمين الشريفين والفقراء؛ فقال الشيخ أبو الحسين محمد بن جبير الأندلسي في ذلك قصيدة يمدح بها الملك الناصر:
رَفَعْتَ مَكَّارَ مَكِّيِّ الْحِجَازِ
بِإِنْعَامِكَ الشَّامِلِ الْغَامِرِ

وَأَمْنَتْ أَكْنَافَ تِلْكَ الْبِلَادِ
فَهِيَ السَّيْلُ عَلَى الْعَابِرِ
وَسُمَّتْ أَيْادِيكَ فَيَاضَةً
عَلَى وَارِدٍ وَعَلَى صَادِرٍ
فَكُنْ لَكَ بِالشَّرْقِ مِنْ حَامِدٍ
وَكُنْ لَكَ بِالْغَرْبِ مِنْ شَاكِرٍ

ذكر قتل جماعةٍ من المصريين

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة أيضاً، في ثاني شهر رمضان صُلب جماعة ممن أراد الوثوب بمصر من أصحاب الخلفاء العبيديين، وسبب ذلك أن جماعة من شيعتهم، منهم عمارة اليمني الشاعر، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي الأعز سلامة المعروف بالعويرس، والقاضي ضياء الدين نصر بن عبد الله بن كامل، وداعي الدعاة، وغيرهم من جند العبيديين ورجال السودان وحاشية القصر ومن وافقهم من الأمراء الصلاحية والجند، اتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من جزيرة صقلية، ومن سواحل الشام إلى الديار المصرية على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد، وقرروا أن الملك الناصر إذا خرج إليهم بنفسه ثار هؤلاء بالقاهرة ومصر وأعادوا الدولة العبيدية، العلوية بزعمهم، ويعود من معه من العساكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام بالبلاد. وإن أقام هو وأرسل العساكر إليهم ثاروا به فأخذوه باليد. وقال لهم عمارة: وأنا فقد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسدّه. وتجمع الكلمة عليه بعده. وأرسل إلى الفرنج وتقررت هذه القاعدة بينهم.

قال: وكان ممن أدخلوه معهم في هذا الأمر زين الدين علي بن نجا الواعظ، وهو القاضي ابن نجية، ثم اختلفوا في وزارة الخليفة: فقال بنو رؤيك: يكون الوزير منا. والقاضي. وقال بنو شاور: بل يكون الوزير منا

فحضر ابنُ نجا إلى الملك الناصر وأَعْلَمَه بِصُورَةِ الحال، فأمره بِمُبايَئَتِهِمْ وموافقَتِهِمْ، ومطالعتِهِ بِأَحْوالِهِمْ ففعل ذلك.

ثم وصل رسولٌ من مَلِكِ الفرنج إلى الملك الناصر بهدايا، وهو في الظاهر له، وفي الباطن لهؤلاء، فوضع الملكُ الناصر عليه من النَّصارى من داخله وباطنه؛ فذكر له الحال على جليته، فأعلم به الملك الناصر، فلما تحقَّقه قبض على هؤلاء وصَلَبَهُمْ، فكان ممن صلب عمارة اليميني، وعبد الصِّمد الكاتب، والقاضي الأعز العويرس، وغيرهم.

وجاء عمارة إلى باب القاضي الفاضل لما مُسِكَ فاحتجب عنه، فقال
عمارة:

عبد الرَّحِيمِ قَدْ احتَجَبَ
إِنَّ الخَلاصَ مِنَ العَجَبِ

وثُودِي في أَجنادِ المِصرِيِّينَ بِالرَّحِيلِ من ديار مصر ومفارقتها إلى أَقاصِي الصَّعِيدِ، واحتاط الملكُ الناصر على مَنْ بالقصر من سُلالةِ العاصِدِ وأهلِهِ. وأَمَّا مَنْ كان قد وَاَفَقَهُمْ من أَصحابِهِ فلم يَخاطِبُهُمْ في ذلك ولا أَوْهَمُهُمْ أَنَّهُ عَلِمَ بِهِ. وبَلَغَ ذلكَ فرنج الساحل فلم يَتَحَرَّكُوا من أَمَاكِنِهِمْ، وأما فرنج صَقَلِيَّةَ فَإِنَّهُمْ قَصَدُوا ثَغَرَ الإسْكَندَرِيَّةِ على ما نَذَرَهُ.

وفي سنة سبعين وخمسمائة، في أوائلها، خالف الكنزُ، أمير العرب، على الملك الناصر بصعيد مصر، واجتمع معه جماعة كبيرة من رعايا البلاد والعُربان والسُّودان وغيرهم، وَقَتَلَ أَخَا الأَمِيرِ أَبِي الهِجاء السَّمينَ، وكان قد تَوَجَّهَ لِإِقْطاعِهِ بالصَّعِيدِ. فعَظُمَ قَتْلُهُ على أَخِيهِ، وكان من أَكابرِ الأُمراءِ النَّاصِرِيَّةِ، فَسَارَ إلى قِتالِ الكنزِ. وَنَدَبَ معه الملكُ الناصر جماعة من الأُمراءِ والعِسكرِ، فوصلُوا إلى مَدِينَةِ طُودٍ، وهي على مَسافَةِ يومٍ من مَدِينَةِ قَوْصٍ إلى جِهَةِ الصَّعِيدِ، فامْتَنَعَ مَنْ بها عَلَيْهِمْ، فَقَاتَلُوهُمْ وظَفَرُوا بِهِمْ وَقَتَلُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ، وأَخْرَبُوا البَلَدَ، فَهِيَ إلى وَقْتِنَا هَذَا تُعْرَفُ بِطُودٍ

ذكر ما استولى عليه الملك الناصر من البلاد الإسلامية

بنفسه وأتباعه

كان من البلاد التي حُطِب بها للملك الناصر صلاح الدين يوسف طرابلس الغرب، وبعض بلاد إفريقية، منها مدينة قابس.

وسبب ذلك أن شرف الدين قراقوش مملوك تقي الدين عمر، ابن أخي الملك الناصر، توجه في سنة ثمان وستين وخمسمائة في طائفة من الأتراك إلى جبال نفوسة^(٢١)، واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بالبلاط، وهو من أعيان أمراء تلك الناحية، وكان خارجاً عن طاعة [ابن] عبد المؤمن. فاتفقا وكثرا جمعهما، ونزلاً على طرابلس الغرب، فحاصرها مدةً وضيقاً على أهلها، ثم فتحها، فاستولى قراقوش عليها، وأسكن أهلها بقصرها، ثم ملك كثيراً من بلاد إفريقية إلا المهديّة وسفاقس، وقفصة، وتونس، وما والاها من القرى والمواضع. وكثر جمع قراقوش، فحكم على تلك البلاد، وجمع أموالاً عظيمة وجعلها بمدينة قابس، وقويت نفسه، وطمع أنه يستولى على جميع إفريقية لبعد ابن عبد المؤمن عنها واشتغاله بجهاد الفرنج، ثم جاء بوزابه مملوك تقي الدين أيضاً، بطائفة من الترك فزاد بهم قوة إلى قوته، ثم اجتمع الأتراك وعلي ابن إسحاق الملقب [المعروف بابن غانية] وملكوا بجاية في سنة ثمانين، وانقادوا إلى الملقب واستعانوا به، لأنه من بيت المملكة والرئاسة القديمة، ولقبوه بأمر المسلمين؛ وقصدوا بلاد إفريقية فملكوها شرقاً وغرباً إلا تونس والمهديّة، فإن الموحدين حفظوها.

ولما حصل استيلاؤهم على بلاد إفريقية قُطعت خطبة أولاد عبد المؤمن وحُطِب للناصر لدين الله العباسي؛ وقصدوا مدينة قفصة فتسلموها في سنة اثنتين وثمانين؛ وأقام بها طائفة من الملقبين والأتراك.

الخراب، وغيطائها عامرة، ثم سار العسكر منها إلى الكنز، فقاتلوه، فقتل هو ومن معه من الأعراب، وأمنت البلاد واستقر أهلها.

وفي سنة سبع وسبعين وخسمائة ظهر بالديار المصرية فأرّ كثير جداً. قال القاضي الفاضل عبد الرحيم: حدثني من شاهد هذا الفار وهو يرحل من بقعة إلى أخرى فيغطي الأرض بكمالها حتى لا يظهر منها شيء البتة وأنه شاهده يمرّ بأمكن فلا يلتم بها ولا يخرج عليها والزروع بها محصورة. ويمرّ بأخرى فلا يلبث أن يفسد جميع ما فيها ولا يرتحل عنها وبها شيء من الزرع ولا المقات بالجملة.

وفي سنة تسع وسبعين وخسمائة ظهر بأبوصير السدر (٢٢) من أعمال الجيزة بيت أشاع الناس أنه بيت هرمس، ففتح بحضور القاضي نظام الدين بن الشهرزوري، وأخرج منه أشياء من جملتها صور كباش وضفادع بأزهر، وقوارير دهنج، وفلوس من فضة ونحاس، وأصنام نحاس وياقوت، وغير ذلك من الذهب والفضة والتحف القديمة، ووجد فيه خلق كثير من الأموات.

وفي سنة ثمانين وخمسمائة في يوم الاثنين مستهل المحرم درس في المدرسة الفاضلية التي أنشأها القاضي الفاضل عبد الرحيم بالقاهرة بدرب ملوخيا؛ ورتب فيها لإقراء كتاب الله تعالى الشيخ الإمام العالم الزككي أبي محمد القاسم بن فيره الرعيني الشاطبي؛ وفي التدريس على مذهبي الشافعي ومالك الفقيه أبو القاسم عبد الرحيم بن سلامة الإسكندري، رحمهما الله تعالى.

وحيث ذكرنا هذه النبذة من الحوادث التي اتفقت في خلال دولته، فلنذكر ما استولى عليه من البلاد الإسلامية.

فلما اتصلت هذه الأخبار بالأمير يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن اختار من عسكره عشرين ألف فارس من الموحدين، وسار بهم في صفر سنة ثلاث وثمانين، فوصل إلى مدينة تونس، وأرسل ستة آلاف مع ابن أخيه، فساروا إلى المثلث والأتراك بقفصة، فهزمهم المثلث ومن معه في شهر ربيع الأول من السنة، فجاء يعقوب بن يوسف بمن معه في نصف شهر رجب منها، والتقوا على مدينة قابس، فانهزم الأتراك والمثلث، وقتل كثير منهم، وفتح يعقوب قابس، وأخذ أموال قراقوش وأهله وحملهم إلى مراكش. وحصر مدينة قفصة ثلاثة أشهر وبها الترك، فطلبوا الأمان لهم ولأهل البلد، فأمنهم وسير الأتراك إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم.

هذا ما اتفق لهذه الطائفة، وإن كانت هذه الفتوحات لا تختص كلها بالدولة الأيوبية، إلا أنهم كانوا سبباً، وهم الذين استولوا على البلاد كما ذكرنا فأوردناها في أخبارهم.

ذكر استيلائه على اليمن

وفي سنة تسع وستين وخسمائة جهّز الملك الناصر أخاه الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه إلى اليمن، فسار في مستهل شهر رجب، وكان عمارة اليمني الشاعر يذكر له البلاد ويحسنها له ويحثه على قصدتها. ويعظم مملكته، فسار ووصل إلى مكة شرفها الله تعالى، ومنها إلى زبيد وبها صاحبها عبد النبي المتغلب عليها، فلما قرب منها ورأى أهلها انهزموا، فوصل المصريون إلى سور زبيد فلم يجدوا عليه من يمانع عنه، فنصبوا السلاليم وصعدوا عليها إلى السور فملكوا البلد عنوة ونهبوه، وأسر المتغلب عليها عبد النبي وزوجته المدعوة بالحرّة، وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة، وسلم شمس الدولة عبد النبي إلى سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وهو من أمرائه، وأمره أن يستخرج منه

الأموال، فاستخرج منه شيئاً كثيراً وأظهر دفائن كانت له، ودلتهم الحرة على ودائع لها كثيرة . ثم أصلح أمر يزيد وخطب بها للناصر لدين الله .

ثم سار إلى ثغر عدن، وهي فُرْضة الهند والزنج والحبشة وعُمان وكرمان وكش وفارس وغير ذلك؛ وهي من جهة البر من أمنع البلاد واحصنها. وصاحبها يومئذ رجل اسمه ناشر، فخرج إليه وقاتله، فانهزم هو ومن معه؛ فسبقه بعض عسكر الدولة فدخلوا البلد قبل أهله وملكوه، وأسر صاحبه، وقصد العسكر نهب البلد، فمنعهم شمس الدولة، وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها ونتفع بها ، ثم عاد إلى يزيد وحصر ما في الجبل من الحصون فملك قلعة تعز واسمها الدّمولة، وهي من أحصن القلاع، وبها تكون خزائن صاحب اليمن، ومَلَك غيرها من الحصون والمعقل، واستناب بثغر عدن عز الدين عثمان الزنجيلي، وبزيد سيف الدين مبارك بن كامل بن منقذ، وجعل في كل حصن نائباً من أصحابه.

وأحسن شمس الدولة إلى أهل البلاد؛ وعادت يزيد إلى أحسن ما كانت عليه من العمارة والأمن. ثم عاد شمس الدولة من اليمن، وقدم إلى دمشق بعد أن ملكها الملك الناصر، فوصل إليها في سنة إحدى وسبعين وخمسة.

ذكر ملكه مدينة دمشق

قال المؤرخ: لما توفي الملك العادل نور الدين الشهيد محمود بن زنكي رحمه الله، كما قدّمناه في أخباره، وولي بعده ولده الملك الصالح اسماعيل، أقرّ الملك الناصر الخطبة باسمه بعد أبيه، ولم يخطب لنفسه، ثم اتفق ما ذكرناه من نُقْلة الملك الصالح من دمشق إلى حلب، ولم يُستأذن الملك الناصر في ذلك ولا كتب له فيه ؛ فسار من الديار المصرية إلى الشام في شهر ربيع الأول سنة سبعين وخمسة، ووصل إلى دمشق في يوم الاثنين

سلخ الشهر — وقال ابن شدّاد في سلخ شهر ربيع الآخر — وتسلم دمشق من الأمير شمس الدّين ابن المقدّم ونزل بدار العقيقي، وكانت سكن أبيه، وأحسن إلى الأمراء وأكرمهم، وأظهر أنه إنما حضر إلى الشام نُصرة للملك الصّالح، وليعيد عليه ما أخذه ابن عمه سيف الدّين غازي من بلاده، وأقر خطبته ولم يقطعها ولا خطب لنفسه.

ذكر ملكه مدينة حمص وحماة

قال المؤرخ: ولما ملك دمشق استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغديكين بن أيوب ، وتوجّه إلى مدينة حمص في مستهل جمادى الأولى، فنازلها، فملك المدينة ولم يشغل بالقلعة ؛ وترك بالمدينة من يحفظها ويمنع من في القلعة من التصرف.

وسار منها فوصل إلى مدينة حماة في مستهل جمادى الآخرة؛ وكان بقلعتها الأمير عزّ الدّين جرديك ، وهو من المماليك النوريّة، فامتنع من تسليمها، فأرسل إليه يعرفه ما هو عليه من الطاعة للملك الصّالح، فاستحلفه جرديك على ذلك، وخرج إليه، وترك أخاه بالقلعة ليحفظها. وتوجّه عزّ الدّين جرديك إلى حلب ليكون سفيراً بين الملك الناصر وبين كمشتكين فاعتقل بحلب فلما بلغ أخاه ذلك سلم القلعة إلى الملك الناصر فملكها.

ذكر حصره حلب وعوده عنها وملكه قلعة حمص وبعليك

قال: ولما بلغ الملك الناصر خبر عزّ الدين جرديك والقبض عليه، توجّه إلى حلب وحصرها في جمادى الآخرة من السنة، فقاتله أهلها، وركب الملك الصّالح وهو صبي وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب، وذكرهم بإحسان والده إليهم، واستنصر بهم في دفع صلاح

الدين، فبكوا وحلفوا له على بذل النفوس والأموال، وقاتلوا أشد قتال. وأرسل سعد الدين كُشْتَكِين إلى سنان، مقدّم الاسماعيلية، مالا كثيرا على قتل الملك الناصر؛ فسيّر إليه جماعة، فظفر صلاح الدين بهم وقتلهم، ورحل عن حلب في مستهل شهر رجب من السنة.

وكان سبب رحيله أن كُشْتَكِين أرسل إلى القومص ريمند الصنجيلي، صاحب طرابلس، أن يجهز إلى بلاد صلاح الدين من الفرنج من يمنعه من الوصول إليها، فلما بلغه ذلك فارق حلب وعاد إلى حماة في ثامن الشهر، بعد نزول الفرنج على حصص بيوم، فلما سمع الفرنج بقربه رحلوا عن حصص، ووصل صلاح الدين إلى حصص، وملك القلعة بعد حصار، وكان ملكه لها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة.

ثم سار منها إلى بعلبك، وكان بها يمن الخادم متوليها من أيام نور الدين، فحصرها الملك الناصر، فطلب يمن الأمان، فأمنه وتسلم القلعة في رابع شهر رمضان.

ذكر انهزام عسكر سيف الدين غازي

من الملك الناصر وحصره حلب حلب ثانيا

قال المؤرخ: كان الملك الصالح كتب إلى ابن عمه سيف الدين غازي يستنجد على قتال صلاح الدين ودفعه، فجهز العسكر صُحبة أخيه عز الدين مسعود، وتأخر هو لما وقع بينه وبين أخيه عماد الدين من الاختلاف الذي قدمناه في أخبار الدولة الاتابكية، فسارت العساكر السيفية، واجتمع معها العسكر الحلبي، وساروا كلهم لقتال الملك الناصر، فأرسل إلى سيف الدين يبذل له تسليم حصص وحماة وأن يُقر بيده مدينة دمشق نيابة عن الملك الصالح؛ فلم يجب إلى ذلك وقال: لأبذل من تسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام ويعود إلى مصر.

فلما امتنع سيف الدين من إجابته تجهّز عند ذلك للقاء عزّ الدين مسعود ومن معه وقتلهم، فالتقوا في تاسع عشر شهر رمضان بقُرون حماة، فلم تُثبت عساكر سيف الدين وانهزموا ليلوى بعضهم على بعض، وتبعهم الملك الناصر وغنم معسكرهم، ووصل إلى حلب وحاصرها، وقطع خطبة الملك الصالح، وأزال اسمه.

فلما طال الحصار على من بحلب راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم منها؛ فأجابهم إلى ذلك، وانتظم الصّلح، فرحل عن حلب في العشر الأول من شوال ووصل إلى حماة، ووصلت إليه بها رسل الخليفة المستضيء بنور الله، ومعهم الخلع والأعلام السود، وتوقيع من الديوان العزيز بالسلطنة ببلاد مصر والشام.

وفيها ملك قلعة بعرين في العشر الأول من شوال من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، وكان من أكابر الأمراء النورية، فجاء إلى خدمة الملك الناصر، وظن أنه يكرمه ويقربه، فلم ير من ذلك شيئاً ففارقه وعاد إلى قلعته، فلما استقر الصلح بين الملكين الناصر والصالح نازل بعرين ونصب عليها المجانيق وملكها.

ذكر الحرب بين

الملك الناصر وسيف الدين غازي وانهزام غازي

قد قدمنا انهزام عز الدين مسعود بالعسكر السيفي من الملك الناصر في سنة سبعين وخمسةائة، فلما كان في سنة إحدى وسبعين جمع سيف الدين غازي جميع عساكره وفرق فيهم الأموال، واستنجد بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما، وسار إلى حلب، واستصحب سعد الدين كمشتكين مدبر دولة الملك الصّالح والعسكر الحلبي.

وكان صلاح الدين في قلعة من العسكر لأنه جهّز أكثر عساكره إلى الديار المصرية، فلما بلغه ذلك أرسل يستدعي عساكره، فلم تلحقه؛ وأعجلته الحركة، فسار من دمشق إلى حلب للقاء غازي ومن معه، فالتقى العسكران بتل السلطان بالقرب من حلب، في عاشر شوال من السنة.

وكان عز الدين زلفندار مقدّم العسكر الموصلّي قليل المعرفة بالحروب، فجعل أعلام صاحبه في هدة من الأرض لا يراها إلا من هو بالقرب منها، فلما لم يرها الناس ظنوا أن سيف الدين غازي قد انهزم، وانهمزوا لايلوي الأخ على أخيه، ولم يقتل من العسكر على كثرته غير رجل واحد، وانهمز سيف الدولة إلى الموصل، وترك أخاه عز الدين بحلب.

قال العماد الأصفهاني: إن سيف الدين غازي كان في عشرين ألف فارس، وخطاه ابن الأثير الجزري في ذلك وقال إن أخاه مجد الدين أبا السعادات المبارك كان يتولّى كتابة الجيش، وأنه وقف على جريدة العرض فكانت ستة آلاف.

وإن جمعنا بين قوليهما فنقول: إنّ الجريدة التي وقف عليها ابن الأثير كانت للجيش المختصّ بسيف الدين غازي خاصّة، والذي نقله العماد الأصفهاني عن جميع ماصحبه من سائر الجيوش الحلبية والحصكفية والماردينية، والله أعلم.

ذكر مملكه الملك الناصر من بلاد الملك الصالح

بعد هذه الواقعة

قال المؤرّخ: لما استولى الملك الناصر على أثقال العسكر الموصلّي وغنمها، واتسع هو وعسكره بها، سار إلى بڑاعة، فحصرها. وملكها بعد

قتال مَنْ بقلعتها، وجعل بها من يحفظها، ثم سار إلى منبج فحصرها في آخر شوال، وبها صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وكان شديد العداوة للملك الناصر والتحريض عليه؛ فملك المدينة وحاصر القلعة وملكها عنوةً، وأسر صاحبها ينال، ثم أطلقه، فسار إلى الموصل، فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة.

ثم سار إلى قلعة عزاز فنازلها في ثالث ذي القعدة ونصب المجانيق، ولازم الحصار ثمانية وثلاثين يوماً، وتسلمها في حادي عشر ذي الحجة من السنة.

ووثب عليه في مدة الحصار باطني، فضربه بسكين في رأسه، فرد عنه المغفر، وضربه عدة ضربات وقعت في زيق كزاغنده.

ذكر حصره مدينة حلب والصلح عليها

قال: ثم رحل الملك الناصر عن أعزاز ونازل حلب في نصف ذي الحجة، وحصرها إلى العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين وخمسة، وترددت الرسائل بينهم في الصلح، فاستقرت القاعدة بين الملك الناصر وسيف الدين غازي، والملك الصالح وصاحب ماردين، وصاحب حصن كيفا، وتحالفوا أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث منهم، فتم الصلح، وأعاد الملك الناصر إليهم قلعة أعزاز، ورجع عن حلب.

ذكر نهبه بلاد الإسماعلية

قال: لما عاد الملك الناصر من حلب قصد بلاد الإسماعلية في شهر المحرم سنة اثنتين وسبعين لقتالهم، لأنهم أرادوا قتله؛ فنهب بلادهم وخرّبها؛ ونازل قلعة مضياف، فأرسل سنان مقدّم الإسماعلية إلى الأمير شهاب الدين الحارمي صاحب حماة، وهو خال الملك الناصر، يطلب

منه الدّخول بينهما في الصّلح والشفاعة، وتهدّده بالقتل إن لم يفعل. ففعل ذلك، وتمّ الصّلح، وتوجّه الملك النّاصر إلى دمشق، ثم رحل منها إلى الدّيار المصريّة لأربع خلون من شهر ربيع الأوّل، ووصل إلى القاهرة لأربع بقين منه.

ذكر عبوره الفرات وملكه الديار الجزيرية

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة كان الملك الناصر يحاصر بيروت، فأتته كتب مظفر الدّين كوكبري بن زين الدّين علي بن بكتكين مُقطع حرّان يطلبه إلى البلاد ويَعده المساعدة. فسارَ وعبرَ الفرات، وكاتب ملوك الأطراف ووَعدهم، وبذل لهم البُذول على نُصرتِه، فأجابه نورُ الدّين محمد صاحب حصن كيفا، فسار الملك النّاصر إلى مدينة الرُّها فحصرها في جُمادى الأولى، ودَامَ الحصار، فطلب صاحبها فخر الدّين مسعود الزّعفراني الأمان، فأمنه وتسَلّم البلد، وصار صاحبها في خدمته؛ وتسَلّم القلعة، فلما ملكها سلّمها لمظفر الدّين صاحب حرّان، ثم سار عنها إلى الرّقّة وكان بها مُقطّعها قطبُ الدّين ينال بن حسان المنبجي، فملكها، وسار صاحبها إلى نصيبين، فملك المدينة لوقته، وحصر القلعة عدّة أيام، فملكها؛ وأقطعها للأمير أبي الهيجاء السمين، وهو من أكابر الأمراء، وسارَ عنها، ومعه نور الدّين صاحب الحصن، فحاصر الموصل فلم يظفر منها بشيء لحصانتها وكثرة مَنْ بها.

ذكر ملكه مدينة سنجار

قال: ثم سار الملك النّاصر من الموصل إلى سنجار، فسير مجاهد الدّين قايماز إليها نجدةً من العسكر، فمنعهم الملك الناصر الوصول إليها، وأوقع بهم وأخذ سلاحهم ودوابهم، وسار إليها ونازلها وبها شرف الدّين

أمير ميران أخو عز الدين صاحب الموصل، فملكها بأمان بعد حصار عظيم، وسار شرف الدين ومن معه إلى الموصل.

واستقرَّ للملك الناصر جميع مملكه في هذه الوقعة بملك سنجار واستتاب بها سعد الدين بن معين الدين أنر، وهو من أكابر الأمراء، وأحسنهم صورة ومعنى. وعاد إلى نصبيين، فلقيه أهلها وشكوا إليه من أبي الهيجاء السمين فأنكر عليه وعزله.

وسار إلى حرّان فوصل إليها في أوائل ذي القعدة، فكاتب عز الدين صاحب الموصل صاحب خلاط، وهو شاه أرمن، واستنجد به على حرب الملك الناصر، فلما بلغه اجتماعهما سار إلى حرزم بالقرب من ماردین.

ذكر ملكه مدينة آمد وتسليمها إلى صاحب حصن كيفا

قال: ثم سار من هذه الجهة إلى آمد فوصل إليها في سابع عشر ذي الحجة فنازلها وحاصرها، ونصب عليها المجانيق، وهي من أحسن البلاد، يضرب المثل بحصانتها، وكان صاحبها ابن نيسان في غاية الشح يبخل ببذل المال، فملّه أصحابه وتحاذلوا عنه، فأخرج نساء إلى القاضي الفاضل وسأله أن يأخذ له الأمان ولأهله، وأن يؤخر ثلاثة أيام حتى ينقل ماله بالبلد من الأموال والدخائر.

فأجابه الملك الناصر إلى ذلك، وتسلم البلد في العشر الأول من المحرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وانقضت الأيام الثلاثة قبل فراغة من نقل أمواله، فمُنِعَ مما بقي. وتسلم الملك الناصر البلد بما فيه إلى نور الدين صاحب الحصن، وكان فيه من الدخائر ما تزيد قيمته على ألف ألف دينار.

ذكر ملكه تل خالد وعين تاب

قال: ثم سار الملك الناصر إلى تلّ خالد من أعمال حلب فحصرها ورمّاها بالمجانيق، فطلب أهلها الأمان، فأمنهم، وتسلمّها في المحرّم أيضاً.

وسار منها إلى عين تاب، وبها ناصر الدين محمد [بن خمارتكين] من أيام نور الدين الشهيد، فحصرها، فراسله في طلب الأمان على أن يكون الحصن بيده ويكون في خدمته، فأجابه إلى ذلك وحلف له عليه، فنزل إليه أيضاً واتصل بخدمته.

ذكر ملكه حلب

قال: ثم سار من عين تاب إلى حلب في المحرّم أيضاً ونزل بالميدان [الأخضر] عدّة أيام ثم انتقل إلى جبل جوشن؛ فنزل بأعلاه وأظهر أنّه يريد [أن] يبني مساكن لنفسه ولأصحابه وعساكره، وأقام أياماً والقتال بين العسكرين في كل يوم.

وكان صاحبها عماد الدين زنكي بن مؤدود بن زنكي مجدداً في القتال، فطالبه بعض الجند بأرزاقهم، فاعتذر بقلّة المال عنده؛ وكان قد شحّ بإخراجه، فقال له: مَنْ يريدُ حفظَ حلب يُخرج الأموال ولو باع حلي نسائه. فجنح إلى تسليمها، فراسل الملك الناصر في طلب العوض عنها: سنجار، ونصيبين، والخابور، والرقة، وسروج، فسلم مثل حلب وأعمالها وتعوض عنها قرى ومزارع، وجرت الأمان على ذلك، وتسلمّها الملك الناصر في ثامن عشر صفر.

فسبّ الناس عماد الدين زنكي، وأسمعوه المكروه على فعله.

واستقرت الحال بينهما أن عماد الدين يحضر إلى خدمة الملك الناصر متى استدعاه بنفسه وعسكره ولا يحتج بحجة.

قال: ولما تسلّم الملك الناصر حلب امتدحه القاضي محيي الدين ابن الزكي، قاضي دمشق، بقصيدة جاء منها:
وفتحكم حلباً بالسيف في صفر
مبشرفُفُوح القدس في رجب

فكان ذلك.

ونقل الملك الناصر أخاه الملك العادل من نيابة الديار المصرية إلى حلب، في سنة تسع وسبعين، وأعطاه حلب وقلعتها وأعمالها، ومنبج وما يتعلق بها؛ وسيّره في شهر رمضان.

ذكر فتح الملك الناصر حارم

قال: ولما فتح الملك الناصر حلب كان بقلعة حارم سرخك، وهو من الممالك النورية، فامتنع من تسليمها، فراسله في ذلك وخيره فيما يريد من القلاع، ووعدّه الإحسان؛ فاشتطّ في الطلب، فتردّدت الرسائل بينهم، فراسل سرخك الفرنج ليحتمي بهم، فبلغ ذلك من معه من الأجناد فخافوا أن يسلمها للفرنج، فقبضوا عليه واعتقلوه، ورأسلوا الملك الناصر في طلب الأمان، فأجابهم وتسلم الحِصن ورثب فيه دُزداراً من بعض خواصّه، وأقام الملك الناصر بحلب إلى أن قرر قواعدها وأقطع أعمالها.

ذكر حصار الموصل

وفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة حاصر الملك الناصر الموصل، وذلك

أنه سار من دمشق في ذي القعدة سنة ثمانين لقصد حصارها، فلما وصل إلى مدينة بلد، ستر إليه عز الدين صاحب الموصل والدته وابنة عمه الملك العادل نور الدين الشهيد وغيرهما من النساء في جماعة من أعيان الدولة يسألونه المصالحة، وبذلوا موافقته وإنجاده بالعساكر متى طلبها، ليُعود عن قُصد الموصل، وإنسما أرسلهن ظناً منه أنه لو ستر ابنة نور الدين إلى الملك الناصر في طلب الشام أعطاه لأنها ابنة مخدومه، فتلقاهن بالإكرام، وأحسن إليهن، واستشار أصحابه في ذلك، فكل أشار عليه بموافقتهن.

فقال له الفقيه عيسى الهكاري وعلي المشطوب: مثل الموصل لا ترك لا امرأة، وإن عز الدين ما أرسلهن إلا وقد عجز عن الحرب. فوافق ذلك هواه فردهن خائبات، واعتذر بأعذار غير مقبولة، وقصد الموصل و حاصرها، وكان بينهم مناوشات فلم يتمكن منها، فندم حيث لم يجب النساء. ففسي أثناء ذلك توفي شاه أرمن صاحب خلط، فأشار عليه أصحابه بمفارقة الموصل وقصد خلط، ففارقها.

ذكر ملكه ميافارقين

قال: ولما سار الملك الناصر إلى خلط جعل طريقه ميافارقين وكان صاحبها قطب الدين صاحب ماردين قد توفي وملك بعده ابنه، وهو طفل، وكان حكمها إلى شاه أرمن وعسكره بها؛ فتوفي شاه أرمن أيضاً، فطمع في أخذها ونازلها، فأراها مشحونة بالرجال، وفيها زوجة قطب الدين المتوفى وبناته، والمقدم علي جيشها أسد الدين يرنقش، وكان فيه شجاعة وشهامة، فحصرها الملك الناصر من أول جمادى الأولى، ونصب عليها المجانيق والعرادات؛ واشتد القتال فلم يظفر منها بشيء؛ فرجع عن القوة إلى أعمال الحيلة، فراسل امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد يقول إن أسد الدين قد مال إلينا في تسليم البلد، ونحن نرعى حق أخيك نور

الدين فيك بعد وفاته، ونريد أن يكون لك نصيب، وأنا أزوّج بناتك بأولادي، وتكون مَيّافارقين وغيرها لك وبِحُكْمِكَ، ووضع من أرسل إلى أسد الدين يعرفه أن الخاتون قد مالت للانقياد إلى تسليمها، وأن من بخلاط قد كاتبوه ليسلموها إليه. فسقط في يده، وضعت نفسه، وأرسل إلى الملك الناصر يقترح إقطاعاً ومالاً، فأجيب إلى ذلك. وسلم البلد في سلخ جمادى الأولى، وعقد نكاح بغض أولاده على بغض البنات.

ذكر عوده إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين صاحبها

قال: ولما تسلم الملك الناصر مَيّافارقين وفرغ من أمرها وتبدير أحوالها، عاد إلى الموصل لحصارها، فترددت الرسائل بينه وبين عز الدين صاحبها، ووقع الاتفاق على أن يسلم للملك الناصر شهرزور وأعمالها، وولاية القراملي، وجميع ماوراء الزاب، وأن يحطب له على منابر بلاده، ويضرب السكة باسمه؛ وتحالفا على ذلك، فتسلم الملك الناصر البلاد، وسكنت الدهماء.

ورحل إلى حرّان فمرض بها و طال مرضه حتى أيس منه؛ ثم عوفي، وعاد إلى دمشق في المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة.

قال: ولما كان الملك الناصر مريضاً بحرّان كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، وله من الإقطاع حمص والرحبة، فسار إلى حمص واجتاز بحلب، وأحضر جماعة من أجدادها، ووعدهم، وأعطاهم مالاً؛ ثم وصل إلى حمص ورأسل جماعة من الدماشقة على تسليم البلد إذا مات الملك الناصر. وأقام ينتظر موته؛ فتوفي ناصر الدين ليلة عيد الأضحى سنة إحدى وثمانين، وعوفي الملك الناصر.

[وكان الملك الناصر] لما بلغه ما اعتمده ناصر الدين بحلب ومراسلته للدماشقة، وضع عليه الناصح ابن العميد سقاه سماً فمات، وطلب ابن

العميد من الغد فلم يوجد؛ وسار من ليلته إلى الملك الناصر؛ فقويت الظنة بذلك.

ولما توفي أعطى الملك الناصر إقطاعه لولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنة، وخلف ناصر الدين من الأموال والخيول والآلات شيئاً كثيراً، فحضر الملك الناصر إلى حمص وعرض تركته، وأخذ أكثرها، واستعان به على الجهاد، ولم يترك إلا مالا خيراً فيه.

وحضر شيركوه عند الملك الناصر [بعد موت أبيه بسنة]، فأجلسه في حجره وسأله إلى أين انتهى من القرآن، فقال إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء ١٠)، فاضطرب الملك الناصر لذلك وظن أنه عرض بفعله، وطلب مؤدبه ولوحه فوجده كذلك.

فعوّضه عما أخذه من مال أبيه الضياع الخراب بالشام في ذلك الوقت، وهو الذي يُعرف إلى زماننا هذا بالخراب الأسديّ: وورثته إلى هذا التاريخ يبيعون خراب ضياع الشام والسّواد والبلقاء وغير ذلك. واستولوا من الخراب على مائيس في كتابهم، وأباعوا مالا هو لهم، فإنه قيل إن الذي اشتمل عليه كتاب المبايعة أربعمئة ضيعة، وهي التي كانت قد استولى عليها الخراب في ذلك الوقت، فأباع ورثته جميع ما خرب بعد ذلك مما لم يتضمنه كتابهم وأعانهم على ذلك أنهم يبيعونه لأرباب الجاهات بأخس الأثمان، وأعرف بلدا يسمى رمدان من بلاد البلقاء بالقرب من الرقيم والجدادية وسنجا ب اشتراها الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري لما كان يُنوب عن السلطنة بالشام، من الورثة الأسدية بسبعمئة درهم؛ فلما مات وانتقل بعض ميراثه إلى السلطان الملك الناصر [محمد بن قلاوون] بالولاء الشرعي، وكنت أباشر ديوانه

بالشام، حَصَلْتُ من مُغل هذه البلدة في سنة إحدى وسبعمئة ما يُبيع
بنيّف وعشرين ألف درهم، فانظر إلى هذا التفاوت العظيم.

ذكر غزوات الملك الناصر وما افتتحه من بلاد الفرنج

وقد رأيت أن أفرد غزوات الملك الناصر وفتوحاته ونكاياته في الفرنج،
ولأضّم ذلك إلى غيره من أخباره، لأن فيه ما يدل على قوة الإسلام، وأن
الله تعالى لم يزل يؤيد هذا الدين من عباده بمنّ يُناضل عنه، ويحمي
حوزته، ويذب عن أهله، ويستأصل شأفة عدوهم.

ونذكر ذلك على الترتيب.

فكان أول ذلك وصول الفرنج إلى ثغر دمياط ورجوعهم عنه.

وكان وصول الفرنج، خذلهم الله تعالى، إلى ثغر دمياط في صفر سنة
خمس وستين وخمسمئة، فحاصروا الثغر. وكان سبب ذلك أن أسد
الدين شيركوه لما ولي الوزارة للخليفة العاضد لدين الله خافه فرنج
الساحل، فكاتبوا أهل صقلية والأندلس من الفرنج يستمدونهم
ويخبرونهم أن أسد الدين قد ملك الديار المصرية، وأنهم لا يأمنونه على
البيت المقدس. فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح، فنازلوا دمياط وضيّقوا
على أهلها، فأرسل الملك الناصر إليهم العساكر برأ وبحراً، وكتب إلى
الملك العادل نور الدين الشهيد بذلك، ويعرفه أنه لا يمكنه الخروج من
القاهرة لأنه لا يأمن أمر الشيعة وأنهم يشورون بعده، فيبقى الفرنج أمامه
والمصريون خلفه، فأمده نور الدين بعسكر، وخرج نور الدين بنفسه إلى
بلاد الفرنج للإغارة عليها؛ فاستباح أموالها، خلّو البلاد الساحلية منهم،
فلما بلغهم ذلك رجّعوا إلى بلادهم بساحل الشام بعد مقامهم على
دمياط نيّفاً وخمسين يوماً، ولم يظفروا منها بشيء. وأخرج العاضد للملك
الناصر في هذه الغزاة ألف ألف دينار مصرية، سوى الثياب والأسلحة.

ذكر غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة

وفي سنة ست وستين وخمسمائة سار الملك الناصر عن القاهرة وأغار على أعمال عسقلان والزملة، وهجم على ربض غزة فنهبه. وأتاه ملك الفرنج في قلّة من العسكر ليرده، فهزمه الملك الناصر بعد أن أشرف على أسره، وعاد إلى القاهرة، وعمل مراكب مفصّلة ونقلها على الجمال إلى البحر، فجمع قطعها وشدّها، وألقاها في الماء. وحصر أيلة برّاً وبحراً، وفتحها في العشر الأول من شهر ربيع الآخر، واستباح أهلها ومافيها؛ وعاد إلى الديار المصرية.

ذكر محاصرة الشوبك وعوده عنها

قال المؤرخ: وفي صفر سنة سبع وستين توجّه الملك الناصر إلى حصن الشوبك ونازله، وحصره، وضيق على مَنْ به من الفرنج. ودام القتال، فطلب أهله الأمان، واستمهلوه إلى عشرة أيام فأجابهم إلى ذلك، ثم بلغه أن الملك العادل نور الدين جاء من دمشق إلى الشوبك من الجانب الآخر، فخاف أن نور الدين متى ملك الشوبك قبض عليه، فعاد إلى الديار المصرية، وكتب إلى نور الدين يعتذر بمرض أبيه بمصر، فقبل عذره. ظاهراً، ووقعت الوحشة بينهما باطناً.

ذكر وصول [اسطول] صقلية إلى ثغر الإسكندرية وانهمامه

كانت هذه الحادثة في سنة سبعين وخمسمائة، ولم يكن للملك الناصر بها غزاة بنفسه ولا مباشرة للحرب، وكان سبب وصول هذا الأسطول إلى الثغر ماقدّمناه من مكاتبة المصريين الذين صلبهم صلاح الدين الفرنج، فوصل من صقلية مائتا شيني تحمل الرجال، وست وثلاثون طريدة تحمل الخيل، وست مراكب تحمل آلة الحرب، وأربعون مركباً تحمل

الأزواد، وفي المراكب من الرجال: خمسون ألفاً ومن الفرسان ألف فارس وخمسمائة فارس، وكان المقدّم عليهم ابنُ عمِّ صاحب صقلية، فوصلوا إلى الثغر في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة، فخرج إليهم أهل الثغر بعدادهم وأسلحتهم، فمَنعهم المتولّى عليهم، وأمرهم أن يقاتلوا مِن وراء السور، وطلع الفرنج إلى البرّ ونَصَبُوا الدَّبَابَات وقَارَبُوا السور؛ وقاتلهم أهل البلد قتالاً شديداً. وجاء إلى الإسكندرية مَنْ كان إقطاعه بالقرب منها.

وكتب إلى الملك الناصر بذلك؛ فتجَهَّز بنفسه؛ وقَدَّمَ من يُعلم أهل الثغر بوصله، وكان أهل الثغر قد أنكروا في الفرنج، وقتلوا وجرحوا كثيراً منهم، وحرقوا الدَّبَابَات.

ولمَّا علم الفرنج بمَقْدَم الملك الناصر جنَحُوا إلى الهرب، وأخذتهم سيُوف أهل الثغر، وحرقوا بعض مراكبهم، ونهبوا خيامهم، وأخذوا سلاحهم؛ وكثُر القتلُ فيهم، وهرب مَنْ بقي؛ واحتُمِيَ ثلاثمائة من الفرسان على تل، فقاتلهم المسلمون طوال الليل إلى ضحى الغد، فأخذوا بين أسيرٍ وقتيلٍ.

ذكر مسيره إلى عسقلان وغيرها وانهزام عسكره وعوده

وفي سنة ثلاثٍ وسبعين وخمسمائة، خرَجَ الملك الناصر إلى غَزَّة وعسقلان.

وكان رحيله من القاهرة بعد صلاة الجمعة لثلاث ليالٍ خَلُون من جمادى الأولى من السنة، فوصل إلى عسقلان في يوم الأربعاء ليلة بقيت من الشهر، فسَبَى وسَلَب، وضرب أعناق الأسرى؛ وتفرَّق عسكره للإغارة على الأعمال.

ثم سار إلى الرملة في يوم الجمعة مستهلاً جمادى الآخرة، فاعترضه الفرنج وقد جمعوا جموعاً كثيرة؛ فكان بينهما وقعة عظيمة استشهد فيها أحمد ولدُ الملك المظفر تقي الدين [عمرًا]، وأسر ولده الثاني شاهنشاه، وأقام في الأسر سبع سنين حتى أفتكه السلطان بهاء كثير، وأسر الفقيه عيسى الهكاري.

ثم كانت على المسلمين، وذلك أن العساكر كانت قد تعبأت للحرب، فلما قاربهم العدو أراد بعض الأمراء أن ينقل الميمنة إلى الميسرة، والميسرة إلى القلب، فلما اشتغلوا بهذه التعبئة هجم عليهم الفرنج، فانكسروا وطلبوا الديار المصرية. وضلوا في الطريق. وعاد السلطان ومن معه إلى القاهرة في يوم الخميس متتصفاً الشهر.

ذكر وقعة مرج عيون وانهازم الفرنج

وأسر ملوكهم

كانت هذه الواقعة في يوم الأحد لثمان خلون من شهر المحرم سنة خمس وسبعين وخمسائة؛ وكان الفرنج في عشرة آلاف مقاتل. فلما التقوا مع المسلمين انهزم ملكهم مجروحاً عند اللقاء، وأسر منهم جماعة، منهم: مقدم الداوية. ومقدم الأستارية، وصاحب طبرية، وأخو صاحب جبيل، وابن القومصية، وابن بارزان صاحب الرملة، وصاحب جينين، وقسطلان يافا، وابن صاحب مرقية وعدة من خيالة القدس وعكا وغيرهم من المقدمين والأكابر، زادت عدتهم على مائتين وسبعين، سوى غيرهم، فنقلهم السلطان إلى دمشق.

فأما ابن بارزان فإنه بذل في نفسه مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار صورية، وإطلاق ألف أسير من المسلمين، والتزم بفكاك الفقيه عيسى الهكاري، وأما ابن القومصية فافتكته أمه بخمسة وخمسين ألف دينار

صوريّة. وأما مقدّم الداويّة فإنّه هلك، فطلبت جثته بإطلاق ألف أسير من مقدّمي المسلمين.

قال: وفي هذا اليوم ظفّر الأسطول المصريّ ببطسة كبيرة للفرنج، فاستولى عليها وعلى أخرى، وعاد إلى الثغر بألف أسير، والله أعلم.

ذكر هدم بيت الأحزان

كان الفرنج قد عمروا حصن بيت الأحزان في مدّة مقام الملك الناصر على بعلبك واشتغاله بأمرها؛ فبنّوه على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين صفد وطبريّة نصف يوم.

وكان في بنائه ضررٌ عظيمٌ على المسلمين، فبدّل لهم الملك الناصر في هدمه مائة ألف دينار، فأبّوا ذلك. فجّهز إليه الجيش، فوصل إلى المخاضة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين، والحصن مبنيٌّ دُونها من الغرب. فنصبوا عليه المجانيق بعد العصر من يوم الأحد، فما جاء الليل إلّا وقد استولوا على البашورة. ثم أدار حوله النقوب، فاستمرت إلى يوم الخميس، ليست بقين من الشهر، فهُدم الجدار، ودخل العسكر الحصن وغنموا مافيه؛ فكان ماغنموا من أنواع السّلاح الجديدة مائة ألف قطعة؛ وأسروا سبعمائة أسير، ومن أسرى المسلمين مائة. ثم هُدم الحصن إلى الأساس، وكان سمكه عشرة أذرع.

قال: ولما عمر الفرنج بيت الأحزان قال النشو أحمد الدمشقي:

هلاكَ الفـرنج أتى عـاجلاً

وقد آن تكسير صُلبِها

ولم يكن قد دنا حتفها

لما عمّرت بيت أخـزانها

ذكر مسير الملك الناصر إلى بلاد الأرمن

وفي سنة ست وسبعين وخمسمائة، توجه الملك الناصر إلى بلاد الأرمن، وذلك أن ابن لاوون ملك الأرمن كان قد استمال قوماً من التركمان، فلما أتوه وهم آمنون أسرهم. فدخل الملك الناصر إلى بلاده واستولى على قلعة تُعرف بالمناكير، وهدمها إلى الأساس، وأخذ مافيها من الآلات، ووجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً من الآلات الذهب والفضة والنحاس، فبذل ابن لاوون جملة من المال، وأنه يُطلق الأسرى، ويشتري خمسمائة أسير من بلاد الفرنج ويطلقهم، فأجابه السلطان إلى ذلك، وأخذ رهينة عليه. ثم عاد إلى الديار المصرية، وأقام بها إلى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.

ذكر مسيره إلى الشام والإغارة على طبرية وبيسان

وما كان من الظفر بمراكب الفرنج ببحر عيذاب

وفي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة توجه السلطان الملك الناصر لقصد الشام عند وفاة الملك الصالح بن الملك العادل نور الدين، فأغار على طبرية وبيسان في العشر الأوسط من شهر ربيع الأول، فانتصر بعد قتال.

وفيها كان الظفر بالفرنج ببحر عيذاب، وذلك أن البرنس صاحب الكرك عمل أسطولاً بالكرك، ونقل قطعه إلى بحر أيلة وألقاها في البحر، وشحنها بالمقاتلة، فساروا في البحر وافترقوا فرقتين: فرقة حصرت أيلة، وفرقة توجهت إلى عيذاب، وأفسدوا السواحل، ونهبوا، وأخذوا ما وجدوه من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار، وجاءوا على حين غفلة، فرأى الناس ما لم يعهدوه، فإن هذا البحر لم ير الناس فيه فرنجياً قط، ولا تاجراً ولا مقاتلاً قبل هذا الوقت.

وكان الملك العادل ينوب عن أخيه الملك الناصر بالديار المصرية، فعمر أسطولا وجّهز فيه جماعة من المسلمين، ومقدّمهم حُسام الدين لؤلؤ الخاص، فسار في طلبهم. وابتدأ بالمراكب التي على أيلة، فظفر بها، وقتل بعض من فيها وأسر بعضهم. وتوجّه لوقته بعد ظفره بهم إلى الذين توجّهوا إلى عيذاب، وكانوا قد غزّموا على الدخول إلى الحجاز وأخذ الحاج، والدخول بعد ذلك إلى اليمن، فوصل لؤلؤ إلى عيذاب فوجدهم قد نهبوا ماجدوه بها وتوجّهوا، فسار في إثرهم، فبلغ رابغ والخوراء فأدركهم بها، وأوقع بهم. فلما تحقّقوا العطب خرجوا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب، فنزل من مراكبه وقاتلهم في البرّ أشدّ قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هُناك فركبها، وقاتلهم، فظفر بهم وقتل أكثرهم؛ وأسر من بقي، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها عُقوبة لهم على قصدهم البيت الحرام. وعاد إلى مصر ببقية الأسرى، فقتلوا.

ذكر الإغارة على الغور

قال: ولما ملك الملك الناصر حلب عاد إلى دمشق، ثم رحل منها في ثامن جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمسة فَنزل على بيسان، فوجد أهلها قد ارتحلوا عنها، فنهبها العسكر الناصري وتقووا بما فيها، وحرّقوا ما لم يمكنهم أخذه. وسار بهم حتى أتى الجالوت، وهي قرية عامرة وعندها عينٌ جارية، فعبأ أصحابه عندها للقتال، ورحل إلى الفولة، ووقع القتال بينه وبين الفرنج، وكان الظفر له، ثم عاد إلى دمشق، فوصل إليها في يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة.

وتوجّه إلى الكرك في هذه السنة، وعاد.

ثم جمع العساكر المصرية والحلبية وغيرها، وقصد الكرك في سنة ثمانين

وخمسمائة، وهي الدفعة الثانية؛ فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم للذَّب عنها، ففارقها السلطان، وجَهَّز طائفة إلى نابلس فنهبوا وعادوا إليه.

ذكر غزوة الكرك والشوبك

وفتح طبرية ومجدل يابا ويافا

قال العماد الأصفهاني في البرق الشامي: وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة برزَ الملك الناصر من دمشق في أول المحرم، في العسكر العرمم، ومضي بأهل الجُنَّة لجهاد أهل جهنم، فلما وصل إلى رأس الماء أمر الأفضل بالمقام عندها ليجتمع عنده الأمراء الواصلون من الجهات، وسار السلطان إلى بُصرى، ثم منها إلى الكرك، ورعى الزروع، وقطع الأشجار، ثم سار إلى الشوبك وفعل مثل ذلك، ووصل إليه العسكر المصري ففرقه على قلعتي الكرك والشوبك، وأقام إلى أن انقضى من السنة شهران، والملك الأفضل مقيم برأس الماء، وقد اجتمعت عنده العساكر، فتقدم إلى سرية منهم بالغارة على أعمال طبرية، فانتهوا إلى صفورية، فخرج إليهم الفرنج فقاتلوهم، فكان الظفر للمسلمين، وهلك مقدم الأسبتار؛ وعادوا إليه فكانت مقدمة النصر المبين.

وانتهت البشائر إلى الملك الناصر وهو بنواحي الكرك والشوبك، فسار بمن معه في يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول، وعرضهم في اثني عشر ألف فارس، وعزم على دخول الساحل، فأنتهى إلى نهر الأقحوانة فاجتمعت الفرنج في زهاء خمسين ألفاً، ونزلوا على مزج صفورية بأرض عكا، فلم يتقدموا عنها، فتقدم السلطان إلى الأمراء أن يقيموا في مقابلتهم، ونزل هو بمن معه من خواصه على طبرية، وشرع في نقب سورها، فهدموه في ساعة من نهار، وامتنعت القلعة بمن فيها.

فلما اتصل بالفرنج فتح طبرية تقدموا، وذلك في يوم الخميس ثالث

شهر ربيع الآخر، فترك السلطان على طبرية من يحفظ قلعتها، وتقدم بالعسكر، فالتقى على سطح جبل طبرية الغربي منها، وحال بينهما الليل، فباتا إلى صبيحة يوم الجمعة، فتصادما بأرض قرية اللوبيا، واستمرت الحرب بينهما إلى الليل فكانت من أعظم الحروب. ثم باتا إلى صبيحة يوم السبت، فالتقىا.

فلما عاين القومص أن الدائرة تكون على طائفته هرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وسار نحو صور، فتبعه جماعة من المسلمين، فنجا بمفرده، ثم انهزمت طائفة أخرى فتبعها أبطال المسلمين، فلم ينج منها واحد، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل حطين، فضايقهم المسلمون، واشعلوا حولهم النيران، فقتلهم العطش، فأسر مقدمهم، وقتل الباقون، وألقى عليهم الخذلان.

قال القاضي أبو المحاسن بن شداد: لقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصاً واحداً ومعه طنبُ خيمة فيه نيفٌ وثلاثون أسيراً.

وأما القومص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب، فأهلكه الله.

قال: وبات السلطان بالمنزلة، ونزل يوم الأحد على طبرية وتسلم قلعتها في بقية يومه، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قال: ولما يسر الله هذا الفتح كتب السلطان إلى أخيه الملك العادل سيف الدين بمصر يُبشّره به، وأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقي عنده من العساكر، ومحاصرة ما يليه منها؛ فسارع إلى ذلك، وسار ونازل حصن مجدل يابا وفتحها، وغنم مافيه، ثم سار إلى يافا وفتحها عنوةً، وقتل وسبى وأسر وغنم.

ذكر فتح عكا، ونابلس، وحيفا، وقيسارية، وصفورية
والناصرة، ومعليا، والفولة، والطور، والشقيف، وغير ذلك

قال ابن شداد: ثم رحل السلطان طابعا، وكان نزوله عليها في يوم الأربعاء سَلَخَ شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين، وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأولى، فأخذها، واستنقذ من كان فيها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف؛ واستولى على ما فيها من الأموال والدخائر.

ثم تفرقت العساكر في بلاد الساحل فأخذوا نابلس، وحيفا، وقيسارية، وصفورية، والناصرة، ومعليا، والفولة، والطور، والشقيف وقلاعاً تلي هذه كثيرة؛ وكان ذلك لخلوها من الرجال، فإنهم عمهم القتل والأسر.

ذكر فتح تبين وصيدا وصرند وبيروت وجبيل

قال: ثم أرسل السلطان ابن أخيه تقي الدين إلى تبين فضايقتها، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه، فوصل إليها ونازلها يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى، فسأل مَنْ بها الأمان واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم، وأطلقوا الأسارى، فخرجوا إليه، فسُرَّ بهم وكسَاهم، وخلص في تلك السنة من الأسرى أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف.

قال: ثم رحل السلطان من تبين إلى صيدا، فاجتاز في طريقه بصرند فأخذها بعد قتال.

ثم سار إلى صَيْدَا، ففارقها صاحبها وتركها خالية، فتسلمها ساعة وصوله إليها لِتَسْعَ بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين.

وسار من يومه نحو بيروت فقاتل أهلها على سُورها وظنُّوا أنهم قد قَدَرُوا على حفظه، فدخلها المسلمون من الجانب الآخر، فسألوا الأمان فأمنَّهم على أنفسهم وأموالهم، وتسلمها في التاسع والعشرين من الشهر.

وأما جُبَيْل فكان صاحبها في جملة الأسرى الذين نُقِلُوا إلى دمشق، فسأل إطلاقه وتَسْلِيمها، فأحضره مقيّداً، فسَلِمَ البلد وأطلق أسرى المسلمين، وأطلقه السُّلطان.

ذكر فتح عسقلان وما يجاورها

قال: وسار السُّلطان إلى عَسْقلان، والرملة، وغزة، والدَّاروم، وغير ذلك.

فَنَزَلَ على عَسْقلان في يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، ونصبَ عليها المجانيق، فسَلَموها على خروجهم بأموالهم سالمين؛ وذلك في يوم السبت سلخ جمادى الآخرة.

ثم تسَلَّم حصُون الدَّأَوِيَّة وهي: غَزَّة، والدَّاروم، والرملة، ويبنى، وبيت لحم، ومشهد الخليل، ولدَّ، وبيت جبريل.

قال: وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإن العدو استولى عليها في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسةائة.

قال العماد: وفوض السلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع المناصب الدينية بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين عبد الله بن عمر الدمشقي، وهو المعروف بقاضي اليمن.

ذكر فتح البيت المقدس

قال المؤرخ: لما فرغ السلطان الملك الناصر من أمر عسقلان وما يجاورها سار إلى البيت المقدس، فكان وصوله إليه في يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. وكان به البطرک المعظم عندهم، وهو أعظم شأنًا من ملكهم، وبه أيضاً باليان بن بارزان صاحب الرملة، ومن خلیص من فرسان الفرنج من حطین، واجتمع به أهل عسقلان وغيرها، كلهم يرى الموت عليه أهون من أن يملك البيت المقدس.

فنزّل السلطان بالجانب الغربي، وأقام خمسة أيام يطوف حول البلد لينظر من أين يقاتله، ثم انتقل إلى الجانب الشمالي يوم الجمعة، العشرين من الشهر، وكانت عدّة من به من المقاتلة ستين ألفاً غير النساء والصبيان، فنصب السلطان المجانيق في تلك الليلة، ونصب الفرنج على السور مجانيق أيضاً، وقاتلوا أشد قتالٍ رآه الناس، لأنّ كلامن الفريقين يرى ذلك عليه من الواجبات لا يحتاج فيه إلى سلطان. وكانت خيالة الفرنج يخرجون في كل يوم إلى ظاهر البلد فيقاتلون ويبارزون، وتوالى الزحف، ونقب المسلمون السور مما يلي وادي جهنم.

فلما رأى الفرنج ذلك أخلدوا إلى طلب الأمان، وبعثوا جماعة من أكابرهم في ذلك؛ فامتنع الملك الناصر من ذلك وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، فلما رجع إليهم، أرسل باليان بن بارزان يطلب الأمان لنفسه ليحضر إلى الملك الناصر، فأمنه، فحضر إليه وسأله الأمان، فلم يجبه، واستعطفه فلم يتعطف، واسترحمه فلم يرحمه، فلما أيس منه قال له مامعناه: أيها السلطان، اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، وهم يكرهون الموت

ويرغبون في الحياة؛ فإذا رأينا أن الموت لابد منه والله لنقتلن أبناءنا ونساءنا، ونُحرق أموالنا وأمتعتنا، فلا نترككم تغمون منها ديناراً واحداً ولادهرماً، ولا تُسبُون ولا تُأسِرُون رجلاً ولا امرأة، فإذا فرغنا من ذلك أخبرنا الصخرة والمسجد الأقصى؛ وغير ذلك من المواضع الشريفة؛ ثم نقتل مَنْ عندنا من أسرى المسلمين، وهبم خمسة آلاف، ولا نترك لنا دابةً ولا حيواناً إلا قتلناه، ثم نخرج إليكم، كلنا، فنقاتلكم قتال مَنْ يريد يحمي دمه ونفسه، فلا يُقتل الرجل منا حتى يُقتل؛ فيما أن نموت أعزاء أو نظفر كراماً.

فلما سمع الملك الناصر كلامه استشار عند ذلك أصحابه، فأشاروا عليه بموافقتهم.

ووقع الصلح على أن يسلموا أسرى المسلمين، ويبدلوا عن كل رجل من الفرنج عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة، وعن كل طفل وطفلة دينارين، يستوي في ذلك الغني والفقير، وبذل ابن بارزان في الفقراء ثلاثين ألف دينار من ماله، وعلى أن تكون المدة أربعين يوماً، فمن أدى ذلك قبل المدة خلص، ومن تأخر استرق.

وتسلم السلطان المدينة في يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب، وكان يوماً مشهوداً، ورُفعت الأعلام الإسلامية على الأسوار، ورتب السلطان على أبواب البلد أمناء من الأمراء يأخذون من أهله ما استقر عليهم، فخانوا، ولو أدوا الأمانة لامتلات الخزائن.

قال: وصلى الملك الناصر الجمعة الثانية في رابع شعبان في قبة الصخرة، وكان الخطيب والإمام القاضي محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق.

ثم رتب له خطيباً وإماماً، ونقل إليه المنبر الذي كان عمله الملك

العاذل نور الدين بحلب برسم البيت المقدس إذا فتحه، وكان بين عمله وفتح البيت المقدس ما يزيد على عشرين سنة.

ثم تقدم أمر السلطان بعمارة المسجد الأقصى ومحو ما كان الفرنج صنعوه من الصور على عاداتهم، ونقل إليه المصاحف، وطهره من أدناس الكفر، رحمه الله تعالى، وتقدم بعمل الرُّبُط والمدارس، وجعل دار الأستبار مدرسة للشافعية.

ذكر رحيله ومحاصرة صور

قال المؤرخ: وأقام السلطان الملك الناصر بالبيت المقدس إلى الخامس والعشرين من شعبان من السنة، ثم سار لقصده محاصرة صور وقد اجتمع فيها خلق كثير من الفرنج، وقدم إليها المراكيس في البحر بأموال عظيمة؛ وكانت عادته أن يحضر إلى البيت المقدس بأموال يفرقها، فلما حضر في هذا الوقت ووصل عكا فرأها قد خرجت عن أيدي الفرنج سار إلى صور فملكها، وأنفق ماله على من بها، فقوي أمره وانحاز إليه جميع من خلص بالأمان من سائر البلاد، فأنفق على سور صور وخنادقها، وعمقها، فصارت كالجزيرة لا يمكن الوصول إليها.

فوصل الملك الناصر إلى عكا في مستهل شهر رمضان، فأصلح من شأنها، ثم رحل عنها ونازل صور في تاسع شهر رمضان ونزل بالقرب من البلد؛ ثم نزل على تل يقارب صور في الثاني والعشرين من الشهر، وقسم القتال على العسكر لكل جمع منهم وقت معلوم. واستدعى الأسطول المصري، وكان بعكا، فجاءته عشر شوان، وكان للفرنج في البحر مراكب فيها رماة الجروح والزنبوركات، يرمون من دنا من البحر، فاستطال الأسطول عليها، وأحاط بهم المسلمون وقتلوا براً وبحراً؛ ثم أغفلوا أمرهم فملك الفرنج من الشواني خمسة وأسرؤا مقدمها.

ثمّ كانت حروبٌ كثيرة ووقائع.

ثمّ رحل السلطان عنها في آخر شوال، وهو أول كانون، وسار إلى عكا، وأذن للعساكر بالعود إلى أوطانهم للراحة في الشتاء والعود في الربيع، فعادت عساكر الشرق والموصل والشام ومصر، وبقي السلطان في عكا في خلّفته وخاصته، وردّ أمرها إلى الأمير عز الدين جردّيك.

ذكر فتح هونين

قال المؤرخ: كان السلطان لما فتح تبّنين امتنع من هونين من تسليمها، وهي من أحصن القلاع وأمنعها، فرتب عليها من يحضرها؛ فطلب من بها الأمان لما كان السلطان يحاصر صور، فأمنهم، ونزلوا منها وتسلمها.

واتفق أن فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرمينية، مع كثرتها، كان في ست جمع مع أنها في أيدي أشجع الناس وأشدّهم عداوة للمسلمين، فيسر الله فتحها في أيسر مدة.

ذكر فتح حصن برزية

قال: ولما رحل السلطان من قلعة الشغر سار إلى قلعة برزية، وبحصانتها يضرب المثل، وهي تقابل حصن أفامية وتناصفها في أعماها، وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي، ومن عيون تنفجر من جبل برزية وغيره.

وكان أهلها أضّر شيء على المسلمين يقطعون الطريق ويبلغون في الأذى.

فَنَزَلَ السَّلْطَانُ شَرْقِيَّهَا فِي رَابِعِ عِشْرِي الشَّهْرِ، وَرَكِبَ مِنَ الْغَدِّ وَطَافَ عَلَيْهَا لِيَنْظُرَ مَوْضِعاً يَقَابِلُهَا مِنْهُ، فَلَمْ يَجِدْهُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ وَهَذِهِ الْقَلْعَةُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُقَاتَلَ مِنْ جِهَتَيْ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ الْبَتَّةَ، فَإِنْ جَبَلُهَا لَا يُصْعَدُ إِلَيْهِ مِنْ هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ؛ وَأَمَّا الْجَانِبُ الشَّرْقِيُّ فَلَا يُمْكِنُ الصُّعُودُ مِنْهُ لِغَيْرِ مَقَاتِلٍ لِصُعُوبَتِهِ وَارْتِفَاعِهِ؛ وَأَمَّا جِهَةُ الْغَرْبِ فَإِنَّ الْوَادِي الْمُطِيفَ بِجَبَلِهَا قَدْ ارْتَفَعَ هُنَاكَ ارْتِفَاعاً كَثِيراً حَتَّى قَارِبَ الْقَلْعَةَ بِحَيْثُ يَصِلُ مِنْهُ حَجَرُ الْمَنْجَنِيْقِ وَالسَّهَامِ، فَنَزَلَهُ الْمُسْلِمُونَ وَنَصَبُوا الْمَجَانِيْقَ، وَنَصَبَ أَهْلُ الْقَلْعَةِ مَنْجَنِيْقاً، فَرَأَى السَّلْطَانُ الْمَجَانِيْقَ لَا تُقِيدُ، فَتَرَكَهَا وَعَزِمَ عَلَى الزَّحْفِ وَمُكَائِرَتِهَا بِالرِّجَالِ؛ فَقَسَّمَ الْعَسْكَرَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ، يَزْحَفُونَ بِالنُّوبَةِ، فَطَالَ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِهَا وَعَجَزُوا عَنْ مُقَاتَلَتِهِمْ فَمَلَكَهَا الْمُسْلِمُونَ عُنُوةً وَنَهَبُوا وَأَسْرَوْا وَسَبَوْا، وَأَخَذُوا صَاحِبَهَا وَأَهْلَهُ، وَأَمْسَتْ خَالِيَةً خَاوِيَةً، وَأَلْقَى الْمُسْلِمُونَ النَّارَ فِي بَعْضِ الْبُيُوتِ فَاحْتَرَقَتْ.

ذَكَرَ فَتْحَ قَلْعَةِ دَرْبَسَاكَ

قَالَ: ثُمَّ رَحَلَ السَّلْطَانُ بَعْدَ فَتْحِ بَرْزِيَّةَ مِنَ الْغَدِّ فَاتَى جِسْرَ الْحَدِيدِ، وَهُوَ عَلَى الْعَاصِي بِالْقَرْبِ مِنْ أَنْطَاكِيَّةَ، فَأَقَامَ هُنَاكَ حَتَّى وَأَفَاهُ مِنْ تَخْلُفِ عَنْهُ مِنْ عَسْكَرِهِ ثُمَّ سَارَ إِلَى قَلْعَةِ دَرْبَسَاكَ، فَنَزَلَ عَلَيْهَا فِي ثَامِنِ شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَهِيَ مِنْ أَحْصَنِ مَعَاقِلِ الدَّوَاوِيَةِ وَقِلَاعِهِمُ الَّتِي يَدْخُرُونَهَا عِنْدَ نُزُولِ الشَّدَائِدِ بِهِمْ، فَنَصَبَ عَلَيْهَا الْمَجَانِيْقَ، وَتَابَعَ الرَّمْيَ بِالْحِجَارَةِ، فَهَدَمَ قِطْعَةً يَسِيرَةً مِنْ سُورِهَا؛ ثُمَّ أَمَرَ بِالزَّحْفِ عَلَيْهَا وَمَهَاجَمَتِهَا؛ فَتَوَالَى الزَّحْفُ وَالْقِتَالُ، وَتَقَدَّمَ النَّقَابُونَ فَنَقَبُوا مِنْهَا بُرْجاً وَعَلَقُوهُ فَسَقَطَ، وَطَلَبَ أَهْلُهَا الْأَمَانَ فَأَمْنَهُمْ عَلَى أَلَا يُخْرِجُوا مِنْهَا بِغَيْرِ ثِيَابِهِمْ خَاصَّةً، فَخَرَجُوا كَذَلِكَ، وَتَوَجَّهُوا إِلَى أَنْطَاكِيَّةَ، وَتَسَلَّمَهَا فِي تَاسِعِ عَشْرِ شَهْرِ رَجَبٍ.

ذكر فتح قلعة بَغْرَاس

قال: ثم سار عن دَرْبَسَاك إلى قلعة بَغْرَاس، فحصرها بعد أن اختلف أصحابه في حَضْرها، فمنهم من أشار به، ومنهم من نهى عنه وقال: هو حصن حصين، وقلعة منيعة، وهي بالقرب من أنطاكية، فسار إليها وجعل أكثر عسكره مُقابل أنطاكية يغيرون على ضياعها، وبقي هو في بعض أصحابه على القلعة ونصب عليها المجانيق فلم يؤثر فيها، فغلب على الظنون تعذر فتحها، فبينما هم في ذلك إذ جاء رجل من القلعة يطلب الأمان لرسول، فأعطيه، وجاء رسول يطلب الأمان لأهلها، وسلموها على قاعدة دربساك، فأجابهم إلى ما طلبوا، وعاد الرسول ومعه الأعلام السلطانية فرُفعت على رأس القلعة، وتسلمها السلطان وأمر بتخريبها فخربت.

ذكر الهدنة بين المسلمين وبين صاحب أنطاكية

قال: ولما فتح السلطان بغراس قصد حصار أنطاكية فجاءته رسل ييمند تسأله الهدنة ثمانية أشهر بحيث يُطلق جميع من عنده من أسرى المسلمين، فاستشار السلطان أصحابه، فأشار أكثرهم بذلك ليستريح العسكر ويجددوا ما يحتاجون إليه، فأجاب إلى ذلك، ووُقت الهدنة ثمانية أشهر أولها تشرين الأول.

وتوجه السلطان إلى حلب فوصل إليها في ثالث شعبان، وفرّق العساكر الشرقية: عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار، وعسكر الموصل، وغيرهما، ثم رحل إلى دمشق فدخلها في أول شهر رمضان من السنة.

ذكر فتح الكرك والشوبك وما يجاورهما

قد ذكرنا أنَّ السلطان كان قد جعل على الكرك من يحضره، وهو سعدُ الدين كمشبه، في أوَّل سنة أربع وثمانين؛ فلازَمَ الحصار هذه المدَّة الطويلة حتى نفدت ذخائر الفرنج، وأكلوا دوابَّهم، فراسلوا الملكَ العادلَ أخا السلطان، وكان السلطان قد جعله بتلك النواحي في جَمْع من العسكر، وسألوهُ الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إلى سعد الدين مقدَّم العسكر فتسلَّم القلعة منهم وأمنَّهم.

وتسلَّم أيضاً ما قارب هذا الحصن من الحصون وهو الشوبك، وهرمز، والوعيرة، والسلع فأمنت القلوبُ من تلك الجهة.

ذكر فتح قلعة صفد

قال: ولما وصل السلطان إلى دمشق أشير عليه أن يفرِّق العساكر، فقال: إنَّ العمر قصير والأجل غير مأمون، وقد بقي بيد الفرنج هذه الحصون: صفد، وكوكب، ولا بدَّ من الفراغ من ذلك فإنَّهما في وَسْط بلاد الإسلام، فأقام بدمشق إلى منتصف شهر رمضان من السنة، وسار إلى قلعة صفد، فحصرها ونصب عليها المجانيق، وداوَمَ الرَّمي ليلاً ونهاراً، فسألوا الأمان، فأمنَّهم وتسلَّمها، وخرج أهلها إلى صور.

ذكر فتح كوكب

قد قدمنا أنَّ السلطان كان قد جعل على كوكب الأمير قايماز النجمي. فلما حصر السلطان صفد أرسل من يَصُور من الفرنج نجدةً من جهاتهم إلى كوكب، وهم مائتا رجلٍ من الشجعان، فظفر بهم قايماز فقتلهم عن آخرهم، وأرسل إلى السلطان المقدَّمين عليهم، وهما رجلان

من فرسان الأستبار، فأمر بقتلها، فقال أحدهما: ما أظن أننا ينالنا سوء بعد أن رأينا وجهك الصبيح، فعفا عنها واعتقلها.

ولما ملك صفد سار عنها إلى كوكب وشدد الحصار ووالى الزحف، وأشرف على أخذها، فسأل الفرنج الأمان فأمّنهم وأطلقهم، وتسلم الحصن في منتصف ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

فالتحق من كان به بضور فقيوت شوكتهم وكثروا، لأنه اجتمع عندهم شجعان الفرنج وكما تهم، وتابعوا الرّسل إلى ملوك الفرنج بالأندلس وصقلية والجزائر يستغيثون بهم ويسألون الأمداد، فكان من أمرهم ما ذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ثم سار السلطان إلى البيت المقدس فعيّد فيه عيد الأضحى، ثم سار منه إلى عكا وأقام بها إلى أن انسلخت السنة.

وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثار بالقاهرة اثنا عشر رجلاً من الشيعة، وبادوا بشعار العلويين، وصاحوا: يالعليّ، وسلكوا الدروب يُنادون، ظناً منهم أن أهل البلد يُلبّون دعوتهم ويخرجون معهم، فيعيدون الدولة العبيديّة ويملكون البلد ويُخرجون من بالقصر من العلويين؛ فلم يُجبههم أحد من الناس.

فلما خاب سعيهم تفرّقوا فأخذوا، وكتب بذلك إلى السلطان فأهمه وأزعجه.

فقال له القاضي الفاضل عبد الرحيم: ينبغي أن يفرح السلطان بذلك ولا يحزن، حيث علّم من راطن رعيّته المحبة والنصيحة، وترك الميل إلى عدوّه، ولو وضع السلطان جماعة يفعلون مثل هذه الحالة ليعلم بواطن أصحابه ورعيّته، وخسر الأموال الجليلة لكان قليلاً، فسُرّي عنه.

ذكر فتح شقيف أرنون

وفي شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وخمسمائة سار السلطان إلى شقيف أرنون، وهو من أمتع الحصون، ليحصره، ونزل بمرج عُيون، فنزل صاحب الشقيف، وهو أرناط صاحب صيدا، إلى السلطان؛ وكان من أكثر الناس ذهاءً ومكرًا فقال: أنا محب لك ولدولتك، ومعتز بإحسانك، وأخاف أن يطالع المركيس على ما بيني وبينك فينال أولادي وأهلي منه أذى، فإنهم عنده بضور؛ وأحب أن تمهلني حتى أتوصل إلى تخليصهم من عنده، وحينئذ أحضر أنا وهم إلى عندك ونسلم الحصن إليك، ونكون في خدمتك، نقنع بما تعطينا من الإقطاع، فأجابه السلطان إلى ذلك وظن صدقه، واستقر الأمر بينهما أن يسلم الشقيف في جمادى الآخرة.

وأقام السلطان بمرج عُيون ينتظر الأجل وهو قلقٌ مفكرٌ لقرب انقضاء الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية، فأمر تقي الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتيه من بلاد الشرق، ويكون مقابل أنطاكية، لئلا يُغير صاحبها على ما يجاوره من بلاد الإسلام عند انقضاء الأجل.

وكان السلطان أيضاً منزعج الخاطر لما بلغه من اجتماع الفرنج بضور، وما يصل إليهم من الأمداد، وأنهم اجتمعوا في خلق كثير وخرجوا من مدينة صُور إلى ظاهرها؛ فخاف أن يترك الشقيف وراء ظهره، وكان أرناط في هذه المدة يشتري الأقوات من سوق العسكر، والسلاح، وغير ذلك مما يحصن به شقيقه، فبلغ السلطان فلا يُنكره بحسن ظنه، وكان قصد أرناط المطاولة إلى أن يظهر الفرنج من صور.

فلما قارب الأجل تقدّم السلطان إلى الشقيف، واستدعى أرناط وقد

بقي من الأجل ثلاثة أيّام، فجاءه، فتحدّث معه في تسليم الحصن، فاعتذر بأولاده وأهله وأنّ المركيس لم يمكّنهم من المجيء إليه، وطلّب المهلة مدّة أخرى، فحينئذ تحقّق السلطان مكرّه وخداعه، فأخذه وحبسه، وأمره بتسليم الشقيف فطلّب قسيساً وحمله رسالة سرّاً، وأظهر أنّه أمره بتسليمه؛ فامتنع مَنْ بالحصن من تسليمه. فسير أرناط إلى دمشق وسجّنه، وتقدّم إلى الشقيف وضيق على مَنْ به، وترك عليه من يحفظه من الوصول إليه، فتسلّمه في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين، وأطلق صاحبه.

ذكر مسير السلطان من مرج عيون إلى صور وما كان عليها من الوقائع

قال: وجاءت السلطان كتب أصحابه الذين جعلهم يركاً في مقابلة الفرنج على مدينة صور يخبرونه أنّ الفرنج قد اجتمعوا على عبور الجسر الذي لصور، وعزموا على حصار صيدا. فسار جريدة في شجعان أصحابه، فوصل إليهم بعد أن كانت الوقعة بين الفرنج وبين اليرك.

وذلك أنّ الفرنج خرجوا من مدينة صور، فلقبهم اليرك على مضيق وقاتلوهم ومنعواهم، وكانت حرباً شديدة، وأسر من الفرنج جماعة، منهم سبعة رجال من فرسانهم المشهورين، وقتل من المسلمين جماعة، ثم عجز الفرنج عن الوصول إلى صيدا، فعادوا إلى صور والله أعلم.

ثم كانت لهم وقعة ثانية بعد وصول السلطان مع المتطوعة.

وذلك أنّ السلطان لما جاء إلى صور أقام مع اليرك في خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج للخروج؛ فركب في بعض الأيام في عدة يسيرة لينظر إلى مخيم الفرنج من الجبل، فظن من هناك من المتطوعة أنّه قصد الغزاة، فساروا مجدين وأوغلوا في أرض العدو وبعدوا عن العسكر، وخلفوا السلطان وراء ظهورهم؛ فبعث من يردهم فلم يرجعوا، وظنّ الفرنج أنّ وراءهم من يحميهم فأحجموا عنهم؛ فلما علموا بانفرادهم حملوا عليهم حملة رجل واحد، فقتل منهم جماعة من المعروفين؛ فشق ذلك على السلطان والمسلمين. وكانت هذه الوقعة في تاسع جمادى الأولى.

فلما رأى السلطان ذلك انحدر من الجبل بمن معه، وحمل على الفرنج فردّهم إلى الجسر، فرموا بأنفسهم في الماء، فغرق منهم مائة دارع سوى من قتل، وعادوا إلى مدينة صور، فعاد السلطان إلى تبينين، ثم إلى عكا.

ثم كانت وقعةٌ ثالثة في يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة صبر فيها الفريقان.

ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتها

قال المؤرخ: لما كثر جمع الفرنج بصور، على ما ذكرناه من أن السلطان كان كلما فتح حصناً أو مدينة بالأمان نsar أهلها إلى صور بأموالهم وأهلهم، اجتمع بها منهم عالمٌ كثير لا يُحصون، وأموالٌ كثيرة، ثم إن الرهبان والقُسُوس لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس عنهم، وتابعهم جماعة من المشهورين. فأخذهم البترك ودخل بهم إلى بلاد الفرنج يطوفها بهم ويستنجدون أهلها ويستجيرون بهم، ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس.

وصوِّروا صورة المسيح عليه السلام وصورة رجل أعرابي، والعربي يضربه بين جماعة، وقالوا: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله.

فعظم ذلك على الفرنج وحشدوا، حتى النساء، فإنهم كان معهم على عكا عدَّة من النساء يبارزن الأقران، ومن لم يستطع أن يخرج استأجر عنه أو يعطيهم مالاً، فاجتمع لهم من الرجال والأموال مالا يُحصى كثرة.

واجتمعوا بصور والبخر يُمدُّهم بالأموال والأقوات والعدد والدخائر، فضابت عليهم مدينة صور، باطنها وظاهرها؛ فأرادوا قَصْدَ صَيْدا، فكان من ردهم ما ذكرناه.

فاتفقوا على قَصْدِ عكا ومحاصرتها؛ فساروا إليها بفارسهم وزاجلهم، ولزموا البحر في مسيرهم، لا يفارقونه في السهل والوعر، ومراكبهم تُسايروهم وفيها السلاح والدخائر، فكان رحيْلهم من مدينة صور في ثاني

شهر رجب سنة خمس وثمانين وخسمائة، ونُزِلَهم على عكا في مُنتَصف الشهر. فتَخطف المسلمون مِنْهم في مسيرهم وأخذوا مَنْ انفرد.

وجاء الخبر إلى السُّلطان بِرحيلهم، فسار حتى قارِبَهم. ثم نزلوا على عكا قبل وُصُوله إليها، ونازَلُوها من سائر جهاتها براً وبحراً، فلم يَبْقِ للمسلمين إليها طريق، ونَزَلَ السُّلطان عليهم وضرب خِيَمته على تل كيسان وامتدَّت ميمنته إلى تل العياضِيَّة وميسرته إلى النهر الجاري، ونزلت الأتقال بَصْفُورِيَّة، وسيَّر الكتب إلى الأطراف يستدعي العساكر، فأتاه عسكر المَوْصل، وديار بكر، وسنجار، وغيرها من بلاد الجزيرة. وأتاه تقيّ الدِّين ابنُ أخيه، ومظفر الدِّين بن زين الدين صاحب حرَّان، والزَّها، فكانت الأمداد تأتي المسلمين في البر وتأتي الفرنج في البحر.

وكان بين الفريقين مدَّة مُقامهم على عكا حروبٌ كثيرة.

نحن نذكر المشهورَ منها على سبيل الاختصار؛ وأما الحروب التي تكون بينَ بغضٍ هؤلاء وبغضٍ هؤلاء، والمناوشات، فلو شَرَحناها لَطَالَ بها الكتاب، لأنَّ مدَّة هذا الحصار كانت ثلاث سنين وشهراً.

وكان ابتداءُ القتال في مُستَهَل شعبان من السنة. فقاتلهم السُّلطان في ذلك اليوم ولم يَبْلُغ منهم غرضاً؛ ثم باكَرَهم القتال واستدار عليهم من سائر جهاتهم إلى أن انتصف النهار، وصَبَرَ الفريقان أعظم صبر، فحَمَلَ تقيّ الدِّين من الميمنة على مَنْ يَلِيهِ منهم وأزاحهم عن مَوَاقِفهم، فَرَكِبَ بعضُهم بعضاً لا يُلوي الأخ على أخيه، والتجأوا إلى مَنْ يَلِيهم من أصحابهم. وانكشَفَ نصفُ البلد، وملك تقيّ الدِّين مكائهم، ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه، واتصلت الطريق وزال الحصار. وأدخل السُّلطان إلى البلد مَنْ أراد من الرِّجال، وما أَرَادَ من الذَّخائر والأموال، والسَّلاح؛ فكان مِنْ جُملة من أمره السُّلطان بالدَّخول إليها الأمير حسام

الدين أبو الهيجاء السمين، وقُتِل من الفرنج في هذا اليوم خلقٌ كثير.

ثم كانت بينهم وقعتات في ثامن شعبان، وتاسعِهِ وعَاشِرِهِ، وحادي عَشْرِهِ. ثم كانت وقعةٌ في تاسع عشر شعبان بين أهل عكا والعدو فقتل من في الطائفتين وجرح.

ثم كانت الوقعة الكبرى في الحادي والعشرين من شعبان وذلك أن الفرنج اجتمعوا وتشاوروا، وقالوا إن العسكر المصري إلى الآن ماقدم وهذا فعلُ السلطان، فكيف إذا قدمت عساكره فأجمعوا رأيهم على مُناجزة الحرب، وكانت عساكرُ السلطان متفرقة: منها طائفةٌ على حصص في مُقابلة طرابلس؛ وطائفةٌ تقاتل من بقي بصُور؛ وطائفةٌ بالديار المصرية لحماية ثغري: الاسكندرية، ودمياط، ومن بقي من العسكر المصري إلى الآن لم يصل؛ وهذا مما أطمع الفرنج في الظهور.

قال: وأصبح المسلمون في هذا اليوم على عاداتهم، منهم من يتقدم إلى القتال، ومنهم من هو في خيمته، ومنهم من قد توجه في حاجته، فخرج الفرنج من معسكرهم كالجراد المنتشر قد ملأوا الأرض، فكانت وقعة عظيمة ابتدأوها على المسلمين، ثم أنزل الله نصره عليهم، فهزموا الفرنج أقبح هزيمة، وقتل منهم من رؤسائهم عشرة آلاف، وقتل من المسلمين في هذه الموقعة من الغلمان ومن لم يعرف مائة وخمسون، ومن المعروفين الأمير مجلي بن مروان، والظاهر أخو الفقيه عيسى، وكان والي البيت المقدس، جمع العلم والدين الشجاعة، والحاجب خليل الهكاري، وجمال الدين ابن روضة الحموي، ولم يكن بالمصاف، وأسر من الفرنج مقدم الداوية، وكان السلطان قد أسره فيما تقدم وأطلقه، فقتله الآن.

قال: وأمر السلطان بجمع القتلى وإلقائهم في النهر الذي يشرب منه الفرنج.

قال العماد الأصفهاني رحمه الله: ومن العجب أن الذين ثبتوا في هذه الواقعة لم يبلغوا ألفاً، ردّوا مائة ألف، وآتاهم الله قوة بعد ضعف.

قال ابن الأثير: وأُخذ في جُملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات كنّ يقاتِلْنَ على الخيل، فلما أُسِرْنَ وأُلقيَ عنهنّ السلاح عُرفن.

ذكر رَحيل السُّلطان عَن مَنْزلته وتمكّن الفرنج من حصار عكا

كان رَحيلُهُ في رابع شهر رمضان من السَّنة، وسَبَب ذلك أنه لما قُتِل من الفرنج هذه المقتلة العظيمة جافت الأرض منهم وتغيّر الهواء، وحدث للأمزجة فساداً، وحصل للسُّلطان مرض القَوْلنج، وكان يَغْتريه، فأشار عليه الأمراء والأطباء بالانتقال، وقالوا: لو أراد الفرنج أن ينصرفوا لما قدَرُوا فإنّا كُفينا شرَّهم، وإن أقاموا عدنا إلى القتال، فوافقهم. وكان بشّ الرأي.

ورحل السُّلطان إلى منزلة الخُرُوبة، وكتب إلى أهل عكا يُعَلِّمُهُم بسبب رحيله ويحثُّهم على حفظ البلد وغلق أبوابها.

قال: ولما رَحَلَ السُّلطان بعساكره عن تلك المنزلة أَمِن الفرنج وانبسطوا، وانبتوا، وعادوا إلى حصار عكا في البر والبحر، وشرعوا في حفر خندقٍ عليهم يكون بينهم وبين المسلمين إن قصَّدُوهم وعَمِلُوا سُوراً من تراب، وجاءوا بها لم يكن في الحُصبان، هذا والسُّلطان قد اشتدَّ به المرض فلم يستَقِلَّ منه إلى أن تكامل حفر الخندق وعمل السور من ترابه.

ذكر وصول العسكر المصري في البر والأسطول في البحر

قال: وفي مُنتصف شوال سنة خمس وثمانين وصلت العساكر المصرية، ومقدّمها الملك العادل سيّف الدّين، فلما وصلت قويت قلوب النّاس، وأحضر من آلات الحصار شيئاً كثيراً، ثم وصل بغدّه الأسطول المصري في خمسين قطعة ومقدّمهم الأمير حُسام الدّين لؤلؤ، وكان شهماً شجاعاً، مقدّماً ميمون النقيبة، خبيراً بقتال البحر؛ فوصل بغتة، فوقع على بطّسة كبيرة للفرنّج، فغنّمها وأخذ مافيها من الأموال الكثيرة والميرة، وعبر بذلك إلى عكا؛ فسكنت نفوس النّاس بذلك. وقال العماد: إنه ظفر ببطستين.

ذكر خبر ملك الألمان وما كان من أمره إلى نهايته

قال العماد الأصفهاني: ونُمي الخبر بوصول ملك الألمان إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قُصْد العبور إلى بلاد الإسلام. فاستنفر الملك الناصر الجيوش والعساكر من كلّ جهة، وجَهّز القاضي بهاء الدّين ابن شدّاد وأمره بالمسير إلى الديوان العزيز ببغداد وأن يُمّر على صاحب سنجار، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، ويستدعيهم بأنفسهم وعساكرهم.

قال ابن شدّاد: فسرتُ في حادي عشر شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة، وأبلغت الرّسائل، فأجابوا إلى ذلك، فعُدّت في خامس شهر ربيع الأول سنة ستّ وثمانين، وسبقت العساكر.

ثم وصلت عند انقضاء الشتاء في شهر ربيع الأول وأمدّه الخليفة

يَحْمِلُ مِنَ النَّفْطِ الطَّيَّارِ وَحَمَلِينَ مِنَ الْقَنَا، وَتَوْقِيعَ بَعَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ
يُقَبِّضُ عَلَى الدِّيَّانِ الْعَزِيزِ مِنَ التَّجَارِ، وَخَمْسَةَ مِنَ الزَّرَّاقِينَ.

وَكَانَ الْعَدُوُّ قَدْ اضْطَنَّعَ ثَلَاثَةَ أَبْرَجَةٍ مِنَ الْحَشَبِ وَالْحَدِيدِ كَالْجِبَالِ،
وَأَلْبَسَهَا الْجُلُودَ الْمُسْقَاةَ بِالْخَلِّ، فَيَسِّرُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِحْرَاقَهَا،
وَذَلِكَ فِي الثَّامِنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ.

قَالَ: وَكَانَ السُّلْطَانُ قَدْ كَتَبَ إِلَى مِصْرَ بَعْمَارَةَ الْأَسْطُولِ وَإِحْضَارَهُ إِلَى
عَكَا، فَوْصَلَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ ثَامِنِ الشَّهْرِ، فَكَانَتْ الْحَرْبُ فِي هَذَا الْيَوْمِ فِي
ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ فِي الْبَحْرِ، وَالْحَصَارُ فِي الْبَرِّ، وَكَانَ النَّصْرُ بِحَمْدِ اللَّهِ
لِلْمُسْلِمِينَ.

هَذَا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ السُّلْطَانِ لَمَّا بَلَغَهُ خَبَرُ مَلِكِ الْأَلْمَانِ.

وَأَمَّا مَلِكُ الْأَلْمَانِ فَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي تَارِيخِهِ الْكَامِلِ:

وَفِي سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ خَرَجَ مَلِكُ الْأَلْمَانِ مِنْ بِلَادِهِ، وَهُمْ
طَائِفَةٌ مِنَ الْفَرَنْجِ مِنْ أَكْثَرِهِمْ عَدَدًا وَأَشَدَّهُمْ بَأْسًا، وَكَانَ قَدْ أَرْعَجَهُ مَلِكُ
الْمُسْلِمِينَ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ، فَجَمَعَ عَسَاكِرَهُ وَسَارَ بِهِمْ، وَطَرِيقَهُ فِي مَسِيرِهِ
عَلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ. فَأَرْسَلَ مَلِكُ الرُّومِ بِخَبَرِهِ إِلَى السُّلْطَانِ، وَوَعَدَهُ أَنَّهُ
لَا يُمْكِنُهُ مِنَ الْعُبُورِ إِلَى بِلَادِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ مَلِكُ الْأَلْمَانِ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ
عَجَزَ مَلِكُهَا عَنْ مَنَعِهِ مِنَ الْعُبُورِ لَكثْرَةِ جُمُوعِهِ، لَكِنَّهُ مَنَعَ عَنْهُمْ الْمِرَّةَ،
فَقَلَّتْ أَزْوَادُهُ؛ وَسَارُوا حَتَّى عَبَرُوا خَلِيجَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَصَارُوا عَلَى أَرْضِ
بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ مَمْلَكَةُ الْمَلِكِ قَلْجِ أَرْسَلَانَ بْنِ مُسْعُودِ السَّلْجُوقِيِّ. فَلَمَّا
وَصَلُوا إِلَى أَوَائِلِهَا ثَارَ عَلَيْهِمُ التُّرْكَمَانُ يَسَائِرُؤُنْهُمْ، فَيَقْتُلُونَ مَنْ انْفَرَدَ مِنْهُمْ
وَيَسْرِقُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ؛ فَنَالَهُمْ لَذَلِكَ مُشَقَّةٌ عَظِيمَةٌ، وَهَلَكَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مِنَ
الْجُوعِ وَالْبَرْدِ وَكَثْرَةِ الثَّلُوجِ.

فلما قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب الدين ملكشاه بن قلع أرسلان [ليمنعهم] فعجز عن ذلك، فعاد إلى قونية، فأسرعوا السير في أثره فنازلوا قونية وأرسلوا إليه هدية وطلبوا منه أن يأذن للرعية في بيع الأقوات، فأذن في ذلك.

وطلبوا من الملك قطب الدين أن يأمر رعيته بالكف عنهم وأن يجهز معهم جماعة من أمرائه رهائن، فخافهم، وسلم إليهم نيفاً وعشرين أميراً كان يكرههم، فساروا بهم معهم، ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من أذاهم؛ فقبض ملك الألمان على من معه من الأمراء وقبضهم، فمنهم من مات في أسره ومنهم من فدى نفسه.

قال ابن شداد: وأعوزهم الزاد وعزاهم جوع عظيم، وعجزوا عن حمل أقمشتهم، فجمعوا غداً كثيرة وسلاحاً وجعلوا ذلك بيدراً، وأضرموها فيه النار، لعجزهم عن حمله، ولئلا ينتفع به غيرهم.

قال: وبقيت بعد ذلك رابية من جديد.

قال ابن الأثير: ثم سار إلى أن أتى إلى بلاد الأرمن، وصاحبها يومئذ لافون بن اصطفانة بن ليون الأرمني، فأمدهم بالأقوات والعلفات، وحكمهم في بلاده، وأظهر الطاعة لهم، ثم سار إلى أنطاكية، وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده، وعبر ملكهم إليه ليغتسل فيه، فغرق في مكان لا يبلغ الماء وسط الرجل فيه، وكفى الله شره.

وقال ابن شداد: إنه لما وصل إلى طرسوس سبح في النهر فمرض من شدة برد الماء فمات؛ ولما مات سلقوه في خل وجمعوا عظامه في كيس ليحملوها إلى القدس ويدفونها به.

قال ابن الأثير: وكان معه ولد كبير فملك بعده وسار إلى أنطاكية،

فاختلف أصحابه عليه؛ وأحبّ بعضهم العود إلى بلاده فتخلف عنه، ومال بعضهم إلى تمليك أخ له فعاد أيضاً، وسارَ هو فيمن بقي معه، فعرضهم، وكانوا نيفاً وأربعين ألفاً وقع فيهم الوباء والموت، فوصلوا إلى أنطاكية وكأنتهم قد نبشوا من القبور، فتبرّم بهم صاحبها وحسّن لهم المسير إلى عكا، فساروا على اللاذقية وجبلّة وغيرهما من البلاد التي ملكها المسلمون؛ وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأسروا منهم خلقاً كثيراً، ومات أكثر ممّن أسر.

قال: وبلغوا إلى طرابلس وأقاموا بها أياماً فكثّر فيهم الموت، فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل، فركبوا في البحر إلى الفرنج الذين على عكا.

ولمّا وصلوا ورأوا ماناهم في طريقهم وماهم فيه من الاختلاف عادوا إلى بلادهم، فغرقت بهم المراكب، فلم ينجّ منهم أحد.

وقال ابن شدّاد: إنهم لمّا وصلوا إلى أنطاكية طلب ابن ملكهم من صاحبها قلعتها لينقل أمواله وخزائنه وأثقاله، فسلمها إليه طمعاً في ماله، وكان كذلك، فإنه لم يعدّ إليه واستولى الإبرنس على مافيها.

قال: وجاءت فرقة منهم إلى حصن بغراس وظنّوا أنّه للفرنج، ففتح لهم وإلى الحصن. الباب وتسلم منهم الأموال، وأسّر جماعة منهم وقتل، وخرج إليهم العسكر الحلبيّ فقتل منهم وأسّر، ثمّ أخذ من بقي منهم على طريق طرابلس، فخرج عليهم من باللاذقية وجبلّة، فقتلوا منهم وأسروا.

ثم ركب الألمان في البحر من طرابلس بمن بقي معه ليقصّد عكا، في أواخر شعبان، فثارت عليهم ريحٌ كسرت منهم ثلاث مراكب، ووصل الباقيون إلى صور، ثمّ إلى عكا في سادس شهر رمضان سنة ست وثمانين؛ وكان لقدومهم وقع عظيم.

وسَيَأْتِي ذِكْرُ مَا تَجَدَّدَ بَعْدَ وَصُولِهِمْ إِلَى عَكَا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَلْنَذْكُرْ مَا كَانَ قَبْلَ وَصُولِهِمْ مِنَ الْوَقَائِعِ.

ذِكْرُ الْوَقْعَةِ الْعَادِلِيَّةِ عَلَى عَكَا

كَانَتْ هَذِهِ الْوَقْعَةُ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ الْعَشْرِينَ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ.

قَالَ ابْنُ شَدَّادٍ: لَمَّا بَلَغَ السُّلْطَانُ وَصُولَ مَلِكِ الْأَلْمَانِ إِلَى بِلَادِ الْأَزْمَنِ جَهَّزَ بَعْضَ الْعَسَاكِرِ إِلَى الْبِلَادِ الْمُتَاخَةِ لَطَرِيقِ عَسْكَرِ الْعَدُوِّ، وَتَقَدَّمَ أَمْرُهُ بِهَدْمِ سُورِ طَبْرِيَّةَ، وَهَدْمِ: يَافَا، وَأَرْسُوفَ، وَقَيْسَارِيَّةَ، وَهَدْمِ سُورِ صَيْدَا، وَجُبَيْلَ، وَنَقَلَ أَهْلَهَا إِلَى بَيْرُوتَ، فَلَمَّا عَلِمَ الْفَرَنْجُ أَنَّ الْعَسَاكِرَ قَدْ تَفَرَّقَتْ نَهَضُوا لِلْقِتَالِ بَغْتَةً وَهَجَمُوا عَلَى الْمَيْمَنَةِ وَفِيهَا نَحْيِمُ الْمَلِكِ الْعَادِلِ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِمْ رَكِبَ فِيمَنْ مَعَهُ، وَتَلَاخَقَتْ بِهِ الْعَسَاكِرُ، وَاقْتَتَلُوا، فَكَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الْوَقَائِعِ، قُتِلَ فِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْفَرَنْجِ.

قَالَ: وَلَقَدْ خُضِّصَتْ فِي الدَّمَاءِ بَدَائِيتِي وَاجْتَهَدْتُ أَنْ أَعِدَّهُمْ فَمَا قَدَرْتُ عَلَى ذَلِكَ لَكَثْرَتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ؛ وَشَاهَدْتُ مِنْهُمْ امْرَأَتَيْنِ مَقْتُولَتَيْنِ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْوَقْعَةُ فِيمَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ فِي الْمَيْمَنَةِ وَبَعْضِ الْقَلْبِ، وَلَمْ يَنْفَقِدْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا غَيْرُ عَشْرَةٍ مَعْرُوفِينَ.

قَالَ: وَلَمَّا أَخْبَرَ مِنْ بَعْثِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْوَقْعَةِ خَرَجُوا إِلَى نَحْيِمِ الْعَدُوِّ مِنَ الْبَلَدِ، وَجَرَى بَيْنَهُمْ مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ انْتَصَرَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ، وَنَهَبُوا مَا كَانَ بِخِيَامِ الْفَرَنْجِ مِنَ الْأَقْمِشَةِ وَغَيْرِهَا، حَتَّى الطَّعَامَ الَّذِي فِي الْقُدُورِ وَسَبَّوْا النِّسَاءَ.

قَالَ: وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي عَدَدِ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْفَرَنْجِ فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ، فَقِيلَ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ، وَقِيلَ سَبْعَةَ آلَافٍ، وَلَمْ يَنْقُصْهُمْ حَازِرٌ عَنْ خَمْسَةِ آلَافٍ.

ذكر وصول الكندهري إلى عكا نجدة للفرنج

وماجدده من آلة الحصار

قال: ثم وصل الكندهري في البحر نجدة للفرنج في عدد كثير، أضباع مائتة منهم، ففرق الأموال واستخدم؛ ونصب المجانيق على عكا فحرقها المسلمون؛ ثم نصب منجنيقين فأحرقا في أول شعبان، وكان قد أنفق عليهما ألف دينار وخمسمائة دينار، وأسر من الفرنج سبعون في هذا اليوم ومن جملتهم فارس كبير عندهم فقتله المسلمون ثم جهز الفرنج بطساً لمحاصرة بُرج الذبان، وهو برج في وسط البحر على باب ميناء عكا، فعمدوا إلى بطسة من البطس وعملوا بُرجاً على صاريها وملأوه حطباً ونفطاً على أنهم يلحقون البطسة ببُرج الذبان، ثم يحرقون البرج الذي على الصاري. وجعلوا في البطسة وقوداً كثيراً حتى يلقوه في البرج إذا اشتعلت فيه النيران، وعبثوا بطسة ثانية وملأوها حطباً على أنها تدخل بين المراكب الإسلامية ثم يلهبونها فتحترق هي والبطس الإسلامية وجعلوا في بطسة ثالثة جماعة من المقاتلة. وقدموا البطسة نحو البرج، وكان الهواء مُسعداً لهم، فلما أحرقوا البطسة والبرج الذي قصدوا بهما إحراق بطس المسلمين وبُرج الذبان انعكس الهواء عليهم بإذن الله تعالى، فاحترقت البطستان، وانقلبت الثالثة بمن فيها من المقاتلة، والله أعلم.

ذكر ما كان من أمر الفرنج بعد وصول ابن ملك الألمان إلى عكا وما اتخذوه من آلات الحصار

قال: ولما وصل ابن ملك الألمان القائم في الملك بعد أبيه إلى عكا كان وصوله إليها في سادس شهر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة، فكان أول ما بدأ به أنه خرج إلى يزكّية السلطان وقاتلهم، فقتل من أصحابه وجرح خلق كثير، وانكسروا ورجعوا إلى المخيم غروب الشمس من ذلك

اليوم؛ وقتل من المسلمين اثنان وجرح اثنان وجرح جماعة، فلما عاين ذلك رجع إلى قتال مَنْ في البلد، واتخذ من آلات الحصار ما لم يُر قبل ذلك مثله، فكان ممَّا أحدثه آلة عظيمة تسمى دبابة يَدْخُل من تحتها المقاتلة، وهي من الخشب الملبَّس بصفائح الحديد، ولها مِنْ تحتها عجل يحرِّك من داخلها حتى تَنْطَح السُّور بشدَّة عظيمة فتهدمه بتكرار نَطْحها، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجالٌ تسحبُه وفيه كبشٌ، ورأس تلك الآلة ممدَّة شبه سكة المحراث، ورأس الكبش مدوَّر، هذا يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدتها وثقلها، وهي تسمى سفوداً، وأعد الستائر والسلاليم وغير ذلك؛ وأعد في البحر بطسة عظيمة، وصنع فيها بُرجاً بخروطوم إذا أرادوا قلبه على السُّور بحركة انقلب بحركات ويبقى طريقاً إلى المكان الذي ينقلب عليه تمشي عليها المقاتلة، ونصب المجانيق وحكَّماها على السُّور، وتوالت حِجَارُهَا حتى أثرت فيها أثراً بيّناً فأخذ المسلمون سهْمَيْن عظيمين من سهام الجُروح وأحرقوا نِصَالهما حتَّى بقيَا كالشُّعلة من النَّار ثم رُميا في منجنيق الفرنج فاحترق، واتصل لهبُه بالآخر فأحرَّقه.

ثم زحف العدو على البلد في شهر رمضان في خلق كثير، فأملهم أهل البلد حتى سحبوا آلَتهم المذكورة، وقاربوا أن يُلْصَقوها بالسُّور ويحصل منهم في الخندق جماعة كثيرة، فأطلقوا عليهم الجُروح والمجانيق والسهام والنيران، وفتحوا الأبواب على العدو من كل مكان، وكبَّسُوهم في الخندق، فانهزموا؛ ووقع السيف فيمَنْ بقي في الخندق منهم، ثم ألقوا النَّار في كبشهم، فاحترق، وسرَّت ناره إلى السُّفود فاحترق أيضاً، وعلَّق المسلمون في الكبش الكلايب الحديد فسحبوه وهو يشتعل، فحصل عندهم، فأطفأوه بالماء. ووزن ما كان عليه من الحديد فكان مائة قنطار بالشامي فكان هذا اليوم من أحسن أيام الإسلام.

قال: واستأنف الفرنج عمَل دبابة أخرى وفي رأسها شَكْل عظيم يُقال له الكبش، وله قَرْنَان في طول الرُّمَح كالعمد الغلاظ، وسقُفوها هي

والكبش بأعمدة الحديد، ولَبَسُوا رَأْسَ الْكَبْشِ بَعْدَ الْحَدِيدِ بِالنَّحَاسِ، فلم يبق للنار عليها سبيل؛ وشَحْنُوهَا بِالرَّجَالِ. فنصب المسلمون عليها المجانيق ورمَوْها بالحجارة، فأبعدت الرِّجَالُ من حولها، ثُمَّ رَمَوْها بِحُزْمِ الحَطَبِ فَأَحْرَقُوا مَا بَيْنَ الْقَرْنَيْنِ، وَخَسَفَهَا الْمَنْجَنِيقُ، وَخَرَجَ أَهْلُ عَكَا فَقَطَعُوا رَأْسَ الْكَبْشَيْنِ.

قال: وفي العشر الأوسط من شهر رمضان أُلْقَتِ الرِّيحُ بَطُسْتَيْنِ فِيهِمَا رَجَالٌ وَنِسَاءٌ وَصَبِيَّانٌ، وَمِيرَةٌ عَظِيمَةٌ وَأَغْنَامٌ، فَغَنِمَهُمَا الْمُسْلِمُونَ.

وكان في إحداهما امرأةٌ مُحْتَشِمَةٌ كَثِيرَةُ الْأَمْوَالِ؛ وَاجْتَهَدَ الْفَرَنْجُ فِي اسْتِنْقَاذِهَا فَلَمْ يُجِأُوا لِذَلِكَ.

وكان بينهم في بَقِيَّةِ السَّنَةِ عِدَّةٌ وَقَائِعٍ يَطُولُ شَرْحُهَا.

وفي سابع ذي الحِجَّةِ هُدِمَتِ قِطْعَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ سُورِ عَكَا فَسَدَّهَا الْمُسْلِمُونَ وَقَاتَلُوا عَلَيْهَا قِتَالًا شَدِيدًا حَتَّى أَحْكَمُوا بِنَاءَهَا.

وفي ثاني ذي الحِجَّةِ هَلَكَ ابْنُ مَلِكِ الْأَلْمَانِ وَكُنْدٌ كَبِيرٌ وَمَرَضُ الْكَنْدَهْرِيِّ، وَوَقَعَ فِيهِمْ فَنَاءٌ عَظِيمٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ذكر وصول ملك افرنسيس

كان وصوله في ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وخمسمائة في سِتِّ بُطُسٍ عَظَامٍ مَشْحُونَةٍ بِالْمَقَاتِلَةِ، وَكَانَ مَلِكًا مُطَاعًا فِيهِمْ، وَوَعَدَهُم بِالْأَمْدَادِ خَلْفَهُ، وَكَانَ مَعَهُ بَازٌ عَظِيمٌ الْخَلْقِ أَبْيَضُ اللَّوْنِ، فَطَارَ مِنْ يَدِهِ وَسَقَطَ عَلَى سُورِ عَكَا، فَأَخَذَهُ الْمُسْلِمُونَ وَأَنْفَذُوهُ إِلَى السُّلْطَانِ؛ فَبَدَلَ الْفَرَنْجُ فِيهِ أَلْفَ دِينَارٍ فَلَمْ يُجِأُوا لِذَلِكَ.

قال: وزحف الفرنج على عكا في يوم الخميس الرابع من جمادى الأولى سنة سبع وثمانين، ونصبوا عليها سبعة مجانيق، وبلغ من مضايقتهم لها أنهم كانوا يُلقون في خندقها ما يموت من دوابهم وما يؤيس منه ممن أختتته الجراح، وانقسم أهل البلد أقساماً: قسم ينزلون إلى الخندق، ويقطعون الدواب ليسهل نقلها، وقسم ينقلون ذلك إلى البحر، وقسم يذّبون عنهم، وقسم في المنجنقات وحراسة الأسوار.

قال: وكانوا قد صنعوا دبابة عظيمة أربع طبقات، الأولى من الخشب، والثانية من الرصاص، والثالثة من الحديد، والرابعة من النحاس؛ فكانت تعلو على السور وتركب فيها المقاتلة؛ وقربوها من السور، فكاد أهل البلد يطلبون الأمان؛ فأعان الله على حرقتها.

وكان في جمادى الأولى عدّة وقعات.

قال: ولما حُرقت دبابات الفرنج وكباشهم وأبرجتهم الخشب أقاموا أمام خيامهم ممّا يلي عكا تلاً مستطيلاً عالياً من التراب، فكانوا يقفون وراءه ويحولونه ليقربوه من السور؛ إلى أن صارَ بينه وبين السور مقدار نصف غلوة سهم. فلم تعمل فيه النار.

ذكر وصول ملك الإنكلتر

كان وصوله إلى عكا في ثالث عشر جمادى الأولى من السنة بعد أن ملك في مسيره قبرص عنوة؛ ووصل في أربعين قطعة، ولما قديم توالى الزحف والقتال، ثم مرض مرضاً شديداً وجرح الإفرنسييس، وهم مع ذلك لا يدعون القتال، هذا واللصوص يدخلون عليهم في خيامهم ويسرقون أقمشتهم ويخطفونهم، فكانوا يدخلون على الرجل من الفرنج وهو نائم فيوقظونه، ويشيرون إليه بالسلاح: إن تكلمت ذبحناك، ويحملونه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين. فعلوا ذلك مراراً كثيرة.

قال: ثم ترددت الرسائل من الفرنج إلى السلطان مدافعةً بسبب مَرَضِ الإنكليز؛ ثم استأذن في إهداء جوارح، وقال إنها قد ضُعِفَتْ وتغيَّرت من البحر، وطلب أن يُسَيَّر لها دجاجٌ وطيْرٌ تأكله لتقوَّى به ثم تهدى للسلطان. ففهم السلطان أنه يحتاج ذلك لنفسه لأنه حديث عهد بمرض، فسَيَّر إليه ذلك، ثم أرسل في طلب فاكهةٍ وتلج، فأرسل إليه. وهم مع ذلك يُحاصرون البلد أشدَّ حصار.

ذكر استيلاء الفرنج على عكا

قال: ثم اشتدَّ الحصارُ في سابع جُمادى الآخرة، فركب السلطان بالعسكر وجرى قتالٌ عظيم إلى الليل، ولم يَطْعَم في ذلك اليوم؛ ولما حال بينهما الليل عادَ إلى خيامه، ثم باكر القتال، فوصلت مُطالعةٌ من البلد يذكرون أن العجز قد بلغ بهم الغاية، وأنهم في الغد متى لم يُعْمَل ما يمنع العدو طلبوا الأمان وسلموا البلد، فرأى السلطان مهاجمة العدو، فلم يساعدهُ العسكر، فضُعِفَتْ نفوسُ أهل البلد، وتمكَّن العدو من الخنادق فملكوها، ونقبوا السور وأحرقوه، فوقعت بدنةٌ من الباشورة ودخل العدو إليها، فقتل منها زهاء مائة وخمسين نفساً؛ وكان منهم ستة من أكابرهم، فقال أحدهم: لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم، فقتله رجلٌ من الأكراد وقتل الخمسة، فناداهم الفرنج من الغد احفظوا السَّنة فإننا نطلقكم كلَّكم بهم، فقالوا: قد قتلناهم. فقوي عزمُ الفرنج على عدم المصالحة وأنهم لا يُطلقون من في البلد إلا بإطلاق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين، وتُعَادُ إليهم البلاد السَّاحليَّة.

فصالحهم من بالبلد على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعُدَد والمراكب، ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير تجاهيل الأحوال، ومائة أسير مُعَيَّنِينَ، وصليب الصلْبُوت؛ على أنهم يخرجون بأنفسهم ونسائهم وذرائعهم، ومأموهم من أموالهم وأقمشتهم.

فكتبوا في ذلك إلى السلطان، فأنكر هذا الأمر واستعظمه؛ وعزم على أن يكتب بالإنكار على من بعثه، وجمع أمراءه وأصحاب المشورة، فما شعر المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وعلبانة على أسوار البلد؛ وذلك ظهر نهار الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة، سنة سبع وثمانين وخمسة.

فعظمت المصيبة على المسلمين، وتحيز المسلمون إلى بعض أطراف البلد، ثم ترددت الرسائل بينهما على تقرير القاعدة في خلاص من بعثه من المسلمين، فاستقرت الحال على مائة ألف دينار وستمئة أسير وصليب الصليبوت، وأنفذوا ثقاتهم وعايثوا الصليب في ثامن عشر شهر رجب؛ ثم طلبوا أن يسلم ذلك إليهم، فإذا صار عندهم أطلقوا الأسرى؛ فامتنع السلطان من ذلك إلا بعد تسليم الأسرى.

فلما رأوه قد امتنع منه أخرجوا خيامهم إلى ظاهر الخنادق في الحادي والعشرين من الشهر؛ ثم ركبوا في وقت العصر في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وثمانين، وجمعوا الأسرى، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد، فقتلوه صبراً، طعناً بالرمح وضرباً بالسيف، رحمة الله عليهم؛ ولم يبقوا من المسلمين إلا أكابرهم. فلما اتصل الخبر بالسلطان حمل المسلمون عليهم، وجرت بينهم حرب عظيمة دام القتال فيها طول النهار، وتصرف السلطان فيما كان قد حصله من المال، وأعاد الأسرى إلى أماكنهم، ورد صليب الصليبوت إلى مكانه.

ذكر ما كان بعد أخذهم عكا

قال: ثم سار الفرنج إلى صوب عسقلان في مستهل شعبان، وسار السلطان في عراضهم، والمسلمون يتخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون؛ وكل أسير جيء به إلى السلطان أمر بقتله، ثم كانت وقعة عظيمة في

قال: ثم سار السلطان إلى الرملة في سابع شوال وأقام بها عشرين يوماً، فجرت وقعات؛ منها وقعة في ثامن شوال، وفي سادس عشره، والدائرة فيها على العدو.

وفي ثامن عشر شوال اجتمع الملك العادل والإنكلتير على طعام، وانفصلا على توادد، وسأله الاجتماع بالسلطان فامتنع السلطان من ذلك.

ثم رحل الفرنج في ثالث ذي القعدة إلى الرملة، وأظهروا قصد بيت المقدس والحرب مستمرة بين المسلمين وبينهم، وزحل السلطان إلى القدس في الثالث والعشرين من ذي القعدة بنية المقام به، وشرع في تحصينه.

ذكر وقوع الصلح والهدنة العامة بين المسلمين والفرنج

قال: ولم تزل الحرب قائمة والمراسلات متصلة بينهم على طلب الصلح، والسلطان لا يرضى بما يختارونه، وهم لا يوافقون على ما يريد السلطان، إلى الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، فوقع هدنة عامة في البر والبحر، وجعل لهم من يافا إلى قيصرية إلى عكا إلى صور، وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية. وأخرج من عمل يافا الرملة ومجدل يابا ومن عمل عكا الناصرة وصفورية واشترط خراب عسقلان، ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، أولها مبتدأ أيلول الموافق لهذا التاريخ، وذلك بعد سؤال ملك الإنكلتير وتكرار رسائله.

قال: ثم أمر السلطان أن يُنادى في الطرقات والأسواق: ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادنا يدخل بلادهم ومن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل.

تاسع شعبان عند رَحيلهم من قيساريّة، انتصر فيها المسلمون، ثمّ رحل السلطان فنزل شعراء أَرُسُوف، وطلب ملكُ الإنكليّز الاجتماع بالملك العادل خلوةً، فاجتمعوا، فأشار بالصُّلح، وكان حاصلُ كلامه أنّه قد طال بيننا القتال ونحن في نُصرة فرنج السّاحل، ورأيي الصُّلح، ويرجع كلّ منا إلى مكانه، فقال له الملك العادل: على ماذا يكون الصُّلح؟ قال: على أن تسلّموا لأهل السّاحل ما أخذ منهم من البلاد. فأبى الملك العادل.

ثم كانت وقعة أَرُسُوف في يوم السّبت رابع عشر شعبان؛ وكانت الدائرة فيها على الفرنج.

ذكر هدم عسقلان

قال: ثمّ رحل السلطان بعد وقعة أَرُسُوف في تاسع عشر شعبان، ونزل بالرملة، واستشار أصحابه في أمر عسقلان، فأشاروا عليه بتخريبها خشية أن يستولى العدو عليها وهي عامرة، فتكون سبباً لأخذ البيت المقدّس وقطع طريق مصر، فعلم السلطان عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم بقتال عكا؛ فسار حتى أتى عسقلان، وأمر بتخريبها، وكان هو وولده الملك الأفضل يستعملان الناس في الخراب خشية من حضور العدو فيتعدّر هدمها، ثمّ حرّقها بالنّار؛ والأخبار تتواتر من جهة العدو بعمارة يافا، واستمر الخراب والحريق إلى سلخ شعبان.

ثمّ رحل السلطان عنها يوم الثلاثاء، ثاني شهر رمضان فنزل على الرملة يوم الأربعاء، وأمر بتخريب حِصنها وتخریب كنيسة لدّ، وركب جريدةً إلى القدس الشريف، فوصل إليه في يوم الخميس.

وفي يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان من السّنة كانت بينهم وقعة انتصر فيها المسلمون.

ووقع له عزمُ الحج في ذلك المجلس.

ثم أمر بإرسال مائة نقاب لتخريب سور عسقلان وإخراج الفرنج منها، فخرّبت، وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً واختلط العسكران.

ثم اشتدّ المرض بالإنكلتير فرحل ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان وسار معه الكندهري إلى جهة عكا، ولم يبق بيافا إلا مريض أو عاجز، ثم أذن السلطان للناس في الرجوع إلى أوطانهم، فسار عسكره إزبل والموصل وسنجار وقوي عزمه على الحج.

ثم عاد السلطان إلى القدس ورتّب أحواله وعيّن الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارستان، ونقل إليه العقاقير والأدوية؛ وأدار سور القدس، وأقام بالقدس إلى يوم الأربعاء رابع شوال، وخرج في يوم الخميس خامس الشهر قاصداً دمشق، فلما انتهى إلى طبرية وصل إليه بهاء الدين قراقوش الأسدي، وقد خلص من الأشر؛ فاستصحبه معه وكشف القلاع والحصون، ودخل إلى دمشق في يوم الاثنين السادس عشر من شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وجلس الناس يوم الخميس؛ وأنشده الشعراء؛ وكان مجلساً عاماً، وعمّ الناس فيه بَعْدَهُ. ولم يزل كذلك إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين

يوسف بن أيوب

كانت وفاته رحمه الله تعالى بعد صلاة الصبح يوم الأربعاء لثلاث بقين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وكان مولده بقلعة تكريت في شهر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة؛ فكان عمره سبعاً وخمسين سنة تقريباً ومدة ملكه منذ ولي وزارة العاضد لدين الله ولقب بالملك الناصر لثمان بقين من مجدى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وإلى هذا التاريخ أربعاً وعشرين سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام؛ ومنذ خلع العاضد في سابع المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة اثنتين وعشرين سنة وشهراً واحداً وعشرين يوماً.

وكان ابتداء مرضه يوم السبت سادس صفر؛ ونال المسلمون لوفاته من الألم ما لا يُعبر عنه، ولما مات دُفن بقلعة دمشق في منزله؛ وما زال ابنه الأفضل يتروى في موضع ينقله إليه، فشرع في بناء تربته عند مسجد القدم وبنى عندها مدرسة للشافعية، وأمر ببناء التربة في سنة تسعين وخمسمائة؛ فاتفق وصول ابنه العزيز تلك السنة من الديار المصرية للحصار، فخرب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم أمر بعمارة القبة في حد جامع دمشق. فعمرت ونقل إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة؛ ومشى الأفضل أمام تابوته، وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع، وصلى عليه قدام باب النسر صلى عليه القاضي محيي الدين محمد بن علي بإذن الأفضل، ثم حمل إلى لحده، وألحده الأفضل وجلس في الجامع ثلاثة أيام.

وكان الملك الناصر رحمه الله كريماً جواداً شجاعاً، حسن الأخلاق، مضت أكثر أيامه في الجهاد في سبيل الله تعالى.

قال ابن شداد: لما مات السلطان لم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرما واحداً ذهباً صورياً ، ولم يخلف ملكاً في سائر أنواع الأملاك ، وحسب ما وهبه من الخيل في مدة مقامه على عكا فكان تقديره اثني عشر ألف رأس: ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه يلزمه في طلبه: وما حضر اللقاء إلا استعار فرسا فركبه، وكان لا يلبس إلا ما يحل كالكتان والقطن والصوف، وكان له ركعات يصلّيها من الليل .

وخلف رحمه الله من الأولاد، على ما نقله العمد الأصفهاني وغيره سبعة عشر ولداً: الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، وهو أكبرهم؛ والملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان؛ والملك الظاهر غياث الدين، وقيل شهاب الدين، أبو منصور غازي؛ والملك الظاهر مظفر الدين أبو العباس خضر؛ والملك المعز فتح الدين أبو يعقوب يوسف؛ والملك الأغر شرف الدين أبو يوسف يعقوب والملك المؤيد نجم الدين أبو الفتح مسعود؛ والملك الزاهر مجير الدين أبو سليمان داود؛ والملك المفضل قطب الدين أبو محمد موسى؛ والملك الأشرف عز الدين محمد؛ والملك المحسن شهاب الدين أبو العباس أحمد؛ والملك الجواد ركن الدين أبو سعيد أيوب؛ والملك المظفر فخر الدين أبو منصور ثورانشاه؛ والملك العادل نور الدين أبوالمظفر ملكشاه؛ والملك المنصور نصر الدين ميرمران؛ والملك الصالح معين الدين إسماعيل ؛ وعماد الدين شادي، ويسمى عمر؛ وابنة صغيرة.

ذكر من ملك الممالك التي كانت جارية في ملك
السلطان

الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمه الله تعالى
من أولاده وإخوته وأقاربه وألزامه بعد وفاته

استقرّ ملك دمشق وما معها للملك الأفضل نور الدين أبي الحسن
علي، وهو أكبر أولاده، ووليّ عهده، وعنده أخواه شقيقاه، الملك الظافر
خضر، والملك المفضل موسى.

واستقرّ ملك الديار المصريّة للملك العزيز عماد الدين أبي الفتح
عثمان.

واستقرّ ملك حلب وما يليها للملك الظاهر غياث الدين غازي،
وعنده أخوه: الملك الزاهر داوود، فجعله من قبله على البيرة.

واستقرّ ملك حمص والرحبة [وتدمر] للملك المجاهد أسد الدين
شيركوه بن محمد بن شيركوه، وهو ولد ابن عمّ السلطان الملك الناصر.

واستقر ملك حماة وسلمية والمعرة ومنبج للملك المنصور ناصر الدين
محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب.

واستقرّ ملك حرّان، والرّها، وميافارقين، والرّقة، وقلعة جعبر، والكرك
والشّوبك للملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وهو أخو
السلطان.

واستقرّ ملك بعلبك للملك الأجد [بهرامشاه] بن قرخشاہ بن
شاهنشاه بن أيوب.

واستقر ببغرين وأفامية وكَفَر طاب عز الدين [إبراهيم] بن شمس الدين بن المقدّم.

واستقرّ بصهيون ناصر الدين [منكورس بن خمارتكين].

[واستقر] بشيزر وأبي قبيس [سابق الدين عثمان بن الداية].

واستقرّ بتلّ باشر بدر الدين دُلْدُرم بن ياروق.

واستقرّ بَعَيْتَاب ناصر الدين شحنة حلب.

هذه الممالك التي كانت جارية في ملك السلطان الملك الناصر رحمه الله.

فلنذكر الآن أخبار الديار المصرية ومن ملكها بعد وفاة السلطان الملك الناصر، ونجعل مايقع لهؤلاء الملوك، أو في ممالكهم، من الحوادث في ضمن أخبار ملوك الديار المصرية؛ وننبّه عليها بالتراجم، على ماوقف عليه إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الملك العزيز عماد الدين أبي الفتح عثمان

ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب

وهو الثاني من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية ملك الديار المصرية عندما وصل إليه الخبر بوفاة والده السلطان الملك الناصر، رحمه الله تعالى، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

ولما ملك أحسن السيرة وأطلق جميع ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم من المكوس على اسم الزكاة، وجّهز إلى البيت المقدس عشرة آلاف دينار لتصرف في مصالحه؛ وأكرم أصحاب أبيه وعاملهم الأفضل أخوه صاحب دمشق بخلاف ذلك، فمالت القلوب إلى الملك العزيز ونفرت عن الملك الأفضل، فاستشعر الأفضل من أمرائه، وعزم على القبض عليهم؛ فبلغهم الخبر ففارقوه، واتصلوا بخدمة أخيه الملك العزيز بالديار المصرية في بقية السنة فأكرمهم وقربهم وكان منه ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الفرنج على جبيل

كان استيلاؤهم على حصن جبيل في مستهل صفر سنة تسعين وخمسمائة بمواطاة ممن كان فيه، وذلك أن الحصن كان عدّة من فيه خمسة عشر رجلاً، فندب متولّي البلد منهم عشرة لجباية الجزية، وخرج متولّي الحصن إلى الحمام، فاستصحب أحد الخمسة الذين تأخروا بالحصن معه، وبقي به أربعة من الأكراد، فأغلقوا باب الحصن، وتوجّه أحدهم إلى الفرنج الذين بالتيرون فأخبرهم بخلو الحصن، وكان به حداد نصراني، فصعد هو والثلاثة إلى أعلى الحصن، فلما عاد الوالي منعوه من الدخول ورّموه بالحجارة، فكسروا يده، وقالوا هذه القلعة قد صارت للقومص، وجاء أهل التيرون بالليل فطرّدوا من كان بالبашورة من المسلمين.

ووصل ابن ريمون أخو صاحب جبيل وتحدثوا مع الأكراد، فنزل أحدهم إليهم وقرّر معهم أن يُعطوا نصف ما بالحصن من سائر الحواصل وغيرها، وأن تكون لهم ثلاثة ضياع من عمل طرابلس؛ واستحلفهم على ذلك. وتسلموا الحصن، فرتب الفرنج فيه من الجرّحية ألفاً وخمسين جرخيا.

فلما اتصل الخبر بالسلطان الملك العزيز عظم عليه، وأخرج خيامه في يوم الأحد العشرين من شهر ربيع الأول، وأمر بالاستعداد للخروج إلى الشام لاستنقاذ جبيل من الفرنج، وأرسل شمس الخلافة رسولا إلى الفرنج بسبب إعادة جبيل، فتوجّه في سادس عشر شهر ربيع الآخر.

وفي سنة تسعين وخمسمائة، لسبع بقين من شهر ربيع الأول، عُزل القاضي صدر الدين بن دزباس وفوض القضاء بالديار المصرية للقاضي زين الدين أبي الحسن على بن يوسف بن عبد الله بن رمضان الدمشقي؛ فوليّ وعُزل في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وأعيد القاضي صدر الدين، وقيل بل ولي القاضي محيي الدين محمد بن عبد الله بن أبي عصرون، وعُزل في يوم الأحد سادس عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وأعيد القاضي زين الدين الدمشقي فولي سنة، ثم عزل، وأعيد القاضي صدر الدين إلى أن توفي سنة خمس وستمائة والله أعلم.

ذكر مسير الملك العزيز إلى الشام

والصلح بينه وبين أخيه الملك الأفضل

وعوده إلى القاهرة

قال: وفي تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنة تسعين وخمسمائة توجّه الملك العزيز إلى الشام، وترك بالقاهرة من الأمراء بهاء الدين قراقوش

وصبريم، وجَهَّز ثلاثة عشر لواءً إلى ثَغْرِي الإسكندريَّة ودمياط ومعهم سبعمائة فارس، واستصحب معه من الأمراء سبعةً وعشرين أميراً عدتهم تقدير ألفي فارس، ومن الحلقة ألف فارس. فلما اتصل بالأفضل خروجه استعدَّ وأنفق النفقات الوفرة، وخرج إلى رأس الماء في سبعمائة فارس، ولما وصل الملك العزيز إلى الغور اختلط على الخاصَّ الأفضلي به، وشرع في إقطاع أعمال الشام، وجَهَّز من أمرائه: قائماًز، وعشرين أميراً، منهم، جهَّارَكس، وميمون القُصْرِي، وسُنُقُر الكبير، والشجاع الخادم، والجناح، وجُرْدِيك، فتقدَّموا ووقعوا على أطراف العسكر الشامي، فرجع الأفضل إلى دمشق وغلقت أبواب البلد لما قرب العسكر المصري منها.

وتقدَّم العزيز وترك ثِقْلَه بمسجد القصب بظاهر دمشق، ونزل هو بالكُسوة؛ فاستنجد الأفضل بعمه الملك العادل فحضر إلى دمشق، وحضر الظاهر من حلب، وناصر الدين صاحب حماة، وأسد الدين صاحب حمص، وعسكر الموصل وغيره. فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أن لاقدرة له بهذا الجمع، وكتب إلى عمه العادل يقول: أنا ماخرجت من الديار المصرية إلا لاستنقاذ جُبيل من الفرنج، فبلغني أن الملك الأفضل حالف الفرنج عليّ، واستنصر بهم، ووعدَّهم أن يُعيد البلاد إليهم، فافتضى ذلك سَوْقاً إليهم، وبلغنا أنك تدخل بيننا وبينه، وحوشيت من ذلك، وأنا خير لك من غيري، وإن أردت أن تكون السلطان ورئيس الجماعة فأنا راضٍ بذلك.

وكتب لأخيه الملك الظاهر وغيره من أصحاب الممالك وتردَّت الرسائل بينهم.

وتقرَّرت الحال على أن يكون للملك العزيز البيث المقدس وماجاورة من أعمال فلسطين؛ وأن تكون دمشق وطبرية وأعمال الغور للملك الأفضل؛ وأن يُعطى الأفضل لأخيه الملك الظاهر جبلة واللاذقية؛ وأن

يكون للملك العادل بالديار المصرية إقطاعه الأول، وأن يُخْطَبَ للملك العزيز ببلاده، وتُنْقَشَ السَّكَّةُ باسمه؛ وأن الملك العزيز يُمدُّه بألف فارس إعانةً له على فتح خلاط.

واجتمع الملك العادل بالملك العزيز، وتزوَّج العزيز ابنته، وجاء الملك الظاهر صاحب حلب إلى أخيه الملك العزيز. وتقرَّرت قواعد الصلح.

وتأخر الملك العزيز إلى الكُشوة ثم إلى مَرْج الصُّفَر، ومريض به ثم أفاق.

ولما عزم على العُود إلى الديار المصرية خرج لوداعه سائر الملوك الذين حضروا لنصرة الأفضل، ثم خرج إليه الأفضل في سابع شعبان وأدركه بفيق، وهي أعلى الغور، فأكرمه الملك العزيز، وبالع في احترامه وساله الأفضل أن يرجع إلى دمشق ليزور قبر أبيه، فأجاب إلى ذلك؛ ثم أشار عليه أصحابه ألا يفعل، فامتنع، وعاد الأفضل، وسار العزيز إلى الديار المصرية فدخلها في أواخر شعبان.

وفي مستهل جمادى سنة سبعين وخمسمائة هبَّت رياحٌ عاصفةٌ بالقاهرة من وقت العصر، وسقطَ في ثالث الشهر بردٌ كثيرٌ أكبره قدر البيض وأصغره قدر النبق، وصار على جبل المقطم منه شيء كثير كالجبل الثاني؛ ونقل النَّاسُ منه مدَّة أربعة أيام؛ ثم سأل حتى ملأ الخندق، ودخل الماء من المرامي التي في السور إلى القاهرة، وعلاً، حتى خيف على البلد.

ذكر خروج الملك العزيز لقصد الشام ثانيا ورجوعه

وقصد العادل والأفضل الديار المصرية

وماتقرر من القواعد

كان سبب ذلك أن الملك الأفضل قلّد وزارة دمشق لضيء الدين ابن الأثير الجزري وحكّمه في البلاد، فقصد الأمراء بالأذى والإطراح، وتشاغل الأفضل عنهم، ففارق خدمة الأفضل ميمون القصري وسنقر الكبير، وعز الدين سامة، وغيرهم، وحضر بعض هؤلاء إلى الديار المصرية، وانضموا إلى الملك العزيز، وقالوا له: إنّ الأفضل مسلوب الاختيار؛ وحرّضوه على قصد دمشق؛ فخرج إليها في سنة إحدى وتسعين وخمسة.

فلما اتّصل خبرُ خروجه بالأفضل ركب من دمشق في ربيع مجادى الأولى وتوجّه إلى عمّه الملك العادل، وهو بقلعة جعتر، واستنجد به، وسار إلى أخيه الملك الظاهر بحلب واستنجد به أيضاً، فركب الملك العادل وجحد في السير إلى دمشق خوفاً أن يسبقه العزيز إليها، وكاتب الملك العادل الأمراء الذين صُحّبه العزيز، وكان العزيز قد نزل بمنزلة الفوّار على مرحلتين من دمشق، واستمالهم وحدّتهم من العزيز، فمالوا إليه، واستمالوا أبا الهيجاء السمين، وفارقوا العزيز وقصدوا دمشق؛ وذلك في يوم الاثنين ربيع شوال من السنة.

فلما وصلوا إلى دمشق اتّفق العادل والأفضل، وتحالفا على قصد العزيز وانتزاع الديار المصرية منه، على أن يكون ثلث الديار المصرية لملك العادل إقطاعاً، والثلثان للملك الأفضل. وساروا في طلب العزيز، فرجع إلى الديار المصرية وجحد في السير ودخل القاهرة.

قال: ولما وصل العادل والأفضل إلى القدس سلّماه وأعماله وما يجاوره من أعمال الساحل لأبي الهيجاء السمين، فرتب فيه نوابه، وسار معهما إلى الديار المصرية، فنزل الملك العادل على بليس، وكان السعز ماشيا فاستظهر العزيز عليهم.

قال: ولم يكن غرض العادل قصد مصر، وإنما خشي على الملك العزيز من الأمراء أن يقتلوه ويستولوا على الديار المصرية، فقصد لها هذا السبب.

ولما ضاقت الميرة على العسكر الشامي، وقلت أزوادهم ندموا على وصولهم إلى الديار المصرية؛ فأرسل الملك العادل إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم في الاجتماع به، فأذن له العزيز في ذلك؛ فخرج إليه، فاستبشر الناس بخروجه رجاء وقوع الصلح، وركب العادل وتلقاه على فراسخ، فاجتمعا، واستقرت القواعد على أن يكون إقطاع العادل بمصر على عادته، وأن تكون إقامته عند الملك العزيز بالقاهرة، وأن يعفو[العزيز] عن الأسدية والأكراد.

واجتمع العادل بالأفضل وأمره بالرجوع إلى دمشق، ثم اجتمع الأفضل بالعزيز، واستقر الصلح بينهما، وأهدى العزيز إليه هدايا جليلة المقدار، ورجع الأفضل إلى دمشق ومعه أبو الهيجاء السمين، فدخلها في المحرم سنة اثنتين وتسعين وخمسة.

ولم تطل المدة إلى أن بلغ الملك العادل عن الأفضل ما استوعر خاطره، فعند ذلك قرر، مع الملك العزيز، أن يُجهز العساكر لتمهد قواعد الملك بالشام وسائر البلاد، واتفقا على أن يكون العزيز بدمشق والعادل ينوب عنه بالديار المصرية.

ذكر ملك العزيز دمشق وخروج الأفضل إلى صرخد

قال: ولما اتفق الملك العادل والملك العزيز على ماقرّراه تجهّز [الملك العادل] للمسير إلى دمشق وبرز بخيامه من القاهرة في يوم السبت مستهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة في ثلاثة آلاف فارس. ثم برز الملك العزيز في يوم الثلاثاء، رابع الشهر، وظاهرُ خروجه وداعه لعمّه الملك العادل، وحث العساكر المجرّدة على الخروج، وأقام ببركة الجبّ.

فلما كان في العشرين من الشهر اتصل بالملك العادل عن الملك الأفضل أنّه كاتب الأسديّة، وأنّه قبض على أموال كانت للعادل بدمشق، وأطلق رهائن كانت عند نوابه، وأنّه وافق الظاهر صاحب حلب؛ فقرّر مع الملك العزيز أن يتوجّها جميعاً ويأخذوا دمشق من الأفضل وحلب من الظاهر، فاتفقا على ذلك وعقدا بينهما يمينا.

وشرع الملك العزيز في تجهيز رجال الحلقة والأعيان، ورَحَلَ هو وعمّه الملك العادل من البركة في يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى، فحَصَلَ لِلْعَادِلِ ضعفٌ في هذا النهار منعه عن الحركة، وكان وُصُولهما إلى بليّس في سابع عشر الشهر، وكُمِلَت صَحّة العادل في العشرين من الشهر، وسارَ إلى الشام على مهل ورفق.

فلما تحقّق الملك الأفضل قُصْدَهما لبلادهِ اسْتَشَارَ شيوخ دولته. فأشاروا عليه أن يستقبل أخاه وعمه ويسلّم لهما الأمر؛ وأشار وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري بالتصميم والمخالفة، فرجع إلى رأيه، وحصّن البلد، وفرّق الأمراء على الأسوار، فلما رأى شيوخ الدولة وأكابرها أنّه لم يرجع إليهم واعتمد على رأي وزيره راسلوا الملك العزيز والملك العادل في انتهاز الفرصة؛ فركبا بعساكرهما وتأهّبا في يوم الأربعاء

السادس والعشرين من شهر رجب، وخرّج أهل دمشق لِقِتالهم؛ والتّقوا في السّابع والعشرين من الشّهر، فلم يكن بأسرع من انهزام العسّكر الشّامي. وتبعهم العزيز والعاقل حتّى ألجأهم إلى سُور البلد، ودخلوا دمشق، وتبعهم العسّكر، فملكّت البلد.

فعندها ركب الملك الأفضل إلى خيمة أخيه الملك العزيز، واجتمع به بظاهر دمشق.

قال: ودخل الملك العادل ومنّ معه باب ثوما والباب الشّرقى، ونزل الدّار الأسدية، ودخل الملك العزيز من باب الفرج وبات في دار عمّته الحساميّة، ومكّك العزيز دمشق وأقيمت له الخطبة في يوم الجمعة الثامن والعشرين من الشهر.

قال: ولما ملك الملك العزيز دمشق ندم على ما كان قرر من إقامته بالشّام وتمكّن عمه الملك العادل من الدّيار المصريّة، واعتذر إلى أخيه الملك الأفضل في السّر، فأظهر الأفضل سرّه لمن معه فظنوا أن هذه خديعة، فأرسل إلى العادل وأعلمه بمُراسلة العزيز، فعتبّه العادل، فأنكر الحال، وخرّج الأفضل إلى صرّخد، وقُرّر له في كل سنة مائتي ألف درهم من صرّخد وغيرها، وهو كارهٌ لذلك، وسأل أن يكون بمكّة؛ وينقطع إلى الله تعالى، وينزل عن الملك، فلم يُجبّه العزيز.

وكان خروج الأفضل من دمشق إلى صرّخد يوم الاثنين، ثاني شعبان سنة اثنتين وتسعين، فكانت مدّة ملكه لدمشق، منذ وفاة والده إلى أن ملكها العزيز، ثلاث سنين وخمسة أشهر.

ودخل الملك العزيز قلعة دمشق واستقرّ بها في يوم الأربعاء رابع شعبان من السنة المذكورة، وجلس يوم الجمعة بدار العدل واسقط

المَكُوس بدمشق ما هو مَقَرَّر على سُوق الرقيق، وسُوق الدَوَاب، ودار البطيخ، والملاهي، والعصير، والفَحْم، والحديد، وسَبَكِي الفولاذ والزجاج.

قال: وهرب ضياء الدين ابن الأثير ونُهبت داره.

ونُودي في دمشق أن يلبس أهل الذِّمَّة العِمام الغيار ليُعرفوا من المسلمين، وكان سبب ذلك أن الملك العزيز لما جلس بدار العدل دخل عليه رجل له هيئةٌ حسنة، فما شكَّ العزيز أنه من الأشراف، فلما علم أنه ذميُّ أمر بذلك.

قال: ولاطَف الملكُ العزيز عمَّه الملك العادل إلى أن قام بدمشق في النِّياية، فأجاب بَعْد امتناع، وسلَّم ديوان دمشق لصفيِّ الدين ابن شُكر كاتب العادل.

وفارق الملك العزيزُ دمشق في العشر الأوسط من شعبان، وعادَ إلى الدِّيار المصريَّة بعد أن استخْلَف الملك العادل وسلَّم إليه دمشق وما هو مضافٌ إليها من القلاع والحصُون والأعمال، والخطبة والسَّكة باسم الملك العزيز.

ودخل العزيز إلى القاهرة جريدةً في رابع شهر رمضان؛ وفوَّض شدَّ الأموال والخطاب عليها للأمير فخر الدين إياز جهاركس؛ وضمن الخُمور في كلِّ سنة بسبعة عشر ألف دينار، فتجاهر النَّاس بها وظهر الفساد وفشا في النَّاس؛ واجتمع الرِّجال والنِّساء في شهر رمضان من غَيْر استِتار، سبَّما في الخليج وساحل مصر؛ ورَتَّب ضِمان الخمر في النِّفَقَة على طعام السُّلطان؛ وهذه من البَلايا التي لم يُسمع بمثلها، فإنَّ عادة الملوك والأكابر [أن] يجتهدوا أن يكون مأكلُهم من أحلِّ الجهات كالجوالي وما يُنَاسِبها، وبسبب إطلاق الخُمور كثر القتل بالقاهرة والجراحات، وخطَف العِمام والأمتعة والمأكَل من الأسواق.

قال المؤرخ: وغلّت الأسعار في هذه السنة بالدينار المصريّة، واشتدّ الأمرُ على النَّاسِ، وكثُر الوِبَاءُ، وبلغ القمحُ كلّ أردبَ بدينارين، وأظُنّ الدينار ثلاثة عشر درهماً وثُلث درهم، وهذا كان نهاية الغلاء في ذلك العصر.

ولقد وصف الفاضل عظم ماحلّ بالنّاس من غلوّ السّعر أمراً عظيماً، فكيف لو أدرك الفاضل الديار المصريّة في سنة خمس وتسعين وستّمائة، وقد أبيع القمح سعر الأردب ثلاثة عشر ديناراً ونصف دينار، وأبيع الفرُوج بخمسين درهماً، ورطل البطيخ الأخضر بأربعة دراهم، والسّفَرجلة بثلاثين درهماً.

قال المؤرخ: وفي سنة اثنين وتسعين وخمسمائة كانت وفاة الشيخ السيّد الشريف عبد الرّحيم^(٢٢)، قدّس الله روحه ونوّر ضريحه، بقنا من أعمال قُوص ودُفِن بجبّانتهَا، وضريحه معروفٌ هناك من أعظم مزارات أهل الصّلاح بالدّنيا.

ومأْ نُقِل من كلامه، قدّس الله روحه، وقدّ سمع المؤذّن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال الشيخ: شهدنا بإشاهدنا، ومن كلامه: لا يستطيع العارف أن يوصل إلى مَنْ لا يعرف حقيقة ما عرف، كما لا يستطيع البصير أن يوصل إلى الأكْمَه حقيقة الألوان، وعُرض هذا الكلامُ على الشيخ عزّ الدّين عبْد العزيز بن عبد السّلام، رحمه الله ونفع به، فقال هذا كلامٌ مَنْ غرق في الحقيقة.

ذكر استيلاء الفرنج على بيروت

وفي يوم الجمعة عاشر ذي الحِجّة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ملكَ الفرنج مدينة بيروت من المسلمين، وسببُ ذلك أنّ فرنج السّاحل راسلُوا ملكَ الألمان في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وكان قد ملكَ

جزيرة صقلية، وعزّفوه أنّ المسلمين قد اشتغلوا بحرب بعضهم بعضاً؛ فأقبل في مراكبه إلى عكا. وصادف ذلك سقوط الكندي ملك عكا من شباك فهلك، فملك ملك قبرص عكا، وخرج إلى بيروت فملكها من المسلمين، وكان بها عز الدين سامة، فعمرها الفرنج ولم تزل بأيديهم إلى أن فتحها الملك الأشرف في سنة تسعين وستمائة، على ما ذكره إن شاء الله تعالى في أخبار دولة الترك.

وفيهما خرجت المراكب الحربية لقصد بلاد الفرنج، فوجدوا بطساً للفرنج فملكوها، فوجد المسلمون فيها أموالاً جلية.

وفيهما أنشأ الأمير فخر الدين إياز جهاز ركس الناصري القيسارية المعروفة به بالقاهرة المحروسة، وجاءت من أحسن الأبنية.

ذكر وفاة سيف الإسلام بن أيوب ملك اليمن

وملك ولده شمس الملوك

وفي يوم الأربعاء الثالث من شوال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة توفي الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، أخو السلطان الملك الناصر بالمنصورة التي أنشأها باليمن، وكان قد طرد ولده شمس الملوك إلى الحجاز. فلما سمع بوفاة والده سار إلى اليمن وملك بعده.

وإلى سيف الإسلام هذا ينسب البستان الذي كان بظاهر القاهرة، وهو الآن عمائر تعرف بحكر سيف الإسلام.

ذكر وفاة الملك العزيز وشيء من أخباره

كانت وفاته في ليلة الأحد العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة بداره بالقاهرة.

وكانَ قد خَرَجَ إلى الفَيُّومَ لِقَضد الصَّيْدِ إلى ذات الصَّفَا، فحُمِّ، فعاد إلى القاهرة واشتدَّ مرضُه، فمات، وقيل إنَّه ساق خَلْفَ الصَّيْدِ فكبأ به فرُسُه مرَّةً بعد أخرى، فمات بعد ثلاثٍ. ودُفِنَ بدارِه بالقاهرة [وكان مولده بالقاهرة] في ثامن جُمادى الأولى سنة سبعمِ وستين، وقال الفاضل في جُمادى الآخرة. فكانت مدَّة عمره سبعمِ وعشرين سنةً وثمانية أشهرٍ واثني عشر يوماً؛ ومدة ملكه خمس سنين وعشرة أشهرٍ وعشرين يوماً.

وكان رحمه الله عادلاً كريماً بالمال، بخيلاً على طعامه، شجاعاً حسن الأخلاق.

وخلف من الأولاد أحد عشر ولداً، وهم الملك المنصور محمد، والقائم بعده؛ وعلي، وغمر، وإبراهيم؛ وعيسى؛ ومحمود؛ ورعاه؛ ويوسف؛ ويونس؛ وولدان صغيران، ولم يَخْلَفْ في خزانته ذهباً ولا دراهم إلا بعض قماش لِيَسَ بالطَّائِل.

ذكر سلطنة الملك المنصور محمد بن الملك العزيز

ابن الملك الناصر وهو الثالث من ملوك الدولة الأيوبية

بالديار المصرية

ملك الدِّيار المصريَّة بعد وفاة أبيه في يوم الأحد العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة بوصية منه. ولما مات الملك العزيز كان عمُّه الملك العادل يُحاصِر مَآرِدِينَ فاجتمعت الأمراء الصَّلاحية وعَقَدُوا الأمر لولده ولَقَّبُوهُ بالملك المنصور، وكان قبل ذلك يُلقَّب بالناصر، وإنما تبرَّكوا الناصر لموافقته لَقَّبَ الخليفة، وركب في يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم، وشقَّ القاهرة من باب زويلة إلى باب النصر، والأمراء في خدمته، وكتب الأمراء إلى الملك العادل يعزونه في ابن أخيه

الملك العزيز ويذكرون اتفاقهم على تنصيب ولده في السلطنة بعده، وأنهم على طاعة الملك العادل.

ثم اجتمعت الأمراء الأسدية والصّلاحية بظاهر القاهرة وقالوا: إن الذي فعلناه من حفظ الملك العزيز في ولده هو نِعَم الرأي، وإنما هو صَغِير السن لا يفهم ما يُقال له، ولا يقوم بأعباء الملك، ولا بد لنا من كبير من هذا البيت يُرِيّه ويكفّله ويدبّر أحوال الدولة، وليس لها مثل الملك العادل، وهو الآن مشغول ببلاد الشرق، وقصّدوا أن يكتبوا إليه ويستدعوه فكرة بعضهم شدة أخلاقه ومُماقنته للجند، فعَدّلوا عنه واتفقوا على استدعاء الملك الأفضل من صَرَخَد.

وأن يتولّى أتابكية الملك المنصور وأن ينوب عن الأفضل إلى حين وصوله، أخوه الملك الظافر خَضِر، فاستقرّ ذلك.

وكتبوا إلى الأفضل وذلك في يوم الخميس سَادس عشر صَفَر من السنة، ونزل الملك الظافر بدار السلطنة في القاعة العزيزيّة، وقام بنبابة السلطنة.

قال: ولما وصل كتابُ الأمراء إلى الأفضل، خرج من صَرَخَد في ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البريّة إلى البيت المقدّس.

ذكر وصول الملك الأفضل إلى القاهرة

واستقراره في تدبير دولة المنصور

كان وصوله إلى القاهرة في يوم الخميس السّابع من شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمائة؛ فبرزَ الناسَ لِلِقائه، وزُيّنت المدينة، لَقْدومه، ولما دخل أقرَّ الخطبة باسم الملك المنصور ابن أخيه، ونقّش

السَّكَّةَ باسمه، وكان الأفضل يُذكر بعده. وَكَتَبَ إِلَى عَمِّهِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ
يَبْذُلُ لَهُ الطَّاعَةَ وَالْإِنْقِيَادَ إِلَى أَمْرِهِ.

قال: وَلَمَّا وَصَلَ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ إِلَى بَلْبَيسَ خَرَجَ فخر الدِّينِ إِيَّازَ
جَهَارَكْسَ، وَزَيْنَ الدِّينِ قَرَاغَا عَلَى أَنَّهُمَا يَلْتَقِيَانِهِ، فَتَوَجَّهَا إِلَى الْمَلِكِ
الْعَادِلِ، ثُمَّ خَرَجَ فِي يَوْمٍ وَصُولُهُ الْأَمِيرَ شَمْسَ الدِّينِ سَرَّاسُنْقَرَ بِمَمَالِكِهِ،
وَجَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ وَالتَّحَقَّ بِالْمَلِكِ الْعَادِلِ، وَسَارَ إِلَيْهِ، إِلَى مَارِدِينَ.

ذَكَرَ مَسِيرَ الْمَلِكِ الْأَفْضَلِ إِلَى الشَّامِ وَحَصَارَ دِمَشْقَ

وَعُودَهُ عَنْهَا وَخُرُوجَهُ عَنِ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ

قال: وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْأَفْضَلُ فِي تَدْبِيرِ الدَّوْلَةِ بِالْدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ، وَلَمْ يَبْقَ
لِلْمَلِكِ الْمَنْصُورِ مَعَهُ إِلَّا الشَّرَكَةُ فِي الْخُطْبَةِ، حَمَلَهُ أَصْحَابُهُ عَلَى قَصْدِ
دِمَشْقَ وَخَصَرَهَا، وَقَالُوا: هِيَ لَكَ بِوَصِيَّةِ أَيْبِكَ الْمَلِكِ النَّاصِرِ، فَعَزَمَ عَلَى
الْمَسِيرِ إِلَيْهَا، وَأَمَرَ الْعَسَاكِرَ بِالِاسْتِعْدَادِ لَذَلِكَ. وَبَرَزَ إِلَى الْمَخِيْمِ بِبِرْكَ
الْجُبِّ، هُوَ وَابْنُ أَخِيهِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ، فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْعِشْرِينَ مِنْ جُمَادَى
الْأُولَى مِنَ السَّنَةِ وَاسْتَحَثَّ الْعَسْكَرَ عَلَى الْخُرُوجِ.

وَوَصَلَ إِلَيْهِ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ، السَّادِسَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ، رَسُولٌ مِنْ
أَخِيهِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ صَاحِبِ حَلَبَ وَهُوَ يُلَوِّمُهُ عَلَى إِنْفَازِ الرُّسْلِ بِالطَّاعَةِ
لِلْعَادِلِ، وَيَقُولُ: إِنْ أَكْثَرَ النَّاسَ كَانُوا مَنْصَرِفِينَ عَنْهُ فَانصَرَفُوا إِلَيْهِ، وَحَثَّهُ
عَلَى سُرْعَةِ قَصْدِ دِمَشْقَ؛ وَيَقُولُ: اغْتَنِمِ الْفُرْصَةَ مَا دَامَ الْعَادِلُ فِي حَصَارِ
مَارِدِينَ؛ وَوَعَدَهُ بِالْوُصُولِ إِلَيْهِ، فَأَكَّدَ ذَلِكَ مَا عِنْدَهُ، وَأَقَامَ بِبِرْكَ الْجُبِّ
وَهُوَ يَحْتِ الْعَسْكَرَ عَلَى سُرْعَةِ الْحَرَكَةِ، إِلَى ثَانِي شَهْرِ رَجَبٍ، فَرَحَلَ عَنْهَا.

وَفِي مَدَّةِ مَقَامِهِ بِبِرْكَ الْجُبِّ أَحْضَرَ قَاضِيَ الْقَضَاةِ وَالشُّهُودِ، وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ وَقَفَ الْمَطْرِيَّةَ (٢٣) وَمُنِيَّةَ الْبَاسِلِ (٢٤)، وَالرَّبَاعَ الْمَسْوُغَةَ

والمستمرّة بيد الدّيوان على عِمارة سُور القاهرة ومِصر والبيمارستان بالقاهرة.

قال: ولَمّا وصل الأفضل إلى بلبّيس اختلطَ على ماكان بِاسم العادل وألزمه بالديار المصريّة؛ وأقَطعه، ثم قَبَض على أخيه الملك المؤيّد وقَيّده وأعادَه إلى القاهرة، فاعتُقِل بالقلعة، وتمادى الملك الأفضل في سَيَره إلى دمشق. هذا ماكان منه.

وأما الملك العادل فَإِنَّ سراسنقر النّاصري وصل إليه بِماردين واستحثّه على العُود إلى دمشق، فأوصى ولده الملك الكامل بِمُحاصرتها. وفارقها العادل لخميس بقين من شهر رجب، ووصل إلى دمشق في يوم الاثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحصين البلد. ووصلت العساكرُ المصريّة في يوم الخميس، ورَتَّب الأُطْلَاب وسارَ الملكُ المنصورُ بِنُ الملك العزيز في القُلب وزحفَ على البلد فأخذ قُصر حجاج والشّاغور، وكان العادل لما شاهد إقبال العساكر أمر بِإحراق قُصر حجاج فأحرق، واحترق فيه عدّة مساجد وأطفال. وأحاطت العساكرُ المصريّة بدمشق، ودخلها جماعة منهم من باب السّلامة، وانتَهَوْا إلى الشُّوق الكبير، وخرجوا من باب الفرّاديس. وقدم الأفضل الميدان الأخضر، ثم تأخّر إلى ميدان الحصى؛ واستقر بهذه المنزلة أكثر من ستّة أشهر.

وكتب الملك العادل جماعةً من الأمراء المصريّين، ففارقوه ودخلوا إلى دمشق فأكرمهم.

ثم وصل الملك الظّاهر صاحبُ حلب ومعه أخواه الطّافر والمعزّ وجاءهم الملكُ المجاهدُ صاحبُ حمص، وعسكر حماة دُون سُلطانها، وحسام الدّين بشارة صاحب حصن بانياس، وكان من أكابر الدّولة، فأشار بالصلح.

قال: ولما حاصر الملك الأفضل دمشق، منع من يدخل إليها بشيء من الميرة، وقطع عنها الأنهار؛ فاشتد الأمر على أهل دمشق، واستغاثت الرعايا على العادل، وتسلطوا عليه، وحملوه على تسليم البلد. وانتقل أكثر من في البلد إلى العسكر، ونصبوا به أخصاصاً ومساكن؛ وأقيمت الأسواق به.

فلما اشتد الأمر على العادل كتب إلى الظاهر يستميله وقال: أنا أسلم البلد إليك دون غيرك، فنيي الخبر إلى الأفضل، فاضطرب رأيهما، وقيل بل كتب إليهما يقول: أنا أسلم البلد إليكما بعد سبعة أشهر، فأجاباه إلى ذلك، وقيل إنه كان يكتب إلى الأفضل يقول: الظاهر قد صالحني، وإلى الظاهر بمثل ذلك.

واتفق في فساد حال الأفضل أن جماعة الأمراء كان بأيديهم إقطاعات بالديار المصرية جليلة المقدار، فحسداهم آخرون عليها، فكانوا يأتون إلى الملك الأفضل ويقولون: إن فلاناً قد عزم على قصد عمك العادل والانضمام إليه، ويأتون لذلك الأمير فيقولون: إن الأفضل قد عزم القبض عليك، ويأتي ذلك الأمير إلى الأفضل فيرى في وجهه أثر التغير لما نقل عنه، فلا يشك ذلك الأمير في صدق الناقل فالتحق به جماعة من الأمراء.

فبينما الأفضل كذلك إذ قدم الملك الكامل بن الملك العادل من الشرق، في تاسع عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة، بالعساكر والتركمان فاشتد به عضد أبيه، وتأخر الأفضل بمن معه إلى سفح جبل العقبة، ثم انتقل إلى مَرَج الصُّفَر في يوم الاثنين ثاني عشر صفر؛ وعاد الظاهر والمجاهد.

واشتد البرد على العسكر المصري، فعاد الأفضل إلى الديار المصرية،

وَسَاقَ الْعَادِلَ بَعْسَاكِرَهُ فِي إِثْرِهِ، فَكَانَ وَصُولُ الْأَفْضَلِ إِلَى بَلْبِيسَ فِي
حَادِي عَشْرِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ بِالْإِقَامَةِ بِهَا.

قال: وَلَمَّا وَصَلَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ إِلَى تَلِّ الْعَجُولِ، أَقَامَ بِهِ حَتَّى اجْتَمَعَ
إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ، وَرَاسَلَ الْأَفْضَلَ، فَعَادَ جَوَابَهُ أَنَّهُ لَا يَصَالِحُهُ حَتَّى يَفَارِقَ
الْأُمَرَاءَ الصَّلَاحِيَةَ.

فلما اتصل ذلك بالصلاحيّة غضبوا على المسير إليه.

هذا والأفضل على بلبيس، وقد تفرق معظم أصحابه إلى إقطاعاتهم
وجماعة منهم باطنوا الملك [العادِل].

حواشي نهاية الأرب

- ١- أتسز بن أوق، تقدم ذكره في الجزء الأول من موسوعتنا.
- ٢- أي فرقة يبلغ تعدادها عشرة آلاف:
- ٣- أي السلطة المملوكية أيام الناصر محمد بن قلاوون
- ٤- القبق بالتركية قرعة عسلية، وقد أطلقت على لعبة رياضية، حيث كانت القرعة تنصب هدفا لرميات الفرسان، أو يتخذ بدلا عنها دريئة خشبية بأعلاها دائرة تسدد نحوها الرميات.
- ٥- أي جعبتين أو كنانتين.
- ٦- زيد ما بين الحاصرتين من الكامل لابن الأثير، فهو مصدر النويري الاساسي، والاشارة اليه دوما عند ما يقول: قال المؤرخ.
- ٧- حصن من أعمال أحص أو حماه كان على مقربة من حصن الأكراد. معجم البلدان.
- ٨- كذا بالأصل وفي تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢٦١، والمعني بهذا برتراند الابن الأكبر لريموند الصنجيلي، وعند ابن القلانسي كان هذا سنة اثنتين وخمسائة.
- ٩- أي الخراج المقرر على كل اقطاع.
- ١٠ كان على مقربة من قلعة القاهرة- طبعاً - قبل تأسيسها
- ١١- أواني من الخزف.
- ١٢- هو سلطان بن ابراهيم بن مسلم المقدسي، المعروف بابن رشا. توفي سنة ٥٢٥ هـ / ١١٤٠ م سيرد ذكره في اتعاظ الحنفا للمقريزي
- ١٣- هو محمد بن عبد المولى بن محمد بن عبد الله اللبني المغربي - سيرد ذكره في اتعاظ الخنقا
- ١٤- هو هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد، أبو الفضائل، المعروف بابن الأزرق سيأتي ذكره في اتعاظ الحنفا
- ١٥- هو المفضل بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن أبي كامل - سيرد ذكره في اتعاظ الحنفا
- ١٦- تعرف منية الباساك حالياً باسم المنيا في محافظة الجيزة - مركز الصف. القاموس الجغرافي لرمزي ق ٢ ج ٣ ص ٣١.
- ١٧- أطفيج حالياً بلدة تابعة لمركز الصف - محافظة الجيزة - القاموس الجغرافي ق ٢ ص ٣ ص ٣٦
- ١٨- تتبع دلاص حالياً مركز بني سويف بمحافظة بني سويف، القاموس الجغرافي ق ٢ ج ٣ ص ١٥٩ - ١٦٠
- ١٩- هي مدينة المنية الحالية في مصر حاضرة محافظة المنيا فيها.
- ٢٠- من قرى مركز الجيزة- محافظة الجيزة. القاموس الجغرافي ق ٢ ج ٣ ص ٣
- ٢١- الجبال المشرفة على مدينة طرابلس في ليبيا.
- ٢٢- عبد الرحيم بن أحمد بن حجوز القنائي
- ٢٣- من ضواحي القاهرة، القاموس الجغرافي ق ٢ ج ١ ص ١١
- ٢٤- من اقليم الأطفيحية، تابعة حالياً للمركز الصف بمحافظة الجيزة. القاموس الجغرافي ق ٢ ج ٣ ص ٣١

المحتوى

توطئة	٣-
من كتاب المختصر في أخبار البشر	٦-
قتل الصالح بن رزيك	٦-
ولاية شاور ثم ضرغام	٦-
سنة ٥٥٩	٧-
سنة ٥٦١	٨-
سنة ٥٦٢	٨-
سنة ٥٦٤	٩-
ملك شيركوه مصر	٩-
سنة ٥٦٥	١٥-
سنة ٥٦٦	١٥-
سنة ٥٦٧ اقامة الخطبة العباسية بمصر	١٦-
سنة ٥٦٨	١٩-
ملك توران شاه اليمن	٢٠-
قتل عمارة اليميني	٢٠-
سنة ٥٧٠ خلاف الكنز	٢٢-
ملك صلاح الدين دمشق	٢٢-
سنة ٥٧١ انهزام المواسلة	٢٥-
سنة ٥٧٢	٢٦-
سنة ٥٧٣	٢٦-
سنة ٥٧٤	٢٨-
سنة ٥٧٥	٢٨-
وفاة المستضىء وخلافة الناصر	٢٩-
سنة ٥٧٦ - وفاة صاحب الموصل	٣٠-
سنة ٥٧٧ وفاة الصالح اسماعيل	٣١-
سنة ٥٧٨ مسير صلاح الدين الى دمشق	٣٢-
ارسال سيف الاسلام الى اليمن	٣٢-
غارات صلاح الدين	٣٤-
سنة ٥٧٩	٣٦-
سنة ٥٨٠ غزو الكرك	٣٨-
سنة ٥٨١ حصار الموصل	٣٩-
ملك صلاح الدين ميافارقين	٤٠-
سنة ٥٨٢	٤١-
وفاة البهلولان	٤١-
سنة ٥٨٣	٤٢-
وقعة حطين	٤٣-
سنة ٥٨٤	٤٦-

سنة ٥٨٥ حصار عكا	٤٩-
سنة ٥٨٦	٥٠-
سنة ٥٨٧ سقوط عكا	٥٣-
وفاة تقي الدين عمر	٥٤-
سنة ٥٨٨ عقد الهدنة مع الفرنج	٥٧-
وفاة قليج ارسلان	٥٩-
وفاة صلاح الدين	٦١-
الاحوال بعد صلاح الدين	٦٤-
حركة صاحب الموصل	٦٦-
قتل بكتمر صاهر اخلاط	٦٦-
سنة ٥٩٠ قتل السلطان طغرل	٦٧-
سنة ٥٩١	٧٠-
سنة ٥٩٢ انتزاع دمشق من الافضل	٧١-
سنة ٥٩٣	٧٢-
سنة ٥٩٤	٧٣-
سنة ٥٩٥ وفاة العزيز	٧٤-
استيلاء المنصور محمد على بارين	٧٥-
سنة ٥٩٦	٧٦-
سنة ٥٩٧	٧٨-
سنة ٥٩٨	٨٠-
سنة ٦٠٠	٨٣-
سنة ٦٠١	٨٥-
سنة ٦٠٢	٨٦-
سنة ٦٠٣	٨٦-
سنة ٦٠٤ استيلاء الاوحد على خلاط	٨٧-
سنة ٦٠٥ قدوم الاشرف الى حلب	٨٨-
مقتل صاحب الجزيرة	٨٩-
سنة ٦٠٦	٩٠-
سنة ٦٠٧ وفاة صاحب الموصل	٩١-
وفاة الاوحد صاحب خلاط	٩٢-
سنة ٦٠٨	٩٣-
سنة ٦٠٩	٩٣-
سنة ٦١٠	٩٤-
سنة ٦١١	٩٤-
سنة ٦١٢ وفاة الظاهر غازي	٩٥-
سنة ٦١٤	٩٦-
سنة ٦١٥	٩٦-
وفاة القاهرة صاحب الموصل	٩٧-
وفاة كيكاوس بن كيخسرو	٩٧-
وفاة السلطان العادل	٩٨-
استيلاء عماد الدين صاحب الموصل على بعض القلاع	١٠٠-

سنة ٦١٦	-١٠١
وفاة صاحب الموصل	-١٠١
وفاة صاحب سنجار	-١٠١
تخريب القدس	-١٠٢
استيلاء الفرنج على دمياط	-١٠٢
توجه ملك حماه الى مصر	-١٠٢
وفاة كيكاوس	-١٠٣
سنة ٦١٧	-١٠٤
وفاة المنصور صاحب حماه	-١٠٥
استيلاء الناصر على حماه	-١٠٦
استيلاء غازي بن العلال على خلاط	-١٠٧
سنة ٦١٨ - غور دمياط	-١٠٧
وفاة صاحب آمد	-١٠٩
سنة ٦١٩	-١١٠
سنة ٦٢٠	-١١١
سنة ٦٢١ عصيان غازي على الاشرف	-١١٣
سنة ٦٢٢ وفاة الافضل على	-١١٤
وفاة الامام الناصر	-١١٤
خلافة الظاهر	-١١٥
سنة ٦٢٣	-١١٥
وفاة الظاهر	-١١٦
خلافة المستنصر	-١١٧
سنة ٦٢٤	-١١٧
وفاة الملك المعظم	-١١٩
سنة ٦٢٥	-١١٩
سنة ٦٢٦	-١٢١
القبض على صاحب خلاط وقتله	-١٢٣
استيلاء المظفر محمود على حماه	-١٢٤
سنة ٦٢٧	-١٢٧
استيلاء الاشرف على بعلبك	-١٢٧
ملك جلال الدين خلاط ثم كسره	-١٢٨
سنة ٦٢٨	-١٢٩
قصد التتر بلاد الاسلام	-١٣٠
قتل جلال الدين	-١٣٠
سنة ٦٢٩	-١٣١
سنة ٦٣٠ استيلاء العزيز محمد على شيزر	-١٣٢
سنة ٦٣١	-١٣٥
سير الملك الكامل الى قتال كيقباز	-١٣٥
سنة ٦٣٢	-١٣٧
سنة ٦٣٣	-١٣٩

- ١٠٦٢٨ -

سنة ٦٣٤ وفاة العزيز صاحب حلب	١٣٩-
سنة ٦٣٥	١٤١-
وفاة الملك الاشرف	١٤٢-
مسير الملك الكامل الى دمشق	١٤٣-
استيلاء الحلبيين على المعرة	١٤٥-
سنة ٦٣٦	١٤٧-
استيلاء الصالح ايوب على دمشق	١٤٧-
سنة ٦٣٧	١٤٩-
خروج الصالح ايوب من الاعتقال	١٥١-
وفاة صاحب ماردين	١٥٢-
سنة ٦٣٨	١٥٣-
عود الخوارزمية الى حلب	١٥٤-
ماكان من الملك الجواد يونس	١٥٦-
سنة ٦٣٩	١٥٧-
سنة ٦٤٠	١٥٧-
وفاة المستنصر	١٥٩-
سنة ٦٤١	١٥٩-
سنة ٦٤٢	١٦٠-
وفاة صاحب حماه	١٦١-
سنة ٦٤٣ استيلاء الصالح ايوب على دمشق	١٦٣-
سنة ٦٤٤ كسرة الخوارزمية	١٦٥-
سنة ٦٤٥	١٦٧-
سنة ٦٤٦	١٦٨-
سنة ٦٤٧ استيلاء الفرنجة على دمياط	١٧٠-
استيلاء الصالح أيوب على الكرك	١٧١-
وفاة الصالح أيوب	١٧٢-
سنة ٦٤٨ هزيمة الفرنج وأسر ملكهم	١٧٤-
مقتل الملك المعظم	١٧٥-
ملك الملك المغيث الكرك	١٧٧-
استيلاء الناصر على دمشق	١٧٧-
سلطنة ايبك التركماني	١٧٧-
عقد السلطنة لموسى بن يوسف	١٧٨-
تخريب دمياط	١٧٩-
القبض على الناصر داود	١٧٩-
مسير السلطان الناصر الى مصر	١٧٩-
سنة ٦٤٩	١٨١-
سنة ٦٥٠	١٨٢-
سنة ٦٥١	١٨٢-
احوال صاحب الكرك	١٨٣-
سنة ٦٥٢ مقتل اقطاي	١٨٤-
سنة ٦٥٣	١٨٥-

سنة ٦٥٤	- ١٨٦
سنة ٦٥٥ مقتل أبيك	- ١٨٧
مقارعة البحرية الملك الناصر	- ١٨٨
سنة ٦٥٦ استيلاء التتر على بغداد	- ١٩٠
وقعة بين صاحب الكرك وعسكر مصر	- ١٩٢
وفاة الناصر داود	- ١٩٢
وفاة غازية خاتون	- ١٩٤
سنة ٦٥٧	- ١٩٦
وفاة لؤلؤ صاحب الموصل	- ١٩٧
منازلة الناصر يوسف الكرك	- ١٩٧
سلطنة قطر	- ١٩٨
وصول المظفر محمود	- ١٩٩
قصد هولاء الشام	- ١٩٩
قصد التتر حلب وما كان من الملك الناصر	- ٢٠٠
استيلاء التتر على حلب	- ٢٠١
أحوال حماء	- ٢٠٢
استيلاء التتر على قلعة حلب	- ٢٠٣
استيلاء التتر على ميفارقين	- ٢٠٥
اتصال الملك الناصر بالتتر	- ٢٠٦
هزيمة التتر وقتل كتبغا	- ٢٠٨
مقتل قطر	- ٢١٠
سلطنة بيبرس	- ٢١١
اعادة عمارة قلعة دمشق	- ٢١٢
سلطنة الحلبي بدمشق	- ٢١٢
عودة التتر الى الشام	- ٢١٣
سنة ٦٥٩ كسرة التتر بحمص	- ٢١٤
القبض على سنجر الحلبي	- ٢١٥
خروج البرلي عن طاعة بيبرس	- ٢١٦
مقتل الناصر يوسف	- ٢١٧
مبايعة شخص بالخلافة	- ٢١٩
سنة ٦٦٠	- ٢٢١
سنة ٦٦١	- ٢٢٣
استيلاء بيبرس على الكرك	- ٢٢٤
الاغارة على عكا وبعض الاعتقالات	- ٢٢٦
وفاة صاحب حمص	- ٢٢٧
سنة ٦٦٢	- ٢٢٧
سنة ٦٦٣ فتوح قيسارية	- ٢٢٩
موت هولاء	- ٢٣٠
فتوح صفد ودخول العساكر الارمن	- ٢٣١
قتل أهل قارا	- ٢٣٢
سنة ٦٦٥	- ٢٣٢

- ١٠٦٣٠ -

موت بركة خان	٢٣٣-
سنة ٦٦٦ فتح أنطاكية	٢٣٣-
سنة ٦٦٧	٢٣٤
سنة ٦٦٨	٢٣٥-
سنة ٦٦٩ فتح حصن الاكراد	٢٣٦-
سنة ٦٧٠	٢٣٧-
سنة ٦٧٢	٢٣٨-
سنة ٦٧٣	٢٣٩-
سنة ٦٧٤	٢٣٩-
سنة ٦٧٥	٢٤٠-
سنة ٦٧٦ وفاة بيبيرس	٢٤٢-
سنة ٦٧٧ الاغارة على سيس	٢٤٤-
سنة ٦٧٨ خلع السعيد بركة	٢٤٥-
اقامة سلامش في المملكة	٢٤٥-
سلطنة قلاوون	٢٤٦-
خروج سنقر الاشقر	٢٤٦-
سنة ٦٧٩ كسرة سنقر الاشقر	٢٤٧-
سنة ٦٨٠	٢٤٨-
الوقعة العظيمة مع التتر على حمص	٢٤٩-
سنة ٦٨١	٢٥١-
موت أبيغا	٢٥٢-
سنة ٦٨٢	٢٥٣-
سنة ٦٨٣	٢٥٥-
وفاة المنصور صاحب حماه	٢٥٥-
ملك الملك المظفر حماه	٢٥٧-
سنة ٦٨٤	٢٥٨-
فتوح المرقب	٢٥٩-
مولد الناصر محمد بن قلاوون	٢٦٠-
سنة ٦٨٥	٢٦١-
سنة ٦٨٦ فتوح صهيون	٢٦١-
سنة ٦٨٧	٢٦٢-
سنة ٦٨٨ فتح طرابلس	٢٦٣-
سنة ٦٨٩ وفاة قلاوون	٢٦٤-
سلطنة الاشرف خليل	٢٦٥-
سنة ٦٩٠ فتوح عكا	٢٦٥-
فتوح عدة حصون ومدن	٢٦٧-
من كتاب نهاية الارب	٢٦٨-
أخبار السلاجقة في بلاد الشام	٢٧٠-
استيلاء تتش على حمص	٢٧٠-
مافعله تتش في طلب السلطنة	٢٧١-
ملك تتش ديار بكر	٢٧٢-

عودة تنش الى همذان	٢٧٢-
انهزام بركياروق	٢٧٣-
قتل تنش	٢٧٣-
حال رضوان بن تنش	٢٧٣-
الحرب بين رضوان ودقاق	٢٧٥-
ملك دقاق الرحبة	٢٧٦-
وفاة دقاق	٢٧٧-
أخبار ملوك حلب	٢٧٨-
من ملك حلب بعد انقراض الدولة السلجوقية	٢٧٩-
من ملك دمشق حتى نور الدين	٢٨٠-
أخبار بوري بن طغديكين	٢٨١-
مقتل المزدغاني	٢٨١-
حصار الفرنجة لدمشق	٢٨٢-
سنة ٥٢٥	٢٨٣-
أخبار اسماعيل بن بوري	٢٨٣-
ملك اسماعيل بانياس	٢٨٤-
ملكة حماه	٢٨٤-
ملكه شقيف تيرون	٢٨٥-
مقتله وملك أخيه محمود	٢٨٥-
أخبار محمود بن بوري	٢٨٦-
ملكة حمص ثم مقتله	٢٨٧-
ملك محمد بن بوري	٢٨٧-
أخبار أبق بن محمد	٢٨٨-
سلاجقة الروم	٢٩٠-
سليمان بن قتلمش وفتح أنطاكية	٢٩٠-
مقتل سليمان بن قتلمش	٢٩١-
أخبار قليج أرسلان بن سليمان	٢٩٢-
قتل قليج أرسلان بن سليمان	٢٩٣-
قلج أرسلان بن مسعود وأولاده	٢٩٤-
قتل نور الدين محمود	٢٩٥-
وفاة ركن الدين سليمان	٢٩٦-
ملك كيخسرو بن قلج	٢٩٦-
ملكه أنطاكية	٢٩٧-
ملك كيقباز بن كيخسرو	٢٩٨-
الحرب ضد جلال الدين منكبرتي	٢٩٩-
ملك كيخسرو بن كيقباز	٣٠٠-
أحوال أولاد كيخسرو بعد وفاته	٣٠٢-
قتل قلج أرسلان	٣٠٦-
ولاية البرواناه	٣٠٦-
أخبار الدولة الاتابكية	٣٠٨-
أخبار آق سنقر قسيم الدولة	٣٠٨-
وقته	٣٠٩-

أخبار زنكي	٣١٠-
ابتداء أحوال زنكي	٣١١-
ولايته شحنية العراق	٣١٢-
ولايته الموصل	٢١٣-
ملك حلب	٣١٦-
ملك حماه	٣١٦-
ملك الأناثرب	٣١٧-
حصاره آمد	٣١٩-
ملك قلاع الحميدية	٣١٩-
حصره دمشق	٣١٩-
غزاته الفرنجة	٣٢٠-
ملك بعين	٣٢١-
ملك حمص	٣٢٢-
وصول ملك الروم الى الشام	٣٢٢-
ملك زنكي بعلبك	٣٢٤-
ملك شهرزور	٣٢٥-
ملك قلاع الهكارية	٣٢٦-
صلحه والسلطان مسعود	٣٢٧-
ملك بعض ديار بكر	٣٢٧-
فتح الرها	٣٢٨-
مقتل جقر	٣٣٠-
مقتل زنكي	٣٣١-
ملك غازي بن زنكي الموصل	٣٣٢-
حصر الفرنج دمشق	٣٣٣-
وفاة غازي بن زنكي	٣٣٤-
أخبار نور الدين	٣٣٤-
استرداد الرها	٣٣٥-
فتح العريمة	٣٣٥-
انهزام الفرنج بيفرى	٣٣٦-
قتل برنس انطاكية	٣٣٧-
فتح أقامية	٣٣٨-
أسر جوسلين *	٣٣٨-
فتح حارم	٣٣٩-
فتح باندياس	٣٣٩-
فتح المنيطرة	٣٣٩-
فتح صافيتا	٣٤٠-
ما استولى عليه من البلاد الاسلامية	٣٤٠-
ملك دمشق	٣٤١-
ملك بعلبك	٣٤٢-
ملك قلعة جعبر	٣٤٢-
ملك مصر	٣٤٢-

ملكه الموصل	٣٤٣-
وفاة نور الدين	٣٤٣-
أخبار الصالح اسماعيل	٣٤٧-
مقتل كمشتكين	٣٤٩-
وفاة الصالح اسماعيل	٣٤٩-
أخبار مودود بن زنكي	٣٥١-
القبض على الوزير جمال الدين	٣٥١-
مفارقة زين الدين الموصل	٣٥٥-
وفاة مودود بن زنكي	٣٥٦-
أخبار غازي بن مودود	٣٥٦-
ملك غازي بن مودود الجزيرة	٣٥٧-
حصره أخاه بسنجار	٣٥٧-
وفاة غازي بن مودود	٣٥٨-
ملك مسعود بن مودود	٣٥٩-
تسليم حلب الى عماد الدين زنكي الثاني	٣٥٩-
القبض على قايماز ثم اطلاقه	٣٦٠-
وفاة مسعود	٣٦١-
أخبار زنكي الثاني	٣٦٣-
أخبار سنجر شاه بن غازي	٣٦٤-
مقتله	٣٦٥-
بيعه المستعلي الفاطمي	٣٦٦-
ما حدث لنزار بن المستنصر	٣٦٧-
استيلاء الأفضل على القدس	٣٦٨-
استيلاء الفرنج على الساحل الشامي	٣٦٩-
استيلاء الفرنجة على أنطاكية	٣٦٩-
مسير المسلمين لحرب الفرنجة	٣٧٢-
ملك الفرنج معرة النعمان	٣٧٣-
ملك الفرنجة القدس	٣٧٤-
ظفر المسلمين بالفرنج	٣٧٥-
قتل كندفري (غودفري)	٣٧٦-
ملك الفرنجة عكا وجبيل	٣٧٨-
ملكهم طرابلس وبيروت	٣٧٩-
ملكهم جبلة وبلنيس	٣٨٠-
ملكهم صيدا	٣٨١-
ملكهم الأثارب وزردنا	٣٨١-
ملكهم صور	٣٨٢-
وفاة المستعلي بالله	٣٨٤-
بيعة الامر بأحكام الله	٣٨٥-
انشاء ديوان التحقيق	٣٨٦-
حل الاقطاعات	٣٨٦-
نهب عيذاب	٣٨٧-

مقتل الافضل	٣٨٨-
وزارة المامون البطائحي	٣٩٤-
سنة ٥١٧ هـ	٣٩٦-
القبض على المامون	٣٩٧-
ذكر ابي نجاح الراهب	٣٩٨-
مقتل الأمر	٣٩٩-
بيعة الحافظ	٤٠٠-
وزارة كتيقات	٤٠٠-
بيعة الحافظ الثانية	٤٠٢-
الخلف بين ابني الحافظ	٤٠٢-
مقتل حسن بن الحافظ	٤٠٣-
وزارة بهرام الارمني	٤٠٣-
وزارة رضوان الولخشي	٤٠٤-
سنة ٥٢٢ هـ وخروج رضوان من الوزارة	٤٠٦-
وفاة بهرام الارضي	٤٠٧-
وفاة الحافظ	٤٠٨-
بيعة الظافر	٤١٠-
قيام العادل بن السلار	٤١١-
ما فعله الفرنج بالغرما	٤١٢-
مقتل العادل وسلطنة عباس	٤١٣-
مقتل الظافر	٤١٤-
بيعة الفائز	٤١٦-
خروج عباس من الوزارة	٤١٦-
وزارة طلائع بن زريك	٤١٧-
وفاة الفائز وبيعة العاضد	٤١٩-
مقتل طلائع بن زريك	٤٢٠-
ظهور حسين بن نزار	٤٢٤-
انقراض دولة بني زريك	٤٢٤-
وزارة شاور الاولى	٤٢٦-
وزارة ضرغام	٤٢٧-
وزارة شاور الثانية	٤٢٧-
غدر شاور بشيركوه	٤٢٨-
عود شيركوه الى مصر	٤٢٩-
وصول الفرنج الى القاهرة	٤٣٣-
قدوم شيركوه الثالث	٤٣٥-
مقتل شاور	٤٣٦-
انقراض الدولة العبيدية	٤٣٧-
جامع اخبار الدولة العبيدية	٤٣٩-
اخبار الدولة الايوبية	٤٤٣-
ابتداء حال أيوب	٤٤٣-
وزارة شيركوه	٤٤٧-

أخبار صلاح الدين	٤٥٠-
مقتل مؤتمن الدولة	٤٥١-
الحوادث في الايام الناصرية	٤٥٢-
وصول ايوب الى مصر	٤٥٣-
ابطال الاذان الفاطمي	٤٥٣-
ما أنشأه صلاح الدين من مدارس	٤٥٣-
تفويض القضاء لابن درباس	٤٥٤-
وفاة أيوب	٤٥٥-
عمارة قلعة الجبل والصور	٤٥٦-
مقتل جماعة من المصريين	٤٥٧-
ما استولى عليه صلاح الدين من البلاد الاسلامية	٤٥٩-
الاستيلاء على اليمن	٤٦١-
ملك دمشق	٤٦٢-
ملك حماه وحمص	٤٦٣-
حصار حلب	٤٦٣-
الانتصار على الموصلية	٤٦٤-
انهزام الموصلية ثانية	٤٦٥-
ما ملكه صلاح الدين من مملكة حلب	٤٦٦-
حصار حلب ونهب بلاد الاسماعيلية	٤٦٧-
ملك الديار الجزرية ونجار	٤٦٨-
ملك آمد	٤٦٩-
ملك تل خالد	٤٧٠-
ملك صلاح الدين حلب	٤٧٠-
ملكة حارم	٤٧١-
حصار الموصل	٤٧١-
ملكة ميافارقين	٤٧٢-
الصلح مع الموصل	٤٧٣-
غزوات صلاح الدين ضد الفرنجة	٤٧٥-
فتح ايله	٤٧٦-
محاصرة الشوبك	٤٧٦-
وصول اسطول صقلية الى الاسكندرية	٤٧٦-
واقعة الرملة	٤٧٧-
وقعة مرج عيون	٤٧٨-
هدم بيت الاحزان	٤٧٩-
مسيره الى بلاد الأرمن	٤٨٠-
مسيره الى الشام	٤٨٠-
الاغارة على الغور	٤٨١-
غزو الكرك وفتح طبرية	٤٨٢-
فتح عكا ومدن الساحل	٤٨٤-
فتح عسقلان	٤٨٥-
فتح القدس	٤٨٧-

حصار صور	٤٨٩-
فتح هونين ثم برزية	٤٩٠-
فتح دربساك	٤٩١-
فتح بغراس والهدنة مع أنطاكية	٤٩٢-
فتح الكرك والشوبك وصفد وكوكب	٤٩٣-
فتح شقيف أرنون	٤٩٥-
مسير السلطان من مرج عيون الى صور	٤٩٧-
حصار عكا	٤٩٨-
التشديد على عكا	٥٠١-
وصول الاسطول	٥٠٢-
خبر ملك الالمان	٥٠٢-
الوقعة العادلة على عكا	٥٠٦-
وصول الكندهري	٥٠٧-
وصول ابن ملك الالمان	٥٠٧-
وصول ملك الانكليتر	٥١٠-
استيلاء الفرنج على عكا	٥١١-
ماكان بعد سقوط عكا	٥١٢-
الصلح والهدنة	٥١٣-
هدم عسقلان	٥١٤-
وفاة صلاح الدين	٥١٦-
من ملك ممالك صلاح الدين بعده	٥١٨-
أخبار العزيز عثمان	٥٢٠-
استيلاء الفرنج على جبيل	٥٢٠-
مسير العزيز الى الشام	٥٢١-
خروج العزيز ثانية الى الشام	٥٢٤-
ملك العزيز دمشق	٥٢٦-
استيلاء الفرنج على بيروت	٥٢٩-
وفاة ملك اليمن	٥٣٠-
وفاة ملك العزيز	٥٣٠-
سلطنة محمد بن العزيز	٥٣١-
وصول الافضل الى القاهرة	٥٣٢-
مسير الافضل الى الشام	٥٣٣-
الحواشي	٥٣٧-